

# مع المسلمين في الأندلس

الدكتور علي حليتي

أستاذ مشارك بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

الطبعة الثانية



## محتويات الكتاب

المقدمة : ص (ز) - (ن)

الفصل الأول : ص ١ - ٧٣

أ - المقرب : ص ٣ - ١٤

تمهيد . البربر . أقطاب أخرى . الروم

ب - حرب الصحراء : ص ١٥ - ٣١

(١) تمهيد (٢) عناد البربر

(٣) خلافات العرب (٤) فتح بركة وطرابلس

(٥) المراحل المهمة (٦) من أبطال الفتح

ج - المسلمون في إفريقيا : ص ٣٣ - ٧٣

(١) بداية الوجود العربي (٢) الإسلام والبربر

(٣) محاولات الإصلاح (٤) بعد الإصلاح

(٥) العداء العنيفة (٦) نحو الاستقلال

(٧) بعد عهد (٨) القول الجديدة

(٩) خاتمة

## الفصل الثاني : ص ٧٥ — ٨٥

- (أ) أسبانيا قبل العرب : ص ٧٧ — ٨٥  
(ب) الأندلس : ص ٨٧ — ١٠٦  
(ج) الجهاد في الشمال : ص ١٠٧ — ١١٨  
(د) المقاومة : ص ١١٩ — ١٢٨  
(هـ) شعب الولاة : ص ١٢٩ — ١٥٧

## الفصل الثالث ض ١٥٩ — ٢٦٤

### أ — دولة جديدة : ص ١٦١ — ٢٢٥

- (١) تهديد (٢) العباسيون والأندلس  
(٣) عبد الرحمن الداخل (٤) تحقيق الأمل  
(٥) مرحلة الاستقرار (٦) في مواجهة الأخطار  
(٧) عصر القوة (٨) ضياع الوحدة

### ب — ملوك المدن : ص ٢٢٧ — ٢٦٤

- (١) عشرون دولة (٢) بنو عباد  
(٣) المرابطون (٤) ضغط الأعداء  
(٥) غرناطة

(د)



## الفصل الرابع

ص ٢٦٥ - ٣١٤

### حركة المجتمع

ص ٢٦٧ - ٣١٤

- |                    |                    |
|--------------------|--------------------|
| (١) تمهيد          | (٢) عند الفتح      |
| (٣) مجتمع المسلمين | (٤) الانحذاب للشرق |
| (٥) حياة الاستقرار | (٦) حول الدين      |
| (٧) عناصر جديدة    | (٨) مجتمع الأتوباء |
| (٩) وحدات منفصلة   | (١٠) النهاية       |

## الفصل الخامس

ص ٣١٥ - ٣٦٩

### أ - جوانب الإيمان :

ص ٣١٧ - ٣٤٧

- |                                |                        |
|--------------------------------|------------------------|
| (١) البربر والإسلام            | (٢) الإسلام في أسبانيا |
| (٣) الأمويون ومذهب الإمام مالك |                        |
| (٤) نفوذ الفقهاء               | (٥) ثورة مسيحية        |
| (٦) السلام من جديد             | (٧) دول صغيرة          |
| (٨) في عهد المرابطين           | (٩) وأخيراً غرناطة     |

### ب - التطور الحضارى :

ص ٣٤٩ - ٣٦٩

ص ٢٧١ - ٤٥٣

## الفصل السادس

ص ٢٧٢ - ٤١٠

(أ) بين المغرب والأندلس

ص ٤١١ - ٤٥٣

(ب) قصة الاسترداد

## المخرائط

ص ٤٥٥

(أ) المغرب والأندلس

(ب) دول الطوائف والممالك الأسبانية في القرن ١١/٥ م ص ٤٥٧

ص ٤٥٩

(ج) أسبانيا في القرن ١٤/٥ م

## مراجع الكتاب

ص ٤٦١ - ٤٦٩

(أ) المراجع العربية

ص ٤٦٩ - ٤٧٠

(ب) المراجع الأجنبية

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

لقد حملت قوة الدفع الحضارية الإسلامية بعض المجاهدين المؤمنين بدعوة الإسلام إلى أسبانيا البعيدة، فأدوا هناك دوراً من أهم الأدوار للثيرة في التاريخ الإسلامي كله، وقاموا بتجربة من أعظم التجارب الحضارية المعروفة، ومثلوا بأوروبا النماذج الطيبة للجماعات البشرية المتطورة التي نريد أن تعيش بسلام في بلاد جديدة يسكنها شعب فاجأته الأحداث بعد انهزام حكامه الأجانب أمام هذه الجماعات المقتصرة.

وأراد أصحاب دعوة الإسلام في أسبانيا الأوروبية أن يشاركوا السكان حياتهم للعادية، وأن يمارسوا بينهم وسائلهم الخاصة في الملوك المحاط بواجب الطاعة لعاليم الدين وأوامره، وكانوا يشيعون فيهم للعالم الأساسية لحضارتهم المتقدمة حتى نجحوا مع الزمن والعمل في تحريك الجهود المتعاونة لبناء حضارة أندلسية لها ذكر عظيم بين الحضارات العالمية المشهورة.

وكان النجاح في تطوير الحياة ببلاد الأندلس يبدو من الأسباب القوية التي تساعد على دوام الحضارة الإسلامية بها، وعلى زيادة نموها وتطورها، ولكن التاريخ — مع اعترافه بتقدم الحياة وسموها على أيدي المسلمين بهذه البلاد — يشير بجانب ذلك إلى أن النظام الذي أقاموه هناك كان يتقصه الكثير من العوامل التي تكفل بقاءه واستمراره.



وظلت تجربة المسلمين في الأندلس ثمانية قرون محسوبة من عصور الجهالة الأوربية ، ومن أوقات التأخر والمهجبة عند غير المسلمين ، وحاولوا خلال هذه القرون أن يعرضوا أسلوباً جديداً لسلوك جديد ، ودين جديد ، ولم ترفض محاولاتهم عند البداية ، فاندفع الناس في الطريق الذي سلكوه ، وأمرعوا إلى الإيمان بالدين الذي جاءوا به ، وساهموا معهم في بناء حضارة لم يكن من الممكن قيامها وازدهارها لولا مشاركة جميع العناصر الموجودة بالمنطقة في صنمها وحراستها ، وساعد على تقدم هذه الحضارة وبقائها تلك المدة الطويلة ما كان من أصالتها وكفاءة القائمين عليها ، ثم استعداد البيضة لقبولها ، وعجزها عن تقديم بديل عنها ، ولكنها - مع كل الجهود التي توفرت لخدمتها ، ورغم ما كان يظهر من استقرارها وثباتها - رفضت وتراجعت في النهاية ، وتجمعت ضدها قوات غالبية استمطاعت بعد الصراع والتطاحن مع أصحابها أن تزيل معالمها ، وأن تطرد مؤيديها من البلاد كلها .

وكان يشبه الجزيرة الأسبانية منذ القرن الخامس هـ / الحادي عشر م قوتان متعارضتان ، لكل منهما وجهة نظر تخالف الأخرى ، وزاد الحماس والإصرار على التمسك بالرأى عند المتخاصمين على الفوز في معركة الحياة أو الموت الأخيرة .

وعاشت قوة المسلمين في الجنوب في المكان الذي فرضت وجودها فيه ، وكانت تبيح لغيرها أن يعيش معها أو بجانبها ، فأدى تسامحها مع أعدائها إلى تعرضها لأشد الأخطار التي تواجهها الشعوب في حياتها بعد أن مالت موازين القوى لغير صالحها ، واضطرت للدفاع عن وجودها بقوة وبسالة ، غير أن الشجاعة وحدها لم تكن كافية لحفظ سلامتها وسط أعداء يتفوقون عليها في الرأى والاستعداد .



كانت قوة أعداء المسلمين عند نشأتها ضعيفة غير متعازلة ، تسالهم في كبرياء  
وتعمل ضدهم في صمت وإصرار ، وتقاومهم أيام ضعفها ، وتهاجمهم عند قوتها ،  
حتى نمت وزادت ، وانتصرت عليهم في المعارك الفاصلة ، وأخذت منهم بلادهم  
واحدة بعد الأخرى .

وتبين أن أعداء المسلمين كانوا يحتفظون في قلوبهم طول الزمن بالرغبة الصارمة  
في تحطيم كيانهم ، ومحو آثارهم ، وكان حياتهم في بلاد الأندلس مع طولها  
وعظمتها لم تكن في نظر خصومهم إلا حدثاً عارضاً يمكن أن يزول بعد القضاء  
على عوامل وجوده .

وكان يسكن بلاد الأندلس جماعات مختلفة تجمعها روابط عارضة ، وتتعاطف  
مع تواريف متعددة ، وتميل للاحساس بأصولها البعيدة المتييزة ، وبسبب ذلك  
استمرت حركة الصراع متصلة بينها ، وشغلت دنياها وحياة من حولها بالخلقات  
والمنازعات والفتن ، وكان مجال العمل كان لها وحدها ، أو كأنها كانت تحيا  
منعزلة عن غيرها في هذا الوطن البعيد .

وإذا كان المسلمون قد فتحوا أسبانيا في سنوات قليلة فقد خرجوا منها بعد  
ثمانية قرون كانت كافية لفهم معنى الدوام وتوقعه ، وتمثل دورهم في مراحل  
وجودهم الأولى بها في شبه حركات عصبية انفعالية مهدت لتكوين الدولة الأموية  
التي ظل اسمها يتردد هناك مدة تقرب من ثلثمائة سنة .

وأصبحت بلاد الأندلس — بعد قيام هذه الدولة — أول منطقة إسلامية  
تخرج على وحدة المسلمين وتجمعهم ، وأضفى عليها بعدها عن هذه الوحدة نوعاً  
من الشخصية المستقلة والكيان المتميز ، وجعلها تبحث لنفسها في مجالها وحده عن



الوسائل المؤدية إلى إثبات وجودها كقوة منفصلة تحاول أن تنافس بجهودها وإتجازاتها أعداءها في كل مكان .

وشعر الأندلسيون بسبب انفصالهم عن الوحدة الإسلامية بالحياة الانعزالية، وأحسوا بالبعد عن الروابط الطبيعية التي تجمعهم مع شركائهم في الدين في بلاد المسلمين الأخرى، وكانت بلادهم ترتبط بثقافة المسلمين وحضارتهم إلا أنها كانت تعارض سياستهم ولا تتفق معهم في الغاية والمهدف، وإذا لم تحدث حروب بين القوتين الإسلاميتين غير تلك التي كان يقصد بها إرجاع بلاد الأندلس للوحدة الإسلامية الشاملة فإن ذلك لم يكن يعنى حدوث نوع من التفاهم أو الانسجام بين حكام المسلمين في الشرق والغرب طول التاريخ، فسارت المنطقتان تبعدا لذلك في اتجاهات مستقلة متباعدة .

ثم تفتت دولة المسلمين بالأندلس، وانقسمت ممالكها، وحاولت القوى المتحكة في وحدتها الجديدة أن تبني لنفسها كيانا مستقلا في أماكنها المنعزلة وازداد ضعف المسلمين بسبب انقسامهم وتشتتهم، جاءتهم محاولات الإنقاذ من إفريقيا الشمالية، ولكنها لم تنجح في القضاء على خطر أعدائهم في أسبانيا نفسها.

وبقي لهم أخيراً تمثيل ضعيف في رقعة صغيرة بالجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الأسبانية، وكان لا بد أن يتداعى هذا التمثيل الهالك أمام من كانوا ينتظرون نهايته، ويتحالفون ضده، وعندما حاولت القوات الأندلسية الباقية أن تجد لها ظهيراً تتغلب معه على الظروف الحرجة التي عرضت لها كانت بلاد المسلمين في الشرق تعاني بدورها من فترات الضعف العارضة، ولم تكن تشعر فوق ذلك بقوة الروابط بينها وبين الأندلسيين في أوروبا، فواجه الناس بالأندلس.

مصيرهم ، وفشلت محارلاتهم اليائسة للتمسك بالبقاء في الأوطان الفسالية ، رغم ما أبدوه من ضروب الشجاعة وصدق العزيمة عند الدفاع عن أنفسهم .



ولا شك أن المسلمين عاشوا ببلاد الأندلس حياة ثرية ، ومن الممكن أن تعالج جوانب هذه الحياة في كتب مستقلة تعرض أحداثها وتفاصيلها والمؤثرات فيها وقد قام بمثل هذه المحاولة بعض المؤلفين المسلمين وغيرهم ، وتحمس الكثيرون منهم لذكر التفاصيل الجزئية التي لا تعين القارئ على متابعة الاتجاهات الأساسية في المسيرة الإسلامية بهذه البلاد الشهيرة .

وقد تكون هذه الطريقة مقبولة إذا أريد معرفة كل الجهود التي ساهم بها حكام الأندلس ومواطنوهم لصنع الحياة في بلادهم ، وإذا كانت هناك حاجة للاهتمام بالجزئيات التي تجمعت لتساعد في بناء هذه الحركة الكبيرة .

ونظن أن جزئيات كثيرة - عرضها بعض المؤلفين ، وأطالوا في الحديث عنها لم تكن ذات قيمة أساسية أو مؤثرة في أحداث المنطقة وتطورها ، وأنه يكفي أن نشير بالتفصيل إلى الأدوار الرئيسية التي لعبها حكام هذه البلاد في حياتها ، وأن نشرح الأعمال الحاسمة التي قام بها الشعب الأندلسي طول تاريخه ، ولذلك يبدو الحرص في هذا الكتاب على بيان هذه الأعمال في صراحة ، وكان هذا الشعب غريب الميول والتصرفات ، لأن وحدانه كانت تتألف من مجموعات عنصرية ترجع نشأتها إلى أصول مختلفة وتحس بنباعد هذه الأصول وتفرقها حتى كيف هذا الإحساس سلوكها ، وأثر على مصيرها ، ومصير الوطن معها .

وإذا كنا اليوم في حاجة لمعرفة تاريخ المسلمين في صدق ووضوح فلا يعني



ذلك أن نطيل الوقوف حول أمجادهم للتدعيم وحدها إذا كان ذلك سيؤدي إلى مجرد التفتي بهذه الأبحاث ولا شيء بعده ، وإذا كان سيدفع إلى الوقوف في مكان ثابت للنظر والتأمل الجامد في منجزات الأمة العربية عبر التاريخ ، وليس من دلائل الإخلاص للتاريخ القومي أن نلج في إظهار أمجاده وحدها ، وأن نترك لحظاته الكثيرة لتسترها عوامل النسيان ، لأن ذلك قد يلهم من ينتسبون لهذا التاريخ عن مشكلاته ، وفهم أسراره ، والإشارة إلى أخطاء من كانوا يشاؤون في صنع أحداثه ، ومن الأوفق — كما نظن — أن نهتم بعرض جوانب التاريخ كله لتساعدنا على تقديم الوسائل المطلوبة للانسجام مع الحاضر ، والتغلب على مشكلاته .

ولقد بدا من الخير عند الدراسة أن نذكر أثر المسلمين في تطوير الحياة الأندلسية في وقت كانوا يقودون فيه أعظم الأدوار المؤثرة في تقدم الحضارة الإنسانية بالمناطق التي عاشوا فيها ، وكانوا بالأندلس عناصر جيدة أدت دورها بنجاح في بلادها وفي غيرها من الأماكن التي تأثرت بها .

وكان من الأغراض أن نوضح الأسباب الحاسمة التي قضت على وجود الأندلسيين في بلادهم بعد أن عاشوا فيها ، وكانوا أهلها وأصحاب السيادة عليها ويظهر أن حياة الشعوب الطويلة في مواطنها ليست كافية لبقائها فيها على الدوام ، مهما ساعد طول الزمن على تكيفها معها ، أو على إعطائها صبغتها الخاصة ، إذا لم تكن هذه الشعوب قادرة على دفع الأخطار التي تهدد حياتها ومستقبلها .

ولا يكفي الآن أن نكرر الإشارة إلى حركات التعصب الدينية التي خضع الأندلسيون في فترات طويلة من حياتهم لويلاتها وآثارها ، لأنه مع الاعتراف



بأهمية هذه الحركات وفاعليتها يجب أن نلاحظ عوامل الضعف التي لازمت الشعب الأندلسي وقتاً طويلاً من تاريخه ، ومن أسباب السلامة أن يواجه الإنسان نفسه قبل أن يلوم عدوه على استغلال أخطائه لصالحه .

وبعد فهذه محاولة لفهم بعض الظواهر التي بدت أساسية عند دراسة التاريخ الأندلسي ، ولقد حاولت هذه الظواهر في وحدات منفصلة مع تتبع الأحداث للتصلة بها منذ بداية ظهورها حتى نهايتها ، وقد تحتاج جوانب هذا التاريخ إلى كتب مستقلة تستوعب تفصيلاتها وأطوارها والمؤثرات فيها ، ولكن الغاية الأولى من هذا العمل لم تكن إلا الدراسة الموجزة لأهم أحداث الحياة الأندلسية ثم محاولة التعليل لأسبابها بما يقرب فهمها للقارئ المعاصر .

وقد يعرض الكتاب بعض وجهات النظر الخاصة التي تبدو صحيحة أو مقبولة بعد الدراسة الهادئة ، والاطلاع اللازم على المصادر التي أمكن الحصول عليها ، وربما تكون منسجمة مع حركة التاريخ الأندلسي ، وموافقة لأحداثه .

ثم هذه دراسة غير سريعة ، وقد تظهر عيوبها بوضوح أمام المتخصصين في تاريخ المسلمين وحضارتهم ، ولكنها — مع كل احتمال — ليست إلا محاولة قصد بها إدراك بعض الملابسات المحيطة بمقتات التاريخ الأندلسي ، وقد دفعته لذلك الرغبة في فهم تاريخ المسلمين بالأندلس للإجابة على بعض التساؤلات المثارة حول هذا التاريخ .

على حبيب

القاهرة : يناير ١٩٧٢



## الفصل الأول

أ - المغرب :

تمهيد . البربر . أقليات أخرى . الروم

ب - حرب الصحراء :

- |                    |                      |
|--------------------|----------------------|
| (١) تمهيد          | (٢) عناد البربر      |
| (٣) خلافت العرب    | (٤) فتح برقة وطرابلس |
| (٥) المراحل المهمة | (٦) من أبطال الفتح   |

ج - المسلمون في إفريقيا :

- |   |                     |
|---|---------------------|
| (١) بداية الوجود العربي                           | (٢) الإسلام والبربر |
| (٣) محاولات الإصلاح                               | (٤) بعد الإصلاح     |
| (٥) العدالة الضائعة                               | (٦) نحو الاستقلال   |
| (٧) بعد عهدين                                     |                     |
| (٨) الدول الجديدة : الرستميون ، الإدارة ، الأغالة |                     |
| (٩) خاتمة   |                     |



المغسرب



اختلاف مدلول كلمة « المغرب » تبعاً للفهم الوارد لها خلال العصور التاريخية الطويلة ، ولا يتفق معناها الآن مع ما كان معروفاً عنها عند حركة النشاط العربي في شمال أفريقية ، ولا فيما تلا هذه الحركة من قرون .

وتفيد كتابات المؤرخين أنها كانت تشير إلى المناطق الواقعة غرب مصر، حتى آخر الأرض الأفريقية بأقصى الشمال والغرب ، أى إلى ما يسمى الآن بالشمال الأفريقي ، وهو كما نعرف :

١ - ليبيا ٢ - تونس ٣ - الجزائر ٤ - المغرب  
بكل أجزائها وتقسيماتها .

وليس هناك بالتأكيـد ما يثبت أن هذه المناطق كانت متميزة فيما بينها ، أو كانت واضحة وضوحاً كافياً أمام سكانها أو أمام العرب الفاتحين، وإذا كان الناس يعرفون بلادهم بنسبة اهتمامهم بها ، وإدراكهم لتاريخها ولحدودها ، ولحركة الحياة فيها ، فإن العرب كانوا غرباء عن المغرب ، وقد جاءوا إليها مدفوعين بالحماس الدينى والحضارى ، وكانت معرفتهم بها معرفة سطحية غير دقيقة ، أو معرفة هامشية بعيدة عن الدراسة الموضوعية التى تساعد على التخطيط للأعمال العسكرية <sup>(١)</sup> ، وعرفوا المغرب بمعنى الغرب ، أو ما كان واقعاً فى اتجاه غروب الشمس ، وهو يقابل المشرق أو الشرق ، أو ما كان هناك فى جهة

---

١ - الحديث عن جهل العرب بالمغرب إنما يصح عند بدء حركة الصراع بينهم وبين البربر ، وأما بعد استمرار العمل العسكرى هناك فلا شك أن طول فترة القتال ساعد على أن يعرف العرب الكثير عن هذه البلاد البعيدة .



الشرق ، وقد تكون بلاد العرب أو جزيرة العرب هي الحاجز المتوسط بين الشرق والغرب عند أهلها .

وفي حياتنا الآن يأتي الحديث حول ما يعرف بدول الشرق وما يعرف بدول الغرب أو عن الشرق والغرب ، والإعتبارات — كما هو واضح — للنظم السياسية والمالية والاجتماعية دون النظر لمنطقة تتخذ مركزاً لما يدور حولها من اتجاهات، أو تتخذ فاصلاً بين المسميات ، ودون الاتفاق على معالم ثابتة تقف عندها نهاية الشرق، وتعرف منها بداية الغرب .

وإذا كان من الممكن الإشارة إلى خط وهمي يفصل بين اتجاهين غلبا على الشعور العام عند الناس ، أو على الجو السائد عند الجماعات الإسلامية منذ اتساع دائرة نفوذ الإسلام، فإن هذا الخط المزعوم كان يسير على أطراف بلاد العراق الغربية ، وكان يجعل دولة المسلمين الكبيرة تبدو وقد غلب عليها اتجاهان قسماها شطرين، أو ميزا منها جزأين كبيرين، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب، وقد ساهمت المسافات البعيدة بين أوطان شعوبها الكثيرة ، وكذلك اختلاف القوميات لهذه الشعوب المجتمعة حول الدين وحول وحدة الثقافة — ساهمت في هدم الإحساس بالتقاربة ، وفي غلبة الرغبة في الاتصال ، وأسرفت الزعامات في تعميق الخلاف وتوسيعه ، وكانت تسيطر على جماعات تخضعها لأثر الدعاية الدينية والسياسية وغيرها ، وظهر التمايز قبل إعلان الدولة الأموية، وظل واضحاً بعد قيامها ، وكانت جهود هذه الدولة قد عجزت عن إقناع كل الناس بحق حكامها في السيادة ، وعجزت أيضاً عن احتواء كل المناطق بالدعاية، فانصرف



إلى العمل بالغرب ، وظهر حرصها على قوة النفوذ فيه منذ أيام وجودها الأولى ، وتركت مناطق الشرق البعيدة عن مجال رؤيتها المباشرة ، فوجد فيها خصومها فرصة للعمل الناجح .

ويقال في التاريخ الإسلامي ، إن الإشارة إلى الشرق والغرب بدت واضحة في أول القرن الثاني الهجري عند ظهور دعوة العباسيين ، وقد روج لهذه الفكرة رجال الدعوة العباسية أنفسهم ، وقالوا إن دعوتهم ستأتي من مطلع الشمس في أقصى الشرق بخراسان ، فلفتوا الأنظار للشرق وصرفوا الاهتمام نحوه ، وفي وصايا أئمة العباسيين لمن كانوا يعملون لحسابهم أن يسيروا نحو الشرق حيث الأبدان القوية « والصدور الفارغة التي لم تتوزعها الأهواء » ، واستمر التفات العباسيين نحو الشرق ، وحرصهم على الوجود فيه ، حتى جاءت لهم فرص الانتصار ، فزادوا في رعاية الشرقيين وموالاتهم ، ونشطت العناصر الفارسية ثم التركية في جيشهم ، وكلها كانت آتية من الشرق ، وكأن دولتهم كانت دولة شرقية ، أو كأن الصراع بينهم وبين الأمويين كان صراعاً بين شرقي الدولة وغربيها ، أو بين المسلمين في الشرق والمسلمين في الغرب <sup>(١)</sup> ، واستمر العباسيون يرون إقليم العراق أو نهر دجلة هو الخط الفاصل بين الشرق والغرب ، وكانوا يشيرون في محاولات التشهير بخصومهم الأمويين أنهم يديرون سياستهم بالعناصر العربية وبالمناطق الغربية وحدها ، ويعنون بذلك الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس ،

---

( ١ ) يساعد على هذا الفهم أن أول عملية انفصال إيجابية في دولة المسلمين كانت في الغرب بالأندلس ، وقد رفضت هذه البلاد الخضوع لسلطان العباسيين منذ ظهور هذا السلطان .

وأما العراق وقارص وخراسان وغيرها من بلاد الشرق فقد كانت تمثل قوة المعارضة للأمويين، وقد انصرفت عنهم وانصرفوا عنها . . .

وقال التاريخ أيضا إن الخليفة المهدي قسم دولته بين ولديه موسى وهارون على أساس من الشرق والغرب ، وجاءت هذه الفكرة واضحة في وصية هارون الرشيد لأولاده عندما اعتبر نهر دجلة كأنه كان خط تقسيم طبيعي بين الشرق والغرب ، وقد جعل للأمين كل الغرب وللمأمون كل الشرق ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ، وحدث بين الأخوين بعد ذلك صراع على السلطة ، وتجاذبت المناطق المحرص على النفوذ في الدولة ، وانتصرت جيوش الشرق بقيادة شرقية ، وضاعت على الغرب فرص العمل والنجاح بعد ذهاب الأمويين عن دنيا الناس .

فكلمة المغرب على هذا المعنى كانت تعنى عند العباسيين النصف الغربى من دولة المسلمين ، ولكن بلاد المغرب التى نتحدث عنها الآن فتحت أيام الأمويين أبطال الفتوحات العربية الشهيرة ، وزادت هجرات العرب إلى المناطق المفتوحة منذ الالحظات الأولى فى العمل للاستمرار ، ولا شك أن هجرات كثيرة ذهبت للشرق وهجرات أخرى ذهبت للغرب ، ويتحدث المؤرخون العرب طويلا من الشرق لأنه كان موضع الثقل فى العمل السياسى فى الدولة العباسية عند تدوين تاريخ المسلمين ، وكانت به القيادة المنادية بتجميع المسلمين من كل الأجناس فى دولة واحدة تعمل باسمهم جميعا ، ولم تكن العناصر العربية أقوى العناصر فى هذه الدولة فى أى وقت من أوقاتها .

والهم أن نقول إن القسمية لم تكن واضحة زمن الفتوحات العربية ، ثم ابتدأ مفهوم الكلمة يتحدد بالمناطق الواقعة غربى مصر ، وبعد ذلك جاءت الإشارة

إلى المغرب الأفريقي، والمغرب الأندلسي، أو إلى المغرب والأندلس، وقيل إن برقة وطرابلس كانتا جزءاً مضافاً للبلاد المصرية حسب الفهم العام عند الناس، بمعنى أن المغرب كانت تعني ما يعرف الآن بتونس والجزائر والمغرب وحدها. وفي بعض الكتابات العربية تعرف أفريقية بأنها واحدة من أقاليم المغرب الحالية، وهي تونس، أو ما يعادل مفهوم المغرب كله من برقة إلى طنجة، وقد تضيق حدود التعريف عند بعض الكتاب حتى لاتعني كلمة المغرب إلا ما كان بعد تونس إلى جهة الغرب، وكتب المؤلفون أيضاً عن المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، وإذا لم تكن هناك حدود أو حواجز طبيعية بين هذه البلاد العربية إلا ما يأتي تبعاً للاتفاقات السياسية، فقد أطلقت على البلاد بعض التسميات المخالفة، ثم تحدت معالم التسمية بوضوح أكثر، وأصبحت كلمة المغرب الآن تعني المغرب الأقصى لأنه غرب ولا غرب بعده<sup>(١)</sup>، أو هكذا استقر لهم الفهم في عصرنا الحاضر.

لقد واجه الفاتحون العرب المغرب كله كوحدة كبيرة لها معالم طبيعية مميزة ومن أهمها:

١ - الإقليم الساحلي الممتد من الإسكندرية إلى نهاية الأرض الأفريقية عند المحيط الأطلسي.

٢ - ومناطق صحراوية جنوبية من مصر إلى أقصى الغرب.

٣ - وبين الإقليمين سلاسل جبال موازية للبحر والمحيط معا.

ويرتبط الإقليم الأول بطريق ساحلي معروف، ويخضع لجو البحر الأبيض

---

(١) أي ليست في غرب بلاد إسلامية.



المتوسط ، وفيه كانت توجد المدن الكبيرة الرئيسية المحمية بالرباطات الرومية  
القوية التي كانت تلجئ العرب إلى البعد عنها ، وإلى عدم التورط في الوقوف  
أمامها طويلا .

والاقليم الثاني صحراوى موحش واسع الأرجاء ، تنتشر فيه الواحات  
كدليل على إمكانية الحياة ، أو على وجود فرص الحياة في كل مكان .

وفصل الاقليم الثالث بين الاقليمين ، ويجعل الاتصال بينهما عسيراً .

وكان يعيش بهذه الأقاليم شعب كبير يشعر فيما بينه بقوة القرابة ، ويتجانس  
سلوكه ونشاطه الاجتماعى ، وقد عرفت عناصره الغالبة باسم « البربر » ،  
وكانت هذه تسمية قديمة سبقت الفتح العربى ، وأطلقت على سكان شمالى  
أفريقية ، وعلى غيرهم من الأمم الغربية عن لغة اليونان وحضارتهم ، وعلى  
الأمم والقبائل المعادية للامبراطورية الرومانية ، أو التي لم تهضم حضارة الرومان ،  
وجاء العرب فعنوا بالتسمية الجماعات الساكنة في شمالى أفريقية .

ولم تكن للعرب معرفة مباشرة بهذه الجماعات قبل الاسلام ، وربما لم تزدد معرفتهم  
في إفريقية على حدود مصر وحدها ، ومعنى هذا أن العرب كانوا مسبوقين  
بالرومان الذين أشاروا بهذه التسمية إلى الشعوب الهمجية التي هاجمت  
إمبراطوريتهم في العصور الوسطى ، ومنها الجرمان الذين احتلوا شمالى أفريقية  
في القرن الخامس الميلادى<sup>(١)</sup> ، ثم غلبتهم عليها الامبراطورية الرومانية الشرقية  
وطردتهم منها<sup>(٢)</sup> ، وبقيت التسمية حتى الفتوحات العربية تعنى سكان شمالى

---

١ — سنة ٤٢٩ م .

٢ — سنة ٥٣٤ م .

أفريقية من غير الرومان ، واستعملها العرب لأنهم وجدوها ، وكانما كانت لعنة ثابتة .  
ومن محاولات الكتاب العرب لايجاد تعليل لهذه الكلمة القول بأنها تعني « الرطانة  
الأعجمية » أو اختلاط الأصوات غير المفهومة ، وإن لم يكن ذلك تعليلًا مقبولًا ؛  
لأن العرب لم يفهموا أيضًا لغة المصريين والإيرانيين وغيرهم من الشعوب الكثيرة  
التي وافقت معهم على الإيمان بعقيدة المسلمين ، أو التي قبلت أو اضطرت إلى  
العيش في مجال سلطتهم ، ولم يسمهم العرب « يربراً » لبربرتهم ، أو لاختلاط  
أصواتهم ، وإنما استمروا معروفين بأسمائهم وحدها ثم جاءت محاولة القول  
بانتساب البربر لجذ أعلى اسمه « بر » أو « بربر » ، ويبدو أن هذه  
كانت كلها اجتهادات شخصية غير مؤيدة بالدليل ، وقد التصق  
بالاسم بسكان شمالي إفريقية التصاقاً أكيدا قبل دخول العرب بلادهم ، وبعد  
دخولهم أيضا ، وزاد العرب في التمسك به ، وقد كان يسىء للسكان غير أنهم  
فشلوا في دفع هذه الإساءة عن أنفسهم ، ولم يساعد العرب على دفعها عنهم .  
لقد كان البربر يشبهون العرب في المزاج وفي طريقة الحياة ، وساعد التشابه  
الكبير بين الشعبين على القول بأن البربر جاءوا من أصلين كبيرين ، هما :

أ - البرانس .

ب - والبر .

وأنهما مما يرجعان إلى أصل عربي هاجر في ظروف غير معروفة إلى  
شمالي إفريقية من فلسطين ومن جزيرة العرب ، أو من غير هذه وتلك ،  
وقد كان هذا الأصل العربي البعيد مدفوعا إلى الهجرة بالاضطرار أو  
بالرغبة في البحث عن حياة أفضل ، وليس معروفا ما إذا كان انتساب البربر  
للأصل العربي قد دفعت إليه الأجداد العربية نفسها ، بمعنى أن الانتساب للعرب

الفاتحين كان يعطى مركزاً أدبياً واجتماعياً ممتازاً ، أو أن هذا كان حقيقة تاريخية ثابتة ، أو أن الكتاب والمؤرخين لاحظوا وجوه الشبه الكبيرة بين العرب والبربر ، وجاء حكمهم مجرد ادعاء لا دليل عليه ، غير التشابه بين الشعبين ، وقد تكون هذه محاولة ذكية من العرب ، الأقوياء أو من البربر العاملين في صفوفهم ، كعملية دعائية تخدم أغراض الفاتحين ، وتعين على التعاش السلمي بين الجانبين .

وفي كل الأحوال تبدو هذه الأقوال غير معبرة عن معلومات علمية أكيدة ، وقد كان للبربر أصول متعددة يرجعون إليها ، وليست هناك فائدة بالتأكد من البحث عن صلة القرابة القريبة أو البعيدة بينهم وبين العرب ، ولا شك في ذات الوقت من وجود التشابه الكبير بين العرب والبربر في النظام القبلي والخضوع غير الملزم لرئيس ، والبعد عن التعقيد ، والرغبة في الانطلاق من أسر القيود ، وحب الطبيعة ، وعدم الميل للاستقرار ، والتطرف في الغضب وغيرها ، وليس هناك دليل دقيق على تقسيم سكان البلاد تقسيماً متميزاً ، حتى يظهر وجههم الحقيقي في التاريخ ، رغم المحاولات الكثيرة لإعطاء دليل مقبول لسبب تسميتهم بالبربر ، وقد لجأ بعض الكتاب إلى تعليل تسميتهم بالبرانس والبتر ، على أساس الملابس المستعملة عند الحضريين وعند غير الحضريين منهم ، وكان الأولون يرتدون البرانس ، وهي أكسية طويلة بها أغطية للرؤوس ، وأما الآخرون فكانوا يتركون رؤوسهم عارية ويلبسون ملابس قصيرة مبتورة .

هذا ويعرف أن تنظيماتهم الاجتماعية كانت تنظيمات قبلية تتفق مع طبيعة البيئة التي عاشوا فيها ، وقد ذكر الكتاب أسماء متعددة لقبائل بربرية وأرجعوها إلى أصولها الحقيقية أو المزعومة وأشاروا إلى مناطق سكنها وإلى صلة القرابة



بينها جميعا، وكان البربر كانوا في وضع يشابه الأوضاع العربية في جزيرة العرب، غير أن هناك حقيقة كبيرة يشير إليها الباحثون في تاريخ البربر، وهي أنهم لم يشعروا بالفرق الكبير بين الأصول التي تفرغوا منها، ولم تكن عندهم عصبية متطرفة، ولم ياجتثوا إلى الحروب الأهلية بدافع من الحماس للعصبية الضيقة، ولم يلاحظ بينهم اختلاف كبير في وجهات النظر الأساسية، وكأنما كانوا على رأى واحد في أمور الحياة كلها، غير انقسامهم إلى جماعات بدوية تعيش في الصحراء وتخضع لظروفها، وإلى جماعات حضرية تقيم في المدن، وتمارس حياة الاستقرار فيها، ولم تكن كلمة القبيلة أو الجماعة المتماسكة تعنى أن الداخلين فيها كانوا ينتسبون فعلا إلى جد قريب أو بعيد، لأن الرابطة الدموية لم تكن أولى الروابط والاتصال الاجتماعى بينهم، وربما كانت هذه مجرد ناحية نظرية، أو كانت اتفاقا غير مكتوب على مبدأ القرابة الحقيقى أو المصطنع، حتى لم تتخذ القبيلة عند البربر صورة ثابتة أو قريبة من الثبات، كما كان الحال عند العرب، فالجماعات أو التكتلات البربرية كانت متفاوتة في العدد، بعضها كان يبدو في صورة الشعب أو الأمة الكبيره المتفرقة في المساحات الواسعة والمربطة بالمصالح المعقدة، وبعضها كان جماعات صغيرة مترابطة تجمعها إرادة الحياة في الصحراء الواسعة بين الأقوياء، وقد يشير اسم القبيلة إلى ما يشبه الاتحاد السيامى الذى تدخل فيه أكثر من عصبية أو جماعة عن طريق التحالف مع الأقوى، أو عن طريق الخضوع له.

وبين البربر وعلى سواحل بلادهم الشمالية عاشت أقليات كثيرة منها الإفريقيون، وربما كانوا جماعات قليلة، غير أن دورهم الحضارى كان واضحا، وعقيدتهم المسيحية وسكناهم بالشمال جعلهم أقرب إلى قلوب الحكام الروم، بعد أن اختلطت مصالحهم جميعا وبعد أن ارتبط وجودهم معا، وإن احتفظ الإفريقيون بلغة محلية

محدودة الشروع، ويقال إن دورهم كان مهماً في الحركات الثورية، والفتن الداخلية، أى أنهم كانوا عنصراً قلقاً وعنصراً نشيطاً من سكان شمال إفريقيا، وإن كانت طريقة التعامل بينهم وبين العرب غير معروفة أو غير واضحة، لأن المؤرخين يتحدثون دائماً عن العلاقات بين العرب والبربر، وكأن سكان شمال إفريقيا كانوا جميعاً من البربر، وربما كان ارتباط الإفرقيين بالروم كبيراً، فكان نصر العرب على الروم يعنى النصر عليهم أيضاً، بمعنى أن الهزيمة كما دفعت الروم إلى ترك الشمال الإفرقي إلى سكانه من البربر دفعت هؤلاء بدورهم إلى الحرص على السلامة بالهجرة أو على البقاء بلا دور إلا في بعض حالات العصيان أو التمرد على الحكم العربي، وكأنها كانت محاولات لرفض هذا الحكم والاحتجاج عليه.

وكان لليهود قصة هناك، تبدأ من زمن وصولهم إلى شمال إفريقيا مع العناصر المهاجرة في تاريخ سابق أو لاحق لحركة اضطهادهم على يد الرومان في فلسطين سنة ٧٠ م، ويقال إن الجماعات اليهودية المهاجرة إلى بلاد البربر بإفريقية انشغلت بالعمل لصالح دينها، ونجحت في الدعاية له، حتى تهودت جماعات كبيرة من البربر، وكانت إحدى زعميات المعارضة للعرب في شمال إفريقيا سيدة يهودية غامضة الشخصية ظلت تحارب العرب حتى انهزمت أمامهم، وفي كل الأحوال كان اليهود هناك عناصر نشيطة متنقلة بين آسيا وأفريقية وأوروبا، ولا تؤمن إلا بالولاء لوجودها وحده، وترفض الوقوف متفرجة على حركة المجتمع وتطوره، ولذلك كانت تشارك في صنع الثورات والفتن، أملا في الكسب من ظروف التغيير.

وكان الروم يمثلون جماعات حكمة ومنعزلة عن السكان ولها شعورها الخاص بالسيادة، والترفع على كل الناس، والبعد عن الاختلاط إلا عن طريق العمل في



الجيش مع جماعات أخرى كثيرة ، أوروبية وغير أوروبية كانت تشاركهم في الإحساس بوجود الدولة ، وفي الحرص على امتيازاتها .

ومن المعروف أن الصراع بين العرب والروم ابتداءً في الشام عند حركة الفتوحات العربية الأولى واستمر في مصر وشمال أفريقيا ، حتى بدت الصورة كأن جيشاً يطارد جيشاً آخر في كل مكان وإلى النهاية .

ووجدت مطاردة العرب للروم لهاجواً صالحاً في شمال أفريقيا ، إذ كانت عوامل الخصومة المشبوبة بين الحكام وبين أهالي البلاد متوفرة هناك منذ استبعاد البيزنطيون أفريقية من الوندال سنة ٥٢٤ م ، ومن هذه العوامل محاولة فرض قوانين وأنظمة صادرة عن عاصمة الدولة في البيئة البعيدة على جماعات لا تجد لها ملائمة لظروف حياتها ، وتأثر الدولة وشعبها بخصومات الأحزاب المتنافسة على ملء الحياة السياسية بها ، وإسراف السلطة في فرض الضرائب الجديدة دون الاعتبار الخاصة بإمكانية الدفع عند المواطنين ، أو بضرورة التجاوز عما يحتاجونه لإقامة حياتهم ، واتباع وسائل العنف في جمع هذه الضرائب حتى كأنها كانت آلة وجود النظام كله ، ثم وضوح شخصية البربر ، واندفاعهم إلى طرد البيزنطيين من شمال أفريقيا ، وقد اضطروهم لأن يحتموا منهم في حصون كانوا يتركونها تحت ضغط القوة ، حتى انحصر وجود الروم أخيراً في رباطات تقوم على منافذ المدن الساحلية التي بقيت لهم فيها سلطة ، وكانت هذه الرباطات ملاجئ أخيرة تحفظ على أصحابها الحياة ، وتمكنهم من الدفاع عند تعرضهم للخطر ، ولهذا زادوا في عددها ، وشحنوها بالجنود ، ثم عجزوا عن موالاة الصرف عليها ، فتركوا بعضها ، وسمحوا لمخاتمها بالاعتداء على الناس ، وقابل الناس الشر بالشر ، وقامت ثورات بربرية استمرت ثلاث سنوات متوالية ٥٦٩ - ٥٧١ م ، وكان الرد عليها تقسيم البلاد

إلى مناطق عسكرية قوية، تعمل كأنها كانت غير خاضعة لسلطة في خارج حدود المنطقة، وحاول قوادها الاستقلال عن سيادة الدولة، وقبلوا دفع مبالغ مالية لزعماء البربر، واعتبر البربر هذا الدفع من أدلة الخوف عند البيزنطيين، فاندفعوا في جولات للقيام بغارات ناهبة، كادت تقضي على سلطة الدولة، وعلى حق الناس في الأمن والحماية.

وأخيراً كان من أهم أسباب سوء الظن جنون الدولة بالمسائل الدينية، ومحاولتها التوفيق بين وجهات النظر المعروضة من الباحثين في أمور العقيدة المسيحية، وقد أدى ذلك إلى حدة الغضب، وإلى التكتلات الشعبية الهادفة إلى الدفاع عن وجهة النظر السائدة، ولوجأت النتيجة بالانفصال عن التبعية للبيزنطيين في الشرق.

وفي منتصف القرن السابع الميلادي كانت سلطة الدولة البيزنطية بشمال أفريقيا عاجزة عن الدفاع عما في أيديها، وكانت صلاتها بمواطنيها مزرقة، فضاع الأمل منها عند ظهور ضوء الإسلام هناك.

حرب الصحراء

٢١-٥٩٠/٦٤٢ - ٢٧٠٨



## ١ - تهديد :

تشير المصادر التاريخية إلى الصعوبات البالغة التي واجهت العرب عند فتح شمال إفريقيا ، وإلى التضحيات الكبيرة التي قدموها قبل أن يستقروا هناك بعد مراحل العمل الطويلة ، ولا تأتي أهمية الصراع من مقابلة العرب للجيش البيزنطي هناك ، ولا من محاولة هذا الجيش أن ينتصر عليهم في غارات متتالية عبر البحر ، وإن كان جيشا كبيرا شغل العرب وقتا طويلا ، وجعلهم ينتقلون سراعا من الشام إلى مصر ثم إلى شمال إفريقيا ، في محاولة هادئة لتأمين وجودهم ، ولضمان سلامتهم في مناطق تهمتهم كنتيجة للحرب بينهم وبين أعدائهم ، وكأن هذه الحرب كانت حركة مطاردة عنيفة بين قوتين ، إحداهما كانت قوة عربية لا ترجو السلامة إلا في سرعة التصرف الذي يفقد عدوها الأمل ، ويدفعه إلى الخوف ، والأخرى كانت بيزنطية تريد تعطيل سير الفتح وإيقاف حركة التقدم ، وعدم التفريط بسهولة في مناطق كانت تابعة لها وخاضعة لإدارتها ، حتى جاء دور العاصمة - القسطنطينية - نفسها<sup>(١)</sup> ، فذهبت إليها الجيوش العربية أخيرا في عملية حصار بحرية وبرية ، بعد انتهاء الحرب لصالحها في الشمال الأفريقي والأندلس .

ولكن غرابة الصورة الجديدة لم تبد مذهلة وغير عادية إلا عندما اعترض البربر طريق العرب ، ووقفوا أمامهم كشعب مقاتل يعرف أمور الحرب ويملك

---

(١) حاصرت جيوش العرب مدينة القسطنطينية ثلاث مرات في السنوات : ٤٩ - ٥٠ / ٦٦٩ - ٦٧٠ م ، ٥٤ - ٥٦ / ٦٧٣ - ٦٧٩ م ، ٩٨ - ١٠٠ / ٧١٦ - ٧١٨ م ، وتبدو جدية القصد في المحاولتين الأخيرتين من طول مدة الحصار في المحاولة الثانية ومن ضخامة عدد الجيش في المحاولة الأخيرة .



وسائلها ، وظهر عنف الصراع لأن المواجهة المباشرة كانت بين إرادتين ليس من السهل التغلب على إحدهما بعد جولات الحرب المتكررة ، ولم يكن ممكنا لإحدى القوتين أن تفتصر في معركة حاسمة تأتي بعدها دعوى الوجود الواحد في المنطقة كلها .

ورغب العرب عن السيطرة السورية على المناطق المهمة في السواحل الشمالية ، وربما اضطروا للانصراف عنها لأنهم كانوا لا يملكون وسائل الحصار المطلوبة لإسقاط القلاع القائمة حول المدن المهمة بالشمال قرب ساحل البحر ، أو كانوا لا يريدون ضياع الوقت في الوقوف حولها ، وقصدوا إلى السير نحو الجماعات الكثيفة بمناطق الصحراء ، وأرادوا المواجهة الصريحة بلا خوف أو تردد ، ورأى أعداؤهم قلة أعدادهم وجرائتهم عليهم ، وكانت قد تركت لهؤلاء الأعداء شئون الدفاع عن أوطانهم بعد انسحاب البيزنطيين منها .

ويقال إن البربر كانوا أحرارا يرفضون الهزيمة ، ولا يحدون الحياة في غير الحرية ، وربما كان في نسبة الحرية للبربر مبالغة مقصودة لأن طول الصراع كانت له أسباب غير ما يسمى الآن بحب الحرية والدفاع عنها ، ولعل من هذه الأسباب طبيعة المنطقة التي أثرت فيها أو حولها الأحداث ، وكانت الأحداث كلها تدور في مجالات واسعة بصحراء بعيدة المدى ، وفي الصحراء حصون وجبال وجماعات كثيفة قادرة على التصرف السريع أمام الأخطار ، ثم إن سواحل البحر كانت شديدة الخطر فعن طريقها كانت تأتي للبربر مساعدات عسكرية كبيرة من البيزنطيين الراغبين في هزيمة العرب وضياعهم .

ولا يظهر أن العرب جاءوا ومعهم إمكانيات العمل السريع لإنهاء دورهم في الجهاد في شمالي إفريقيا ، لأن عملهم العسكري بدأ رتيباً هادئاً ، يقبل فيه النصر

والهزيمة أيضا مادام الحسم كان بعيدا في الحالين معا ، ولم يكونوا فيما يبدو يعرفون الأرض التي كانوا يعملون عليها معرفة واضحة تمكنهم من اتباع خطة حاسمة تساعد على عدم التورط في حروب طويلة ، وقصد أعداؤهم معهم حالة من حروب الاستنزاف الصريحة ، وربما كان من هؤلاء الأعداء جماعات تتكسب بالحروب وتعمل لصالح غيرها ، ولا يهمها الاستقرار ولا معرفة النتيجة الأخيرة ، ثم إن حياة البربر كلها كانت حياة قلق بطبيعتها ، فلم تزدها حرب العرب قلقلًا .

وفي كل المحاولات لم تسخر إمكانيات الدولة العربية كلها للعمل في شمال إفريقيا ، وظهر العرب في بعض حالاتهم كأنهم كانوا فرقاء عسكرية يمكن بسببها أن يقول السياسيون إنهم يجاهدون في سبيل الله في مكان من الأرض ، وإليها كانت تابعاً العناصر المجاهدة الراغبة في ظلال الجنة ، أو العناصر المغامرة الحريصة على تسجيل بعض الجهود الممتازة .

## ٢ - عناء البربر :

وطال وقت الصراع وأشعلت قسوته نيران البغض والكراهية بين الجانبين ، وكانت الزعامة البربرية زعامات قبلية غير متطورة ، تريد إظهار القوة في حرب بلا نهاية ، ولهذا جاء اتجاه العرب في بعض حالات التعامل مع البربر مخالفا لسياستهم في التسامح والعفو ، وعدم التطرف في العقوبة ، وظهر بعد قوادهم كأنهم كانوا لا يحسنون استعمال السياسة ، أولا يعرفون التفاهم إلا عن طريق اللقاء في ساحات الموت ، وكان منهم الحرص على الأسرى والغنائم ، وكأنها كانت علة وجودهم هناك .

كانت الحرب في شمال إفريقيا أول حرب بين جنود الإسلام الممثلين لدولته بالشام ، وبين شعب يعيش في بلاده مع الأمل في استمرار أسلوب حياته ، ومع

القدرة على الدفاع عن هذا الأسلوب ، وقد مر جنود الإسلام المشار إليهم  
يتجارب عسكرية طويلة هزموا فيها جيوشا كثيرة، ولكن التعامل مع شعب كبير  
كالبربر كان تجربة جديدة واجهت العرب لأول مرة في تاريخهم ، وكانوا قد  
عرفوا قبل ذلك الشعوب المسالمة أو الشعوب المعاونة ، ولم يعرفوا  
شعبا عنيدا يمارس المعارضة عمليا بالحرب في كل مكان ، ولو كان البربر شعبا  
متناسكا يربطه الولاء لهدف واحد ، أو يربطه الاتفاق على رأى واحد ،  
لكان له مع العرب في التاريخ قصة أخرى ، وصحيح أن له قصة تخالف قصة  
الشعوب التي دخلت في الإسلام قبله ، أو التي دخلت في الإسلام بعده ، وقيل  
بسببها إن خضوعه للعرب لم يكن استسلاما أو ضعفا أمام قوة لم يستطع لها دفعا،  
ولمّا كان نوعا من الفهم البطيء لأهداف العرب من حربه ، أو كان نوعا من  
اللقاء أخيرا بعد ضياع الأمل .

ونحن نعرف شيئا عن السهولة النسبية التي قابلت العرب أنفسهم عند فتح  
غير هذه المنطقة في الشرق والغرب ، وقد كانت هناك دوافع مهمة مقبولة شجعت  
السكان في بلاد غير شمالي إفريقية على الوقوف في جمود أمام المعارك الدائرة داخل  
بلادهم ، أو على حدودها ، وقصة المصريين أنهم كانوا أظهر الشعوب ترحيبا  
بالعرب وأشدّها حماسا لوجودهم لأن أسبابا كثيرة كانت تثير رغبة الناس في التغيير،  
ولما لم يستطيعوا عرض الوسائل الإيجابية الكافية لضمان حقوقهم مع جماعات  
قوية متسلطة تشاركهم في الدين ؛ وتخالفهم في بعض مسائله ، لجشوا للمحاولات  
السلبية في شبه احتجاج صامت على مآسي النظام المفروض عليهم ، وبقي عندهم الأمل  
قويا في جيش العرب أو غيره ، وقابلوا هذا الجيش في بلادهم بالترحيب والفرح  
ونصروه وانتصروا به أيضا .

وأما البربر فكانت أعمالهم العسكرية قد حددت مناطق النفوذ بينهم  
وبين الروم ، بعد أن نجحوا في محاصرة هؤلاء في مناطق شمالية كانوا يحيطون



أنفسهم فيها بحصون ورباطات قوية تمحيهم وتضع سلطتهم في دائرتها الداخلية وحدها ، ومعنى هذا أن البربر كانت قد ظهرت شخصيتهم كقوة كسبت مجالا واسعا في الصراع بينها وبين الروم ، وكانت هذه القوة حريصة على مكاسبها وترفض أن تعرضها للأعداء مرة أخرى .

وبعد صرف الحديث إلى الصعوبات التي واجهت العرب في الغرب ، وعدم الوقوف طويلا عند أعمالهم الأخرى ، يمكن القول بأن أطول الأعمال العربية العسكرية التي سبقت فتح شمالي إفريقيا لم تأخذ من زمن العرب أكثر من عشرين سنة<sup>(١)</sup> ، وأما في الشمال الإفريقي فقد مارس العرب هناك حربا عنيفة مدة سبعين سنة ، تكررت فيها الانتصارات السريعة ، وجاءت بعدها الهزائم المرة التي رجع بسببها جيش المسلمين ثلاث مرات<sup>(٢)</sup> إلى نقطة البداية من جديد ، وكان عليه أن يبدأ الجهاد مرة أخرى ليحقق رغبته الملمعة في النصر الأخير .

### ٣ — خلافاً العرب :

وفي ملاحظة سريعة نشير إلى أن عمليات فتح العرب لشمالي إفريقيا لم تتخذ

١ — لم تتطلب حرب فارس من العرب إلا بضع وقائع عسكرية ثم بعدها خضعت لهم مملكة الساسانيين كلها في أقل من عشرين سنة .

٢ — انهزم العرب ثلاث مرات خلال عشر سنوات من تاريخ كفاحهم في شمالي إفريقيا :

( أ ) سنة ٦٤ هـ / ٦٨٤ م وفيها انتصر كسيلة البربري على عقبة بن نافع وقتله وأخذ القيروان من العرب ، وحكم إفريقية أربع سنوات .

( ب ) سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م وفيها تحالف الروم مع البربر وهزموا زهير بن قيس قائد العرب ، وضاعت فتوحات منهم العرب للمرة الثانية .

( ج ) سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م وفيها انهزم حسان بن النعمان أمام الكاهنة زعيمة البربر في جبال أوراس ، وضاعت جهود العرب من جديد أمام ضغط البربر للمرة الثالثة .

شكلا إيجابيا حاسما منذ خطوات العمل الأولى ، فإذا كانت حركات الجيوش العربية قد ابتدأت منذ استقرارها في مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م ، وإذا كانت هذه الحركات قد انتهت بنتيجة حاسمة دل عليها النجاح الأخير في تحويل البربر إلى جماعات مسلمة ، ثم اعتراف الشمال الإفريقي كله بسلطة المسلمين فيه سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، فإن هذا الوقت الطويل لم تشغله عمليات عسكرية مضطردة ، ولم يستفرقه القتال كله ، وقد حدثت في المسافة البعيدة بين التاريخين تطورات مؤثرة داخل الدولة العربية ذات الشأن الأول في حركات العمل كلها ، وشغلت الأحداث فترات طويلة من هذا الزمن فعطلت جهود الفاتحين ؛ وأوقفت سير الجهاد في كل مكان ، ولم يكن من الميسور للقادة والجنود العرب أن يستمروا في عملهم بعد أن انقطعت عنهم الإمدادات ، وبعد أن غاب عنهم وجه الحقيقة فأقام بعضهم حيث هو ينتظر نتيجة الصراع المحتدم بين المسلمين ، وعاد البعض الآخر إلى الحجاز والشام ليسهم بنصيب في الحروب الأهلية الخطيرة ، وكان من أهم الأحداث ما قام بين المسلمين من خلاف كبير زمن الخليفة عثمان ابن عفان ( ٢٤ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م ) وإذا لم يكن الغرض أن نعطي الآن تعليلا كافيا لأسباب ما حدث من فتن في عهد هذا الخليفة الشهيد فإن من المفيد أن نشير إلى التساؤلات التي ظهرت في المجتمع الاسلامي الناشئة ، بعد تجمع الأموال عند الدولة ، وعند كبار رجالها معها ، وكان هؤلاء يريدون أن يعيشوا طويلا مع الرفاهية ، فاشتغلوا بالمناورات السياسية ليبقوا كما كانوا عند قمة السلم الاجتماعي بالدولة وكانت تقابلهم جماعة أخرى تنادى بالعدالة الاجتماعية ، وتقول إنها من مبادئ الدين ذاته .

وبسبب عدم وضوح الصورة عند الراغبين في الاتفاق على تحقيق نوع من التقارب بين الرغبات المتعارضة ، وبسبب عدم رغبة الكثيرين في اللقاء عند شيء .

مقبول — قامت الفتن وضاعت حياة الخليفة نفسه في الطريق إلى الحل المنشود ، وزاد باستشهاده عمق الخلاف بين المسلمين ، وأمرفت الجماعات والأحزاب في البعد والخصومة ، وقامت بين المسلمين حروب أهلية اتخذت لها مسرحاً في بلاد العرب نفسها ، مرة في أرض العراق وأخرى على الحدود بينها وبين بلاد الشام .

وقد يظهر من الحديث الطويل حول المآسى والاضطرابات التي شهدتها مجتمع المسلمين لأول مرة في عهد الخليفة الثالث أن هذا الخليفة عاش لا يستطيع أن يكون سيداً لمجتمع هادئ ، أو أنه عاش في زمن يغلب بالخلافات الداخلية المعطلة لدفعات التطور المطلوبة ، ولكن حقائق التاريخ تشير إلى شيء آخر حجبت أحداث الانقسامات بين المسلمين ، وهو أن عهد هذا الخليفة كان مرحلة من مراحل التطور الهامة في توسع الدولة الإسلامية ، ويمكن أن تشابه فترة حكمه الأولى الفترة التي بدأت بخلافة عمر بن الخطاب ، فقد عبأ عثمان بن عفان أول جيش دخل إفريقيا لأول مرة بقيادة عبد الله بن سعد<sup>(١)</sup> ٢٧ هـ / ٦٤٧ — ٦٤٨ م ، وظهرت في عهده بوادر جديدة منها السماح للمسلمين بالحرب فوق الأمواج المتقلبة لأول مرة في تاريخهم ، وجاء انتصارهم على الروم في معركة ذات الصواري<sup>(٢)</sup> ٤٣ هـ / ٦٦٥ م ظاهرة جديدة لم تكن معروفة طول تاريخ العرب العسكري ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب قبل الخليفة عثمان بن عفان يرفض الإذن بالسير في البحر ، وكان يشير الشكوك حول نجاح الحرب فيه .



---

١ — واشتد الحماس في رحلة الفتح هذه حتى اشترك فيها بعض أصحاب الرسول عليه السلام ، وشارك فيها أيضاً عدد كبير من أبناء أصحابه .

٢ — ليس من المعروف ما إذا كان مكان هذه المعركة في ناحية سواحل الشام وآسيا الصغرى ، أو في ناحية سواحل المغرب شمالي طرابلس .



#### ٤ - - فتح برقة وطرابلس :

بعد فتح مصر اتجهت همه العرب المنتصرين إلى إخضاع برقة وطرابلس لحكومتهم الجديدة بالفسطاط كآخر محاولة لاكتساب المواقع المصرية الباقية ، أو بفرض تأمين وجودهم في مصر نفسها ، بعد أن تعرض هذا الوجود لخطر الهجوم البيزنطي من السواحل الغربية القريبة ، ويقال دائماً إن تقدم العرب لمراحل تالية لانتصاراتهم في المناطق المختلفة كان دائماً بقصد تأمين وجودهم في المناطق المفتوحة ، أو بقصد الإبقاء على نتائج جهودهم بعيدة عن الأخطار ، وقد يكون في هذا القول نوع من وجاهة التعليل لأن الصراع بين العرب والروم كانت له قصة معروفة شغلت فترات طويلة من تاريخ العصور الوسطى ، واستمرت الحرب بين القوتين بلا نهاية ، ومع نجاح العرب في كسب اليد العليا على دولة الروم ، ومع فوزهم السيطرة العربية على أجمل متاعماتها الشرقية ، فإن النصر النهائي عليها لم يتحقق لهم في أي وقت من التاريخ .

ولا يظهر أن فتح برقة وطرابلس احتاج لجهود عسكرية غير عادية لقلة المدافعين عنهما ، ولضعف الوجود البيزنطي بهما ، والعرب أنفسهم كانوا في حالة من الحماس البالغ ، وكانت عندهم القوة المتفوقة القادرة على أن تضمن لهم النجاح في مثل هذه الأعمال الإضافية ، وربما كان السير بعيداً عن حدود مصر الغربية مجرد رحلة غير خطيرة قام بها حاكم مصر عمرو بن العاص في فترة ظهر فيها بأس العرب قويا في كل مكان ، وكان عمرو قائداً عظيماً لا يتوقف نشاطه ، ولا يفتر حماسه ، فرمى ببصره بعيداً فوق رمال الصحراء المترامية ، وأراد مواصلة العمل العسكري حتى النهاية ، ولجأ إلى مراكز الشورى في عاصمة الدولة ذاتها ، وهناك كانت الخليفة المتردد في السماح بالأعمال العسكرية بعيداً عن حدود مصر الغربية ، وربما

كان الخليفة عمر بن الخطاب يرفض الإذن بالحرب بعد حدود مصر في صراحة لأنه — وهو مؤسس الدولة العربية ، وبطل توسعها العسكري ، وصاحب تنظيماتها الإدارية والسياسية — كان حذرا من طموح عمرو بن العاص ، ومن إمرائه في المغامرات العسكرية ، أو كان يخشى أن تهور الجيوش العربية في بلاد المغرب البعيدة ، أو أن تخرج هذه الجيوش عن رعايته ، ومع ذلك استمرت جيوش العرب تأتي إلى شمال إفريقيا قادمة من مراكزها الدائمة في مصر في شبه عملية انسياب هائلة ، وكأنها كانت عمليات تسال لطلائع العمل العسكري القادم مع الزمن ، وكان للعرب في هذه المرحلة محاولات فاشلة ، وكأنهم كانوا لا يملكون خططا لفتح المتكامل ، أو كأنهم كانوا يجهلون وسائل العمل الفعالة ، وتكررت محاولاتهم غير الحاسمة ، وكانت المغنم من أهم أهدافها .

ثم شغلت الأخطار في مصر عمرو بن العاص عن البعد عنها ، وتمطل دوره في مصر وإفريقية باستشهاد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م ، وبعد هذا الخليفة كان عهد الخليفة عثمان بن عفان مرحلة من مراحل التطور الهامة في توسع الدولة العربية ، وكانت أعمال هذا الخليفة مكملة لأعمال من سبقه على الطريق ، فابتدأت محاولات فتح المغرب ، واتخذ واليه عبد الله بن سعد مدينة القسطنطين قاعدة للعمل العسكري في شمال إفريقيا وخرج في جيش العبادة<sup>(١)</sup> المعروف سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ليواجه الروم في معركة كبيرة عند منطقة سبيطلة وانتصر عليهم ، وجاءت جهود من معه من أصحاب الرسول دلائل قوية على شدة الحماس الديني في هذا الجيش ، ولكن انتصار المسلمين لم يحقق لهم وجودا عسكريا

---

١ — اشترك في هذا الجيش عبد الله بن سعد ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعبد الله بن زيد بن الخطاب وعبيد الله بن عمرو ، وعبيد الله بن العباس وغيرهم .



ثابتاً في شمال إفريقيا ، بعد أن اكتفوا بفرض ضرائب مالية ، لم تكن في حقيقتها دليلاً كافياً على وجودهم بالمنطقة ، ورجعوا كأنهم كانوا في حملة تأديب عسكرية طويلة الأجل ، أو كأن هذه الحملة كانت مجرد تدريبات عسكرية حية لتجديد النشاط الحربي في جيش المسلمين ، أو كانت محاولة روتينية يتي بعد الانتصار فيها الاتفاق على دفع ضرائب مالية كبيرة ، وربما كانت هذه الحروب مفروضة بتطور الحياة ذاتها ، أو كانت نوعاً من الاحتكاك المباشر بين الماضي بجاذبيته وأضوائه البعيدة ، وبين من يمثلون المستقبل وتطلعاته وآمال الناس فيه .

ثم انفصلت وحدة المسلمين السياسية ، واختلفت آراؤهم بعد الوحدة القوية التي تبناها الخليفة الأول أبو بكر بالقضاء على الردة ثم دعمها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب بحزمه وعدله ، واستمر النزاع بينهم مدة طويلة ابتدأت باستشهاد الخليفة عثمان بن عفان في ثورة داخلية خطيرة سنة ٣٥ هـ / ٦٥٦ م وانتهت هذه الثورة بانتصار الأمويين سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م . وبعد تغلب هؤلاء على الصراعات الداخلية بدأوا السير في طريق الفتح المنظم ، ونشط أسطول المسلمين في البحر بعد أن قرروا متابعة المد الحربي في تصميم وإصرار ، واشتد النشاط العسكري بعد استقرار الدولة الأموية بالشام سنة ٥٠ هـ / ٦٦٩ م ثم تعطل مرة أخرى سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م بسبب الفتن الجديدة التي قامت باسم الزبيريين والمروانيين بعد اختلافهم على رئاسة الدولة العربية .

وبعد انتصار المروانيين جاء دورهم ليستأنفوا العمل العسكري الهادف من جديد ، وظهرت آخر مراحل تطور هذا العمل في عهد الخلفاء الأمويين عبد الملك ابن مروان وابنيه الوليد وسليمان ٦٥ - ٩٩ هـ / ٦٨٤ - ٧١٧ م .

## ٥ - المراحل المهمة :

واستفاد أبطال مرحلة الفتح الأخيرة في شمالي إفريقيا ٥٠ - ٩٢ هـ / ٦٧٠ م - ٧١١ م من جهود العاملين في حركة الاستطلاع الأولى ، وأرادوا الفراغ من مشكلات الصراع الطويل مع البربر ، وكانت لهم محاولات قوية قام بها قواد من العرب انصرفوا بهم بعيدا عن مجرد الرغبة في الغارات السريعة، المهادنة إلى الحرص على المكاسب المالية التي كان يبيعها قانون الحرب عند كل الناس ، وتبينوا أن جهودهم يجب أن تتجه لفتح الشمال الإفريقي كله ثم الاستقرار فيه ، وعرفوا أن ذلك لا يكون بالاعتماد على مصر البعيدة كقاعدة للانطلاق العسكري لأن هذا كان يعني خطا طويلا للإمداد والمواصلات ، وهذا الخط الطويل كان يتعرض دائما بطول الساحل للتهديد البحري البيزنطي ، كما كان يعني إجهادا عنيفا للجيش العربي ، فكان تأسيس مدينة القيروان نقطة تحول هامة في تطوير حركة الفتح إلى الأمام .

واطمأن العرب بعد تأسيس هذه المدينة إلى وجود قاعدة للإمداد والتأمين ، كانوا يرجعون إليها بعد الغارات على الأعداء ، وفي هذه المرحلة كانوا يواجهون بجيوش ضخمة متحالفة من البربر والروم ، وكان الجيوش الكبيرة لم تقابلهم هناك إلا بعد وضوح عزوهم على الاستقرار بالمنطقة ، وحارب العرب في هذه المرحلة بجيوش كبيرة كانت تستطيع التعامل مع جيوش أعدائهم ، وكانوا قد أدركوا مبلغ الفائدة من اللجوء إلى أسلوب السياسة للإفادة من الأوضاع الاجتماعية التي أصبحت تطوراتهم العسكرية ، ففكروا في الاستعانة بالبربر المسلمين ، وأشركوهم في إدارة المنطقة ، وفي العمل بالجيش على السواء .

وعند مراحل التطور الأخيرة كان بشمال إفريقيا قوتان كبيرتان ،  
إحداهما قوة عربية تشاركها في الجهاد قوات البربر المسلمين ، والأخرى قوة  
أعدائهم ، وكانت تتكون من زمر لا تحصى من البشر ، وجاء صراع القوتين  
في شبه حالات خطيرة من المد والجزر ، وكأنها كانت فرصة الحياة الأخيرة  
أمام الجماعتين معاً ، وربما كان صحيحاً أن يقال إنها كانت قصة صراع مجيدة  
من جانب العرب ، ومن جانب أعدائهم البربر أيضاً ، وجاءت النتيجة هائلة  
في صالح العرب وحدهم ، إذ حدث الانقلاب الخطير في حياة الشمال الإفريقي كله ،  
وأصبح أكثر الناس هناك مسلمين يحملون راية الدفاع عن الإسلام ، وينافسون  
العرب في الجهاد لصالح هذا الدين ، حتى فتحوا معهم الأندلس في شبه شركة  
عظيمة بين شعبين مسلمين كبيرين ، ولم يبق بين البربر من ماضيهم إلا ما كان  
يشبه الذكريات الخافتة .

#### ٦ - من أبطال الفتح :

وإذا لم تكن الرغبة واضحة في إدارة الحديث حول جهود أفراد مهما  
كان نصيبهم من الكفاءات الشخصية لأن جهودهم وحدها كانت تبدو عاجزة إلا  
أن تضاف إليها جهود أبطال كثيرين غيرهم ، وربما تسمح النظم العسكرية بوضوح  
أدوارهم العظيمة ، أو كانت ضرورات العمل في وحدة متماسكة تقتضي أن  
يكونوا جنوداً مجبورين في حركة كبيرة ، فإنه يبدو من جدية بعض المحاولات  
العظيمة التي قام بها بعض أبطال العرب درجة الإخلاص الهائلة لقضية الدين  
والدولة ، وتبدو درجات الكفاءة الممتازة في عمل القيادة عند بعض القواد  
الذين حاولوا بذل الجهد لحسم مواقف طال انتظار نتائجها ، وعرفت  
أسماء بعض القادة الممتازين الذين عملوا في هذه المرحلة الخطيرة ، وكان  
جهودهم وحدها كانت ذات الأثر الواضح في حركة الصراع كلها ،



واستمرت أسماؤهم محمل في التاريخ الإسلامي معاني جميلة من الشجاعة والإخلاص والإيمان والتضحية ومنهم :

١ — عقبة بن نافع .

٢ — وحسان بن النعمان .

٣ — موسى بن نصير .

وكلهم كانوا ولاية عسكريين وأمراء لجيش الدولة بالمغرب، وجاءوا إلى إفريقيا بهدف الفتح والعمل على استقرار وجود المسلمين بها ، وبهدف القيام بمحاولات ناجحة لتعريب المنطقة كلها ، ثم النصر الأخير على حركة المقاومة الرومية البربرية.

١ — وأولهم في القيام بشرف العمل العسكري بالشمال الإفريقي عقبة بن نافع ٨٥٠ / ٦٧٠ م وهو مجاهد عربي ، بدأ بوجوده هناك دور التخطيط الهادف إلى استقرار المسلمين بالمغرب ، وربما كان نشر الإسلام من أهم أغراض هذا الاستقرار في نفس عقبة بن نافع ، لأنه كان رجلاً قوى الإيمان يدفعه الحماس للعقيدة إلى ما يشبه التعصب لها ، والقسوة على مخالفيه فيها ، ويقال عنه إنه كان لا يميل إلى اللين مع أعدائه ما توفرت له أسباب العنف معهم والقسوة عليهم ، وقد خلده انتصاراته المجيدة ، وجهوده الدائمة لنشر الإسلام في بلاد المغرب ، ونجح في تأسيس مدينة عربية في إفريقية لأول مرة في تاريخ العرب بها ، وقصد بيناء القيروان أن يفهم أعداؤه حقيقة الرغبة في نفسه ، وفي نفوس رجاله المجاهدين ، وهي الإصرار على الاستقرار في المناطق التي تمكنهم جهودهم من الوصول إليها.



وكان تأسيس القيروان ٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٤ م حدثاً فاصلاً  
في تاريخ العرب بشمال إفريقيا ، أو كان الحجر الأول في بناء إفريقية  
الإسلامية .

ثم تكرر وجود عقبة بن نافع كأمير على إفريقية في الفترة ٦٢ - ٦٤ هـ /  
٦٨١ - ٦٨٤ م ، واستمر في تأكيد رغبته ورغبة العرب معه في استقرار القواعد  
العربية في إفريقية ، واندفع بحماس المؤمنين في عمليات الفتح حتى وصل إلى  
المحيط الأطلسي ، ودفع فرسه إلى الماء قائلاً إنه لو علم أن وراء البحر يابسة  
لخاضه بفرسه ، حبا في الجهاد في سبيل الله .

ولم تكن منه رعاية كافية لبعض الملابس الضرورية الخاصة بتأمين الطريق ،  
و ضمان وسائل الرجعة عند الخطر ، فقطع عليه أعداؤه طريقه ، وتركوه  
يواجه المحنة ببطولة الشجعان ، واستشهد ٦٥ هـ / ٦٨٤ م وتمرضت القيروان  
بعده للخطر ، وانسحب منها العرب بعد عشر سنوات من الحياة فيها .

٢ - وكان ثانيهم حسان بن النعمان ٧٣ - ٨٥ هـ / ٦٩٢ - ٧٠٤ م  
وله قصة طويلة في حركة الصراع العربي بشمال إفريقيا ، وتشير قصته إلى  
جهوده المخلصة للقضاء على مقاومة البيزنطيين للعرب من عاصمتهم قرطاجنة ،  
وإلى تخطيطه لهذه العاصمة سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م ، ثم إلى بنائه بعدها مدينة  
تونس العربية ٨٤ هـ / ٧٠٣ م وهي تحتفظ للآن بذكرات وجوده  
ببلاد المغرب ، وكان قيام هذه المدينة يعني أن العرب بالمغرب أصبحوا  
قوة بحرية لا تخاف أسطول الروم ، ولا تخشى بأسه ، لأن حسان بن النعمان  
كان قد رأى العيب في حاجة العرب إلى القوة البحرية ، فبنى لهم داراً

لصناعة السفن ، واستدعى لها الخبراء من أقباط مصر النابهين ، ونجح هؤلاء الخبراء في سد حاجة الحكم الإسلامي في الشمال الإفريقي إلى التأييد البحري .

ثم كان حسان بن النعمان واعيا لضرورة التنظيم العسكري بالمنطقة ، فدعم قوة الجيش العربي بجماعات بربرية كانت تعد إلى العقيدة الجديدة باستمرار ، وكانت ترى أن مستقبلها وأملها مع المسلمين وحدهم ، وبلغ عددها اثني عشر ألفا وضعهم حسان بن النعمان تحت قيادات بربرية منهم ومنحهم حق المساواة مع المحاربين العرب .

وأما من خالف حسان بن النعمان من البربر فقد كان له معهم دور هنيئ ، إذ قابلوه هناك بقيادة كاهنة غامضة العقيدة والشخصية ، وانتصروا عليه في معركة كبيرة سنة ٨٧٤م / ٦٩٣م وأضاع النصر صواب زعيمة البربر ، فأرادت أن تحارب العرب بنسوع من أساليب الحرب الخطرة ، وهي حرب الحياة نفسها على أرض أفريقية كلها ، فخرقت المزروعات ، وعبثت بكل ما يمكن أن يكون فيه أمل المساعدة على النصر ، أو البقاء مع الأحياء ، وأضررت بذلك قومها وبلادها فلبجأ البربر إلى عدوها ونصروه ، وقبيلت هي في النهاية الموت أمام حسان ابن النعمان سنة ٨٧٩م / ٦٩٨م بعد أن أوصت أبناءها بأن يكونوا مع المسلمين<sup>(١)</sup> .

٣ — ثم جاء بعده موسى بن نصير ٨٨٦م / ٧٠٥م وهو فاتح المغرب الأقصى وبطل العرب في أسبانيا ، وإذا كانت لموسى بن نصير أعمال عسكرية مجيدة بإفريقية أو غيرها فإنها لا تبلغ بالتأكيد درجة الأهمية المعروفة عن أعمال هذا القائد الشهير بأوربا .

---

(١) كان لها إبنان قادا جيوش البربر في جهادهم مع المسلمين.



المسلمون في إفريقيا





## ١ — بداية الوجود العربي :

ليس هناك تاريخ ثابت لوقت انتهى فيه نشاط المسلمين العسكري في شمال إفريقيا ، لأنه إذا كان من المعروف أن هذا النشاط ابتداء بعد فتح مصر سنة ٦٤١ / ٨٢١ م وأنه استمر بعد ذلك لفترات طويلة كانت ضرورية لتحقيق أهداف المسلمين الدينية وغير الدينية ، فليس من المعروف بالتأكد ذلك الزمن الذي توقفت فيه حركة الصراع الطويل الذي بدأه العرب ، ثم شاركهم فيه بعد ذلك جماعات بربرية مسلمة كانت تقف إلى العقيدة الجديدة ، وتأخذ دورها في العمل على طريق الإيمان ، وبقي لهذه الجماعات دور استمرت تؤديه حتى بعد أن كوفت لنفسها دولا باسم الإسلام ، وباسم مذاهبه المختلفة ، وأخذت دفعات النشاط العسكري تسير في الطريق نحو الغاية ، وإن كانت تبدو في بعض مظاهرها مجرد محاولات خفيفة يقصد بها إعلان صوت القوة أمام طوائف رفضت دعوة المسلمين ، وظلت تعارضهم إلى أن شغلهم عنها أحداث فتح الأندلس ٧١١ / ٨٩٢ م ، وكان لهذا الفتح آثار عملية كبيرة ، منها أنه كان يثير حماس المؤمنين من العرب والبربر ، ويجعلهم يندفعون نحو ميدان الممارك الجديدة في الأرض الجديدة ، ويتركون وراءهم إفريقيا الشمالية ، وهي لا تزال بحاجة لمزيد من جهودهم .

وابتداء الصراع في التاريخ المذكور ، وكان أشبه بالممارك الجانبية التي لا تعطي نتائج حاسمة ، حتى كان العرب لا يعرفون لأعمالهم نهاية ، أو لا يدرون

متى تأتيهم فرصة الراحة من الحياة الطويلة وسط الأخطار ، وقد حاربوا أمة كبيرة المدد وقت منهم موقف العداء ، ورفضت حياة السلام تحت نفوذهم ، وهاشت في مناطق واسعة ، كانت معالمها تقوه أمام الفاتحين ، وتجعلهم يقومون في أخطاء ناشئة عن جهلهم بها ، ولم يتسن لهم التخطيط الهادف إلى الخلاص السريع من عناء الحرب الطويلة ، وبعد أن نجحوا في كسب جماعات من المواطنين المغاربة إلى صفوف المؤمنين ، وبعد أن حاولت هذه الجماعات أن تفهم أغراض العرب الحقيقية من النشاط كله ، لم يجدوا في هذا النجاح ، ولا في هذه المحاولة أملا كبيرا يساعد على اختصار مدة الصراع ، لأنهم أنفسهم تورطوا في حروب أهلية أثارتها خلافاتهم الداخلية الناشئة من احتياج دولتهم الكبيرة إلى نظم الإدارة الكفيلة بحفظ تماسكها ، وإلى النظرة الجديدة لمشكلاتها المعقدة ، وكانوا لا يملكون النظم المطلوبة لأنهم كانوا في فجر وجودهم كقوة كبيرة لأول مرة في التاريخ ، ولا يعرفون الاتفاق على رأى في علاج المشكلات الطارئة ، ودهمتهم الأحداث الخطيرة من داخل دولتهم ذاتها ، وشغلهم التنافس حول رئاسة الدولة عن الفتح أو أعجزهم عن تعهده بالعباية والاهتمام .

وكان الفتح في إفريقية البعيدة عن مراكز السلطة ولا يمكن النجاح في هذا المكان البعيد إلا بجهود كبيرة تؤذيها الجماعات غير المشغولة بالمنازعات الداخلية ولا يكون النجاح أيضا إلا بنفقات ضخمة لا تستطيعها إلا الدولة المستقرة القادرة على تقديم التضحيات المطلوبة ، ووقفت مصر في الطريق بين الشام وإفريقية تطالب بحق الإشراف المباشر على سير العمل بالمغرب ، وكان

محكمها ولاية أقوىاء ساهموا بمجهدهم فى خدمة الدولة الأموية أو كانت لهم قرابة شديدة برؤسائها، ووجدوا فى هذا وذاك الأمان الكافى من غضب الخلفاء عند منافستهم فى سلطات بعيدة عن دوائر نفوذهم ، وازدادت رغباتهم فى توسيع مجال أعمالهم وفى فرض إرادتهم على مناطق تقع بعيدا عن حدود مصر الغربية ، وتعارضت السلطات وعانى عمال الولاية وقواد جيشها من التبعية المضطربة أو المزدوجة ، وعاشوا يرقبون أحداث الشرق فى خوف ، وفى كل الأحوال كان الخلاف يشتد حول من له حق التصرف فى الغنائم الإفريقية ، وكانت هذه غنائم كبيرة عرضت الفاتحين دائما لتهم الخيانة ، وأثارت فى الحكام غريزة التملك .

لقد ابتدأ العمل من مصر فى شبه غارات سريعة لا تنتهى إلى شىء غير ما يشبه الفكرة الغامضة عن طبيعة البلاد وسكانها ، واستمرت الفكرة غامضة أمام الباحثين عنها لفترات طويلة لأن جهد العرب كان رتبيا ينبع أسلوب المغامرين الباحثين عن المال وحده ، وتقوم به جماعات سريعة الحركة تفاجئ الناس بالفارة ، ثم تعود إلى مساكنها فى سائر مصر البعيدة .

ثم جاءت فكرة الاستقرار بعد محاولات استمرت ثلاثين سنة ، وبعد أن تبين المسلمون أن جهودهم لا شك ذاهبة بلا نتيجة ، ما دامت تتخذ مصر قاعدة للانطلاق والفتح ، وربما كان ذلك شيئا معروفا لهم منذ مارسوا نشاطهم المسكرى بأرض إفريقية ، غير أنهم كانوا يحتاجون لإنجاح



فكرتهم إلى تأييد الدولة المشغولة بمحوادثها الداخلية والعاجزة عن عرض  
الإمكانات القوية الكفيلة بحراسة معسكرات المسلمين التي تقام بعيداً في أرض  
إفريقية الشمالية ، ولم يكن مقبولا أن يستمر السير على الطريق الطويل بين  
مصر وبين ميادين المعارك المغربية، لأنه كان يعنى التعرض الدائم للتهديد البحري  
البيزنطى ، كما كان يعنى قبول المفاجآت الخطيرة بعد البعد عن مراكز  
الجيوش الأساسية .

ولهذا كان تأسيس مدينة القيروان مرحلة فاصلة بين عهد الحملات  
الاستطلاعية وعهد الفتح المنظم ، واستغرق تأسيس هذه المدينة أربع سنوات بين  
سنتي خمسين وأربع وخمسين للهجرة ، وظهرت بظهورها رغبة العرب في  
الاستقرار وابتدأت تتضح معالم ولاية المغرب الجديدة ، وأريد بها أن تكون  
عاصمة لمناطق تكتسب في المستقبل بجهود المجاهدين وعمل الأبطال ، وأشاع  
بناء القيروان الأمل في تكوين الولاية الأفريقية الغربية ، ولم يكن هذا الأمل  
وحده كافياً لإظهار الشخصية المغربية المتميزة، أو إعلان الولاية المستقلة، لأن المدينة  
كانت مسكونة بجماعات مؤمنة قليلة العدد ، ومحاطة بزمر بشرية تستطيع بقوتها  
أن تفرض التغيير ، وتستطيع أيضاً أن تثبت وجودها بالعنف والصخب الدائم ،  
وصحيح أن العرب بنوا هذه المدينة بعد جهود كبيرة قدموها طوال مدة قاربت  
الثلاثين عاماً ، ولا بد أنهم وجدوا عند بنائها نوعاً من إمكانية الحياة هناك في  
أمان إلا أن عدم الاتفاق بين رؤساء الدولة في الشام ورؤساء السيادة على مصر —  
عدم اتفاق هؤلاء على الوضع المأمول لهذه الولاية جعلها تظل مدة طويلة كمعسكر  
للجنود لا عاصمة لإمارة تبدأ الحياة من جديد .

وجاءتها وفود المحاربين من مصر والشام وجزيرة العرب وأقاموا بها

كمرابطين على نية العمل السريع عند المفاجآت الخطرة ، بمعنى أنها كانت عند نشأتها مجرد معسكر يقيم فيه جيش المسلمين حتى تأتيه فرصة العمل ضد الأعداء ، ولوحظ أن تتحقق فيها الشروط الأساسية المطلوبة من المدن القائمة لنفس أغراضها ، ومن هذه الأغراض : محاولة التغلب عن طريقها على طبيعة المسرح الجغرافي المحيط بها ، والمساعدة على الاتصال بالسكان عن طريق التفاهم المعروف عند البشر ، ومتابعة الحرب لنشر العقيدة ، ودفع المعارضين عليها ، والبعد عن إشاعة الفهم بأن الفارات العربية لم تكن إلا نماذج افارات النهب الخفيفة ، ثم لتسكون الملجأ الأول والأخير لأهلها ، ومركز الإشعاع الروحي لمن يشاركونهم في الإيمان بالدين الجديد .

وكانت أهم شروطهم عند تشييد المدن العسكرية بُعدها عن التعرض لخطر العدو المباشر ، ومساعدة موقعها على تلقى الإمدادات بما يحقق استمرار أداء رسالتها ، ووجود أسباب الحياة الرئيسية الكفيلة باستمرار البقاء فيها .

ثم حاول المسلمون بالنجاح والأمل أن يحققوا رغبتهم في تكوين ولاية مستقلة بالمغرب ، فازدادت عنايتهم بالقيروان وحاولوا تخطيطها وتنظيمها ، واهتموا بمسجدها الذي جعلوه مكاناً للقيادة ومكاناً للدراسة والاجتماعات معاً — وكانت هذه وظيفة المساجد عند المسلمين — وأثاروا حماس الراغبين في المعرفة بطلب القادرين على منحها للناس ، وتطورت قدراتهم ، ونمت جهودهم ، وأزالوا عوامل الخطر عن بلادهم الجديدة بتعظيم قرطاجنة عاصمة الروم ٧٩٨ / ٦٩٨ م ثم أنشئوا مدينة تونس شمالي القيروان كميناء بحري يخدم أهداف الولاية الناشئة ، وبعثوا فيه النشاط بالصناعات البحرية التي استخدموا فيها خبراء مصريين جاءوا إليها ليسدوا حاجة الحكم الإسلامي في الشمال الإفريقي إلى التأييد البحري .

واقترنت هذه المحاولات بمحاولات أخرى لوضع نظام إدارى يتفهم ظروف البيئة وأحوال من يعيشون فيها فقسمت البلاد خططاً تقتصر فيها وتسال منها القبائل المحيطة بها، وكانت هذه قبائل بربرية تثير حماسها مبادئ الإسلام فى العدل والمساواة والحرية ، وترى هذه المبادئ تقط الالتقاء الأساسية بين شعبين يجتمعان حول عقيدة واحدة ، ويميشان فى مكان واحد ، وجاء من العرب من أدرك خطورة وجودهم ورحدم فى الصحراء بين جماعات كبيرة تبتعد عنهم بقدر ما يبتعدون عنها ، فحاول تشجيعها على المشاركة فى الجيش والإدارة ، وضمن لها الحق فى عطاء الدولة وفى مكاسب الحروب وغنائمها ، فشر البربر بوجودهم كحلفاء عليهم بعض مسئوليات العمل فى النظام الجديد ، ولهم كل حقوق العاملين فيه ، وظهر بالزمن بين العرب والبربر ما يشبه الحلف بين جماعات تتقابل دائماً حول العقيدة ، وترى غيرها من الروم والأفارقة طوائف أجنبية ، يجب أن تنعدم آثارها من البلاد كلها .

وقد يكون التقارب بين العرب والبربر محاولة ناجحة لفهم ضرورات العمل فى البيئة الجديدة، أو قد يكون نوعاً من الفهم الصحيح للعمل الواجب فى المكان الجديد، وقد أعطى التقارب لسكان البلاد الشعور والإحساس بأن بلادهم ردت إليهم ، وأن شركاءهم العرب جاءوا ليمشوا بين الناس على مبادئ الإسلام وحده ، ولم يبق بين الشعبين إلا أن يجتمعا حول العقيدة الجديدة ، فيكونان شعباً واحداً يعيش فى ظلال الدين الجديد ، وعليه بعد ذلك مسئولية العمل لنشر هذا الدين بين المتخلفين عنه أو بين غير الراغبين فيه .



وإذا كان نشر الإسلام غرضاً أساسياً عند المسلمين جميعاً فقد ظهرت الجهود المخلصة لخدمة هذا الغرض منذ كان للمسلمين وجود بشمال إفريقيا، ويشار في التاريخ إلى بعض الجهود الموفقة التي قام بها قواد العرب المشهورون بقوة الإيمان، وهؤلاء نجحوا في أن يكسبوا للإسلام قبائل بربرية بعد إيمان ملوكها (١).

وكان عقبة بن نافع عظيم الأثر كرجل مؤمن فيمن يحيطون به، ويقال إن سلوكه الديني وتواضعه وشدة ورعه كانت من أسباب إيمان جماعات كبيرة بإفريقية، وقد ظل أثره الديني باقياً هناك حتى بعد وفاته، وكان لوقفاته الأخيرة للدفاع عن نفسه أمام خطر الموت أثرها الممتاز حتى في قلوب أعدائه وقاتليه، ولا يبدو أن البربر كانوا يلتزمون باتباع دين واحد له سلطان على عدد كبير منهم، ولم تشتهر عنهم طقوس دينية، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن نماذج واضحة لدور عبادتهم، غير أشياء تذكر عرضاً في كتب التاريخ أو غيرها، وربما كانوا وثنيين بصورة غامضة، أو كانوا بعيدين عن الوصف بالتدين، لأن من المعروف أن الدين البربري لم يكن ذا أثر في الخصومة بين البربر والعرب، وقد ظل تأثيره بعيداً عن ساحة القتال حتى النهاية، وإذا كان العرب يعيشون بالدين ومن أجله ويحسمون نشره هدفاً لوجودهم وتصرفاتهم، وإذا كان يحشرون جماعات كبيرة مؤمنة ترجو الموت في سبيل الإيمان وحده فإن الجماعات البربرية التي قابلتهم في ساحات الحرب، لم تتخذ جانباً واضحاً من الدين، أو لم تكن

(١) استطاع والي المغرب أبو المهاجر دينار ٥٥ - ٦٢ هـ / ٦٧٤ - ٦٨١ م أن يتحالف من كسيلة زعيم قبيلة أوربة البربرية بعد أن اكتسبه إلى الإسلام.



تعمل لخدمة عقيدة دينية تثير حماس المحاربين منهم ، والتعالف العسكري بين الروم المسيحيين ، والقبائل البربرية المتأثرة بالمسيحية لم يكن تحالفاً دينياً ، وإنما كانت له أغراض بعيدة عن مسائل الإيمان والعقيدة ، ولا يقال إن الروم بدورهم حاربوا من أجل المسيحية ، لأن الاسلام لم يكن أخطر على هذه الديانة من الروم أنفسهم ، ومن المعروف أن الروم البيزنطيين كانوا من أسباب القضاء على ما كان قد عرف عن المسيحية عند البربر ، وكانوا أيضاً من أسباب تضاؤل أعداد المسيحيين بشمال إفريقيا ، لأنهم خلال القرن السابق لظهور الإسلام كانوا يمارسون عملية اضطهاد شاملة للمسيحيين غير المؤمنين بوجهة نظرهم في المسيحية .

واستجابت قبائل البربر البدوية للإسلام ، وظهرت الاستجابة السريعة في القبائل الجنوبية غير المتأثرة بالمسيحية وظلت القبائل المحيطة بمساكن الروم في الشمال مترددة في قبول الدعوة ، وربما كانت هذه قبائل نصف مسيحية تحمي بوجودها وجهودها حياة البيزنطيين والأفارقة المسيحيين من أخطار الرعاة المدفوعين بسبب الحاجة إلى الفارات في كل مكان .

وأوجدت مدينة عقبة والمدن الإسلامية معها حركة اختلاط كبيرة بين العرب وبين حلفائهم المسلمين ، وزاد الاختلاط بعد انتصار حسان بن النعمان على كاهنة البربر ٦٧٩/٦٩٨ م وكان حسان يشترط لأمان أعدائه أن يشاركوه في الجيش ، وأخذ منهم اثني عشر ألفاً كانوا يعملون تحت قيادات بربرية لنفس الأغراض الإسلامية ، وإذا كان حسان شيخاً أميناً تشغله إرادة الحياة في سلام بين الناس ، أو تشغله إشاعة السلام بين الناس ، وإذا كان راغباً في محاولات التفهم المهادنة لمشكلات المنطقة وسكانها ، وإذا كان يرى طريق الوصول إلى قلوب البربر

بتحقيق العدل والتسامح والمساواة معهم كمبادئ إسلامية لها الأثر العظيم في تقدم الحياة وتطورها فإن موسى بن نصير بعده كان محاربا نشيطا يسيء دائما الظن بأعدائه ، ولا يرجو معهم سلاما إلا في ظل القوة ، ولذلك ضاقت المنطقة بنشاطه الحربي ، وقسا في معاملة أعدائه واندفع بالحماس الديني إلى العمل العسكري الصارم فخافه الناس ، وأمرعوا للإسلام أمامه ، ولم يعد الإسلام في عهده كسبا روحيا فقط ، وإنما كان كسبا ماديا أيضا لأنه كان يحفظ على الناس أموالهم ، ويتيح لهم فرص الاشتراك في فتوح العرب ، ويعطيهم حق المشاركة في مغانمها .

وجاءت النهاية تشير إلى وضوح المستقبل في جانب المسلمين وحدهم ، وزاد نشاط موسى بن نصير لينهي الحرب في شمالي إفريقيا بعد طول الزمن ، وذهب إلى مناطق كانت بعيدة لم تصل إليها جهود من سبقوه وامتنعابت لدعوته جماعات كبيرة من القبائل البربرية ، وانضمت إلى جماعات أخرى كانت مع المسلمين قبله ، ويبدو أنه كان إنسانا يريد أن يسبق بأعماله الزمن ، وكان يحس بمسئوليته في المستقبل ، فكان من البربر جيشا قويا يعمل معه في المناطق البعيدة ، وإن لم تكن هذه ظاهرة جديدة تجيء عن طريقه وحده ، ولكنها أصبحت في عهده شديدة الوضوح ، وعظيمة الأثر ، بعد أن أخذ قواد المسلمين من البربر دورهم مع العرب المسلمين في الجهاد ، وقادوا الناس إلى أسبانيا ؛ وكسبوا النصر هناك بعد معارك كبيرة كشفت حقيقة إيمانهم بالدين والمستقبل .

ويقال إن هذا كان من أعظم الانتصارات العربية في شمالي إفريقيا إذ لأول مرة في تاريخ المسلمين تحارب جماعات مسلمة غير عربية مع المسلمين وتبذل في سبيل الإسلام كل جهد وتضحية .

لقد كان فتح أسبانيا فرصة مناسبة للمسلمين يمكن أن يكسبوا بها جماعات جديدة من المترددين في قبول دعوة الإسلام ، وجاء نصر طارق بن زياد مع جماعته البربرية بدفعات من الحماس الديني عند البربر الذين كانوا في حاجة للدخول مع العرب في وحدة تجمعها العقيدة ، وزاد دخول البربر إلى أسبانيا حيث الحياة والأمل والبعد عن مشكلة الدوران حول سؤال لم تعرف الإجابة عليه ، وهو لمن تكون السيادة في إفريقية ، وناقشهم في دخول أسبانيا أيضا جماعات عربية كانت تقدم من الشرق مدفوعة بالاضطرار بسبب منازعات الأحزاب وتمدد الحصومات في الدولة الأموية ، ومدفوعة أيضا بالرغبة في معرفة الجديد والإفادة منه ؛ وفي طريقها كانت إفريقية المشحونة بالبربر الراغبين في دين العرب وفي لغة العرب وجاء الاختلاط بين الجماعتين مفيدا في أمور الدين واللغة ، وكانت فرصة البربر في معرفة لغة العرب ودين العرب ، وكانت أيضا فرصة العرب في خدمة الدين واللغة ، وفي بث الدعايات لخدمة أغراضهم المذهبية .

### ٣- - محاولات الإصلاح :

وبعد الفتح انتهت مراحل العمل في الغرب وما كانت تأتي به من غنائم تثير حماس الطامعين فيها وتثير أيضا تساؤلات من كانوا يفهمون أن للفتوحات الإسلامية أهدافا أخرى غير الأمرى والأموال وكان مسير موسى بن نصير من الأندلس إلى الشام بجماعات الأمرى ، وأعمال الغنائم مشهدا فريدا من مشاهد التاريخ ، قد يشير إلى أقصى مراحل القوة عند المسلمين المنتصرين ، وقد يشير أيضا إلى نوع من القسوة ، والبعد عن قصد الإسلام في فرض الجهاد على المسلمين ، وكان موسى - كما يقول التاريخ - يتصرف في



أعماله كما لو كان ملكا ، ويتفق أموال الدولة كما لو كان سفيها ، وقد عين أبناءه الثلاثة أمراء على إفريقية والأندلس<sup>(١)</sup> وكانما كان يحاول تأسيس أسرة حاكمة .

وجاءت حكومة سليمان بن عبد الملك برأى جديد تحاول به إصلاح أخطاء الفاتحين وإفهام الناس أن أعمالهم كانت مجرد تصرفات شخصية لا ترضى عنها السلطة الجديدة ، وسواء أكانت هذه حقيقة الرغبة عند الحكام الجدد ، أم أنها كانت محاولة غير طيبة لتشويه سمعة القائد الشهير موسى بن نصير فإن أول وصايا الخليفة الجديد لواليه محمد بن يزيد<sup>٩٧/٨٩٩</sup> - ٧١٥/٧١٧ م هي أن يتمسك بالعدل بين الناس ، وأن يراعى الرحمة معهم ، وربما كان هناك نوع من الظلم الشائع بعد النشاط العسكري العنيف الذي كان بطله موسى بن نصير ، إلا أن محاولات الوالي الجديد لم تدل على ما يشبه الرغبة في إقامة العدل بين الناس ، لأنه أخذ يتتبع أبناء الوالي قبله ، ليعاقبهم وليأخذ أموالهم ، وكانت هذه وسيلة الإصلاح عنده .

وجاء عمر بن العزيز ٩٩ - ١٠١/٨٧٧ - ٧١٩ م وأراد أن يحدث تغييراً شاملاً في مسيرة الأحداث بالدولة كلها ، وأن يوفر كل الجهود لصالح الإصلاح الداخلي وحده ، وكانت أمامه مشكلة التناقض المريب بين السياسة الدينية والسياسة المالية في الدولة بعد أن تفاقم أمرها مع الزمن ، وظهرت هذه المشكلة بعد أن وصلت دولة الأمويين إلى أقصى مراحل تطورها الجغرافي ،

---

(١) كان عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس ، وعبد الملك بن موسى على طنجة ، وعبد الله بن موسى على إفريقية .



وكانت لها جيوش كبيرة تدفع لها أعطيات ثابتة ، ولها جهاز إدارى كبير يعمل فيه موظفون يعيشون من عملهم ، ثم كانت تحتاج فى حركة تطورها إلى إصلاحات كثيرة لا يمكن الوفاء بها إلا بالمال ، وقد ضاعت موارد هذا المال بعد توقف النشاط العسكرى ، وبعد دخول الناس فى الإسلام بدافع الرغبة فيه أو بدافع الهرب من الالتزامات المالية المفروضة عليهم ، وفى الطريق إلى الحل المطلوب قسا الولاية على الناس ، ورفضوا إسقاط الجزية عن الوافدين إلى الإسلام ، وحرموهم من حقوقهم فى المساواة فى أعطيات الدولة ، وطلبوا منهم الخدمة فى الجيش بدون مقابل .

واختار عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد الله ١٠٠ هـ / ٧١٨ م واليا على إفريقية ، وكان اختياره بعيداً عن معانى المكافأة لتأييده لقضية الدولة ، أولئكونه واحداً من ذوى العصبيات القوية فيها ، أو قريباً للخليفة أو لواحد من زعماء دولته ، وإنما اختاره لأنه كان شجاعاً فى تقرير الصدق ، وقول الحق ، إذ رفض أن يحلف مع عشرة من أعيان إفريقية أمام الخليفة سليمان بن عبد الملك على أن مال إفريقية المرسل إليه كان مأخوذاً بالحق والعدل ، وأنه كان يزيد عن حاجة المحتاجين هناك .

وصرف الوالى همه إلى دعوة الناس للإسلام وإلى تخفيف أعبائهم المالية ، وبعث له الخليفة عشرة من فقهاء التابعين ليعلموا الناس أصول الدين ومبادئه ، وإذا لم يكن الطريق الذى سلكوه لتعليم الناس مبادئ الإسلام معروفاً ، فإنه يقال إنهم أقاموا بالقيروان وبنوا هناك مساجد كثيرة ، ووفد عليهم فيها الراغبون فى تعلم الدين ، وكان الناس بإفريقية لا يزالون فى حال من الجهل بمبادئ الإسلام .

وقويت الدعاية الدينية ، وجاءت بنتائج قيل من أجلها إن البربر كلهم دخلوا في الإسلام على عهد هذا الخليفة وحده ، وانتشر الإسلام في المغرب وعم قبائله ، وبقيت بعد ذلك في البلاد أقلية غير مسلمة كانت استجابتها للدين من جهود الأجيال ، ثم اكتملت للمغرب الأسباب ليصبح بلادا إسلامية صرفة ، يحكمها عمال الخلفاء المسلمين ، ويدين أهلها بالإسلام ، ويتكلمون بلغة العرب ، وسواء أكانت الأسباب الدافعة للإيمان هي بساطة دين المسلمين وحدها، أو كانت أشياء أخرى ، فإن معالم المغرب القديم قد اختفت ، وحلت محلها معالم جديدة تشير إلى وجود أمة مسلمة واحدة ، ترتبط مع المسلمين وحضارتهم ومزاجهم وآمالهم ومستقبلهم .

#### ٤ — بعد الإصلاح :

لقد نجح المسلمون العاملون بشمال إفريقيا في عهد عمر بن عبد العزيز في تحويل اتجاه الناس جميعا نحو الإسلام ، أو في قبول الناس لدعوته بدافع الإيمان به ، أو بدافع الحاجة إليه ، وانتهت في هذا العهد المعارضات القوية ضد المسلمين هناك ، ووضح المستقبل في جانب المسلمين وحدهم ، وتكون جيش إفريقي من المسلمين العرب والبربر ، وفتحت أمامه مجالات العمل في أركان إفريقيا الجنوبية الغربية ، وظهر المسلمون هناك في شبه وحدة قوية تربطها العقيدة ، ويزيد في تماسكها محاولة الحكام الالتزام بنصوص الدين الخاصة بالمساواة والإخاء البشري .

غير أن هذه النتائج كانت مرهونة بوجود السياسات القوية التي تحافظ عليها ، وبوجود الخلفاء المؤمنين بضرورتها ، وبحرص الولاة على دوامها ، وقد كانت هذه النتائج من آثار الجهود التي ظهرت منذ وجد المسلمون في شمال إفريقيا

وكانت أهدافا رئيسية تضافرت جهودهم على تحقيقها ، وتوجت أعمال الخليفة عمر بن عبد العزيز كل محاولاتهم ، وكانت له ولواليه أعظم الجهود في الوصول إلى هذه الغاية .

لقد كان الخليفة يريد الناس كلهم مسلمين ، يعيشون في ظل عدالة الإسلام وحده ، فأرسل لهم للرشدين من أشهر أساتذة علوم الدين ، ومن أعظم المسلمين إخلاصا لقضية العقيدة الدينية ، ومن أحسنهم فهما لتصورات الخليفة لوظيفة الحكم في الدولة ، فنجحوا في عملهم وأدوا دوراً رئيسياً في تحقيق أسنى الغايات المطلوبة لرئيس الدولة ، وهي المساهمة في توضيح قضايا الدين ، ونشره بين غير المؤمنين به ، وكان الخليفة نفسه مؤمناً يسعده أن يدخل الناس جميعاً الإسلام على يديه ، وتمتضى عدالة الإسلام في رأيه أن يتساوى كل الناس أمام قانون الدين وأن يقوم فيهم من يؤمن بالعدالة ويحترمها ، ومن تكون عنده سلطة فرضها على الناس ، أو من يستطيع منعها للمحرومين منها ، وأرسل لهم واليا يرى فيه الكفاءة لتحقيق هذه الغاية ، وكان من أهم مظاهر المخالفة لأصول الإسلام الأساسية ما كان هناك من التفرقة بين المسلمين في المعاملات المالية ، إذ كان العرب يعيشون مع الإحساس بوجود الدولة العربية ، وكانت لهم فيها امتيازات لم تكن لغيرهم من المسلمين المطالبين بدفع ضرائب مالية فرضها الإسلام على غير المسلمين وحدهم ، وقال الولاة قبل أيام عمر بن عبد العزيز إن الالتزام بهذه الضرائب ضروري لصالح النظام ذاته ، لأنها تمثل نسبة غير قليلة من الدخل العام للجماعة المسلمين وبدونها تعجز إدارة الدولة عن الوفاء بالتزاماتها ، وتختلف عن تحقيق مشروعات الإصلاح المطلوبة منها .

ورفض الخليفة أن يخالف تعاليم الإسلام الصريحة ، وأمر برفع الضريبة



المطلوبة من غير المسلمين عن المسلمين ، ولو كانت الدولة في حاجة إليها، فهي غير مقبولة عنده ، لأنها غير مشروعة ، ولأنها مظهر من مظاهر الظلم في مجتمع يجب أن تسوده قواعد العدل الإسلامية .

ورأي الخليفة تحقيق أفكاره بالوسائل العملية ، وأيدته طوائف المسلمين المجتمعين معه على رأي واحد في فهم معنى العدالة الإسلامية ، وفي الاهتمام بنشر الدين كدعوة عامة لكل الناس ، ووجد هو من المسلمين أفرادا عندهم إرادة العمل لتحقيق هذه الغايات ، واستمر في عهده القصير يسير مع معاونيه نحو تحقيق الأمل البعيد ، وقد كان الأمل بعيدا لم تساعد على بلوغه فترة قصيرة كان فيها هذا الخليفة المؤمن سييدا لدولة المسلمين .

وخلفه حكام مسلمون رفضوا السير بعده على نفس الطريق ، وأهمتهم شئون المال وحده ، ورجعوا بالناس وبنظام الإدارة المسالمة في دولتهم إلى حيث انتهت قبل حركات الإصلاح التي حاولها الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ورأوا ضرورة الوفاء أولا بحاجاتهم العاجلة ، وبحاجات دولتهم المتطورة ، وكانت وسائلهم تنحصر في تعيين ولاية يعرفون الهدف من اختيارهم ، ويعرفون الغرض من وجودهم كرؤساء في مناطق الدولة الواسعة ، فانصرفوا إلى ولاياتهم راغبين في رضا الخلفاء وحدهم ، وحققوا ذلك :

١ - بمراجعة النظام المالي كله ليتمكن الوفاء بحاجات الدولة المالية ، والإسراف في إظهار الولاء للخلفاء بإرسال الهدايا والتحف إليهم .

٢ - وبأخذ أموال الولاة السابقين ، والعمل تحت تأثير الأحقاد الشخصية التي كانت تترك المجتمع ، وتسيء إليه .



٣ - بعدم الإيمان بمبدأ المساواة في المعاملة المالية بين الناس والتفرقة بين

العرب وغيرهم من المسلمين .

ورغم أن هؤلاء الولاة حاولوا إرضاء مواطني العامة الدينية ببعث النشاط الحربي من جديد، وبالغارات الفاشلة على صقلية ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م، ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م، ثم المنابة بمدينة تونس العربية التي كانت قاعدة الأسطول الحربي الإسلامي، وتجديد دار صناعة السفن فيها وبناء المساجد وغيرها، إلا أن رغبتهم في المال وحده وعدم الاهتمام بشرعية الوسائل المتبعة في الحصول عليه غطت على كل محاولاتهم المكشوفة للتنمية ، ورأى فيهم الناس نوعاً آخر من حكام جاءوا على غير طريق الإسلام الصحيح ، وظهر التناقض بوضوح بين تصرفات العمال كمثابن خلفاء يجلسون على قمة مجتمع المسلمين بالشام ، وبين تعاليم الإسلام الصريحة في العدالة الاجتماعية والمساواة الأخوية ، وكانت هذه التعاليم الدينية قد أصبحت معروفة أبعد إلحاح الدعوة المسلمين من كل الأحزاب الإسلامية عليها .

حتى التابعون العشرة الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز للتقريبات كانوا في مواعظهم يطلبون إيقاف التيار المخالف لمبادئ الدين ، وكان رجال الدولة أنفسهم كانوا غير راضين عن سلوك الخلفاء وعن تصرفات عمالهم ، ومعنى هذا أن تعاليم الإسلام أثارت حماس الناس في كل مكان .

وظهر التناقض بوضوح أكثر عندما أسرف الولاة في الاستبداد ، وجاءت حاجاتهم غريبة ، ومطالبهم غير عادية عند جماعات كانت لا ترجو إلا الخير في عهد المسلمين .

وحدث مظاهر الاستبداد ، وظهرت القسوة في جمع المال ، وزادت الرغبة

في البربريات السنيات ، وفي غيرهن من جلود كانت تستعمل في صنع الملابس الملكية، وهذه الجلود كانت تسبب للناس خسائر فادحة، وأمر ذلك «أن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى محال طنجة في نوع معين من الجلد لا يعرف إلا باختباره بعد ذبح الشاة ، أو في جلود معينة لأجنة الفم مما كان يتطلب ذبح الشاة دون الخراف » و « جعلوا يقتلون ألف شاة في جلد واحد » « وكانت الصرمة من الفم تهلك ذبحاً لا تمأخذ الجلود العسلية من سخالها ، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه » (١) .

وقد يثار الشك حول حقيقة هذه الدعاوى المعجبية ، وربما كان فيها نوع من الإسراف والمبالغة ، والمؤرخون يذكرون ذلك في محاولاتهم التعرف على أسباب مقبولة لثورة خطيرة قادها أحد زعماء البربر الخاضعين لدعايات الخوارج الملحة ، وقد تكون هذه الثورة نتيجة للمنازعات الحزبية ، أو العصبية التي لعبت دوراً كبيراً في حياة دولة الأمويين ، وقد كان هؤلاء سياسة مروفة مع خصومهم السياسيين ، لأنهم بعد أن نالوا السيادة في دولة المسلمين بسيفهم عجزوا عن إقناع كثير من الناس بضرورة التسليم لهم ، والخضوع لسيادتهم ، واستمروا يمسكون بأسباب القوة لتحميمهم من ثورات خصومهم العنيفة ، وقد اضطروا هؤلاء الخصوم إلى أن يتعدوا بنشاطهم عن بلاد الشام وما حولها ، وتمقبوهم في كل مكان بالأذى والمذاب ، ووجد بعضهم في المغرب الواسع المتشعب المسالك مجالاً للعمل أو مأوى من الخطر ، واندسوا بين القبائل الآسفة لما كان يصيبها من من عنف ومتاعب على أيدي ولاية الدولة ، وأثاروا فيها حمية الغضب ليعرضوها على الثورة والعصيان .

وسواء أكان أهل إفريقية من أطوع الناس كما يقول الطبرى ، أو كانوا غير ذلك ، وسواء أكانوا راغبين فى الحياة مع العرب فى مجتمع تتسوه فيه معالم التمييز العنصرى وينشط فى خدمة الدين ، أم كانوا دائماً فى خوف من طغيان الشخصية العربية عليهم ، ومن ضياع وجودهم كأمة تحب مشاركة الزميل ، وترفض خضوع التابعين ، فإنهم غضبوا من إسراف الولاة فى ظلمهم ، وذهب وفدهم إلى الشام ليقول للخليفة هشام بن عبد الملك :

١ — إن أمير المغرب يغزو بهم وبالعرب ويحرمهم من نصيبهم فى الغنائم .

٢ — وإنه يقدمهم فى القتال ويؤخر جنده .

٣ — وإنه يقتل مواشيهم .

وكانت الدولة غير راغبة فى الاستجابة لحاجاتهم ، فرجعوا بلا أمل ليردوا عليها بثورة دينية ترفع شعار المساواة ، وعدم التفرقة العنصرية ، وتبنى دعاياتها على الأفكار الخارجية المتطرفة ، وكانت هذه الأفكار معروفة ومشاعة بشمالى إفريقية منذ ظهرت مشكلة الخوارج بالشرق العربى .

وليس معروفا ما إذا كانت ثورة البربر ثورة خارجية مدفوعة بآمال الخوارج وحدهم وبقوتهم وحدها أم أنها كانت ثورة بربرية تتأثر بالخوارج ، وتجدد وسيلة من وسائل القوة لمعارضة سلطة الدولة ، وربما حدث شئ من امتزاج الأفكار واختلاطها ، أو ربما وجدت آراء الخوارج قبولا عند البربر ، ووجدت رغبات البربر تأييدا من الخوارج ، فوحدت الروابط العنوية



بين الجميع واجتمعوا حول هدف واحد هو حرب الدولة .

لقد وصل الفكر والنشاط الخارجى إلى المغرب بعد أن تبلور مذهبهم في الشرق ، وبعد أن عرضتهم آراؤهم ونشاطهم لفضب الدولة التي كانت تملك وسائل إرغامهم على الفرار في كل مكان ، وربما كانت القسوة معهم ، واستياء الناس منهم ، سببا في تعديل أفكارهم ، أو ربما كان هذا التعديل الأسباب أخرى منها :

١ - تطور مفاهيمهم بسبب وعيهم لما حولهم .

٢ - ورغبتهم في الخروج عن مواقف الجلود المهلكة .

والمهم أنهم هربوا كأفراد يمتخفون بين صفوف الجيش العربى القاهب إلى مسرح المعارك الحربية في الغرب ، أو كجماعات صغيرة راحلة تمخى فكرها ومذهبها عن حولها وتعيش الناس وتداريهم ، حتى تجد فرص العمل في الأكن البعيدة ، ورأى المعتدلون<sup>(١)</sup> منهم أن خير الأمور الوسط ، فلم يقولوا بكفر ماعدا الخوارج من الناس ، ولا بإمكان الحياة والتسامح مع كل الناس ، وظهرت دعوتهم ببلاد المغرب ، وكانوا ينشرون بنا تحت شعار الإصلاح الدينى ، وظل دعائهم يترددون في الكشف عن اسم مذهبهم علنا ، ويكتفون بالمطالبة بإرجاع الإسلام إلى سيرته الأولى ، وبالنادات بالإخاء والمساواة وعدم التفرقة العنصرية ، واستهوت دعائهم جماعات من الناس استطاعوا بها معارضة الحكومة وحربها بعد أن تطورت معارضتهم الصامتة إلى معارضة نشيطة علنية بالكلام المسموع ، ثم تطوت بعد ذلك إلى

---

( ١ ) كان ميسرة المدغرى زعيم الثوار متأثرا بمذهب الخوارج الصفرية وربما كان واحدا منهم .



ثورة مساجدة بإقليم طنجة سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م، وتكاثر عليهم الجماعات الفاضية كأنها كانت تنتظر صيحات الثورة على النظام كله ، وضاع من العرب أمل النصر فأنجدتهم الدولة بجيش شامي سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م جمعه وحدة الهدف مع جيش إفريقية العربي، ثم فرقته المنازعات والخصومات، واجتمع الجيش الكبير حول رئاستين تؤدي إحداهما أعمال القيادة وتشعر في داخلها بالقرب من الدولة ، وتزهو بحاجة إفريقية إليها ، وتحارب الأخرى على أرضها من أجل وطنها ، وترفض وصاية الآخرين عليها ، وانتهت الحرب سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بهزيمة جيش الخلافة أمام البربر الذين ساعد نصرهم على ضياع صوابهم فأناروا البلاد كلها ضد العرب ، ولجأ العرب إلى الدين وإلى الدين ، ليكسبوا قلوب الناس وعطفهم ، واندفعوا بعد ذلك باسم القرآن والإسلام ، وباسم وحدة المسلمين سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م وكان الخليفة هشام بن عبد الملك أيام النضر يجود بروحه فامتلت في نفسه الأحاسيس المتضاربة وجاءه الخير في أخطر الساعات رهبة . واختلف الأمويون بعد هشام بن عبد الملك، وزادت خصوماتهم وجاءهم العباسيون من الشرق بأهل خراسان فانشغلوا بهم وتركوا بلاد المغرب لأهلها ولمصيرها .

## ٦ - نحو الاستقلال :

ولم يأت انتصار قوات الدولة الأموية على الخوارج بشمال إفريقية بنتيجة حاسمة لأن السلام هناك كان مفروضاً بالقوة وحدها ، وكان لا بد أن تستمر هذه القوة حتى يستمر السلام بإفريقية ، ولم يبق في الأمويين أمل بعد أن توزعت قوتهم على الأمراء المتنافسين ، فبددوها في حروب أهلية ، ليس لها غاية إلا أن يعترف الناس في النهاية بحق السيادة للمنتصر وحده ، وانصرفت جهود آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد إلى مقاومة العباسيين وترك بلاد المغرب لعبد

الرحمن بن حبيب ، وهو مغامر طردته فتن الأندلس ، فجا إلى إفريقية ليطلب الرئاسة بحق القوة وحدها ، ولم يجد أمامه من يعارضه فأقام لنفسه ملكا أو ما يشبه الملك في القيروان ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م وتكونت حول هذه المدينة أيضا ممالك أخرى كانت حركاتها تجربة لنظم مختلفة ، تقصارع فيما بينها تبعا لتباين وجهات نظر أصحابها .

وظلت ثورات الخوارج<sup>(١)</sup> تشغل عبد الرحمن بن حبيب ، وكان يلعب بشعار الولاء لدولة المسلمين بالمشرق ، فهو أموي مع الأمويين يعلن لمروان بن محمد سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م تأييده في وقت كان تأييده يعني الوقوف على جوانب الخطر ، ثم يكون عباسيا مع العباسيين بعد انتصارهم ، ولم ينجح في إخفاء حقيقة الزيف في ولائه لهم بعد أن عرضوه لتجربة مكشوفة فطالبوا منه مالا يدفعه باسم التبعية والولاء ، كما يفعل غيره من الحكام في الدولة ، وكان مشغولا بالرغبة في البعد عن مظاهر الخضوع لأية قوة فرفض طلب العباسيين ، ورد على تهديداتهم بقطع صلتهم بإفريقية كلها ، وتحدى محاولاتهم لإعادة الوحدة لدولتهم الجديدة ، غير أنه قتل بيد أخيه سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٥ م وضاعت دولة الفهريين بعد وفاته .

واستمر أهل البلاد يطلبون العمل بقواعد الحكم السليم ، ويرون الأمل في قيام دول إسلامية تحقق بنظمها الوحدة بين العرب والسكان وترى ضرورة الالتزام بقواعد المساواة الكفيلة بدوام هذه الوحدة بين جميع السكان .

---

( ١ ) كان هؤلاء من الخوارج الإباضيين الذين يمثلون آخر تطورات الفكر الخارجي نحو التساهل .

مات الخليفة هشام بن عبد الملك راضيا بانتصار جيشه في المغرب على قوات الخوارج سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م وإن لم يكن إنتصارا حاسماً تذهبى به العمليات العسكرية بين قوتين كبيرتين ، وإنما كان واحداً من انتصارات عديدة يحفل بها تاريخ الحرب بين قوات الدولة ، وقوات المعارضة في شمالى إفريقيا ، واستمرت القوة واضحة في الجانبين ، وانتظر المهزومون من الخوارج فرصة العمل المناسب ليردوا على العنف بالعنف ، وليثبتوا وجودهم كقوة مؤثرة ترفض الهزيمة ، ولا تعترف بنتائجها ، وجاءت لهم فرصة العمل الطيبة عندما انعدمت الكفاءة في الحكام الأمويين الذين خلفوا هشام بن عبد الملك ، وكانوا ضعافاً ، ضيعوا بضعفهم ثمرة النصر ، وهيبة النظام ، ولعبت بهم الأحزاب الغالبة في دولتهم حتى كأنهم كانوا شيوخاً لا تبائل ذات العصبيات القوية في بلاد العرب ، وانشغلوا فيما بينهم بالصراع على السلطة ، وأنفسحوا باباً نصرافهم إلى الخصومات العائلية المبالغ أمام جماعات كثيرة ظهرت فجأة على مسرح الأحداث في إفريقيا ، وأخذت تجد في العمل لتحقيق لنفسها أهدافاً سياسية ، ولو في دوائر ضيقة قد لا تعدى حدود بعض المدن الشبهية ، وتكثفت قوات هذه المدن الصغيرة من أن تضمن لها شيئاً من الأمن ، ومن أن تمنح للحكام فيها نوعاً من الوجود السيامى .

وفي الصحراء وقفت قوات الخوارج الكبيرة المتمرسه في الحروب الطويلة منذ اشتراكها في القتال ضد جيش الدولة ، وكانت قوات عظيمة تستطيع أن تتيح لأصحابها فرصاً لإقامة النظام المثالى الذى كانوا يحملون به ، ولم يكن الخوارج يملكون فقط قوات عسكرية تتكون من جماعات تندفع بالإيمان الصادق لتحقيق الأهداف المطلوبة ، وإنما كانوا يجيدون مع ذلك طريقة التصرف بالدعاية الدينية



المذهبية ، وقد ملثوا بها جو البلاد كلها منذ خبا صوت السلطة الحكومية ،  
ومنذ ضاع أثرها ، ونشطوا في التعريض على العمل ضد الدولة ونظامها وقالوا  
إن هذا النظام لا يلتقى فى أى من جوانبه مع قواعد الإسلام الأساسية ، واستغلوا  
أخطاء الولاء الأمويين<sup>(١)</sup> وأخطاء الخلافة معهم ، وملثوا دنيا الناس بلوم الدولة  
ولوم حكامها ، وحملوها مسئولية كل المأسى فى المجتمع وكل عيوبه .

وجاءت عيوب الإدارة الأموية من اعتماد الأمويين فى مواردём المالية على  
موارد غير مشروعة ، وكان هذا من أخطر ما هز كيان المجتمع المغربى ، ومن  
أهم ما أثار الأحداث السياسية فيه وهو لا يزال فى دور تكوينه الإسلامى العربى ،  
وزادت الإجراءات غير للمشروعة فى حدة الغضب عند الناس ، وأساءت إلى الأمويين  
وإلى سلطانهم إساءة بالغة ، وكان منها التفرقة فى المعاملات المالية بين العرب وغيرهم ،  
فكان البربر يحرمون من العطاء الذى كان يعطى لمن يدخل الإسلام ، ويلتحق  
بصفوف المجاهدين ، وكانوا يحرمون أيضاً من غنائم الحرب بدعوى أن جزاءهم  
عند الله فى الجنة وهى سياسة تخالف القواعد الإسلامية المقررة ، ومن شأنها أن  
تنفر الناس من العرب جميعا .

ثم بدا أن صراع الأمراء الأمويين على السلطة قد انتهى بولاية مروان  
بن محمد ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م وكان مروان يعطى الأمل بكفاءته الشخصية ، وبقدرته  
على التصرفات الحاسمة ، وظهر بوجوده كخليفة على رأس الدولة بعض الحساس  
عند أنصارها بشمالى إفريقية ، فكونوا ما يشبه قوة للضغط على عبد الرحمن بن

---

( ١ ) ومنهم عبيد الله بن الحبحاب ، وكان والياً على إفريقية لهشام بن عبد الملك

١١٦ - ١٢٣ هـ / ٧٣٤ - ٧٤١ م .

حبيب ، وكان قد فرض نفسه أو فرضته الأحداث على البلاد ، وحكم القيروان باسم الفهرين ١٢٧هـ / ٧٤٥م - فأعلن ولاءه للخليفة الجديد ليكسب بإعلانه نوعاً من الشرعية المفيدة في حكم منطقة تحيط بها قوات الخوارج من كل جانب ، ولكن جاءت فترة خلافة مروان في مرحلة فاصلة بين عهدين ، فدمته الأحداث قبل أن يعالج أحوال المغرب ، وكانت دعوة العباسيين أشد هذه الأحداث خطراً عليه فالتفت للشرق وحده ، وجاهد ليصرف عن نفسه وعن دولته بعض السكوارث ، وأضاع وقته في الصراع بينه وبين أعدائه العباسيين ، فتمكن الخوارج وأمثالهم من الحياة بشمال إفريقيا في أمن من مفاجأت القوة المعتادية ، ولولا أن شاعت فيهم الفتن ، وعجزوا عن ضبط النفس فانقسموا وتحاربوا ، وتعددت فيهم الرئاسات والزعامات لأمكنهم أن يقيموا حكمهم للشمال المرغوب فيه ولكانت مزيتمهم بعد ذلك أشد صعوبة (١) .

وجاء العباسيون بعد فترة طويلة حائلة بالتخطيط الهادئ وبالعمل العنيف ممّا ، وبدأت محاولاتهم في تاريخ غير معروف ، وانتهت أو كانت قريبة من النهاية سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م ولم يساعد وجود أول خلفائهم على حل مشكلة شمال إفريقيا لأن دعاياته القوية وحدها كانت غير كافية لنصرة أنصار العباسيين هناك ، ولأن جيشه الذي حاول أن يرسله إلى إفريقيا سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م لم يتقدم بعد

---

١ - كان الخوارج في شمال إفريقيا جماعتين (١) صفرية (ب) إباضية ، ولم تتفقا على شيء رغم تقارب وجهات نظرهما الدينية والسياسية ، ولم تتفق الجماعة الواحدة منهم أيضاً ، وكانوا يختلفون حول زعاماتهم ، أو على بعض وجهات النظر في علاج للمائل المعارضة .

وفاته ، إذ طلبته الحاجات العاجلة لإدارة الدولة<sup>(١)</sup> .

وكان السفاح متأنيا في حركته لنجدة إفريقية وربما كان مدفوعا بالاضطراب لثقل هذا التأني أو ربما كان ذلك شيئا في طبعه ، وقد كان اختياره لأغراض سياسية مع وجود من هو أسرع منه حركة ، وأكثر منه تجربة وخبرة ، إذ كان وجوده عاملا يساعدا على تماسك الجماعات المؤمنة بهدف الثورة المعارضة للأمويين ، ومن هذه الجماعات رؤساء العلويين الذين كانت له بهم علاقات طيبة ، تشير إليها كتب التاريخ في وضوح .

وترك خليفة العباسيين المغرب ليصبح ملجأ مناسباً للفارين من اضطهادهم ، بعد أن أوصد في وجوههم أبواب المشرق ، وبعد أن انتهى الحساب نهائياً في الشرق لصالحه ، وخلفه أخوه المنصور ١٣٧هـ / ٧٥٤م وهو واحد من أعظم بناء الدول في التاريخ — فشغلته ثورة عمه عبدالله بن علي ، وشفاعته رغبته في التخلص سريعاً من قائده أبي مسلم عن مشكلات المغرب العربي ولم يرد على عصيان عبد الرحمن ابن حبيب حاكم القيروان بعد أن خلعه ، واستمر مشغولاً بأحوال المشرق وحده حتى أرسل سنة ١٤٢هـ / ٧٥٩م ، قائده ابن الأشعث ليدخل القيروان منتصراً سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م ، ومع ذلك ظلت قضية البلاد الإفريقية غامضة ، لأن هذه المدينة كانت محاطة بأعداء يحاولون حصر نفوذ العباسيين عند حدود مصر الغربية ، وقد ثاروا بجيش الدولة وهزموه ١٥٤هـ / ٧٧١م فأثاروا بغضب الخليفة ، فبعث لهم قائده يزيد بن حاتم ، وكان انتصاره على الخوارج سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢م

---

(١) واجه المنصور بعض الثورات عند إعلان خلافته ولا بد أنه طلب هذا الجيش لعمل من أعماله .



بداية عهد جديد ساد فيه الاستقرار لفترة طويلة (١٥٥ - ١٧٠ هـ / ٧٧٢ - ٧٨٨ م) وظهرت فيه أهمية القيروان كمركز ثقافي تكثرت فيه المدارس الدينية ، ويتقابل فيه الدارسون من جميع المذاهب الإسلامية .

وبعد المهلبين<sup>(١)</sup> تكرر فشل العباسيين في كل محاولاتهم بالمغرب ، وكان الخوارج قد سبقوا إلى إقامة دولة باسمهم في المغرب الأوسط ، وتبعهم الأدارسة الشيعة فأعلنوا بدورهم قيام دولتهم بالمغرب الأقصى ، وبقي للعباسيين ولمذهبهم مكان في إفريقية وحدها ، وكانت لا تعنى شيئاً أكثر من منطقة تونس وما حولها ، ولم يكن عند العباسيين وسيلة كافية لحفظ سلطانهم في هذه المنطقة الباقية غير اختيار أحد المؤمنين بقضيتهم ليصبح أميراً مستقلاً يستظل برعايتهم ، ويرضون منه بأقل الأسباب التي تربط بينهم وبين عمالهم .

واعترفت الدولة العباسية بالأمر الواقع ، وقام النظام الجديد بعد أن عجز ممثلو المذاهب الدينية الإسلامية عن الاتفاق على رأى حول الوحدة الشاملة ، وتجمعت في إماراتهم الثلاث القوى الرئيسية المتنازعة في شمالى إفريقية ، واستمرت كلها تجذب الموالين لها ، وشاع بين الجميع ما يشبه السلام العام ، أو التعايش السلمى المفروض بالخوف ، وكلها كانت تحاول إثبات سلامة اتجاهاتها المذهبية والسياسية ، وتتنافس في نشر الدين بالدعاية والحرب ، وكلها ظلت ترتبط بالشرق عن طريق الهجرات المتوالية ، وعن طريق الإنصالات الثقافية ، وبكل السبل التي جرت بها انصالات المسلمين طول التاريخ .

---

(١) اسم لأسرة يزيد بن حاتم ، وقد حكم للهلييون إفريقية بعده حتى سنة

تحددت المعالم الرئيسية لثلاث دول قامت في الشمال الإفريقي باسم المذاهب الدينية الإسلامية ، بعد أن تكونت هذه المذاهب في الشرق ، وظهر وجودها كعامل قوى يؤثر في حركة المجتمع وتطوره ، ورغم تنافس أصحابها منذ نشأتها حول السيادة في الدولة وتورطهم بسبب هذا التنافس في حروب أهلية ، فإنها استمرت كلها وحدات إسلامية ليس بينها خلافات جوهرية في أصل الدين والعقيدة .

ومن هذا مذهب الدولة التي ظهرت في عهدها هذه التقسيمات السياسية لأول مرة في تاريخ المسلمين بشمال إفريقيا، وأصحاب هذا المذهب يرفضون أن يكونوا على نفس المستوى، ولو من حيث المقارنات النظرية مع غيرهم، لأن فهمهم للنظريات السياسية الإسلامية كان فيها عاما غلب على المسلمين في فترة من أعظم فترات الحكم أصالة عندهم ، واستمر يمثل وجهة نظر الجماعات الكثيرة المنتشرة في مناطق الدولة ، وظل مذهبها واحدا لم يختلف عليه أهله ، ولم تفرقهم الخصومات فيه ، بالإضافة إلى أنه كان المذهب الوحيد الذي حكم ممثلوه دولة المسلمين منذ وجودها .

وبعده ظهر مذهب الخوارج والشيعة أيام خلافت المسلمين الأولى حول رئاسة الدولة ، ودارت حولها حوادث بدأت باختلافهما معا ، واختلافهما أيضا مع الآخرين في مسائل سياسية ودينية تتصل بالشروط الخاصة بالخلافة والخليفة ، وقد عمق الخلاف بين المذاهب عدم الاتفاق على نصوص توضح هذه الشروط للناس أو عدم وجود النصوص الصريحة التي تريح من البحث

فيها أو الخلاف عليها<sup>(١)</sup> .

واستمر دعاة المذهبين يثيرون الناس ، ليكسبوا أنصارا لم يكن المراد من كسبهم الدفاع عن أصول العقيدة ، أو إزالة بعض الزيف عنها ، وإنما كان الغرض إذاعة دعاوى دينية لم تكن إلا ستارا يخفي وراءه أغراضا سياسية ، ظلت تكيف سلوكهم لفترات طويلة ، وكانت تعطيهم أيضا نوعا من الشرعية يساند رغبتهم في الانفصال عن الدولة .

وازداد الخلط بين الدين والسياسة، وتبلورت الاتجاهات الحزبية، فأصبحت عقائد ثابتة يلتزم بها الأنصار والمؤيدون في كل مكان ، وزادت كثرة الشيعة والخوارج ، فتمكنوا من معارضة السلطة وحربها ، وظهر لهم وجود قوى في مناطق الدولة القريبة والبعيدة ، وأدى هذا الوجود إلى فرض التقسيم السياسي بشمال إفريقيا ، ولم يكن أمام العباسيين خيار في قبول هذا التقسيم بعد عجزهم عن الوفاء بحاجات الحروب الطويلة أمام جماعات قوية في بلاد بعيدة ، وبعد أن جاء هذا نتيجة انتطاحن عسكري طويل كانت من الممكن أن يستمر لو لم تضع له الدولة نهاية بسكوتها ، وانصرافها عن حروب مخالفتها في إفريقيا .

ولا يفهم من هذا التقسيم أنه جاء دليلا على وجود ثورة بربرية على الحكم العربي، وإن كان البربر دائما على استعداد للثورة على هذا الحكم ، وإنما يدل هذا التقسيم

---

(١) لم يتفق المسلمون جميعا على الشروط اللازمة في الخليفة منذ ظهور منصب الخلافة عندهم ، وربما لم يكن الاتفاق أمرا ممكنا ، ولكن خلافاتهم المبكرة كانت مجرد وجهات نظر عارضة لم تؤيدها أحزاب قوية تقايل من أجلها .



على نوع من التجاوب بين المشرق والمغرب في حركة الإصلاح الديني والسياسي التي بدأت في عهد الأمويين ، وعلى تعاونهما معا من أجل إقرار القواعد السليمة للحكم والإدارة ، لأن الأقاليم الثلاثة ظلت شرقية في إدارتها وبمحكامها ، وكل الأفكار المذهبية التي عرفتها كانت قد نضجت وتطورت بالمشرق العربي وحملها أصحابها للمغرب مع الأمل في أن تساند السواعد المغربية على تكوين الأنظمة التي أرادوها ، وعلى أمل أن تعطى الفرصة المناسبة لكل مذهب ليعيش في المجال الحر بعيدا عن رقابة الدولة المباشرة ، وبعيدا عن كيدها ونخبها .

لقد كانت القيادة في الإمارات الثلاث شرقية — عربية وغير عربية — ولكن الانساب للشرق كان انساباً بعيداً بعد أن عاش الزعماء وقتاً طويلاً بالغرب<sup>(١)</sup> ، وكونوا جزءاً حياً من كيانه ، وأصبحوا ممثلين لجماعات تعيش في الغرب ، وتريد تحقيق آمالها وحل مشكلاتها على أرض إفريقية وحدها ، ولم تضعف جاذبية الشرق كهيئة حضارية متقدمة ، وفيها زعامة المسلمين وقوتهم ، واستمرت الحاجة إلى نكر الشرق وثقافته إذ كانت البيئة البربرية آنذاك عاجزة عن تقديم شيء جديد للحياة الجديدة ، وساعد الإحساس العاطفي والاقتناع الشخصي والطمع في تحقيق الرغبة عن طريق الانضمام إلى الزمر الجديدة — ساعدها على تكوين تكتلات بشرية قوية كان عليها أن تمارس العمل الكفيل بتحقيق أهداف

---

(١) قد لا ينطبق هذا القول على مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب لأنه أعلن قيام دولته بعد ثلاث سنوات من وصوله هارباً من المشرق ، ومع ذلك فالتموضيح يحيط بنشأة هذه الدولة ، ويقال إن مؤسسها هو إدريس بن إدريس سنة ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م وقد ولد وعاش بالمغرب .

مذاهبها وأن تحرس مع ذلك هذه الأهداف، وكان من أهم هذه الأهداف إقامة وحدات سياسة تكون في النهاية وطناً للمذهب ولأصحابه في كل مكان .

لقد كان تكوين الإمارات الثلاث في المغرب العربي استجابة لرغبات داخلية في أرض إفريقية نفسها ، واستجابة لرغبات عناصر شرقية هربت اليها لتوحد القوى الداخلية بها كي تحقق أغراضا فشلت في تحقيقها في وطنها البعيد، ونجحت الجهود المشتركة في إقامة ما يشبه الدول القوية أو الإمارات المستقلة، ولم يكن من أغراضها أن تعيش في إطار ضيق يجمع المؤمنين بوجهة النظر الواحدة ، وإنما أريد بهذه الوحدات أن تمثل وجهة نظر المؤمنين بها ، أو أصحابها في كل مكان ، ولذلك استمرت الهجرات اليها والاتصالات بينها وبين بلاد المسلمين طول تاريخها ، وظل الشعور بوجودها قويا عند من يشاركونها في الرأي والمذهب .

#### ١ - الرستميون :

وإذا كان الخوارج أنشط العاملين وأقوام إيماننا وأشدّهم فهما الحاجات الناس بالمغرب فقد كانوا أول الناجحين في تحقيق أهدافهم ، وقد عاشوا هناك زمنا طويلا ، وعرفوا ضعف السلطة فألحوا عليها بالحرب ، وجاءتهم الحرب بالنصر والهزيمة وتوجوا نجاحهم بإعلان قيام دولة لهم بالمغرب الأوسط باسم الرستميين الخوارج سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م وكأثما كانت إقامة هذه الدولة محاولة منهم للاستقرار بعد الطواف الطويل بالصحراء الواسعة وجاء تواجدهم في منطقة تاهرت الجبلية في وقت غابت عنها فيه السلطة ، فتمكنوا من وضع أيديهم على مساحات صحراوية كانت مسكونة بقبائل بدوية استجابت لدعوتهم والتفت

حول رئيسهم عبد الرحمن بن رستم ، وكان زعيما مجربا يرجع في أصله البعيد إلى سلالة فارسية ، وكان قد عاش في إفريقية وشارك في حروب الخوارج بالتيروان ٧٦١/١٤٤م وطبنة ١٥١/٧٦٨م وغيرها ، وطلب أخيراً السلام والأمن في مكان بعيد يحفظ عليه وعلى جماعته الوجود ويهيئ لهم سبل الحياة كما أرادوها ، وشغله حب الدين فجاهد في نشره بين من كانوا حوله ، وشغلته التقوى فحاول تطبيق مبادئ الإسلام على أتباعه فنصروه وأذاعوا شهرته ، وقدمت عليه وفود البصرة بالهدايا لتجده قد حقق لها الأمل بإعلان دولة الخوارج في المغرب البعيد .

وظلت هذه الدولة تمثل التطبيق العملي للفكر الإسلامي المثالي ، وساعدها انفتاحها على العالم حولها على إنماء ثروتها وازدهار حياتها وتدعيم وجودها وسط جيرانها من القوى السياسية ببلاد المغرب ، وكانت تحاول أن تنهض بدور إيجابي في تقوية المجتمع المغربي ، وإتاحة السبل أمامه للانطلاق في سبيل خدمة الإسلام وحضارته .

وبعد ذلك تعرضت لموامل للخلاف الخارجية المؤسسية ، واضطر من جاء بعد مؤسسها ألا يلتزم في تصرفاته بمبادئ الخوارج وشروطهم ، فعاش معزولاً بين جماعة تؤيده وتحميه ، وحوله رقابة عدائية محومة تخصى عليه عيوبه ، وكان هذا يعني انقسام الدولة إلى حزين ضاعت بينهما دولة الخوارج ومبادئهم .

### (ب) الأدراسة :

وظهرت أول دولة شيعية في تاريخ المسلمين سنة ١٧٢/٧٨٧م باسم الأدراسة بالمغرب الأقصى ، وكان إعلان قيامها دليلاً على قوة التأثير العلوية في



بربر شمال إفريقية ، ودليلا على عدم التزام هؤلاء البربر بالمذاهب الدينية إذا  
اختلف من بينهم من يمثلها ، لأنهم عندما ضاع أثر الدولة من بلادهم فترحمهم  
لمذهب الدولة ، وعندما ضعفت سلطة الخوارج عليهم انصرفوا عن مذهبهم  
ليؤيدوا مذهب الشيعة ، وكان يمثل هذا المذهب الأخير إدريس<sup>(١)</sup> بن عبد الله  
ابن الحسن الذي جاء للمغرب هاربا من الحجاز ، بعد أن تعرض لخطر الموت على  
أيدى أقاربه من بنى العباس سنة ١٦٩هـ / ٧٨٦م ، ولم يعيش إدريس بين البربر  
خاملا أو مؤثرا للسلامة والأمن وإنما استطلع جوانب القوة من نفسه ليثير  
حماسهم لحب آل البيت المطاردين في كل مكان بالمتاعب والأهوال ، وكسب  
قلوبهم بتقواه وزهده وقرابته من الرسول ، وكأنه كان جديدا على ميدان لم  
يسبقه إليه دعاة من الشيعة ، ولم يأت أحد قبله من أسرته ليحكم أقطار المغرب  
في غيبة العباسيين بالشرق ، وربما لم يكن الناس على جهل بدعوة آل البيت —  
وقد كان لها صدى في كل مكان بالدولة — إلا أن الانفعال الشديد والمشاركة  
الإيجابية التي أبدتها البربر لنصرة إدريس ودعوته لم يكن يكفي في  
إظهارها بهذه القوة مجرد العلم بدعوة أسرة تعيش بعيدا في مواطن الإسلام  
الأولى .

وقد تبدو أسباب نجاح الداعية العلوى في تأسيس دولته بعد ثلاث سنوات  
من وصوله ، وفي وقت كان فيه عالم المسلمين مشغولا بشهرة هارون الرشيد وعظمته  
— قد تبدو هذه الأسباب مجهولة ، ويزيد في غموضها أنه لم يكن يدعو لنفس  
المبادئ الشائعة في أوساط البربر من شورى الحكم ، ومساواة الناس

---

(١) اسمه إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

في شئون الدنيا ، وإن كان على كل حال يشترك مع البربر في رغبة الخروج على الدولة ، وربما وجدوا فيه البطل الذي يقودهم الى الاستقلال بإقليمهم البعيد .

وصحيح أنه كان يعمل باسم الأمرة العلوية أكثر مما كان يعمل باسم مذهب الشيعة لأنه وجد ذلك من أسباب التفاف الناس حوله حيث كان الانتماء لهذه الأمرة أكثر جاذبية من الانتماء لمذهب لا يخالف غيره في شيء من عقيدة الإسلام الواحدة ، فهو إذا كان علوياً يتمتع بمنافع العلويين وامتيازاتهم ، ولم يكن صاحب مذهب لا يختلف عن غيره إلا في بعض الملابس البعيدة عن حقيقة الإسلام .

ومع قرب أفكاره ومبادئه من أفكار الجماعة ومبادئها إلا أنه استمر يمثل الرأي القائل بتوارث السلطة في أمرة لها وحدها حق السيادة على جميع المسلمين ، وظل إماماً شيعياً يأمر بحته الضائع ، ولحق أمرته المقتصب بالعباسيين في بغداد .

ومهما يكن من أمر فقد اشتد حماس الناس له وبايعوه إماماً ، وكان سريعاً إلى غايته فاندفع بحماس المجاهدين لينشر الإسلام مع مربيه في أعماق الأقاليم البربرية ، واستمر زاهداً مثالياً حتى مات سنة ١٧٥هـ / ٧٩٢م ، فانتظراً أصحابه جنيناً له في بطن أمه ليقيموا له دولة في مكان أبيه .

وأعلنوا لإدريس الثاني إماماً ١٨٨هـ / ٨٠٤م وكان عربياً يشعر بقوة انتسابه لشعب عربي تملأ الدنيا أمجاده وحضارته ، وجذبه سمعة العرب كسادة لهم وجود هائل في العالم حوله ، وكان أيضاً يريد التخلص من وصاية البربر عليه ففتح أبوابه

للعرب واندفع سيلهم نحوه من القيروان والأندلس<sup>(١)</sup> ومن غير هاتين المدينتين حتى ضاقت بهم عاصمته «وليلي» فبنى مدينة فارس ١٩١-١٩٣ هـ/٨٠٦-٨٠٩ م لتكون عاصمة عربية في بلاد البربر كما كانت القيروان قبلها .

ومات إدريس شاباً سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م فتنافس أبناؤه على عرش الولاية من بعده ، وفتحوا فيما بينهم سلسلة من المازعات والحروب لم تنته إلا بانتهاء الدولة ذاتها .

### ( ج ) الأغالبة :

وكانت دولة الأغالبة آخر تنظيم سياسي شبه مستقل بين هذه الإمارات الثلاث ، وأقام العباسيون هذا التنظيم بعد ظهور قوة الإدارة بالمغرب ، ومع أن هؤلاء كانوا لا يملكون قوة تهدد سلامة الدولة العباسية ، ومع أن إدريس بن عبد الله بن الحسن لم يكن يمثل وجهة نظر شعبية قوية التأثير ، فإن قوة العلويين الموهومة كان يمكن أن تكون حقيقة مخيفة ، وكانت إدريس منافساً خطيراً يشير التساؤلات حول أحقية الرشيد في خلافة المسلمين .

والمعروف أن الصراع كان رهيباً بين العباسيين والعلويين لاختلاف وجهة نظرم حول حقوق السيادة بالدولة ، وزاد الصراع بينهم بعد نجاح العباسيين في إعلان قيام دولتهم من فوق منبر الكوفة سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م إذ بعد هذا الإعلان ملك العباسيون وسائل العمل المضاد لثورات العلويين الغاضبين القائلين

---

(١) جاءه من الأندلس بعد ثورة الريض سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧ م ثمانمائة بيت ، ومن القيروان قبل ذلك خمسمائة بيت من العرب وثوالت عليه بعد ذلك المهجرات .



بحقهم في الخلافة ، وأصبحوا من أقوى وأخطر أعدائهم ، وألجئهم للحياة بعيدا عن المجتمعات المكشوفة واضطروهم للهرب في الأماكن البعيدة .

ووجد العلويون لهم في المناطق النائية مكانا لا يعيشوا فيه في سلام مع الأمنين ، وإنما لينشئوا دولا تنافس سلطان العباسيين وتزعجهم ، ونجحت محاولة إدريس بن عبد الله في المغرب الأقصى وأثارت في الرشيد كوامن الخوف ، فرد عليها بتعيين إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م أميراً على إفريقية ليدفع عنه خطر التقدم الشيعي نحو الشرق ، وليكفيه هم التفكير فيما بعد حدود مصر الغربية ، وكانت التقارير عنه تؤيد ارتباطه بالولاء للرشيد ودولته .

أقد كان هذا التعيين محاولة لعلاج مشكلة لم تنجح في علاجها وسائل العمل العادية وكأنه كان اعترافاً من دولة العباسيين بأن نفوذها كان يقف عند آخر حدود تونس الغربية ، ولما كان شعب تونس يريد والياً يمشي لوجهه نظر العباسيين فقد جاء إبراهيم بن الأغلب حاكماً على شعب يقبل رئاسته ، وجاء محروساً بقوة دولة كبيرة تستطيع حمايته ، وكان هو من جانبه يرى أن روابط الولاء بينه وبين الدولة العباسية عظيمة الخطر في علاقته بمجيرائه من الخوارج والشيعية ، إذ كانت تجعله صاحب الحق الشرعي في الولاية على الأقاليم كلها ، وتظهرهم أمام الناس ككناثرين على نظام الدولة ، أو كخارجين على وحدة المسلمين .

وتبع إبراهيم في الحكم ابنه عبد الله وزيادة الله ، وتأكد في عهد هذا الأخير حكم إفريقية للأغلبية ، وأصبحت بلادهم مملكة وراثية لا ترتبط بالخلافة إلا ببعض مظاهر الولاء الشكلية ، وإذا كان الاستقلال قد جاء هذه البلاد عرضاً

أو نتيجة للأحداث السياسية بالمغرب كله فإنه أفاد في تطورها وتقدمها لأن به شعر  
الحكام أنهم كانوا يعملون لأنفسهم في حرية وبغير رقابة ، وقدموا جهدا عظيما  
أصبحت به دولتهم - لال القرن الذي ازدهر فيه حكمهم ١٨٤ - ٢٩٧ هـ /  
٨٠٠ - ٩٠٩ م تهيمن على وسط البحر الأبيض المتوسط وتكون محورا قويا  
يدور حوله النزاع الطويل بين إفريقية وأوربا .

لقد استطاع الأغالبه بأسطولهم القوى أن يخضعوا جزيرة صقلية سنة ٢٩٠ هـ /  
٩٠٢ م لسلطتهم لتصبح بعد ذلك قاعدة للقيام بحملات بحرية ضد أوربا ، واستطاعوا  
بجهدهم أن ينقلوا المغرب الأدنى نهائيا من بلاد مسيحية لا تعرف شيئا عن لغة العرب  
إلى بلاد عربية تتكلم لغة العرب وتدين بالإسلام وحده .

#### ٩ - خاتمة :

توزعت بلاد المغرب إلى وحدات سياسية كانت تعيش تحت تأثير المذاهب  
الإسلامية الثلاثة : مذهب أهل السنة ، ومذهب الخوارج ، ومذهب الشيعة ،  
وأصبح للمسلمين هناك ثلاث عواصم هي :  
(١) القيروان (ب) تاهرت . (ج) فاس ، وبكل عاصمة أمير يرغب عن  
الدخول في الصراع العسكري بعد أن انتهت مراحله بتقسيم الأرض ، وتفتيت  
وحدة البلاد .

وربما كان يدفع الأمراء لهذا الميل إحساسهم بتعادل ميزان القوى بينهم ، أو  
كانوا يستجيبون لشعور عام بالانتماء لوحدة قومية شوهت الحروب والخصومات  
معالمها ، وحاولت السياسة بدورها أن تغطي عليها .

وأدر كوا بالفهم السليم مبلغ حاجتهم للسلام كعامل أساسي يخدم أهدافهم  
للمشاركة ، ويساعد على تقدم الحياة في أوطانهم .

وربما كان اختلاف فهمهم لبعض مسائل الدين نوعا من المحاولات المعروضة  
اغرض العثور على حل مناسب يوفق بين مثالية الدين وواقع الحياة ، لأن الشعور  
بالمطف على قضية الدين ظل شعورا عاما يجمع كل الناس ، ويثير فيهم الحساس  
للحرب ضد الوثنية في بلاد المغرب ، حتى شغلت الحرب الدينية هذه الإمارات  
الجديدة بعد أن وفرت جهودها العسكرية لهذا الغرض وحده ، ولم تنهكها في  
نزاع عقيم ليست له غاية .

وربطت الاتصالات الثقافية بين هذه الإمارات جميعاً ، وربطت أيضا بينها  
وبين عالم المسلمين حولها ، وكان للمسلمين آنذاك حضارة قوية تعم بلادهم ، وتؤثر  
في وجودهم كله ، ولا شك أن إفريقية عرفت شيئا عن حضارة العرب وثقافتهم  
منذ كان للعرب وجود فيها ، وزادت معرفتها بهذه الحضارة بعد أن استقر  
وجود العرب بها ، وكان من مظاهر هذا الاستقرار إنشاء المراكز الثقافية العربية  
في شمال إفريقية ، ومنها القيروان وفاس وطبنة ووهران وتلمسان وغيرها .

واستمرت هذه المراكز مع كل أما كن التجمعات البشرية المتطورة بإفريقية  
تحمل مشاغل الثقافة العربية لتثير جوانب المغرب العربي كله ، ونشطت حركات  
الاتصال الثقافي بين المشرق والمغرب ، وكان مجال اللقاء الفكري بينهما شاملا  
يساعد على نمو الحضارة وتطورها وازدهارها .

وفي المشرق العربي كانت المدينة من أهم مراكز الدراسات الإسلامية ، وكانت  
دائما تثير عواطف الناس واهتماماتهم ، لأنها مدينة الرسول ومهد الإسلام ، ثم هي



نقطة التقاء المسلمين جميعاً مهما بعدت أوطانهم أو فرقتهم الخصومات، وفيها عاش الإمام مالك وكان يمثل المعارضة الصامتة للعباسيين ودولتهم، فجاءه الغاضبون على هذه الدولة والراغبون في علمه وكثرة لاميذه وكون بهم مدرسة فقهية ذاعت شهرتها وعلا شأنها في المغرب كله، وأصبحت وحدها المؤثرة في الناس والمعروفة لديهم<sup>(١)</sup>.

وزاد حظ هذا المذهب من النجاح فأصبح رجاله زعماء شعبيين حتى بين الخوارج والشيعة، وتركهم زعيم الأدارسة يأخذون طريقهم إلى قلوب الناس وعقولهم، وكان مدفوعاً بهذا التسامح بالعلاقات الطيبة المتبادلة بين الإمام مالك وبين زعماء العلويين، ولم يعارضهم الخوارج أيضاً وتركهم يكسبون الأرض من حولهم ويستغلون دعواهم في تشجيع حرية الرأي كأساس لبناء الفكر السليم.

وتبادل خوارج تاهرت والبصرة الأفكار المذهبية بينهم، والتقوا حول الدراسات اللغوية والأدبية التي عرفت في البصرة وازدهرت فيها، وكانت هذه الدراسات من حاجات المغرب العاجلة في أوقات اتجهت فيها الجمود إلى حركة التعريب الشاملة.

وانصل الأغلبية بالعباسيين ذوى الشهرة الواسعة في الوفاء بحق العلم والمعلمين وكانوا على رأيهم في مذهب الإمام أبي حنيفة، فنصروا هذا المذهب بإفريقية، وأثاروا اهتمام الناس به، وساندتهم بغداد عاصمة الخلافة، وذات النفوذ الأدبي

---

(١) اشتهر كتاب «الموطأ» في شمال إفريقيا حتى قيل إن أهل المغرب كانوا لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ الإمام مالك.

والتأثير الحضارى فى بلاد المسلمين كلها، وتوالت رحلات الناس بين المشرق والمغرب ، فساهمت فى وحدة الفكر وساعدت على الرغبة فى السلام .

ولم تدم فترات السلام والأمن طويلا ، فتعرضت البلاد للخصومات والفتن الداخلية ، وضاع أمرها بسبب أعاصير السياسة التى هبت على بلاد المغرب ، وأطاحت بالقوى الحاكمة فيها ، وزالت دولتا الأغالبة والخوارج على يد الفاطميين سنة ٨٢٩٦/٩٠٩ م ، وسقطت دولة الأدراسة سنة ٩٧٤/٨٣٦٣ م امام قوة الحكم الثانى خليفة الأندلس .





## الفصل الثاني

(أ) أمبانيا قبل العرب

(ب) الأندلس

(ج) الجهاد في الشمال

(د) المقاومة

(هـ) شعب الولاية



## ١ - أسبابنا قبل العرب

يميل المسلمون عادة إلى القول بأن الفتوحات الإسلامية جاءت بعد حركات عسكرية ناجحة قام بها العرب لصالح الشعوب المغلوبة أولاً، وكأن هذه الشعوب كانت على ميعاد مع الهداية، أو كانت تنتظر بعد صبر طويل شروق الشمس من صماء العرب، وهم يذكرون ذلك بعد الحديث الطويل عن مقارنات بين الظلم الاجتماعي والسياسي والديني والاقتصادي في البلاد التي فتحها المسلمون، وبين ما آلت إليه الحال بعد الفتح، وكأن الفتوحات الإسلامية كانت في حقيقتها مجرد عملية إنسانية تهدف لإنقاذ البشرية كلها من حالة يأس شاملة.

وربما كانت النتيجة خيراً كثيراً عند المقارنة بالماضي، وما كان فيه للناس من متاعب تتحدث عنها كل كتب التاريخ بالتفصيل، ولكننا نتصور في نفس الوقت أن هذه الفتوحات كانت ستأخذ طريقها لتحقيق هدف أساسي التزم به العرب لأسباب نعرف عنها اليوم شيئاً كثيراً، سواء أكان هناك ظلم واضطهاد أو لم يكن، وصحيح أن حالات الظلم والاضطهاد سهلت على العرب عملية الفتح والاستقرار وأعانت عليهما، وصحيح كذلك أن الفتوحات الإسلامية من أولها كانت في فترة من الزمن كان العالم فيها في حاجة إلى عملية إنقاذ أو بحث جديد<sup>(١)</sup>.

فهى إذا حركة انبعاث ونشاط جديدة قادمة من الشرق على أيدي العرب المسلمين، وعلى أيدي العاملين معهم على طريق الخير، والمساهمين معهم في تحقيق

---

(١) ودليل ذلك ما هو معروف عن حال البلاد التي فتحها العرب في الشرق والغرب.



النصر ، وهي إذا حركة حضارية تبدو قاسية المظهر ، لأنها ظهرت في صورة غارات عسكرية قامت بها جماعات فتية على البلاد المجاورة ، ولكنها كانت تحمل في صميمها هداية سماوية عالمية ، كان لها هداة وأبطال يؤمنون بها ، وعلى رأى واحد في الالتزام بنصرها ، وكان لابد أن يوصلوها للآخرين استجابة لإرشادات دينهم الواضحة ، وتحقيقا لاقتناعهم ورغباتهم وميولهم الشخصية ، وساعدهم الاضطراب السائد والفوضى الشاملة ، على سهولة العمل ونجاحه ، وعلى انتشار دينهم على حساب الأديان المنهارة أو الفامضة ، وظهر العرب بعد نصرهم كأنهم كانوا أهل السيادة ، وأبطال العدالة والتسامح في العالم كله .

وإذا كان من المفيد أن نشير إلى بعض المعالم التي بدت واضحة أمام العرب في مجال دائرة العمل في شبه الجزيرة التي أشرفوا منها على أوروبا وهي أسبانيا ، فإن حوادث التاريخ تقول إن جماعات من القوط الغربيين نجحوا في السيطرة على القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، في آخر القرن الرابع الميلادي ، وهؤلاء — كما يعرف من تاريخهم — كانوا جماعات همجية ، لا تربطها إلا روح المغامرة وحب العنف ، والرغبة في الحياة على حساب الآخرين ، وقد أتوا من الشمال في شبه تكتلات قوية وأغاروا على قوط آخرين كانوا يعيشون كإحدى الجماعات الأسبانية الممتازة ، وكان المغيرون يهدفون إلى التخريب وإثارة الرعب ، لأنهم لم يعرفوا حياة الاستقرار ولم يريدوا غيرهم أن يعرفها .

وجاءت جماعات أخرى أكثر من القوط عدداً وأشد همجية ، وهم الوندال الذين أعطوا لأسبانيا اسماً جديداً في لغة العرب ، فروعوا البلاد واشتبكوا مع القوط في صراع طويل كان له أثره السيئ على كل السكان بالمنطقة .

وأسفرت نتيجة التطاحن بين جماعتين ينتسبان إلى أصل واحد عن نجاح القوط وطرد الوندال ، فمبروا البحر إلى إفريقية الشمالية ، وخرّبوا مدنها

سنة ٤٢٩ م وتركوا أسبانيا لجيش القوط المؤلف من جماعات متبربرة غير  
منسجمة، جاءت من كل مكان، وكان لهذا الجيش ما يشبه الجرأة على إعلان  
عدم التبعية والاستقلال<sup>(١)</sup> بأسبانيا سنة ٤٦٧ م، وعلى حكم شعب كبير أغلبه  
من الأيبيريين الرومان، وخضعت الحضارة الرومانية للقوط، وعلم سكان أسبانيا  
ما يجروا به غزو المتوحشين من نكبات وأوزار، فكم رأوا عواقب الحروب  
ولعناتها، وما يتصل بها من الطواعين والجماعات والقطيع وشيوع الفوضى،  
وعلمتهم الكوارث درساً لم ينسوه، ففرضوا للقوط، وكانوا متحضرين  
يشغلون بالزراعة ويزيدون في العدد على حكامهم، وكان معظمهم مسيحيين يدينون  
بالكاثوليكية التابعة لسلطان الكنيسة في روما.

وللمسيحيين قصة طويلة في الخلاف حول الأسس الأولى للمقيدة المسيحية،  
والمهم أن نقول إن القوط كسبوا في مكان السيادة كانت له وجهة نظر دينية  
تخالف وجهات النظر السائدة بين رعاياه، فكانوا غير الكاثوليك لا يعترفون  
بالوهية المسيح ولا بوساطة القساوسة، وجعلهم رأيهم على الطرف المضاد لرجال  
الدين ذوي السلطان والتأثير في عالم العصور الوسطى، وكان الخلاف في الدين  
بين الشعب والحكام يعني عدم الاستقرار أو وجود نوع من الحرب الصريحة  
أو غير الصريحة بين الملوك والقساوسة، وكان لكل من الجماعتين سلطان وقوة،  
فاضطهد الملوك القساوسة وقسوا عليهم، وقاومهم رجال الدين في محاولة لإثبات  
الوجود، أو لحفظ الوجود ودفع الظلم، وملكوا عليهم مواطن الناس فلمعوا بها  
ضد النظام كله، واستغلوا قوة الأعداد الكثيرة المتناثرة في كل مكان لصالح

---

(١) ربما كانت هذه محاولة لتوحيد أسبانيا لأول مرة في تاريخها.

قضيتهم ولتأييد مذهبهم ، وتعرض الحكام للخطر ، وكانوا يعرفون أثر الدين في حفظ الدولة ، ويدركون أن رأيهم في المسيحية يبعدهم عن قلوب الناس ، ويشير غضبهم .

ولم يستقر سلطان القوط بسبب المنازعات الدينية ، وبسبب الخلافات الداخلية ، وظلت البلاد طوال القرن السادس مسرحا للحروب الأهلية ، وما تآتى به هذه الحروب من فتن وفوضى ، واشتد الصراع بقسوة بين القوط الغربيين ، والقوط الشرقيين سنة ٥٥٤ م ووجد كل فريق منهم له ناصرا في جماعات من الشرق ، أو من الغرب ، ووضعت قوة الدولة الرومانية الشرقية عند إرادة القوط الغربيين الحاكمين ، وحاول هؤلاء أن يجدوا لمشكلاتهم مع السكان حلا مقبولا ، فاعتنقوا الكاثوليكية كمذهب عام كان الطريق الوحيد إلى قلوب الناس ، وأصبحوا من الكاثوليك كما كان الناس من حولهم ، أو كما كانت تقتضى ضرورة بقائهم ، ولم يكن ذلك عن إيمان وعقيدة بقدر ما كان رغبة منهم في حفظ الدنيا ، والإبقاء على السيادة ، وفادوا بالكاثوليكية <sup>(١)</sup> ديانة رسمية للدولة ، وتوثقت بذلك العلاقات الطيبة بينهم وبين سلطات المذهب الطاغية بمدينة روما الشهيرة ، وأسرف ملوك القوط في إعلان ولائهم للبابوية ، وكانوا يكشفون بذلك عن حاجتهم لتأييدها لا عن حقيقة إيمانهم بمذهبها ، وهذه كانت قد عرفت دورها في بسط سلطاتها وتقوذها على الحاكمين والمحكومين معا ، فسلكت الطريق إلى هذه الغاية ، وكان رجال الدين أدواتها في تحقيق أهدافها ، وأصبح هؤلاء إرادة قبل إرادة الملوك ؛ وقوة فوق قوتهم .

---

(١) أعلن تحول القوط عن مذهبهم الديني رسميا سنة ٥٨٧ م .



ومعنى ذلك أن حرص القوط على إعلان الولاء للكاثوليكية لم يأتهم بتأييد الكنيسة ، وكانوا يفهمون هذا التأييد على أنه دعوة من رجال الدين إلى مساندة رجال السياسة ، ولكن رجال الدين كانوا أشد طمعا في النفوذ من رجال السياسة ، فاتخذوا الدين سبيلا ووسيلة إلى العمل لتحقيق السيادة ، وكان هذا فهم العصر وروحه .

وجاءت المخاطر من طريق آخر هو طريق الخلاقات السياسية ، بين الأمراء أصحاب المصلحة المباشرة في الدولة لأنهم لجئوا إلى سلسلة من المؤامرات، والحروب والاغتيالات ، ولم يتفقوا على طريق واضحة لاختيار الزعيم من بينهم ، وإذا صرفنا القول عن التفاصيل الجزئية المذكورة في كتب التاريخ، نقول بأن أقرب الملوك إلى عهد العرب كان اسمه غيطشة أو وتيزا ٧٠٠ - ٧٠٨ م وله صورة باهتة أو متناقضة في كتب التاريخ ، وربما كان من ذوى الشخصيات الغامضة أو الشاذة أو المعقدة ، وتذكر عن عهده حالات كثيرة من الفتن المتجددة والدائمة والمثارة بسبب تأمر كبار القواد عليه ، وكانت هذه الحال المؤسفة تثير في نفسه حالات من الشكوك فيمن حوله ، حتى أصبح لا يتصرف دائما إلا بحالة انعكاسية تبعا لسوء الظن الذى يفعم قلبه ، وأصابته لعنته وعذابه جماعات كبيرة من مواطنيه ، منهم العناصر اليهودية التى اتبعتها بالسير مع الفتن فى كل اتجاه ، فسلط عليها وسائل المذاب المهيبة ، وأثار ضدها حماس المتعصبين من رعاياه<sup>(١)</sup> ، وتبع ذلك فى النهاية نوع من الانشقاق وعدم الولاء للدولة ، أو

---

(١) عانى اليهود كثيرا من عسف القوط ولولا أن أدركهم العرب بالأندلس لما بقى هناك منهم أحد .

نوع من الحرص على الولاء الخاص للمصلحة المباشرة ، وكان الملك متردداً شاكاً ، يخاف أن يغدر به أهله وأن يخونه من حوله ؛ وكان حوله رجال الدين الحريصون على السيادة والنفوذ والمنافع الشخصية ، وحوله الرؤساء الآخرون الذين كانت تطوف بأحلامهم أمانى السيادة المثيرة ، وبعدهؤلاء وأولئك كان لليهود بدورهم حريصين على الدنيا وعلى البقاء فيها ولو على حساب الضحايا ، ولو كانوا كل من هدام من الناس ، فضاعت وحدة القوة بالدولة وعاشت محكومة بالريبة والخوف من كل ماحولها ومن حولها .

ثم مات الملك بطريقة غامضة سنة ٧٠٨ م فاشتد الخلاف بين المتنافسين على عرشه وطال الصراع حول منصبه بعد وفاته ، وتغلب الأقوياء كما هي عادة الحياة والناس ، وجاء لفريق أوردرىك ممثلاً لدولة القوط وهي في الطريق إلى نهايتها ، ويقال إنه كان زعيماً قديراً ، لولا أن أخته المتاعب عن طريق أولاد الملك قبله ، وقد اتهموه باغتصاب حقهم في السلطة وسيادة الدولة .

وبعد أن عجز هؤلاء عن أن يكونوا في مكان أبيهم في أسبانيا فروا إلى مكان العرب في إفريقية يلتمسون معونة الأبطال الذين ذاعت شهرتهم هناك وأصبحوا قوة كبيرة بالمغرب ولم يكن أولاد الملك وخدم الممثلين للعداوة الصريحة للملك الجديد لأن هذا لسوء حظه وجد له أعداء في كل مكان ، فظل حياته متخوفاً من ثورة خصومه عليه ، وكانوا معظم أهل البلاد .

وزادت المؤامرات عن توقعات لفريق فاضطر لفرض ضرائب جديدة كان بعضها نوعاً من العقاب المباشر لبعض أعدائه ومبغضيه ، وكان بعضها الآخر نوعاً فرضته الضرورة ، وحاجات أمن الدولة ، ولم يزد ذلك إلا ضعفاً ، لأن

هذه لم تكن الوسيلة المألوفة لكسب الناس ومحبتهم ، فالت عنه القلوب ولم يعد لأحد فيه رجاء .

جاء الخطر من الجنوب على يد العرب بعد أن نهتهم صيحات الأمراء المظلومين .

وكان العرب بدورهم يبحثون لجيشهم عن مجال للعمل خارج حدود بلاد المغرب ، وحسبهم أمراء القوط المطرودون من بلادهم كأنهم كانوا جيش الاحتياط القادر على فرض السلام في الأرض ، أو كأنهم كانوا من وسائل الأمن في عالم غريب لا يستقر على حال ، فأذاعوا بعد انتصار المسلمين أنهم ما جاءوا إلا لإعادة الحق إلى أصحابه ، وأنهم سيعودون بعد تحقيق هذه الغاية .

ولم يذهب المسلمون إلى أسبانيا إلا ليقموا عدالة الإسلام بين من لا يعرفونه ، ولإلنشر هذا الدين بين الإسبان وغيرهم ، وكان منهم وثنيون انتهز المسلمون فيهم الفرصة ليحولوا انتباههم إلى الدين الجديد ، ثم ذهبوا إلى هناك أيضا لأغراض أخرى كثيرة تشير إليها هجرة البربر جماعات من شمالي أفريقيا .

جاء القوط إذا لأسبانيا كأجانب يبحثون عن مناطق النفوذ والسيطرة ، ويبحثون عن وطن يكونون فيه ملوكا ، وعاشوا هناك يرهقون أهل البلاد بما يطالبونهم به من تكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستعصى كل شيء ، وحكموا أسبانيا كأجانب بعيدين عن روح شعبها وآماله ، ولم يغيروا شيئا من أحوال المجتمع حولهم ، إذ لم تكن لهم رسالة تلفت الناس إلى الأمل في التقدم على أيديهم ، وكانوا أرسقراطيين ، فعاش حولهم الناس يشاهدون امتيازات



الارستقراطية السياسية المتطرفة، ويعملون من وجودهم وجهودهم وأموالهم ما يحقق مطالب الحياة الرفيعة التي ينعم بها الحاكمون ، وما يغطي النفقات الباهظة للحكام المترفين، وكانوا يعملون في دائرة واسعة، تجمعهم مع جماعات أخرى متميزة في النظرة الاجتماعية وفي الامتيازات المالية ، ولا تشارك في تحمل الأعباء مع السكادحين المرهقين الذين فرض عليهم الجهد الدائب للشاق كزارعين في حالة وسط بين الرق والحرية ، أو كزارعين كالرقيق يتصلون بالأرض اتصالاً مباشراً ، كأنهم كانوا من آلاتها ، أو من وسائل العمل فيها ، أو كعبيد بقدر ما تفيد الكلمة من المعنى الصريح .

ومعنى هذا أن حكومة القوط — كما تشير إلى ذلك مصادر التاريخ — كانت ملكية مستبدة ، ينفرد فيها الملك برأيه ، ويقضى في شئون البلاد كما يشاء ، وتحرسه هيئة عسكرية قوية مؤيدة من الأشراف والإقطاعيين، وبقية الناس حولهم كانوا يعيشون من العمل في خدمة هؤلاء جميعاً .

وأما الدين فكان له سلطان دائماً ، ويضعف هذا السلطان أحياناً ويقوى أحياناً أخرى ، ولكنه كان موجوداً دائماً ومستغلاً دائماً ، ولدين القوط والأسبان قصة ذات فصول طويلة ، يتحدث عنها تاريخ بلادهم ، ولعل من أهم المعالم في اتجاهات القوط الدينية أنهم كان يتعصبون لمذهبهم ويضطهدون مخالفينهم ، كدليل من جانبهم على الولاء المطلق لمذهب القساوسة الجهلة المتحمسين بالضلال لوجهات نظرهم الضيقة ، والمتعصبين لكل شيء يتصل بالعتيدة ، وكان يبدو أحياناً ما يشبه التحالف بين سلطة الدين وسلطة الدولة مما جعل القساوسة يكتبون عن القوط كتابات طيبة تدل على رضاهم عنهم ومحبتهم لهم ، ولا يدل هذا

الرضا وهذه الحجة على شدة إيمان الملوك القوط بالمسيحية ولا على تعلق قلوبهم بها ، وإنما يدل على نوع من التفاهم بين السلطين ، لاقتسام خير البلاد بينهما ، ومع ظلم القوط واستبدادهم بمن حولهم فإن القساوسة لم يحاولوا الوقوف مع الضعفاء من مواطنيهم ، ولم يتقدموا بما يساعد على تغيير الأحوال السيئة التي كانت تسود المجتمع كله .

وظهر بالزمن عجز القوط عن تقديم الأسس الاجتماعية التي تساعد على تنظيم المجتمع الأسباني الشامل لنماذج كثيرة من الناس ، وجيشهم نفسه كان يتكون من جماعات كبيرة من الفقراء والعيبد ، وهؤلاء كانوا من أسباب ضعفه وهزيمته لأنهم عاشوا ساخطين لا يهمهم تغيير حاكم بحاكم ، ولم يكن عندهم ولاء إلا لمصالحهم المباشرة .

وكل هذه إشارات إلى جوانب الضعف التي ساعدت على نجاح عمليات الفتح الإسلامية ، ولكنها لا تعني في النهاية أن دولة القوط في أسبانيا كانت أقل مستوى من غيرها في مقاومة التقدم العربي ومعاندته ، وقد كان هذا التقدم مثيرا جعل الناس يلتمسون له أسبابا مقبولة وغير مقبولة ، وقد كان له ولا شك أسباب كثيرة مقبولة ، ولكنها كلها لا تفيد معنى الانهيار الشامل والتمام في كل مكان من مسرح العمل بين القوط والعرب .





## (ب) الأندلس

يظهر من كتابات المؤرخين ما يشبه المبالغة المقصودة عند الحديث عن فتح العرب لأسبانيا ، وتشير أقوالهم إلى أن ذات الفتح لم يكن عملاً عادياً ضمن النشاط العسكري البشري عبر الزمن ، وإنما كان محاولة غير جادة أيديها العناية الخفية ، أو خدمها الحظ المفاجيء ، وكان النجاح فيها أعظم عمل بطولى قام به العرب في تاريخهم العسكري كله .

ويقال إنه إذا كان للعرب أمجاد عسكرية أخرى - وقد كانت لهم أمجاد عسكرية كثيرة - فإنها لم تكن في مثل الأهمية البالغة لفتح جزء كبير من أوروبا الغربية ، ولا يشك بعض الكتاب في أن حملة العرب على أسبانيا كانت أشبه بمغامرة كان التوفيق فيها أملاً بعيداً ، أو كانت محاولة فريدة صادفتها السلامة ، ويقال إن الرغبة في فتح أسبانيا ربما عرضت للعرب في فترة من حياتهم وهم بشمال إفريقيا ، ولكنها بدت لهم مجرد أحلام لا سبيل للوصول إليها ، أو آمانيات بعيدة كانوا لا يملكون وسائل تحقيقها ، لأن الصعوبات أمامهم كانت كبيرة وخطيرة ، ومن هذه الصعوبات :

١ - رغم أن المحاربين من العرب والبربر أتوا من الشمال الإفريقي القريب من أسبانيا إلا أنهم جميعاً كانوا يمثلون الدولة الإسلامية التي كانت رئاستها في بلاد الشام البعيدة ، وكانوا محتاجين لعونها ، وليس سهلاً على حكومة المسلمين المركزية في البلاد النائية أن تدفع بالنجيدات العسكرية إلى ميدان الحرب

عند الحاجة إليها ، وقد أدى ذلك إلى القول الشائع بأن المسلمين وصلوا بفتح أسبانيا إلى أقصى نقطة انطلاق يمكن الوصول إليها بإمكانات العمل العسكري المتاحة لرجال الحرب في العصور الوسطى ، وجعل الناس يلتزمون للعرب عذراً في هزيمتهم أمام الفرنج بجنوب فرنسا سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

٢ — الخروج عن مجال البيئة العادية المألوفة لجماعات عربية وبربرية محاربة تجيد حرب الصحراء وحدها ، وتميل للقتال فيها ، وكأن دخول أوربا عرض على العرب والبربر ملابس جديدة لا تشابه في شيء ما عرفوه في حياتهم المألوفة ، ومعنى هذا أنهم كانوا معرضين لتجربة جديدة كانت عوامل الفشل أقرب إليهم فيها من عوامل النجاح .

٣ — تعرض أرض أوربية وشعب أوربي لأول مرة للسيطرة العربية المباشرة وكانت الأرض الأوربية والشعوب الأوربية تعيش حتى هذا الفتح بعيداً عن مجال السيطرة العربية ، أو كانت تستعصى على هذه السيطرة دائماً<sup>(١)</sup> .

٤ — تهديد المسيحية الكاثوليكية في منطقة قريبة عن مركز الرئاسة المباشرة لهذه الديانة أو لهذا المذهب الديني المعارض بشدة للإسلام منذ ظهوره ، وكانت هذه أول محاولة من المسلمين للهجوم على بلاد كاثوليكية في أوربا المسيحية ، وكان يمكن أن تتعد البلاد الكاثوليكية ضد المسلمين .

٥ — الاتصال المباشر في معارك حاسمة بجيش أوربي في مجال أوربي لأول مرة في حياة المسلمين العسكرية .

---

(١) عجزت -هود العرب القوية ومحاولاتهم المتكررة عن فتح القسطنطينية رغم قوتهم وحماهم وإصرارهم على هذا الفتح .

٦ - كان القوط يملكون الوسائل الكافية لهزيمة العرب ولم يكونوا أقل مساومة لهم من غيرهم ، وكانوا يستطيعون الانتصار عليهم لولا عوامل الحياة من داخل صفوفهم نفسها .

٧ - كانت أوروبا بلاداً مسيحية تعارض الإسلام وترفضه ، وبدخوله فيها كان يمكن أن تزيد عندها الرغبة في دفعه ، أو محاولة حصره في مناطق غير المناطق الأوربية .

أو غير ذلك مما يمكن إضافته من تصورات من يفهمون أن عمل العرب في أسبانيا كان أشبه بمعجزة لا تتكرر كثيراً في تاريخ الشعوب .

وقد يبدو لنا الآن أن فتح الأندلس لم يكن شيئاً غريباً ، أو لم يكن عملاً فيه الكثير من جوانب الشذوذ غير العادية ، وإنما كان عملية على الطريق أخذت دورها بعد الفراغ من فتح شمالي إفريقيا ، وكانت كذلك متوقعة بعد أن عاش العرب قريباً من أسبانيا وعرفوا الظروف التي كانت تحيط بشعبها .

وجاءت أولى المحاولات بإرسال جيش صغير ينحصر دوره في عملية استطلاع ضرورية ثم تلا هذا الجيش جيش آخر يكون مقدمة للعمل الكبير ، ثم تأتية الإمدادات بعد وصوله على طريقة العرب وأسلوبهم في الفتح .

وهناك ما يكفي من الأدلة على أن فتح أسبانيا لم يكن مغامرة صادفها التوفيق ، ولم يخدم العرب فيها الحظ السعيد وحده ، وإنما كان عملية فتح منظمة استؤذن فيها خليفة المسلمين قبل الشروع فيها ، وسار فيها القواد منذ اللحظات الأولى سيرة من يريدون الفتح والاستقرار .

وليس من الضروري أن نحاول الآن التعرف على الأسباب البعيدة أو القريبة



التي دعت العرب لفتح الأندلس ، وقد كانت هناك ولا شك أسباب مباشرة دفعت إلى التفكير في هذا العمل العظيم ، ولكن القضية الكبرى ظلت محتفظة بكل معالمها ، وهي أن فتح الأندلس لا يختلف كثيراً عن فتح أية منطقة تقدم إليها العرب في الأسباب والدوافع الأولى ، وقد يكون لكل محاولة أسباب فريدة مباشرة ، وأهداف أساسية مقصودة ، ولكن القول بأن فتح الأندلس كان في الدرجة الأولى عملية متممة لفتح شمالي إفريقيا لا يزال قولاً مقبولاً بلا حاجة إلى إجهاد الفكر في استنباط الأسباب القريبة أو البعيدة لهذا العمل العربي الناجح ، وقد يكون ضرورياً إذا أردنا معرفة الأسباب المهمة لفتح الأندلس أن نعرف الأسباب الرئيسية لعمليات الفتح العربي كله<sup>(١)</sup> ، وأن نعرف فلسفة الفتوحات الإسلامية جملة وتفصيلاً ، ولماذا نتوقف للبحث الطويل في الأسباب الدافعة لفتح الأندلس وحدها ، وكأنه كان ظاهرة غريبة ليس لها مثال سابق ، أو كأن أوروبا كانت بلاداً مغلقة أمام العرب<sup>(٢)</sup> في جميع الأوقات أو كانت منطقة اتفق على عدم الحرب فيها .

وأسبانيا التي انتصر فيها العرب كانت تتصل اتصالاً مباشراً بمنطقة شمالي إفريقيا التي أصبحت بلاداً عربية إسلامية ، والمنطقتان كانتا متقاربتين لا يفصلهما إلا مضيق لم يمنع من قوة التأثير المتبادلة بين الجانبين ، وكان

---

(١) مع وضوح الفرق الكبير بين أسباب هذه العمليات في زمن الخلفاء الراشدين وبين أسبابها في زمن الأمويين بعدهم .

(٢) ربما أصبحت أوروبا مغالقة أمام العرب من الشرق بعد فشل محاولاتهم لفتحها من هذا الجانب وأما فتح الأندلس فقد كان أولى المحاولات العربية من الغرب .

للأحداث هناك آثارها العميقة في الشمال والجنوب ، واستمر التأثير المتبادل قويا طوال مراحل التاريخ القديم والحديث على السواء .

هناك بالتأكيد أسباب<sup>(١)</sup> أساسية معروفة لحركة الفتوحات الإسلامية جملة ، ليس هناك مجال الحديث عنها ويمكن مراجعتها في كتب التاريخ وغير كتب التاريخ عند المسلمين وغير المسلمين.

وهناك أسباب أخرى لها صلة خاصة بعملية الفتح التي نتحدث عنها ، ولهذا هنا أهميتها وضرورتها .

ويقال عادة إن الأسباب المباشرة لفتح أسبانيا كانت أمورا إنسانية خالصة لوجه الشرف وحده ، ومنها الاستجابة الكريمة لاستغاثة حاكم بيزنطي لولاية سبته القريبة من أسبانيا ، وكان الملك قد اعتدى على شرف أسرته ، فطلب نجدة العرب فأنجدوه ، وكانوا مراعاة إلى حاجته ، كأنها كانت من أولى إهتماماتهم ، وقد يبدو هذا التعليل مقبولا من زاوية التفكير العربي وحده ، وهو تفكير يجعل الشرف وأمور العرض فوق الحياة ذاتها ، ولكن الغريب أن يكون لهذه الأمور مثل هذا الخطر والأهمية عند الروم البيزنطيين أيضا ، فيفضل الحاكم أن يكون عوناً لشعب أجنبي على احتلال أرض حلفائه ليرد على

---

(١) بدت الصورة في العصور الوسطى في شكل صراع عالمي بين العرب وبين أعدائهم وكان أعداؤهم لا يتركونهم بعد انتصارهم يعيشون في البلاد المفتوحة بسلام وهم بدورهم كانوا يرفضون أن يعيشوا في خوف ، وتدفعهم شجاعتهم إلى مقابلة العدو في بلد ، وفي كل الأحوال لم يكن العرب لعنة عامة أو أعداء لكل الناس أو لكل الأديان.

جريمة أخلاقية ارتكبها أحد الملوك مع ابنته ، وقد كان مقبولا أن يتآمر هذا  
الوالى على حياة الملك وحده لا أن يساهم في تغيير مصير البلاد كلها .

ويقال كذلك إن العرب دعوا لدخول أسبانيا ليردوا العرش الأسباني  
لأصحابه الشرعيين بعد أن اغتصبه أحد المتسلطين الأقوياء ، وإن العرب  
تحمسوا لهذه القضية البعيدة على حياتهم ومصالحهم ، وكأنهم كانوا مجرد  
جماعات مرتزقة تعمل لحساب الآخرين ، أو كانوا جماعات قوية تعرض جهودها  
للمسكينة على الراغبين فيها ، أو كانوا شرطة نجدة جاءت لتقيم العدل في بلاد  
يفتصب فيها الحق علنا .

وليس إلى الشك سبيل في وجود مثل هذه المظالم في أسبانيا ، ولكن عملية  
الفتح الإسلامية لأسبانيا لا يمكن أن تكون هذه المظالم من أسبابها الأولى  
أو المباشرة ، ولا يمكن أن تكون رداً على هذه المظالم وحدها لأنها كانت  
تتمة لعمليات سبقتها ، بمعنى أن فتح مصر جاء بعد فتح الشام ، وفتح شمال إفريقيا  
جاء بعد فتح مصر ، وجاء دور الأندلس بعد فتح شمالي إفريقيا ، وكلها كانت  
عمليات متتمة لعمليات سابقة ، وكان من أمل العرب أن يفتحوا أوروبا بعد فتح أسبانيا<sup>(١)</sup>  
لولا أن حالت دون ذلك هزيمتهم في موقعة بلاط الشهداء ١١٤/٧٣٢ م ؛ ويظهر أيضاً  
أن من أهم الدوافع المباشرة لعمليات الفتح أن الخطوات التالية كانت تتبع الخطوات  
السابقة بالضرورة بمعنى أن العرب لم يجدوا استقراراً في مكان إلا بفتح ما يليه ؛ ولم

---

(١) يقال إن موسى بن نصير فاتح الأندلس كان يأمل في فتح أوروبا كلها ، ولم يصرفه  
عن تحقيق هذا الأمل إلا استدعاءؤه لعاصمة الخلافة بالشام .



يستطيعوا الرجوع عن أعمال ابتدأوا فيها ، وكان لا بد أن تبلغ هذه الأعمال غايتها .

ومن المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب — أيام الفتوحات الإسلامية الأولى — كان يرجو أن يقف العمل العسكري عند حدود معروفة ؛ وكان لا يود أن تقطع المسافات الطويلة أو البحر الخفيف الصلة بينه وبين جيشه ؛ ولم يكن العرب باحثين عن المتاعب في كل مكان ؛ ولا كانوا أعداء لكل للشعوب .

وصحيح أنهم خضعوا لفترة طويلة من حياتهم لفكرة سيطرت عليهم ، وشغلهم بالعمل من أجل دعوتهم ، وكانوا يأملون في عرض هذه الدعوة على كل الناس ولكن ذلك لا يعنى أنهم اعتبروا العالم الخارج عن دار الإسلام عدواً لهم يأتي دوره على طريق الحرب في النهاية ؛ وإنما رأوه في حاجة لدينهم ؛ وكانوا قد التزموا بنشر هذا الدين والإعلان عنه ؛ وجاء الدين بحركة انبعاث حضارية قوية كان لا بد أن تصل إلى مداها .

\* \* \*

أحسن حاكم إفريقية موسى بن نصير ٨٦ - ٨٩٣ / ٧٠٥ - ٧١٢م أنه جاء لينهى قصة الصراع الطويل الدائرين العرب والبربر في شمال إفريقيا ؛ ووجد أمامه دوراً كبيراً كان عليه أن يؤديه قبل أن يأمل في الوصول إلى هذه الغاية ؛ وقد جاء متأخراً على طريق من سبقوه لتحقيق الهدف المشترك ، فوجدهم قد مهدوا الطريق قبله ؛ ونجحوا في إثارة اهتمام الناس بالدين ، وفي إقناع بعضهم بقبوله ، ووجدهم أيضاً قد سمحوا للبربر بالمشاركة في العمل في صفوف الجيش ، ويذكر التاريخ

حسان بن النعمان ٧٣ - ٨٨٥ / ٦٩٢ - ٧٠٤ م كقائد عربي ملك قلوب البربر بطريق السلم والتعاون والمصالحة ، ولكن جهوده لم تكن كافية للنجاح الأخير في كسب القضية ، ونجاحه لم يكن يعنى عدم الحاجة إلى تضحيات أخرى جديدة يقدمها من جاء بعده في مناطق كان بعدها معطلا لوصول أقدام العرب الفاتحين إليها ؛ وليس مهما الآن أن نشير إلى أعظم الأبطال في دورات الحروب الطويلة التي شغلت العرب والبربر جميعاً ، وعرضتهم للمخاطر المؤسسية التي يتعدت عنها المؤرخون باهتمام ، لأن التقدم الذي حققه العرب في الشمال الإفريقي لم يكن من عمل قائد واحد أو جماعة واحدة .

وقد جاء النصر الأخير للعرب هناك بعد جهود بذاتها جماعات آمنت بقضية الإسلام والمسلمين ؛ وكان الإيمان قويا عند كل من شاركوا في حركات الفتوحات طول تاريخ الحروب في هذه البلاد البعيدة ، ولا شك أن مجهولين كثيرين قد ساهموا في قرب المسلمين من هدفهم ؛ ولم تذكرهم كتب التاريخ لأنهم عملوا للدعوة من وراء ستار حجبهم عن الرؤية القوية المباشرة .

وهما يكن من أمر فقد كان موسى بن نصير واحداً من أعظم أبطال المسلمين بشمال إفريقيا ، لأنه لعب دوراً حاسماً أخضع به جماعات لم تكن تعلم عن الإسلام والمسلمين شيئاً ، وأقنع به جماعات أخرى كانت مترددة لا تعرف الطريق إلى تحقيق الأمل ؛ وفرض موسى بن نصير رأيه على جماعات ثالثة كانت ترفض قبول دعوته الإسلام انتظاراً لفرص العمل الجديدة .

وفي كل الأحوال كان هذا القائد عنيفاً في حربه ، ومسرئلاً في غضبه فأشاع

في المغرب كله رجة كبيرة كان لها أهميتها في إفهام القبائل البربرية حقيقة الأوضاع الجديدة القائمة بالمنطقة كلها؛ وكان يريد الضغط على البربر ليصبح قبولهم للإسلام ضرورة من ضرورات حياتهم، ومكسباً من مكاسب دينيهم، ووزع قواده وجنده في مناطق المغرب فقرضوا هناك سلطته بالقوة، وخافه الناس فأسرعوا للعمل معه وكثر جيشه، واستطاع به أن يحقق أعظم الانتصارات في تاريخ العرب بالمغرب.

ولم يكن البربر معه مجرد جنود يخضعون لأوامر القوادات الأخرى، بل كانت فيهم قيادات بربرية كان وجودها أجل نتائج التطور الطبيعي لعلاقة العرب بالبربر، وترأست القيادات البربرية على جنود من العرب والبربر، وقامت بأعظم عملية عسكرية في المغرب وهي فتح الأندلس.

واشتهر من قادة البربر هناك مونس<sup>(١)</sup> وطريف بن مالك وطارق بن زياد، وأصبح هذا الأخير عند نهاية العمل العسكري في شمال إفريقيا حاكماً لمدينة طنجة الواقعة في الشمال عند ساحل البحر القريب من أسبانيا وكان مستقلاً بقيادة جيش المسلمين في المغرب الأقصى، وهو جيش كان يتقد حماسه عندما تزداد فرص العمل أمامه، ووجد الفرصة في الإغارة على حاكم سبتة<sup>(٢)</sup> البيزنطي، ولما لم تنجح المحاولات العسكرية في إخضاع هذه المدينة (لجأ حاكمها طارق بن زياد إلى السلام

---

(١) قائد بربري أصبح زعيماً للمسلمين المستقرين في أقصى الشمال من شبه الجزيرة

ت ٧٣١/٥١١٣ م.

(٢) كانت «سبتة» تكون مع طنجة مدينة واحدة ذات شطرين على الحجاز إلى الأندلس.



والتعاون مع الحاكم الرومى الذى كان يعرف أهداف العرب وأغراضهم من ولايته؛ فأراد أن يبعدهم عنها بإغرائهم على العمل فى الطرف المقابل من البحر، وكان قبل ظهور العرب حوثه حليفاً أو كالحليف لحكام أسبانيا القوط، ثم ضعفت بينه وبينهم أسباب المودة بسبب ثورة قتل فيها حليفه الملك غطيشة وتشرّد أولاده من بعده، ولما حاول الاعتراض على الثوار هزموه فرجع إلى سواحل إفريقيا يطلب قوات العرب الفتية، وكشف للعرب أخبار الأسباب وأحوال بلادهم.

وبدا أمام العرب ناصحاً لهم وحريصاً عليهم، وجاءهم بأولاد الملك التتيل يدعونهم لدخول أسبانيا، ويهونون لهم شأن حكامها.

ولم يكن العرب بحاجة لمن يثير فيهم الحماس للعمل الجديد لأنهم بدورهم كانوا راغبين فى فتح أسبانيا، وكانوا يرون هذا الفتح مرحلة تالية لفتح شمالى إفريقيا، أو كانوا يرونه عملاً يأتى دوره على الطريق لنصرة الدين وخدمة النفس والدولة، وشجعتهم القوة ووسائل الحرب المتاحة للتقدم نحو الميدان الجديد. أو كان عليهم أن يبحثوا عن ميدان آخر يشغلون فيه الأعداد الكبيرة من جيش المسلمين، وكان هذا جيشاً تكثر فيه الجماعات المؤمنة الآملة فى العمل لخير الدين ومكاسب الدنيا.

وانصل المتمردون على حكام القوط فى أسبانيا المسيحية بالعرب، وكانوا بدورهم راغبين فى العمل وراء البحر لإتمام فتح مناطق المغرب كلها، وكان قائدهم حريصاً على عرض خبراته وتجاربه القيادية فى ميدان جديد، فاستشار الخليفة فنصحه باختبار المنطقة قبل أن يغامر بالعمل فيها، ولم يردده أن ينقل جيشه

إلى بلاد لا يدري عنها شيئاً ، واختار موسى أن يختبر نية الملتزمين لنصره ، فأرسل اثنين من قواده البربر ليستطلعا ظروف المنطقة قبل اتخاذها مسرعا للمعارك القادمة ، وكان أحدهما طريف بن مالك ٥٩٢ / ٧١٠ م وانحصر دوره في القيام بحركة سريعة أكسبته وأصحابه بعض المغنم المالية ، وعرف شيئاً عن أحوال البلاد وأهلها ، وكان الآخر طارق بن زياد ٥٩٢ / ٧١١ م وتشير أعماله إلى أثر الإسلام في تكوينه كقائد مسلم قام بدور من أعظم الأدوار في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وما كان يمكن له أن يكون بدون الإسلام إلا قائداً صغيراً في حروب البربر الداخلية ، وليس في المصادر التاريخية ما يشير إلى حقيقة التعليمات الصادرة إليه من قيادة المسلمين في شمال إفريقيا ، وهل ذهب إلى أسبانيا قائداً لجملة استطلاعية فاضطره عدوه للدخول في معارك لم يرسل من أجلها ؟ ثم بعد نجاحه لم يفهم معنى للوقوف متعطلاً أمام نتائج النصر الأولى ؟ ، ولم يجد أيضاً خيراً في الرجوع عن عدوه بعد الانتصار عليه ؟ وكان مرسلًا ليقا تل بغرض الفتح على طريقة العرب التقليدية في فتوحاتهم المعروفة ، وكان العرب يرسلون عادة جيوشاً صغيرة تقوم بدور الرواد أو بعمل القادمين الأول ، ثم يوالونها بالإمدادات العسكرية عند الحاجة إليها ، وحدث ذلك عند فتح مصر والشام والعراق ، وغيرها من البلاد التي حارب العرب على أرضها .

هذا ونميل إلى القول بأن موسى بن نصير عرف كيف يختار قائداً يملؤه الحماس والأمل والإيمان ، ويمثل شعباً كبيراً يريد أن يأخذ دوره في صنع الأحداث بالمغرب ، وترك لهذا القائد حرية العمل حسب ظروف الحرب وملاساتها ، فغلبت على طارق وعلى جنوده الرغبة القوية في العمل المثير ، فساروا مندفعين

بالحماس نحو الغاية ، وشجعهم النجاح على التمدد في الحرب حتى نهايتها .

وبرهن طارق مع جنوده الإثنى عشر ألفاً<sup>(١)</sup> على قوة الإيمان والإخلاص للعقيدة الجديدة وعبروا البحر إلى أوربا بسفن لم تكن عربية<sup>(٢)</sup> أو بربرية ، وإنما كانت مساهمة إيجابية من حاكم سبتة البيزنطى الغاضب على ملوك أسبانيا<sup>(٣)</sup> .

وأثار طارق عزيمة أصحابه بإحراق السفن التى أوصلتهم إلى الشاطئ الآخر ، وطلب منهم الثبات والتضحية ، وبين لهم أهم الأخطار من حولهم ، وخيرهم بين الموت أو النصر ، فالعدو أمامهم والبحر من ورائهم ، ولا أمل لهم فى الحياة بغير النصر ، ولا عذر لهم فى الهزيمة إلا بالموت ، أو هكذا يقال

---

(١) لم يكن فى هذا الجيش غير خمسمائة من العرب ومعنى هذا أن البربر احتملوا وحدهم فى أسبانيا صدمة الفتح الأولى .

(٢) ربما كان المسلمون قادرين على المساهمة بالسفن لنقل جيوشهم لأسبانيا لأن صناعة السفن كانت قد تطورت عندهم فى تونس وغيرها ، ولكنهم — فيما يبدو — أرادوا المبالغة فى التخفى باستعمال سفن تعود الناس على رؤيتها ، ليأمنوا بذلك المفاجآت الخطرة فى البحر .

(٣) ليس من المعروف متى بدأت صلات الوديين العرب وبين هذا الحاكم الرومى ، وهل كانت سنة ٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م عند ما وصل موسى بن نصير إلى إقليم طنجة ، أو كانت قبل ذلك منذ ولاية عقبة بن نافع على المغرب سنة ٦٢ — ٦٤ هـ / ٦٨١ — ٦٨٤ م .<sup>٤</sup>



في بعض روايات التاريخ الإسلامي المعروفة (١) ،

واشترك مع جنوده في معركة كانت أهم المارك (٢) التي دارت على أرض الأندلس كلها ، واعتبر النصر فيها تقريراً وواضحاً عن مستقبل البلاد ومصيرها ، وملاّت نتيجة المعركة قلب القائد بالأمل ، وجاءته نبذات عسكرية زادت في قوته ، ودلت على حقيقة الدور الذي جاء من أجله ، فأمرع يتتبع عدوه في صميم بلاده ، وفي وسط أرضه ، حتى أحس موسى بن نصير أن زحف طارق بن زياد وراء ملوك القوط يوشك أن يعرض جيشه للخطر الدائم ، لأن خطوط مواصلاته كانت غير آمنة وتعرض لتهديد المعازل القوطية المبعثرة على امتداد المسافات والمناطق التي لم تخضع للمسلمين .

وعبر موسى بن نصير إلى الأندلس ٨٩٣/٧١٢م وخالف الطريق الذي سار فيه من سبقوه وتم له النصر بعد جهود فاقت جهود طارق ومن معه ، وأصبح بجهد ومركزه بطل الأندلس وسيدها ، ويقال إن نجاحه أثار في نفسه

---

(١) إذا كان هذا ليس من عمل القيادات الرشيدة التي تحرص على إبقاء خطوط الرجعة عند الهزيمة - كما يقال الآن - فإن طارق بن زياد لم يكن - فيما يبدو - راغباً إلا في النصر أو الموت ، ولم يكن بقاء السفن ضرورياً في الحالتين ، وقد نمع جز اليوم عن إدراك حقيقة المالبسات التي كانت تحيط بقائد غريب مع جماعات قليلة في بلاد بعيدة ، وربما وجد في حرق السفن اندفاعه حماسية مطلوبة تقطع الأمل في النجاة على المترددين من أصحابه .

(٢) كانت المعركة في سهل شريش قرب نهر وادي لسكة قريبا من جبل طارق ٢٨ رمضان ١٩٨٩٢ يوليو ٧١١م وكانت بسالة البربر وخيانة فرسان القوط للملكهم من أهم عوامل نصر المسلمين فيها .

الأمل في الذهاب إلى الشام عن طريق أوروبا ، وسواء أكانت هذه مجرد فكرة طارئة أملتها ظروف الانتصارات المريعة ، أو أنها كانت خطة قديمة وضعها موسى بن نصير أمامه كهدف كبير تدور حوله الجهود ، فإن كثيراً من الصعوبات عارضت ميوله ورغباته ووقفت في طريق أحلامه ، وكان اعتراض جيشه على السير معه وراء حدود أسبانيا أهم هذه الصعوبات وأخطرها ، وربما كان جيشاً قد أرهقته الرحلة الطويلة من شمال إفريقيا إلى شمال الأندلس ، أو كان قد بدأ يتفعل بعوامل الخلاف والمنازعات العارضة<sup>(١)</sup> ، أو أراد هذا الجيش أن يعيش بعد التعب في نعيم الأندلس ليأخذ نصيبه من الدنيا .

وانتصر المسلمون في أسبانيا ، ونقلوا بعد انتصارهم الإسلام إلى تلك الجهات البعيدة في غرب أوروبا ، ومع جهلهم بها فقد وجدوا من يدلهم عليها ، وتابعوا جهادهم فيها خطوة خطوة وسط شعب أوربي يتأثر بمحضرة الرومان ويعيش على أسلوب حياتهم .

ورجع موسى بن نصير في موكب نصره إلى الشام في ذي الحجة ٩٥ هـ . بنا ٧١٥ م بعد أن أدار في جهده متصل دام أكثر من ثلاث<sup>(٢)</sup> سنوات أعظم عمليات الفتوح العربية ، وبعد أن فرض سلطان المسلمين على شبه جزيرة أيبيريا ، ولم يترك فيها بلداً يعرفه إلا رفع عليه راية الإسلام ، وضمه إلى بلاد المسلمين . ومات الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد وصوله بأيام ، وجاء بعده أخوه سليمان ،

---

(١) تروى مصادر التاريخ أن أحد مستشاري موسى بن نصير اعترض عليه قائلاً :

« أتريد أن تخرج بجيشك من الدنيا ! » .

(٢) يقال في تاريخ أسبانيا المسيحية إن العرب فتحوها في أربع سنوات ولم يستطع الأسبان

إخراجهم منها إلا بعد ثمانية قرون .

وفي خلافته كانت نهاية موسى بن نصير الفارسية ، وكان هذا الغموض بسبب ميل الدولة الخاضعة للتأثيرات الحزبية والعصبية إلى تغيير أبطال المسرح السياسي والعسكري بها .

ثم صارت الخلافة بعد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز ٩٩ هـ / ٧١٧ م فانشغل عن شئون الأندلس بإصلاحات عاجلة كان يصحح بها أخطاء أسرته الأموية نفسها ، وبعد أن استقامت له الأمور من حوله اختار للأندلس واليا اسمه السمع بن مالك ، بعد أن قامت أمامه التجربة على صلاحه وتقواه .

ومن الغريب أن يقال إن هذا الخليفة المؤمن كان يفكر في استدعاء المسلمين جميعا من بلاد الأندلس ، وكأنهم كانوا مجرد فرقة عسكرية يمكن إرجاعهم بأمر أمير المؤمنين ، وربما كان يشعر بقربتهم البعيدة ، أو يبعد المستقبل عن جانبهم ، فرغب في إرجاعهم ، وإخلاء البلاد منهم ، وهو الحريص على نشر الإسلام ، وتوسيع رقعته ، ولم يكونوا قد تورطوا بعد في الخصومات القبلية ، ولما تقع بينهم حروب أهلية ، ولم يكن عدوهم قد تطورت حاله معهم إلى أن يصبح خطرا عليهم كما كان في مستقبل أيامهم ، وفي تعليل هذه الرغبة الطارئة على الخليفة ، أو هذا الفهم الجديد عند رئاسة الدولة يقال : إن بلاد الأندلس كانت جزءا متما لإفريقية ، وكانت الخلافة لا تباشر شيئا من الإشراف عليها ، وربما كانت جزءا مجهولا من بلاد المسلمين لا يعرف عنه الخليفة إلا ما يصله من شكاوى أهله من الوافدين عليهم من الشام ، وربما بالغ الناس في الشكاوى فظن الخليفة أن البلاد لا تساوى الاهتمام بها ، أو أن المسلمين فيها كانوا يعيشون تحت الأخطار ، ومعنى هذا أن ميل الخليفة إلى استدعاء المسلمين من الأندلس كان نوعا من عدم الفهم



لحياة الناس هناك ، أو كان نوعا من التردد بسبب إيثاره سلامة المسلمين ، أو كأنها كانت محاولة انهزامية سريعة من جانب الدولة الأموية التي فتحت البلاد في عهدها ، ويبدو أن حال المسلمين في هذه المرحلة المبكرة من زمن الفتح كانت غير مستقرة ، لأنهم لم يصبحوا بعد مواطنين بالقون ماحولهم أو يأملون في الحياة الدائمة المستقرة وكانوا في حاجة لوقت طويل يبحثون فيه عن وسائل الاستقرار في الوطن الجديد ، وكانوا أيضا غرباء تحيط بهم المعالم غير المألوفة من كل جانب ، وقد مضى على أيام الفتح خمس سنوات لم تكن كافية للاستقرار الهادئ في هذه المناطق الغربية وسط شعب غريب .

ومعنى هذا أن ميل الخليفة في إرجاع المسلمين جملة من أرض الأندلس — إذا تأكد هذا الميل — لم يكن لعوامل انهزامية وإنما كان نوعا من الواقعية أو الخوف من تعرض المسلمين للمخاطر المهلكة ، وكان هذا الخليفة يرى أن دولة الأمويين قد جرت بعيدا في عمليات الفتح العسكرية حتى وصلت إلى مناطق لا يمكنها الحياة فيها ، ووقفت جيوشها أخيرا جامدة في أماكن لا يبدو فيها للمسلمين أمل ، فحاول ضغط الأعداد المجندة في جيش الدولة ، وأراح الناس من عناء الحروب في المناطق القاصية ، وأراد توفير الجهود للإصلاحات الداخلية وحدها .

وكان عند والي الخلفية أمل في أن يكون للمسلمين أثر ديني وحضاري في المجتمع الأوربي في المستقبل ، وكان يرى حقيقة الحياة التي يعيشونها هناك ، فشرح للخليفة أحوال المسلمين بالأندلس وأبعد عنه الشكوك في سلامتهم ، ونصحه بتركهم بعد أن استقرت أحوالهم ؛ وأمرعت الحوادث من حول هذا الوالي فمات الخليفة واستشهد هو في سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م .

ورجعت سياسة الدولة بعد أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت عليه أيام من سبقوه ، وكان خلافته كانت ومضة ضوئية قصيرة المدى ، أو كانت حركة إصلاحية سرية على الطريق ، وبحث من جاءوا بعده عن المال عند رعاياهم الآملين في الحياة على طريقة الإسلام ، وتعارضت المصالح بين الحكام والناس ، وعصفت العصبيات بمركز الدولة وبولاياتها ، وانشغل الناس بشاراتهم القبلية عن النظر في شئون حياتهم ، وعن الشعور بالخطر المثل في جماعات القوط الهاربين أمام العرب أيام الفتح إلى أما كن في الشمال مجهولة ، وكانوا فيها صامدين ينتظرون تحقيق الآمال ، ويرجون في صبر خلاص الأرض والبلاد من الوجود العربي كله ، وربما بدت آمالهم في طرد العرب نوعاً من الأوهام الغريبة عند تماسك المسلمين واتحادهم ، ولكن هؤلاء ساهموا بخلافاتهم في عون هذه الجماعات الصامدة على استعادة قوتها ، وتمكين أقدامها في نواحيها البعيدة ولم يكونوا ليقدموها بأكثر من الحروب والفتن فيما بينهم ، وإذا لم تكن هذه الجماعات القوطية وغير القوطية قادرة في عهد المبكر على حرب المسلمين لضعفها وانفزالها فالمسلمون أنفسهم كانوا يكفونها جهد الحرب والصدام بتهافتهم الأمور فيما بينهم .

وقفت هذه الجماعات بعيداً عن المسلمين تراقب أحوالهم ، وتسرع إلى استغلال مواطن الضعف فيهم ، ولم يكن هناك شيء يخدم أغراضها أعظم من ترك العرب والبربر مساحات واسعة من الأرض خالية لتندفع إليها في حركة انفعالية تعلن بها استرداد الأرض وتحريرها ، ويظهر أن خسارة المسلمين بسبب خصوماتهم كانت فادحة لأنهم فقدوا - كما يقال - ربع الأرض التي فتحوها

يجهد أبطالهم ومجاهديهم ، وأخذها منهم عدوهم غنيمة سهلة لم يتكلف في سبيلها جهدا أو تضحية .

وفي إفريقية كان الخوارج يجتهدون اجتهدا عظيما في إثارة البربر ضد العرب ويدفعونهم للثورة عليهم ، وثار ميسرة البربري ، وأخذ المغرب الأقصى كله من ولاية الأمويين ، وتوالت هزائم العرب أمام الخوارج سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م ، ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، وهرب جيش العرب إلى سبتة بزعامة بلج ابن بشر القشيري<sup>(١)</sup> ، وخاف الخليفة هشام بن عبد الملك من إفلات إفريقية والأندلس من سلطة الأمويين فبعث جيشا يدافع عن مصير العرب هناك ، وانتصر هذا الجيش سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، ثم مات هشام ، وحاول الأمويون بعده أن يستردوا الأرض الضائعة بإفريقية ، وأن يقيموا نفوذهم المنهار بها ، ولكن وسائلهم كانت غير كافية للنجاح ، وكانت هملياتهم غير مؤيدة بعوامل القوة اللازمة فضاعت محاولاتهم في غمرات الفتن ، وتنازع العرب والبربر على السيادة في إفريقية ، فأقام العرب لأنفسهم دولة في القيروان وما حولها باسم القهريين وأنصارهم ، ورد عليهم البربر بالاستقلال في أماكن أخرى كانت بعيدة عن نفوذ العرب وسلطانهم .

وترددت أصداء الفتن والثورات بين المغرب والأندلس ، وإذا كان البربر قد أحسوا في يوم بحاجتهم إلى ثقافة العرب ودينهم فإنهم بعد الإسلام قد شاركوا في فتح الأندلس ، وكان دورهم في هذا الفتح عظيما ، فحرصوا على أن يكون

---

(١) كان صاحب هذا الاسم واحدا من رجال العرب الذين لعبوا دورا خطيرا في

تاريخ الأندلس بعد إفلاته بجيشه من حصار بربر إفريقية سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م .



لهم حقوق الفاتحين في بلاد كسبوها بالجهاد والتضحية ، وبالغوا في الإعلان عن أهمية دورهم ، وطلبوا عليه أعظم الجزاء ، وكأنما لم يجد العرب والبربر بعد فتح الأندلس لهم هملا إلا أن يتنازعوا بالحرب والكلام بعد أن كانوا يتنافسون في الجهاد وخدمة المسلمين بالعمل وحده ، وتسكثرت أعداد البربر بالأندلس ، وأصابهم غرور المنتصرين ، وخافهم العرب فقسوا عليهم ، ولم يشعروا بأنهم كانوا معا على طريق الدعوة الدينية الواحدة .

وقبل اشتداد الفتن بإفريقية كان المسلمون قد هزموا في بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م بسبب الخصومات وعدم الاتفاق على الوحدة ، وزادت الحساسية بين العرب والبربر ، وتعمق الخلاف وانتشر الدعاة بعد ثورة إفريقية ليحرضوا الناس على الخروج على النظام والحكام ، واستغاث عرب الأندلس بعشرة آلاف منهم كانوا قد فروا<sup>(١)</sup> من إفريقية بعد حصار طويل فرضه عليهم البربر وكادت حياتهم تضعف بسببه ، وتحالف العرب على هزيمة البربر وأمر فوا في تعقبهم بالأذى حتى رجع بعضهم إلى إفريقية تاركا البلاد للقوضى والحراب وانكش المسلمون في مناطق الجنوب ، وانفسح المجال لحركة الأسبان القادمين من الشمال ، وكان يدفعهم الإيمان بالنصر الأخير على كل المسلمين بالأندلس .

وكان تحالف العرب معا أشبه باجتماع الأضداد ، لأنهم كانوا طائفتين إحداهما شامية دخلت الأندلس مع بلج بن بشر سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، والثانية بلدية دخلت زمن الفتح مع موسى بن نصير ورسخت جذورها في نواحي البلاد ولعب الجميع بعد نصرهم على البربر بنار الخصومة القبلية والعصبية الحزبية ، ودارت الحرب بينهم وانهزم البلديون فتركوا أمور السياسة والقيادة ، وتفرقوا في البلاد

---

(١) بقيادة بلج بن بشر للشار إليه قبل ذلك

ليشاركوا الناس في الحياة والعمل ، وكسب الشاميون السيادة على الأندلس  
بحق القوة وحدها ثم صرفهم عنها أبو الخطار الكلبي سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م (١)  
وكان يحاول أن يقيم في الأندلس نوعا من توازن القوى بين المتخاصمين من العرب،  
وعبر العرب فوزع الشاميين في مناطق متباعدة ، وفرقهم جماعات صغيرة لم تجد أملاها  
إلا في جمع الثروة والبعده عن منازعات السياسة ، وأخيرا جاء دور يوسف الفهري  
١٣٠ هـ / ٧٤٧ م آخر الولاة العرب بالأندلس قبل قيام الدولة الأموية هناك  
ولم يكن أقل من غيره إغراقا في العصبية ، فامتدت شرور الحرب حتى شملت  
الأقاليم والسكان جميعا ، وربما كان الإحساس بالخطر أحدا لأسمباب في استجابة  
الناس السريعة لدعوة عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة العرب بالأندلس سنة  
١٣٨ هـ / ٧٥٥ م .

---

(١) جاء أبو الخطار الكلبي واليا على الأندلس بأمر حفظة بن صفوان عامل  
الخليفة هشام بن عبد الملك على المغرب .

## ج - الجهاد في الشمال

يمكن بالمراجعة السريعة لكتب التاريخ العربية وغير العربية الاطلاع على الخطوات الناجحة للعمل العربي العسكري في الأندلس بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وكانا قائدين سادت بينهما روح الانسجام والفهم المتبادل ، وشماتهما الرغبة في العمل المشترك لصالح الهدف الإسلامي العام<sup>(١)</sup> ، وليس من المهم أو المفيد الآن أن تتبع بالوصف مراحل القتال بين المسلمين والقوط من مدينة إلى أخرى ، ومن حصين إلى ما بعده وكانت الحرب بينهم حرب حصون ومدن منعزلة ، تحاصرها الجيوش المهاجمة ، ثم يأتي الاتفاق بين المتحاربين بعد الحصار أو النصر على التسليم بالقبول أو الهزيمة .

وليس من المعروف في تاريخ فتح الأندلس وقوع معارك تشبه المعارك الحاسمة الواردة في تاريخ العرب ، والتي كان يتقرر بعدها مصير البلاد كلها ، وحتى المعركة الأولى التي كان أبطالها جماعات بربرية سارت خلف قائدها البربري طارق بن زياد — حتى هذه المعركة الكبيرة لم تكن معركة حاسمة ، يمكن الوقوف عندها لتقييم دورها وأثرها في سير المعارك في المستقبل ، وقد انهزم فيها جيش القوط الكبير تحت ضغط قوة البربر وشجاعتهم ، وبأثر الخيانة من داخل

---

(١) بدأ فتح المسلمين لأسبانيا في رجب ٥٩٢ هـ / ٧١٠ م ، وانتهى في أوائل

سنة ٥٩٦ هـ / ٧١٤ م .



صفوة نفسها ، ومع هزيمة القوط فيها فإنهم استطاعوا أن يقفوا أمام المسلمين بعدها وقفات طويلة كلفتهم الكثير من التضحيات .

وصحيح أن هذه المركة المهمة في التاريخ ملأت قلوب المسلمين بالأمل وأوضعت لهم فرصة العمل المناسبة للنصر في المستقبل ، ولكنهم ظلوا بعدها معرضين للخطر ، وكان يمكن أن تضيع جهودهم لولا النجيدات السريعة التي قدمها موسى بن نصير قائد المسلمين في المغرب ؛ وبعد مجيء موسى بن نصير للأندلس كانت لاتزال أمامه أعمال كثيرة ، ومنها حروب هائلة خاضها مع جيشه ، وشاركه فيها طارق بن زياد ، ومن معه من العرب والبربر ، ثم جاءت النهاية أخيرا في صالح المسلمين بعد معارك عنيفة كانت ضمن سلسلة طويلة من حركات الصراع بين المسلمين والقوط الحاكمين في أسبانيا .

ولا شك أن تتبع مراحل العمل العسكري في مثل ظروف الحرب في أسبانيا يجعلنا في حالة من إعادة النفس بصورة لا تتفق مع الغرض من دراسة التاريخ في هذا الكتاب ، وهي كما قلنا لم تكن من نوع الحروب المألوفة التي يقف فيها جيشان يباعد بينهما العداء والخصومة ، ويريدان حسم الخلاف بينهما بالقوة ، وإنما كانت حربا بين جيش عربي يتقدم لفتح البلاد ، وتقايله حصون مبعثرة في طول البلاد وعرضها لتعطل سيره ، وربما لم تختلف الحرب في بلد عنها في بلد آخر إلا في طول مدة الحصار ، بسبب المقاومة اليائسة ، أو بسبب العناد والأمل في النجاح ، وتكررت المواقف الرتيبة حتى ليصبح الحديث عنها حديثا مكررا لا فائدة فيه .

ونشير إلى أن أهم المحاولات التالية للفتح والاستمرار بالأندلس كانت محاولة جريئة تقدم فيها العرب نحو جنوبي فرنسا ، بقيادة واليهم الشهير عبد الرحمن

الغافقي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، ويوصف عبد الرحمن الغافقي في التاريخ بأنه كان أعظم قائد عسكري عرفه الأندلس في عصر الولاة ، وكان بطالا ذاهمة ومقدرة ، وفي محاولة جديدة كانت تشكل مظهرا آخر من مظاهر الصراع بين المسلمين وأعدائهم في أوروبا ، أو كانت طورا جديدا من أطوار الحرب الساخنة بين الإسلام والمسيحية هناك - في هذه المحاولة قاد عبد الرحمن الغافقي جيشا كبيرا من العرب والبربر نحو جنوبي فرنسا ، وصادف هذا الجيش في مسيرته نحو الشمال ضروبا من الحظوظ السعيدة ، وحصل رجاله على مغانم كثيرة من البلاد الواقعة في طريق السير نحو أرض المعركة وكانوا - كما يقال - حريصين على المكاسب المالية ، وغير مدركين لمخاطر المستقبل بما يكفي حتى لحفظ الحياة ، أو لسلامة الوجود في ذاته .

وعرف عدوهم نقطة الضعف عندهم ، فاستغلها ، وانتصر عليهم في معركة تعرف في كتب العرب بموقعة « بلاط الشهداء »<sup>(١)</sup> ، ولم تتحدث عنها المصادر العربية بما يكفي لتوضيح الأسباب ، ومعرفة النتائج ، وكأن الكتاب العرب كانوا في حالة من الأسف المتعب بعد الهزيمة الكبيرة لجيش الأبطال ، وإذا كانت أخبار هذه الحرب قليلة في كتب العرب ، ولا تتناسب المعلومات عنها مع أهميتها في تاريخ المسلمين ، فهناك الكثير عنها في غير كتب العرب ويبالغ المتحمسون لها عند الحديث عنها بذكر عبارات جذابة تصور انتصار قوات المسيحية الناشئة لأول مرة

---

(١) على مسافة نحو عشرين كيلومترا من مدينة بوانبيه ، أو نحو سبعين كيلومترا جنوبي باريس ، وتعني كلمة « بلاط » القصر أو الحصن أو الطريق للمهد ، وربما كان مكان الموقعة قرب قصر أو حصن له علاقة بحوادث الحرب .

بصورة خطيرة على جيش الإسلام في أوربا ، ويقال دائماً : إن انتصار جيش « شارل مارتل » الفرنجي على العرب في معركة بلاط الشهداء كان انتصاراً حاسماً أو وقف تقدم المسلمين عند حدود أسبانيا الشمالية ، أو حصر الوجود العربي داخل أسبانيا وحدها ، وشجع المحاولات المسيحية الجادة على العمل ضد التقدم الإسلامي نحو الشمال ، وزاد في الجرأة على الحكام العرب ، ودفع إلى العمل الدائب ضدهم ، وأفهم غير المسلمين أنه يمكن هزيمة المسلمين وجيشهم ، وكانت تدور حول هذا الجيش دعايات عريضة ، وهالة من الغموض السري ، وكثرت التساؤلات حول أسباب انتصاره في كل مكان .

ويقول الأوروبيون : إن هذه المعركة كانت حداً فاصلاً ، وضح نقطة التراجع الإسلامية ، وبعدها لم يكرر العرب المحاولة بقصد الفتح والاستقرار في جنوبي فرنسا ، لأن المنطقة كلها أصبحت في حماية قوات تعمل لحساب المسيحية وأنصارها ، أو هكذا يقولون في حماس وقوة ، وربما كانت الحقيقة في الوسط بين إعلان الأوروبيين وصمت المسلمين ، بمعنى أن هذه الهزيمة كانت هزيمة كبيرة لأول مرة في تاريخ المسلمين في الأندلس ، وأنها أعطت للقوى المعارضة لهم شحنات من الأمل ، وقوت فيهم العزيمة ، وظلت تؤثر في حياتهم وحياة المسلمين معهم فترات طويلة ، وظلت تحكم العلاقات بين الجانبين طول التاريخ ، ولكن هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء لم تمنعهم من تكرار محاولات الإغارة على البلاد الواقعة خلف حدود الأندلس الشمالية ، ولم يملكهم الخوف بسبب هذه الهزيمة <sup>(١)</sup> ، لأنهم تعرضوا في حياتهم لهزائم كبيرة كان منها هزائمهم

---

(١) يظهر أن الخوف لم يملك العرب بقدر ما تملك أعداءهم المنتصرون عليهم ، فلم يعقبوهم في بلادهم ، وكانهم فوجئوا بالتصحر عليهم لأول مرة ، وكان أهلهم في هذا النصر بعيداً .



المتكررة في شمالي إفريقيا ، وقد فقدوا في بعض هذه الهزائم كل المكاسب التي حصلوا عليها بعد جهد طويل ، ومع ذلك كانوا يندفعون من جديد في محاولات قوية أخرى يبدو فيها التصميم والعزم ، ولم يترددوا في التضحية ليصلوا إلى الهدف ، حتى كسبوا النصر في النهاية بعد محاولات طويلة وشاقة ، وكذلك كان حالهم بعد هزيمتهم في جنوبي فرنسا ، فقد تكررت محاولاتهم ، وظهر عندهم الأمل في تخطي الصعوبات ، وإذا كانت محاولاتهم لم تبلغ مستوى أعمالهم الكبيرة السابقة فإن هزيمتهم في بلاط الشهداء لم تكن وحدها السبب في ضعف جهودهم وهوان أمرهم ، وإنما كان السبب أنهم كانوا يتأثرون في داخل بلادهم نفسها بعوامل الخلاف وعدم الاستقرار ، وقد يظهر هنا صواب القول الشائع بأن العرب وصلوا في جنوبي فرنسا إلى آخر مراحل الانطلاق الممكنة ، ووقفت جهودهم بسبب عجزهم عن التغلب على الصعوبات التي ما كانت لتوقف تقدمهم وهم أقوياء .

وهناك محاولات للتعليلات المقبولة ، وغير المقبولة ، لهزيمة جيش المسلمين في جنوبي فرنسا ، وكأنها كانت شيئا غير وارد في تاريخ الأعمال العسكرية العربية ، والمعروف أن هذه المحاولة العربية غير الناجحة لم تهدف أساسا إلى تقرير مصير الإقليم الذي التقى فيه العرب بالفرنج ، وقد تكون من نوع النزاعات المتكررة بين القوتين ، وكان العرب يحاولون إظهار وجودهم كقوة كبيرة في المنطقة ، ويحاولون الكشف عن إمكانيات القوى المحيطة بهم ، وكانت هذه القوى قد تنبأت إلى خطرهم ، فجمعت أمرها ، وصادفت فيهم ضعفا ، فنجحت في الانتصار عليهم بعد عشرين سنة من فتح أسبانيا .

ويبدو صحيحا أن الأندلس بمد أن أصبحت إمارة أموية مستقلة سنة

١٣٨ هـ / ٧٥٥ م كان حكامها راغبين في البقاء في داخل حدودهم المعروفة لحرصهم على الاستقرار الداخلي ، وعلى توفير الفرصة الكافية لتنظيم الإدارة وتثبيت السلطة في إمارتهم ، ولم تكن عندهم رغبة في التوسعات الخارجية ، حتى عندما كانوا قوة كبيرة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م ، وأيام الخاجب المنصور ٣٦٦ - ٤٩٣ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م ، لم تشغلهم الرغبة في نشر الإسلام خارج حدود بلادهم ، فلم يتورطوا في حروب حاسمة وفاصلة ، لهذا الغرض أو غيره ، وانصرفوا للدفاع عن حدودهم وحدها وعن نظامهم الداخلي وحده ، وصحيح أنهم لم يكونوا دائماً في موقف الدفاع من أعدائهم ، ولكن محاولاتهم الهجومية لم تكن للفتح ، أو ما يشبه الفتح ، وإنما كانوا يقصدون من الحرب نوعاً من الرد على إلحاج عدوهم بالضغط عليهم ، وكانوا يدركون فوات الفرصة بعد أن تنبه خصومهم الأوروبيون لخطرهم ، وبعد أن أصبحت قضية المسيحية في أوروبا قضية تشغل المجتمعات كلها وتشغل الدول معها ، وبدأت الحرب بين الجانبين كأنها كانت للانتقام من أجل إساءة سابقة ، أو للحراسة والدفع بعد أن وضعت دوائر الاختصاص أمامهم .

وكان لدولة الأمويين أعداء أقوياء منذ إعلان قيامها ، والعباسيون كانوا أخطر هؤلاء الأعداء ، لأنهم كانوا يمثلون عند الناس قوة الإسلام ووحدته ، وربما كانوا ينتظرون الوقت المناسب الذي تضعف فيه سلطة الأمويين بالأندلس ليعيدوا وحدة بلاد المسلمين من جديد .

ويقال إن نوعاً من التحالف السري كان قائماً بين العباسيين والفرنجة ضد الأمويين بالأندلس ، وإذا لم تكن معالم هذا التحالف واضحة في التاريخ فإن هناك

شبهاتٍ حوله ، وربما كان العباسيون يشجعون الدعايات القسائلة بوجود مثل هذا التحالف ، كنوع من الإرهاب السياسى لخصومهم من بنى أمية ، وربما كان الأمويون بدورهم يميلون إلى تصديق مثل هذا التآمر الدولى عليهم ، ويريدون إقناع رعاياهم المسلمين بعذرهم فى عدم نقل الكفاح الدينى إلى خارج الحدود الجغرافية للأندلس ؛ ومن الصحيح فى كل الأحوال أنهم كانوا مشغولين بالفتن والاضطرابات فى داخل بلادهم ذاتها ، وكانوا يعلمون مدى الكفاءة العسكرية عند خصومهم الفرنج المسيحيين ، بعد أن تكررت الحروب بين القوتين ، ولم تثبت تفوق إحداها على الأخرى .

ويطول الحديث عن مدى صحة القول بأن هزيمة بلاط الشهداء كانت هزيمة حاسمة ضد العرب والمسلمين ، ويبالغ الفرنج فى الدعاية لأعمالهم على أنها كانت حدثاً عظيماً من أحداث البطولات العالمية ، ويقولون إن المنتصرين على المسلمين كانوا مواطنين شرفاء حافظوا على تراب الوطن وعلى شرفه ، رغم أن البلاد كلها لم تكن قد أصبحت بعد وطناً يتعصب له أحد ؛ وأن المحاربين ضد العرب هناك كانوا أجانب بالمنطقة ، ولا يزدون على العرب إلا فى ميل عواطف السكان لهم ، وكان بعض السكان يشاركونهم فى المشاعر الدينية ، ولم يستقر بعضهم الآخر على دين من الأديان وربما كان منهم من لا يفهم معنى للوطن والوطنية .

واعتبر « شارل مارتل » البطل القومى المدافع عن عقيدة الشعب الفرنجى ، وكان هذا شيئاً جديداً لم يقابل العرب مثله فى شمالى إفريقيا ، أو قبل ذلك فى الأندلس ، لأنّ المساتلين ضد العرب فى شمالى إفريقيا كانوا جماعات أو طوائف تقاتل للدفاع عن الوطن أو عن نظام حياتها ، ولا تجمعها دولة واحدة



أو نظام سياسي واحد ، ورغم حرب البربر الطويلة ، ورغم عنادهم وتشددهم ؛  
فقد كان العرب يأملون في هزيمتهم لعدم وحدتهم السياسية أو العسكرية أو  
الدينية ؛ وأما القوط فكانوا يقاتلون دفاعاً عن نظامهم ودولتهم ، ولم يشيروا  
إلى الدعايات القائلة بأن حربهم كانت من أجل الدفاع عن المسيحية والمسيحيين .

واختلفت التعليقات التاريخية حول نتائج هذه المعركة الكبيرة ، ويقال  
إن انتصار الفرنج على العرب أنقذ حضارة أوروبا المسيحية<sup>(١)</sup> من خطر الضواع على  
أيدي العرب وحلفائهم ، ووضع حداً لسيادة الشرق على الغرب ؛ ونقرأ الآن التعليقات  
الساخرة مثل القول بأن انتصار العرب كان يعني أن يسمع سكان أوروبا اليوم  
الأذان من فوق المآذن في باريس ولندن ، وأن يتلى القرآن ويفسر في  
جامعات إنجلترا الشهيرة ، وكأن المحاربين الفرنج كانوا يعملون أساساً لصالح  
المسيحية والمسيحيين .

والعجيب أن يكونوا كذلك مع أنهم ربما كانوا أبعد عن المسيحية من  
أعدائهم المسلمين ، وكان قائدهم شارل مارتل نصف وثني يدافع عن ملكه ،  
وعن استقرار<sup>(٢)</sup> هذا الملك ، قبل أن يعني شيئاً في صالح المسيحية كدين ، ولم  
يقم ملكه على الحضارة المسيحية ، لأنها لم تكن قائمة أو معروفة حتى تقام

---

( ١ ) وربما قصد بذلك أيضاً أن دخول العرب إلى قلب أوروبا كان يعني تعطيل  
تطور الحضارة الأوروبية الحديثة .

( ٢ ) كسب شارل مارتل بانتصاره على العرب الاستقرار لدولته ، وصمن بقاء الحكم  
في أسرته ، قبل أن يكسب النصر للمسيحية ، وقبل أن يعطى هذه العقيدة نوعاً  
من القوة والتفوق على الإسلام .

عليها الدول أو حتى يهتدى بها الملوك والقواد ، أو حتى تتعرض للضياع على أيدي العرب المنهزمين .

كان شارل مارتل نفسه أمياً لا يعرف شيئاً عن الحضارة ومقوماتها ، ولم تكن أوروبا بلاداً متحضرة بالمعنى المفهوم عن الحضارة عند الناس ، وكان البعد شاسعاً بين حياة المسلمين في الشرق وحياة الأوربيين في الغرب ، والمسلمون وحدهم كانوا بناة الحضارة في العصور الوسطى ، وكانوا يملكون الدولة المتقدمة والنظم الحضارية المتطورة ، وهذا يدل على أن هذه الحرب لم تكن صراعاً بين الإسلام والمسيحية بقدر ما كانت صراعاً بين الحضارة والهجومية ، أو بين النظام والفوضى .

لم يكن انتصار الفرنج على المسلمين يعني إذا تغلب المسيحية على الإسلام ؛ ولا تغلب حضارة على حضارة أخرى ، ولا عبقرية عسكرية على جهد عسكري مضاد ، وإنما كان يعني وصول حركة الفتوحات العربية إلى المدى البعيد الذي كان يجب أن تقف عنده ، أو إلى نقطة الضعف الأخيرة بعد الشباب والمنفوان ، ولقد اتسع مجال العمل أمام المسلمين ، وساروا بعيداً عن مراكز انطلاقهم الأولى ، ومالوا برغبة إلى المكاسب المالية وحدها ، وحرصوا على السلامة ، فكان لابد أن ينهزموا أمام قوات فتية ناشئة تطلب الفصر وتسعى إليه .

لقد ضاع من المسلمين الهدف الأساسي الذي جاءوا من أجله ، وهو رجاء الخير للدين والجماعة ، والعمل لتحقيق هذا الرجاء بالوسائل السلمية ، وأصبحوا من ذوي الرغبات المهزوزة في الانتصار على العدو ، أو كانوا يستهينون بعدوهم ،

وهو يحس بالخطر على وجوده منهم ، وزاد ضعفهم بانصرافهم إلى المنازعات فيما بينهم ، وكانت الخلافات بين العرب والعرب وبين العرب والبربر حول كل شيء ، وإلى أبعد مدى .

وعاش العرب في أسبانيا بعد معركة بلاط الشهداء قرونا طويلة ، وأسسوا فيها دولة إسلامية ازدهرت فيها الحياة ، ونمت فيها الحضارة وتطورت ، وكانت بالتأكيـد الدولة الأولى في أوروبا كلها ، ومعنى هذا أن هذه الموقعة الشهيرة لم تقرر مصير العرب في أسبانيا ، ولم تقرر مصير الإسلام في أى مكان فيها<sup>(١)</sup> .

ثم هل يمكن القول بأن المحاربين المسلمين المندفعين إلى الشمال لم يكونوا مجاهدين بالمعنى المفهوم من كلمة الجهاد عند المسلمين ؟ بعد ما يقال بأنهم كانوا أشد حرصا على المكاسب المالية من الشهادة أو النصر ؟

وهل كان ذلك يعنى عدم وضوح الهدف أمامهم ؟ أو كان يعنى تعاميمهم وتغافلهم عن إدراك قوة عدوهم ؟ أو كان غرور المنتصرين قد أصابهم فأنساهم التنبيه لكوامن الأخطار ؟

وإذا أُجيب عن هذه التساؤلات بالإيجاب فإن قوة الفرنج إذا لم يكن

---

(١) لم تكن موقعة بلاط الشهداء أساسا لتقرير مصير أسبانيا ، ولا أى مكان آخر بأوروبا ، وإن وضعت الحدود التي كان يجب أن تقف عندها حركة للد العربي ، وإن أبعدت ما بعد أسبانيا من أوروبا عن سيطرة العرب ونفوذهم .



ضرورياً أن تكون قوة كبيرة<sup>(١)</sup> حتى تهزم المسلمين هناك، لأنهم من جانبهم كانوا يجمعون في صفوفهم عناصر انهزامية كانت تتساءل عن أسباب التوغل في الشمال بعد الحصول على أسلاب المدن والحصون والكنائس، وربما كانت تشك في أن للحرب فوائد غير هذه الأسلاب؛ وإذا كان هذا صحيحاً فإن جيش المسلمين لم يتقدم بعد حدود الأندلس الشمالية ليقوم بأعمال المجاهدين الراغبين في الحرب لخدمة قضية كبيرة كانت تشغلهم قبل الحصول على المغنم والأسلاب وإنما جاء ليقوم بما يشبه الدورات العسكرية التي كانت تتكرر بعد ذلك بين الجانبين بقصد فتح مجالات للعمل العسكري كطريق إلى الاستزاق المشروع، وربما كان الهدف من ذلك مجرد الإشارة إلى اليقظة العسكرية والوجود القوي بالمنطقة ولا شيء غيره.

ويقول المؤرخون إن عدد هذا الجيش كان كبيراً، وإن قوته كانت ظاهرة، ولكنه - كما يبدو - لم يكن مدركاً لأهمية المعركة التي جاء من أجلها، ولم يكن مأمولاً أن يقدم عصر الولاة جيشاً قوياً يفتح مساحات جديدة في المناطق الشمالية لحساب المسلمين؛ لأن المجتمع الأندلسي كله لم تكن قد تحدت له الأهداف الواضحة التي كان يجب أن يعمل من أجلها، ولم يكن يعرف نظاماً مقبولاً لاختيار الزعيم فيه؛ ولم تكن مشكلات الخصومة بين عناصره القوية قد أخذت طريقها إلى الحل السليم.

لقد كان يمكن أن تكون لهذه المعركة أهمية مشابهة لمعركة طارق بن

---

(١) كانت قوة الفرنج التي حاربت العرب تأخذ طريقها نحو زعامة للمسيحية.

زياد الأولى ، ولكن طارق بن زياد كان مدركا لخطورة عمله ، وكان يريد أن يكتب لنفسه واثمة تاريخا مجيدا في نصر العقيدة الجديدة ، وكان شابا يمتلئ بالقوة والحماسة ، ويقود أعدادا قليلة من الناس تجمعهم به وحدة الأصل والمهدف ؛ فاستطاع أن يشحنهم بالانفعال والحماس ، وأن يفرض عليهم إرادته الصارمة ؛ ولم يكن عبد الرحمن الناقص أقل من طارق بن زياد كفاءة أو مقدرة ، ولم يكن أضعف منه إيمانا أو رغبة في نصر الدين والمسلمين ، وربما كان أكثر منه تجربة وخبرة ، وأعظم منه أمجادا عسكرية ولكنه كان يقود جيشا متضخما يوحى تضخمه بالتعرض لأنواع الانفجارات المضرة ، وكان من جماعات مختلفة ومتنازعة يغلب عليها روح الطمع وضمف الإرادة .

وجاءت هذه الحرب بين العرب والفرنج في قلب فرنسا في وقت كان شمالي أفريقية كله قد بدأ يعاني من أخطار الثورات الخارجية والبربرية ضد العرب هناك ، وكان والى الأمويين بالأندلس كان يتحرك بعيدا عن الدولة في وقت كان إشراف هذه الدولة غير مباشر على شئون المسلمين في الغرب ، وربما لجأ هذا الوالى الشجاع لفتح مجال للعمل العسكري خارج حدود أسبانيا مدفوعا بعوامل دينية مخلصه ، وكان معروفا بالإيمان والشجاعة وسلامة النية ، وأولاه كان يعاني من خطر العصبية القوية في داخل ولايته فأراد أن يشغل الناس بالجهاد فشغلوه بخلافاتهم الطويلة وهو في الطريق إلى الحرب ، وهزموه في واحدة من معارك التاريخ المشهورة .

## د - المقاومة

لا ندرى ما إذا كان صحيحا على الإطلاق أن يقال إن جموع العرب والبربر المندفعة في حماس إلى أسبانيا من شمالى إفريقيا كانت حريصة على الاحتفاظ في صميم النفس بأسباب الخلافات العصبية<sup>(١)</sup> والعنصرية المعروفة عنهم جميعا بقدر ما كانت حريصة على النصر ذاته أو أن هذه مناقات واردة بالخالح في كتب التاريخ لجرد الإشارة إلى جوهر الأسباب التى ساعدت على تخطيط دولة العرب والمسلمين فى الأندلس أخيرا .

ويبدو واضحا أن القول بتعمك العصبيات فى نفوس العرب والبربر فيه الكثير من الاندفاع فى الحكم والجرأة على الحق والواقع ، لأن العرب فتحوا أسبانيا فى آخر القرن الأول الهجرى ، بعد أن مروا بتجارب عظيمة فى الحرب والسياسة والتنظيم والإدارة ، وبعد أن اتصلوا بعوالم جديدة من الجماعات البشرية التى كانت تختلف معهم فى الدين والمزاج والوطن والبيئة واللغة والتاريخ ، وبعد أن عرفوا جماعات أخرى كانت تتفق معهم فى بعض العناصر المشار إليها ، وأخذ العرب من الشعوب التى فتحوا بلادها ما وجدوه عندها

---

(١) لم تكن العصبيات غالبا مجرد رغبة مؤسفة فى الخلافات والتفكك الاجتماعى وإنما كانت شيئا يرون فيه معنى للتماسك الأسرى والتكامل عند الخطر ، وكأنها كانت مصدر قوة للجماعات هناك .



من التجارب والثقافات وكانوا راغبين في العلم والمعرفة ، وأعطوا بدورهم لهذه الشعوب الدين واللغة والعروبة ؛ ولم يصبحوا بعد أولئك الأجلاف الذين عاشوا في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام مشغولين بالجرى وراى التعصب المسرف لجد مزعوم أو لأعجاب موهومة .

لم يكن العرب الذين شاركوا في فتح أسبانيا غير قاهمين لمعنى السلام والاستقرار ، ولم يكونوا في نفس مستوى جدودهم من التأخر قبل أن تظهر فيهم دعوة الإسلام ، وإنما كانوا قد تأثروا بهذه الدعوة وتعلموا معنى التسامح والأخوة والسلام والمحبة وغيرها من المعاني الكريمة التي وضعها الإسلام ونصح بالتمسك بها ، ولهذا يجب أن نبحث عن أسباب أخرى غير أسباب المعصيات المتطرفة إذا أردنا أن نفهم معنى لهذه الخلاقات الطويلة المتعبة التي شغلت وقتا طويلا من حياتهم وتاريخهم ، وأضاعت الكثير من جهودهم وكفاءتهم .

وربما يكون صحيحا أن نقول إن الصورة بدت كأن أحزابا قوية نشيطة كانت لها مصالح كبيرة معقدة قد تكونت بالأندلس بعد وجود المسلمين فيها ، وفي بعض أوقات التاريخ كانت تظهر هناك جماعات صغيرة تدور حول زعامات محلية مفتتة تأبى الخضوع للسلطة ؛ ولكن الظاهرة الكبرى كانت وجود أحزاب ساعد على تكوينها استيطان جماعات مختلفة في مناطق بذاتها ، وكانت مصالحها تختلط وتتشابك مع مصالح جماعات أخرى من جميع الناس والقبائل .

لقد كان فتح الأندلس مفاجأة كبرى للسكان فرت بعده الزعامات الاقطاعية والاميرة المالكة ، وبقيت أملاك هؤلاء جميعا مضافا إليه أملاك الكنيسة وأملاك من مانوا في الحرب مع المسلمين - بقيت هذه كلها في أيدي الفاتحين المسلمين ،

فظهرت مجالات واسعة للثروة والرفاهية وقرض النفوذ أمامهم، فاختلقوا على طرق العيش وتوزيع الثروة ووسائل التملك، وفر بعض سكان أسبانيا بأثر الدعايات أو بسبب الخوف أو بتأثير سوء الظن إلى مناطق الشمال بحثا عن الأمن وبعدا عن الخضوع للحكم الأجنبي، فوجد الفاتحون أمامهم فراغا كبيرا كان عليهم أن يشغلوه، ولم يهتدوا سريعا لطريقة منظمة في الإدارة تساعد على إقرار النظام واحترامه، وتحدد العلاقات بين الأفراد والجماعات، لأن البلاد كانت بعيدة عن مركز الدولة بالشام، وظلت تسع سنوات تابعة لولاية إفريقية، وكانت جزءا متما لهذه الولاية.

وتشير مصادر التاريخ في صراحة إلى أن المنازعات بين العرب والعرب وبين العرب والبربر كانت من العنف والقسوة بحيث جعلتهم يترقبون الأخطار من بينهم، ويعيشون في عناد مستمر حتى النهاية، وفرضت عليهم الخصومات حالة من الحرب شبه الدائمة، وساهمت بدورها مع الأعداء في القضاء على أعداد كبيرة من الجانبين، وصرفت الجهود في أول أيام الفتح عن العمل لصالح الإقليم واستقراره، وأعطت لخصوم المسلمين فرصة الحياة للعب بالمواطف المريضة في كل المناسبات.

وأخطر أدوار الصراع كانت بين العرب والبربر، وكان العرب يخافون من كثرة البربر، ويشعرون بنوع من الامتياز عليهم، فكانوا قساة معهم، وقابل البربر العنف بالعنف، وأساءوا بالعرب الظن، وابتدأوا يوجدون لأنفسهم طريقا للحياة مع الأقوياء، وساهمت أعدادهم المتزايدة في إحساسهم بالقوة، والقدرة على الثبات أمام الخصوم، ودخلوا مع العرب في حروب أهلية لم يكن لها من نتائج سوى زيادة الشكوك وتوقع الشر، والبقاء على حالة من الخوف الدائم، وازداد الحماس في الجانبين للانتقام وتصفية الحساب.

ثم انهزم البربر وجاءت هزيمتهم ١٢٣ هـ / ٧٤١ م نوعاً من الكوارث غير المتوقعة اقضية الإسلام والمسلمين في شمالى الأندلس ، لأن جماعات كبيرة منهم تركت النواحي الشمالية التى كانوا يسكنونها ويكونون فيها حاجزاً بشرياً قوياً يحمى بلاد المسلمين من مخاطر الهجوم الأجنبى ، وبحثوا عن أماكن للإقامة فى الجنوب ، ورجع بعضهم إلى مواطنهم الأولى فى إفريقيا الشمالية ، وبقت مساحات واسعة <sup>(١)</sup> فى شمالى الأندلس خالية من التمثيل البشرى للجماعات الإسلامية ، ولم يكن عند العرب الأعداد الكافية لشغلها بسبب قلةهم ، واستيطانهم فى الأماكن الجنوبية لللائمة لطبيعتهم ، فترك المناطق الشمالية للوافدين عليها من كل مكان ، وسكنتها جماعات من الرومان والقوط القائلين بأنها بلادهم ردت إليهم ، وكانوا يتخذون لأنفسهم مقراً عسكرياً مناسباً فى مناطق أخرى بالشمال كانت باردة لا يستطيع العرب العيش فيها ، وفى مناطق جبلية كانوا يتخذونها حصوناً طبيعية للعمل فى الظلام ، ولدفع خطر القادمين من العرب للعرب ، وتكونت نواة قوية لحركة الاسترداد الأسبانية ، وكانت هذه الحركة حلقة من حلقات رئيسية اعتبرت سلسلة طويلة للتاريخ القومى الأسباني .

وبدأت حركة الاسترداد تنمو وتعمل فى صمت وإصرار ، وازداد نشاطها وفاعليتها وأثرها فى أول القرن الخامس الهجرى / ١١ م بعد ضعف خلافة الأمويين بالأندلس وبعد سيرها حثيثاً إلى الموت لأسباب سنشير إليها فى خطوات الدراسة بالفصول التالية .

---

(١) بلغت مساحة المنطقة التى فرعها للبربر ربع مساحة الأرض التى ملكها المسلمون أيام الفتح .



ويقال عادة في تاريخ أسبانيا إن معركة الاسترداد بدأت منذ فتحها للعرب سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م ، وإن الناس لجثوا لنوع من الانكماش الاضطرابي أمام قوة العرب الغالبة ، حتى تأتي ساعة النصر عليهم ، وقد جاءت هذه الساعة الفاصلة أخيرا بعد أن امتد أمدها إلى ما يقرب من ثمانية قرون ، ويقال أيضا إن الأسبان نظروا للفتح العربي على أنه حدث طاريء لا يلبث أن يزول ، وبزواله تنتهي من حياتهم فترة ليست من تاريخ بلادهم<sup>(١)</sup> ، وإن العناصر المعارضة فرت من أسبانيا لأنها لم تستطع قبول الحكم الإسلامي فيها ولم يكن من الممكن أن يقبلها حكم المسلمين كذلك ، وكانت لها إساءات عسكرية أو سياسية أو اجتماعية ، ولا يمكنها مع هذه الإساءات أن تعيش بين المسلمين ، أو كانت ذات ميول لا تساعد على الاستقرار المطلوب للحكم الجديد وكان هؤلاء جماعات<sup>(٢)</sup> صغيرة ، حاربها العرب حتى بقي منها ثلاثون رجلا وعشر نساء ، وهؤلاء اعتصموا بمحزن بعيد وراء الهضاب الوعرة عند أعلى جبال « كنتبرية » ارتفاعا ، وأبعدا إلى الشمال الغربي ، ولم يهتم العرب بهذا العدد القليل ، أو ربما رأوا وجوده شرا لا بد منه بعد أن فشلت محاولاتهم لإخضاعه ، أو كانت محاولات إخضاعه لا تساوي عندهم الجهد الذي يبذل في سبيلها .

---

(١) يدافع القائلون بهذا عن تاريخهم القومي ، ويأتى هذا الدفاع في صورة من التعصب للمعيب ، لأن هذا القول يخالف الحقائق الثابتة وهي أن فترة حياة المسلمين في أسبانيا كانت جزءا عظيما من تاريخها ، ولا شك في أهمية الدور الحضاري الذي قام به الأندلس في حياة أوروبا كلها في العصور الوسطى .

(٢) كان عدد هذه الجماعات بضع مئات كما تقول الرواية ، وعاد بعضها إلى مواطنه الأولى ، بعد أن أطمأن إلى عدل العرب وتسامحهم ، ودخل بعضها الآخر مع غيره من أهل البلاد في دين المسلمين .

ويتهم العرب عادة بالخطأ أو الإهمال في عدم القضاء على العناصر المسيحية الهاربة إلى الشمال ، وتركها تعيش هناك بعيداً عن رقابتهم ، وربما كانت تشغلهم عنها محاولاتهم لحل مشكلة الزعامة بالمنطقة ، وما تبع هذه المشكلة من خلاقات ، أو لم يبد لهم في وجود هذه الجماعة القليلة خطر يهددهم ، لأنها لم تكن تحمل راية المعارضة في تاريخها المبكر ، ولم تكن تمثل جهاز الدولة ، ولا أصحاب النفوذ فيها ، ولم تكن رئاسة هاربة أو حكومة معلنة ، وإنما كانت مجرد جماعة صغيرة ، لم تقبل الخضوع لحكم المسلمين ، والتزمت بالصمت والسكون ، وبدأ تنظيمها السري بعيداً عن رقابة النظام وأصحابه ، ثم انضمت لها أعداد أخرى ظهر خطرهما أيام ضعف المسلمين وخلافتهم ، وازداد تطورهما وقوتها حتى تشكلت منها وحولها الإمارات المسيحية القوية بالشمال ، وقبل المسلمون هذه الإمارات بالاضطرار بعد قيامها ، وبعد قدرتها على الدفاع عن نفسها ، ولم يجدوا معها حيلة ، وفرض الأمر الواقع وجود هذه القوة ، ولما لم تستطع دولة المسلمين أن تدخل معها في حرب فاصلة تنهى بها قصة حياتها ، التزمت بالدفاع عن وجودها ولم تر التعرض للأخطار بعيداً عن مجال النفوذ المسموح به لها ، بعد أن خرجت على وحدة المسلمين العامة ، وكان يكفي لإثبات حسن نية الأمويين ، وقوة إيمانهم أمام المسلمين من رعاياهم أن يبقى الصراع بينهم وبين المسيحيين حياً ، وشفع لهم عند الناس أن إزالة الوجود السياسي للمسيحيين في شمالي أسبانيا كان قد أصبح أمراً مستحيلاً .

ويبدو أن العلاقات الحربية ، أو ما يشبه الصراع العنيف بين المسيحية والإسلام في أسبانيا كان قد اتخذ صورة إيجابية فعالة كجزء خطير من تاريخ

المصور الوسطى منذ القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، لأن حركة الاسترداد التى يتحدث عنها الأسبان طويلا كانت ضعيفة قبل ذلك التاريخ ، وكان صوتها خافتا ، ولا يمكن رؤيتها فى مكانها البعيد على الحدود الشمالية .

وهذا يعنى أن العناصر القومية المتمردة ، والعناصر الدينية المتعصبة ، لم تقنع بالسلامة من أيدي المسلمين ، وإنما ظلت تعارضهم بصبر وجلد ، حتى أصبحت قوة كبيرة بالعمل والزمن ، ولم يهتم بها العرب والمسلمون ، لأن محاولاتها بدت بميدة وغير مرئية ، ولم يشر لها الكتاب الذين لا يقتبعون إلا الظواهر البارزة من حوادث التاريخ ، وكان المؤرخون المسلمون يصرفون جهدا كبيرا من نشاطهم للأعمال الإسلامية وحدها ، وكأنما كانت حركات النشاط المسيحية عندهم مجرد مسائل خلفية لا يتوقع لها النجاح ، وأما غيرهم من كتاب المسيحية وأغلبهم كانوا قساوسة متعصبين عاشوا فى المدن المسيحية أو الإسلامية فقد كتبوا بلغة العصر ، وكانوا يعبرون عن وجهه القاتم ، واعتبروا خروج هذه الأعداد المسيحية القليلة على نظام المسلمين فى الأندلس مرحلة مهمة من تاريخ الحركة الوطنية الأسبانية ، وقالوا إن قول القوط الفارين أمام العرب منذ لحظات الصدام الأولى إلى المناطق الشمالية الباردة قد اختارت<sup>(١)</sup> هذه المناطق لأنها كانت بعيدة عن آمال العرب ورغباتهم ، وكانت باردة لا تصلح لسكنائهم ، وقاحلة لا يتعلق بها شئ من أطعامهم ، ثم اجتمعت على الفارين أعداد كبيرة من القوط والرومان ، وغيرهم

---

(٤) لقد لجأ الفارون لهذه المناطق القاسية بالاضطرار وحده لأنهم كانوا مطاردين من السلطة الراغبة فى تحطيم كل مظاهر المعارضة لها .



من القادمين بعوامل الانجذاب القومية أو الدينية ، وازداد عددهم وقوتهم ،  
وكانوا نواة لدولة صغيرة قامت في وجه المسلمين في شمالى الأندلس ، وأخذت  
تنقص من سلطانهم وتزيد في متاعبهم وجاءتها الفرص المواتية عند حدوث حركات  
الصراع الداخلية بين الزعماء الذين تحمكت فيها العصبية وأثارهم الفتن .

وثبتت أقدام المعارضين لوجود العرب في أسبانيا رغم عدم تفوقهم عليهم في  
العدد أو الشجاعة ، أو قوة الإرادة والتصميم ، وكسبوا بعض النصر فبالغوا في  
الدعائيات حوله ، ونجحوا في وضع أساس الدولة الإسبانية التي ناوت  
المسلمين قرنا بعد قرن حتى أخرجتهم من البلاد كلها سنة ١٤٩٢/٨٨٩٨ م .

ولا شك أن قيام ممالك مسيحية في الشمال أوجد بأسبانيا منذ لحظات  
وجودها الأولى قوتين متعارضتين لا يمكن لهما أن يفسجما في حياة واحدة ،  
أو أن يعيشا معا في سلام ، وظهرت إحداها كقوة غالبية غريبة تبقى في الوجود  
ما حفظت لها قوتها هذا الوجود ، أو يسمح لها بالحياة ما دامت تستطيع أن تدفع  
ثمن هذه الحياة ، وظهرت الأخرى كقوة صغيرة مستقبلة ، ومفعمة بالحقد  
والسكراية ، تذكر الوطن دائما وتغنى على أوتار الوطنية ، وتذكر الدين وتلعب  
بعواطف الناس من أجله .

ويقول العرب إن الفاتحين منهم لم يجدوا للمناطق الشمالية أهمية تدفع إلى  
العمل على فتحها ، لبعدها وقورها وبردها ، وكانوا غرياء في مناطق جديدة  
لا يعلمون شيئا عن معالمها وطبيعتها ، وربما بدا لهم أن ما فتحوه كان كل  
أسبانيا ، ثم انشغلوا بتوطين أنفسهم وتنظيم إداراتهم .

وكان العرب في شمالى إفريقية حريصين على تطهير كل الأرض من جيوب

المقاومة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك في أسبانيا ، لأنهم أمنوا عدوهم بعد انهياره السريع أمامهم ، ولم يتبعوا طريق السلامة في القضاء على كل محاولات المقاومة منذ اللحظات الأولى .

ومعنى هذا أن أعداء المسلمين وجدوا لهم مكانا للعمل في شمالى الأندلس ، وأن النزاع بين المسيحية والإسلام استمر هناك لفترات طويلة ، وانتصرت المسيحية أخيراً بعد قصة كفاح مريرة وبعد أدوار مؤسسية من العمل والحركة من الجانبين معاً .

وسعدت الإمارة المسيحية لفترات طويلة من حياتها بزعماء أقوياء منهم : « بلاى أوبلاجيوس » وكان أول رجال المقاومة والتحرير المسيحيين ، وحكم هذا الزعيم الأسباني تسع عشرة سنة ، وتوفي ١٣٣٣ هـ / ٧٥١ م ، بعد أن هيا لوطنه أسباب القوة ، وبعد أن مكثه من الحياة والاستمرار في التقدم ، وجعل له بعض المعالم والحدود ، واتسعت مساحة الدولة بعد وفاته ، واستقرت أمورها ، وابتعد عنها الخطر ، وأتيحت لها الفرص للتكوين السليم ، والسير نحو القوة .

لقد كانت حركة الاسترداد حركة قومية متعصبة ، لا تريد الإبقاء على شيء يمثل عدوها ، ولا ترغب في التسامح معه <sup>(١)</sup> ، وكانت تعمل ببطء وإصرار ،

---

(١) ولم يكن التسامح من أخلاق العصر ، وإنما كان شيئاً جديداً جاء به المسلمون وحدهم .

وتعرضت لنكسات خطيرة كانت تزيدها صلابة وعنادا ، لأنها كانت مشحونة  
بشعور داخلي قائم ، وأحسن أصعابها بمأساة الوطن الضائع ، وبأخطار التحدى  
للعقيدة المسيحية .

وتكونت بعد ذلك بسبب هذه الحركة ملكيات تريد أن تستقر بالتحالف مع  
رجال الدين المتعصبين ، وفي الوقت الذى بدأت فيه حركة الاسترداد وكأنها كانت  
تسير فى بداية الطريق نحو غايتها ، كانت اتجاهات المسلمين تأتية بين فتن الأحزاب  
الداخلية ، وبين خطر العدو الذى بدأت القوة تدب فيه بعد الضعف ، وكان هذا  
العدو عند أقصى الحدود الشمالية ، وقريبا أيضا من بلاد المسلمين فى وسط الأندلس .



## هـ - شعب الولاية

عاش المسلمون بالأندلس فترات طويلة متصلة الحلقات ، ولم تكن لهذه الفترات معالم واحدة متشابهة ، لأنها كانت تختلف في حقيقتها وفي ظواهرها معاً ، واتضعت معالمها في التغيرات الكبيرة المتصلة بشئون الإدارة الداخلية ، وفي تبعيتها لدولة المسلمين في الشرق أو في استقلالها عنها .

وفي كل الأحوال كانت البلاد تخضع لتطور الظروف السائدة فيها ؛ فمرة كان يديرها ولاية يعملون باسم غيرهم من حكام الدولة وهؤلاء كانوا في الشرق البعيد في الشام ، أو في الجنوب القريب بشمال إفريقيا ، ومرة كان يحكمها أمراء يتصرفون فيها باسم أسرهم وحدها ، ولا يريدون إلّا حفظ سلطانهم عليها ، ومرة نالته كانت تتمحور فيها الطوائف المتنازعة التي قسمتها إلى دويلات صغيرة تحارب بعضها لتبقى على نفسها ما يشبه الحرية والاستقلال .

ومن هنا الفترة الأولى ، وتبدأ بعد الفتح ، وتنتهي بقيام الدولة العربية الأموية سنة ١٣٨ هـ ٧٥٥ م ، وتعرف بمصر الولاية ، وتعني أن الحكام المسلمين بهذه المنطقة الأوروبية البعيدة كانوا يأتون لها عادة عن طريق الاختيار المطلق لخليفة المسلمين بالشام ، أو عن طريق اختيار والي الخليفة على مصر إذا كان هذا والي يتصل به بنوع من القرابة أو بنوع من النودة ، وغالباً ما كان حاكم الأندلس ، مثلاً للوالي في شمال إفريقيا ، ونائباً عنه في إقليم استمر جزءاً مهماً لولاية إفريقية مدة تسع سنوات طويلة .

وكل الولاة كانوا يتصرفون مع الخضوع لإرادة عليا ، وكانوا ينفذون سياسة الدولة ، دون أن يكون لهم حق التصرف في الأمور الأساسية إلا ما كان من اهتمامهم واهتمام شعبهم بأمور الحرب والجهاد ضد أعداء الدين والدولة . وكانت أسبانيا بهذا النظام ، وبهذه الإدارة مجرد مقاطعة من المقاطعات الكثيرة التابعة لدولة الأمويين في الشام ، وربما لم يسكن لها ثقل خاص في نظر حكام الدولة وخلفائها ، لأنها بدت قليلة الأهمية الاقتصادية ، رغم غناها ، ورغم ما كان يعرف عن رخاء شعبها ، وكان ذلك نتيجة لعدم استقرار الأحوال فيها ، فلم تساعد الاضطرابات السياسية والاجتماعية ، واختلاف الفاتحين لها على تنظيم عمليات الجباية المالية بها ، فكانت كل مواردها للسالية تضيع في الإنفاق على الإصلاحات الداخلية بها ، وفي تلبية حاجات حكامها ، ولهذا ظنوها في الشرق جزءا فقيرا من دولة غنية ، وكان الدولة التي لم تتكاف كثيرا في فتحها أصبح مقبولا عندها ألا ترجو شيئا من مواردها وأموالها .

وقدمت الجهود في هذه الفترة كمحاولات أولية لتأسيس دولة العرب في الأندلس ، وكان عدم النجاح في وضع نظام ثابت لاختيار الحاكم لهذه المنطقة البعيدة من بلاد المسلمين ، مع فشل العناصر القوية بها في الاتفاق على زعيم من يديها عاملا مساعدا في النهاية في إقناع الكثيرين هناك بضرورة الوحدة والتماسك والعمل تحت علم واحد ، وحول سيادة واحدة من خارج البيئة .

وجاء بطل الموقف هاربا من الشرق سنة ١٣٨ هـ ٧٥٥ م ، ونجح في تأسيس إمارة وراثية عاشت وسط الأحداث حتى سنة ٤٢٢ هـ ١٠٣٠ م ، ولم تكن حياتها مستقرة دائما ، وإنما كانت تخضع لظروف البيئة المضطربة وتطوراتها ، وظل الشعب هناك يحتفظ بصفات التمايز المعروفة عنه ، وظل كذلك مستعدا للخلاف

والثورة والحياة التمرّد والاضطراب، وكانت عوامل الخوف والقلق تتحكم فيه وتثيره. ومهما يكن من أمر، فقد كانت هذه الفترة مرحلة تمهيدية لقيام الدولة الأموية في أوربا، وسنتحدث عنها بالتفصيل في موضوع يأتي في دوره من خطوات الدراسة، ولا يعني ذلك أنها تعتبر فترة ركود لم تحفل بالأحداث المهمة<sup>(١)</sup>، أو لم يعرف عنها شيء كثير يتصل بتطورات الحياة بالمنطقة كلها، فقد تمت فيها أعمال عسكرية موفقة، ووضعت فيها أسس النظم الإدارية والمالية التي انبمها الحكم يعد ذلك وساروا عليها، وحدثت فيها ظواهر كانت لها آثار دائمة، وكانت لها مضاعفات تاريخية مهمة، وقد أشرنا إلى بعض الظواهر والأحداث الخطيرة التي شغلت وقتا طويلا من هذه الفترة المعروفة<sup>(٢)</sup> بمصر الولاة عند الحديث عن فتح الأندلس.

وإذا كان من المفيد أن نشير باهتمام إلى عناصر الشعب كقوة مؤثرة في حركة الحياة خلال هذا العهد، وإذا كان من المناسب ألا ندور بالحديث حول الحكم<sup>(٣)</sup> وحدهم، رآلا نقف طويلا عندما ما يتعلق بحركاتهم ومسكناتهم، أو عند أعمالهم التي لم تكن إلا أعمالا مضافة إلى أعمال جماعات أخرى كان

---

(١) تأكد سلطان الفاتحين المسلمين في هذه الفترة بعد تتبعهم للفارين منهم في كل مكان، وبعد انتصارهم على كل المناوئين لهم هناك.

(٢) يمكن تقسيم عهد العرب في الأندلس إلى فترتين، فترة التحضير لقيام الدولة ثم تأسيسها ٩٣ - ٤٢٢ هـ، ٧١١ - ١٠٣١ م، بفترة الانهيار ٤٢٢ - ٨٩٨ هـ / ١٠٣١ - ١٤٩٢ م.

(٣) كان عددهم ثلاثة وعشرين واليا أولهم طارق بن زياد ٩٢ - ٩٣ هـ / ٧١١ - ٧١٢ م وآخرهم يوسف الفهري ١٢٩ - ١٣٨ هـ / ٧٤٦ - ٧٥٥ م.



للولاة عليها حق الرئاسة ، فإن شعب الولاة كان مكونا من فئات تنقسم  
لجنسيات مختلفة ، ومن أهمها :

١ — العرب وكانوا قوة كبيرة من شعب كان له دوى هائل في العالم كله ،  
وقد اندفع العرب في جماعات كبيرة ، وفي جماعات صغيرة للسكنى في الأندلس  
بعد الفتح في شكل تيار هجرة متصل افتتحته جماعات جاءت مع القائد العربي  
الشهير موسى بن نصير أيام الفتح ، وكان عددها ثمانى عشر ألفا <sup>(١)</sup> من الرجال —  
إذا كان قد كر هذا العدد قيمة أساسية مفيدة في مثل هذا العرض ، لأننا نظن أن  
حساب الأعداد الخاصة بالجيش لم يكن حينذاك دقيقا كما هو شأنه في مفهوم العصر  
الحديث — وهذه الجماعة من الجنود المحاربين تبعت جماعة عربية أخرى صغيرة  
بلغت ثلثمائة أو خمسمائة من جنود العرب العاملين تحت رئاسة طارق بن زياد ،  
ثم جاءت جماعات أخرى مع الولاة القادمين من الشرق ، ومنها أربعمائة جاءوا  
خلف الوالى المعروف بالحر بن يوسف سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م ، وعشرة آلاف  
قدمت مع بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، وجماعة جاءت مع  
الوالى أبى الخطار الكلابى ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وإذا لم يكن عدد هذه الجماعة  
معروفا فإنها كانت قوة كافية لفض النزاع بين العرب البلديين والشاميين ،  
والوقوف بين القوتين المتنازعتين لحفظ النظام والأمن ولقرض الحق والعدالة .  
وكان الاستقرار في الأندلس كافيا لاجتذاب أعداد من العرب  
الراغبين في الحياة الجديدة أو المحاربين من قسوة الحياة السياسية

---

(١) ليس هذا العدد ثابتا في كل مصادر التاريخ ، فهو في بعضها عشرون ألفا  
وفي بعضها الآخر اثنا عشر ألفا ، وهذه أعداد تقريبية لأن عدد العرب لم يكن  
معروفا للمؤرخين بعد احتواء جيشهم لجماعات من البربر كانت تختلط بهم وتحسب منهم .

بالشرق وكل العمليات العسكرية الناجحة كانت تتلوها هجرات عربية صغيرة أو كبيرة تنجذب بموامل الإغراء المثيرة الموجودة بالأندلس ، ولاشك أن مجموعات كثيرة كانت تمثل العرب هناك ، وأن هذه المجموعات ازداد ضغطها وظهورها بعد قيام الدولة الأموية واستقرارها ، وإن كنا لانعرف دليلاً أكيداً على كثرة العرب بالبلاد المشار إليها من الإحصائيات الدقيقة ، أو من التعداد الرسمي للدولة ، وإنما كان يدل عليهم وجودهم الكثيف والظاهر في مناطق كثيرة هناك ، وقد دخلوا البلاد في شبه هجرات متصلة ، عندما كانت دولة الأمويين تواجه حركة اهتزاز عنيفة بسبب انقسام ولاء الناس بينهم وبين العباسيين ، وبسبب ثورة الأحزاب الدينية التي كانت تشبك مع الدولة في صراع طويل ، ويضطر أصحابها بعد الهزيمة إلى الهرب والبحث عن مكان للنجاة ، ولم يكن هناك أمان إلا في المناطق القاصية ، وبلاد الغرب كانت أقرب لرغبات الأميين في البعد عن التورط في المنازعات السياسية ، وكانت للأندلس جاذبية ممتازة لأنها كانت غرضاً للراغبين في الحياة الناعمة .

دخل العرب جنوداً يرغبون بعد النصر والاستقرار في تكوين أسر عن طريق الزواج بالأسبانيات ، ولم يستطيعوا الانعزال بشرياً عن السكان الأصليين ، لأنهم ما جاءوا مترفعين يريدون الحياة على حساب الغير ، وإنما أرادوا مشاركة الناس في الحياة العامة ، فسكانوا مضطرين إلى الاتصال الأمرى حتى يكونوا بالزواج أسراً جديدة تربطهم بالوطن الجديد ، وكانوا من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالأسبان عن طريق المصاهرة أمراً كافياً لجعل سلاتهم أبرز العناصر

في المجتمع الجديد وأهم مكوناته البشرية ، وظل إحساسهم قويا إلى آخر مراحل تاريخهم بأصلهم العربي، ولم يذكر التاريخ أنهم نسوا هذا الأصل ولا أنهم بعدوا عنه ، أو تنكروا له ، بل استمروا يتفنون بالعروبة ، وبأبجد العرب وتاريخهم ، وحرصوا على الانتساب للعرب كأمة عظيمة لها حضارة وتاريخ ودولة ، وكان اعترافهم بالأصل العربي وإحساسهم به مهما في علاقاتهم بالآخرين لوجود اتجاهات قوية مخالفة لاتجاهاتهم ، وإحساس غيرهم بالانتساب لأصول أخرى غير أصولهم ، فكان إعلان العروبة والاعتزاز بها من جانبهم رداً على تحديات من داخل البيئة الأندلسية ذاتها ، وليس مهما أن تكون فيهم جماعات عربية خالصة تحافظ على أصلها وسلالاتها وقد كان من غير الممكن أن يقف الناس على معالم النسب العربي بعد اختلاط العرب اختلاطاً عظيماً منذ أيام الفتح الأولى بالأسبان وبغير الأسبان ، لأن أمة العرب كان لها أمجاد تملأ دنياهم وتشير حماسهم ومشاعرهم .

لقد كان اختلاط العرب بالأسبان قوياً ومباشراً منذ لحظات وجودهم الأولى بالأندلس ، واختلط الكثيرون من العرب بعلاقات للمصاهرة مع أهل البلاد ، وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وربما جاءت أسر عربية صغيرة مهاجرة بأهلها وذريتها بعد الفتح ، ولكن الظاهرة الكبرى ظلت واضحة وملحة ، وهي أن العرب اتصلوا بالأسبان ، وتكونت بعد اتصالهم بهم الأمة الأندلسية ، والشعب الأندلسي ، وكانت هناك روابط قوية تشد الناس بعضهم إلى بعض ، وتطبعهم جميعاً بالطابع الأندلسي المميز .

وما يقال عن وجود نوع من الخصومة أو سوء الفهم بين العرب وبين جماعات من المولدين ربما كان سببه إلحاح بعض العرب على الانتساب للعروبة ،



أورفضهم الاعتراف بالوجود الجماعى الخالى من ضغط الإحساس بالأنساب المختلفة ، وكانت تفتد على الأندلس عناصر شرقية تميل إلى الاعتراف بالتمايز العنصرى ، وتصطدم بالسكان المتطورين الذين يرغبون فى البعد عن كل ما يوزعهم إلى أصول بعيدة ، بعضها فى الشرق وبعضها فى الغرب ، وامتزج الناس أخيراً وأصبحوا جماعات كبيرة جديدة سميت بالأندلسيين وهم المواطنون بالأندلس وكانوا من جميع الأديان والأسر والعصبيات والأجناس .

ويبدو عجيباً أن يقال فى التاريخ إن العرب فى الأندلس فى هذا العصر المبكر لم يكونوا معاً على هوى واحد ، وقد يكون شيئاً طبيعياً فى حياة الناس ألا يكونوا على هوى واحد ، غير أن الاتحاد كان مأمولاً فى فترات الوجود الأولى حينما كان العرب غرباء يعيشون ببلاد بعيدة وسط جماعات لا يعرفونها ولا تعرفهم ، وكانت الأخطار حولهم ملحة والأعداء معهم فى كل مكان ، ولم يتحقق الأمل العظيم ، إذ ظن العرب الداخلون فى مراحل الفتح الأولى أنهم وحدهم أصحاب البلاد أو ذوو الحق الأول فى امتيازاتها ، وسموا أنفسهم بالبلديين ، وكرهوا القادمين<sup>(١)</sup> عليهم ، وإن كانوا إخوة الأصل والدين واللغة ، ونفروا من المهجرات العربية ، وإن كان فيها نوع من الأمان لوجودهم نفسهم ، ثم مضوا يتنازعون على السيادة مع القادمين الجدد الذين عرفوا باسم الشاميين ، وكان هؤلاء كانوا دخلاء على العرب الذين سبقوهم فى الإقامة بالبلاد وليس لهم حق الحياة

---

(١) لم يكن البربر ينازعون العرب فى السيادة بقدر ما كانوا يطالبون بحقوقهم فى المساواة ، ولم يفض العرب من هجراتهم المتوالية من إفريقية إلا لأنها كانت تزيد من أعدادهم وتجعلهم أكثر خطورة .

مهم ، وتكونت من كل جماعة تكتلات تشعر بالخوف من ضياع الحقوق  
المكتسبة، أو ترغب في الاندفاع لتحصل على مكاسب جديدة .

وبدأ الصراع العنيف بين العرب بالأندلس سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م وسنة ١٢٥ هـ  
٧٤٣ م واحتدم في مكان يمكن أن يتسع للجميع، ولم تفهم أطراف الخصومة أن السكثرة  
كان يجب أن تعني القوة والأمن من المخاطر المحيطة ، وكانت هناك أخطار كثيرة  
يسببها الأعداء غير المسلمين ، ويسببها أيضاً البربر المسلمون إخوة الدين ، ولم يكن  
الصدام بين العرب بسبب الخصومات القبلية أو العصبية المتطرفة بين قيس وكنب،  
ولمما كان نزاعاً — كما أشرنا قبل ذلك — بين العرب الداخلين للأندلس في  
مراحل الفتح الأولى ، وبين العرب الذين جاءوا بعد حركة الرواد الأول ، وربما  
كان ذلك يعني ما يشبه المحاولة من جانب البلدين للتخلص من سلطان الحكومة  
المركزية في الشام ، لأن أكثر القادمين من الشام كانوا يحسون بسلطان الدولة  
وتبعية لهم ، وأتى بعضهم قرب نهاية حكم الأمويين بعد سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م،  
وكانوا يمارين من الفتن أو متهمين بالمشاركة فيها، ورأى البلديون ألا يلتزموا  
بالخضوع للسلطة البعيدة في الشام وخافوا من مزاحمة الشاميين لهم في السيادة  
والرزق ، فعارضوهم ورفضوا قبولهم ، ودافع الشاميون خصومهم ، وبدأت بين  
الجماعتين قصة طويلة من الصراع على أرض الأندلس .

ثم تطور الخلاف إلى ما يشبه الحرب بين حزين كبيرين ، أكثرية أحدها  
من عرب الشمال ، وأكثرية الآخر من عرب الجنوب ، وانضمت إلى الحزين  
جماعات من طوائف شتى من العرب تميل بها مصالحها إلى أحد المتنافسين ،  
وتورط الجانبان في حروب أهلية انتصر فيها الشاميون وأخذوا قيادة الأندلس سنة

١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، ثم وجد أهل اليمن فرصتهم في تأييد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، وقلب الأمير الأموي ميزان القوى لصالحهم ، ولكنه استطاع بعد انتصاره أن يقوم بمحاولات ناجحة لينقذ بلاد الأندلس من إصراف المتخاصمين فيها وتعصبهم .

ولم يكن الأمر قبل مجيء عبد الرحمن الداخل مجرد أمر عصبية قبلية تظهر كعامل محرك للتجمعات العربية هناك ، لأن عصبية جديدة ظهرت كقوة رئيسية محرك للجماعات كبيرة من العرب المتخاصمين ، منها العصبية الحزبية ، أو عصبية المصالح المشتركة ، بمعنى أن طوائف كبيرة كانت تتألف وتجتمع لأنها كانت ترتبط بالمصلحة الناشئة عن الحياة في مناطق متجاورة فكانت كقوة عظيمة متعاونة ، وقد يقع الانشقاق في صفوف الحزب الواحد فيتحول إلى أحزاب مختلفة ، وربما غيرت الجماعات مواقفها من حزب إلى حزب تبعاً لارتباطات المنفعة ، ومع ما كان يبدو من التطورات الجديدة في الصراع فإن العصبية القبلية كان لها مكان في نفوس الناس وكأنهم كانوا حريصين على أن يظلوا على خصوماتهم القديمة مهما طال بهم الزمن ومهما غيرتهم البيئة .

لقد كان عدد العرب القادمين إلى الإندلس من شمالي إفريقيا والشام قريباً من ثلاثين ألفاً ، دخلوا البلاد رجالاً بلانساء ، أو دخلوها رجالاً مع بعض النساء ، ثم أصبحوا بعد عشرين سنة ثلثمائة ألف انتشروا في كل مكان يزدعون ويتاجرون ويختلطون بالسكان ، وكانوا لا يشعرون بالسيادة والتعالى على الناس ، أو كان إحساسهم بهذه المعاني أقل مما كان معروفاً عن من سبقتهم من الحكام القوط أو الرومان ، وربما كان ذلك بسبب اتجاه العصر وروحه ، أو بسبب أن



العرب كانت لهم رسالة ، وكان لهم دين ، ويريدون أن يظهرُوا امتيازهم وامتياز دينهم للناس ، ليؤمن به الناس ويصبحوا معهم على طريق واحد .

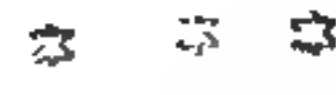
فكان العرب يعتزون بنسبهم العربي وبوظيفةهم كأمناء على رسالة سماوية عامة ، ويفخرون بنصرهم ودولتهم وكيانهم ، ولكنهم مع كل هذا كانوا شعباً سمعاً متواضعاً ، يريد أن يشارك الناس في الحياة العامة ، فتقربوا من الناس ، واختلطوا بهم ، وصاهروهم ، ولم يعيشوا في مناطق<sup>(١)</sup> منعزلة عنهم ، أو في مدن خاصة بهم ، وإن احتفظوا بكيانهم القبلي ، لأن هذا كان أسلوب حياتهم الاجتماعية ، وطريقة تكوّنهم المعروفة ، وقد عرفوا ذلك وعاشوا معه ، وكانت دولتهم نفسها ترى في الكيان القبلي أساساً من أسس النظام في الجيش ، وفي الإدارة المالية والسياسية وغيرها .

كانت طريقة العرب عند الفتح أن يتخذوا لأنفسهم معسكرات دائمة تكون مدناً لإقامتهم وملجأ لهم ومراحاً ، ولم يفعلوا ذلك في فتح الأندلس مع أنه كان معروفاً عنهم في العراق والشام ومصر وشمالي إفريقيا ، وربما انصرفوا عن ذلك لأن عمليات الفتح في الأندلس كانت تتخذ لها مراكز أو معسكرات في شمالي إفريقيا ، ولم يضطروا فيها للتقهقر والرجوع بعيداً خلف الخطوط الأمامية ، ويظهر أنهم كشفوا الأمور بعد المعركة الأولى ، فكانت الحرب حرب حصون أو حرب حصار للمدن ، وبعد النصر فيها كانوا ينتشرون في المناطق والأقاليم ليشاركوا السكان حياتهم ولivesوا معهم في بلادهم ، وزادت عمليات التلاحم بينهم وبين السكان ، وكانوا عناصر مسالمة وقفت تتفرج على الحرب بين العرب والقوط ، أو كانوا على الحياد

---

(١) ربما كان هناك نوع من الانعزال بين العرب وسكان أسبانيا أيام الفتح ، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً .

بين العرب وبين أعدائهم ، وأما المعارضون منهم فقد فروا هاربين إلى الشمال ،  
وكونوا وحدات صغيرة تنتظر فرصة الظهور مع الزمن ؛ وشفعت لهم أعدادهم  
القليلة فتركوا لأنفسهم ، وكان لهم مع العرب في المستقبل شأن وأى شأن .



٢ - وبأى البربر بعد العرب في التدرج الاجتماعى كمسلمين لهم كل حقوق  
الفاحين أو بعض هذه الحقوق ، وهم من شعب رضى بالإسلام وتحمس لقضيته ،  
وأمرعوا للأندلس ليتخذوا الجهاد وسيلة لخدمة الدين ، فكان لهم دور كبير  
في نصر الدين وظهوره وانتشاره ، واتخذهم العرب أداة قوية للحرب في أسبانيا ،  
ووجد البربر أيضا في الحرب مكاسب مالية سريعة ومغرية ، فكان بعضهم  
يحارب يدافع الإيمان وصدق الرغبة في خدمة الدين ، وكان بعضهم الآخر يحارب  
ليكسب الرزق المشروع بحكم الدين والقانون ، وكانت حركة اندفاعهم  
بالغة القوة وكان حماسهم عظيما ، فوجد الإسلام فيهم أبطاله الجدد الذين فتحوا  
الأندلس ، أو شاركوا في فتحه ، وكانوا جنود طارق بين زياد وجنود طريف  
ابن مالك قبله .

وبعد الفتح والانتصار جذبتهم بلاد الأندلس ، وأثارت فيهم الرغبة في الحياة  
الطيبة ، فتركوا بلادهم الإفريقية القريبة وذهبوا للوطن الجديد في حماس الباحثين  
عن الجديد ، وهاجرت منهم جماعات وقبائل كان لها وجود واضح في طول

البلاد وعرضها ، وفاقّت أعدادهم بالأندلس أعداد العرب ، وامتلاّت بهم شبه الجزيرة الأسبانية<sup>(١)</sup> ، ورغم تمايزهم بسبب وسائل العيش عندهم إلى بتر وبرانس ، فهم لم يقسموا أنفسهم ذلك التقسيم الحاد المعروف عن العرب ، وعاشوا معا بنوع من الوراق ، أو عاشوا في شبه انسجام اجتماعي ملحوظ ، ووجدوا لأنفسهم مكانا في بلاد الشمال الجبلية الباردة ، لأنها كانت تشبه وطنهم القديم ، أو لأنها كانت تهيء لهم وسائل الحياة التي أرادوا أن يعيشوها بطريقتهم الخاصة ، فكان لهم في الشمال سيادة تدل على كثافة أعدادهم هناك ، وتوضح خضوع المنطقة لهم ، وتركوا للعرب السيادة العليا ، أو السيادة العامة ، وعاشوا معهم كقوة واحدة للدين والدولة ، ثم كقوة واحدة ترفض قبول الوافدين عليها من الشرق ، والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا شبه الجزيرة في سنوات الفتح الأولى اختلطوا بالعرب البلديين ، وأصبحوا معهم حزبا واحدا لا فرق فيه بين عربي أو بربري ، بل كان الجانبان معا حربا على الشاميين وأنصارهم ، ثم فرقتهم الخصومات وسوء السياسة والعنف والقسوة التي اتبعها ولاية العرب معهم ، وكانوا مدفوعين إلى ذلك بعوامل الخوف من كثرتهم ، أو بعوامل التعالي عليهم .

لقد أراد البربر أن تطبق عليهم تعاليم الإسلام الذي عرفوها ، وكانت أقوال الواعظين والدعاة المسلمين ترن في آذانهم وتجدها صدى عميقا في قلوبهم ، وكانوا على حداثة عهدهم بالإسلام أشد تمسكا به من العرب ، وأعظم منهم إيمانا بضرورة العمل من أجله ، لأنه كان وسيلتهم القوية للنهوض بأنفسهم والاحتفاظ بحقوقهم كأنداء للعرب ، وفي جعلهم سادة في البلاد المفتوحة ، وأصحاب حق في غنائمها ، وزيادة على أن الإسلام كان يكسبهم حقوقا معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه ،

---

(١) كان تيار هجرة البربر إلى الأندلس متصلا طول التاريخ بخلاف الميجرات المربية الكبيرة التي انتهت بنهاية عصر الولاة .



فإنه كان عندهم دستور الاحكام بينهم وبين العرب أو قانون الفصل بين الجانبين .

وبدت هجرة البربر واندفاعهم إلى الأندلس أحياناً كأنها لم تكن للرجبة في العيش الناعم بأسبانيا أو للهروب من قسوة الحياة بإفريقية ، أو لعلاج مشكلة اقتصادية طارئة ، وإنما كانت تهدف إلى عدم التورط في المشكلات القائمة ، وكان أهم هذه المشكلات عدم الاتفاق على وضع ثابت أو مقبول بين العرب والبربر في إفريقية لأن قضية السيادة عليها كانت لا تزال غير مفهومة ، أو لم تحسم نهائياً لصالح أحد الطرفين ، وكانت لهذا تثير الناس وتغضبهم ، فيستجيبون لدعوات الثائرين على الدولة ، ويشاركونهم في الحرب ضدها بغير نتيجة ، وفهم بعض البربر أن العرب كانوا يتخذون الإسلام وسيلة للسيطرة السياسية ، وفهم العرب أن البربر كانوا يتخذون الإسلام وسيلة للمناداة بحقوق يقرها الإسلام للمسلمين جميعاً ، وكأنهم قبلوا دعوة الإسلام للعرض أولاً على الامتيازات التي يضمنها هذا الدين لأهله ، ولم يفهموا أن الدخول في الإسلام كان يعنى العمل في ميادين خدمته ، وكأن العرب لم يجدوا في البربر دائماً حلفاء أقوياء يشاركون في تحمل أعباء الدعوة الإسلامية ، ويقفون في وجه أعدائها ، وإنما وجدوا منهم قوة معارضة كانت تعطل تقدمهم ، وتشغلهم بالدفاع عن أنفسهم أمام خطرها وقسوتها .

واختلط البربر بالسكان ، وصاهروهم وأذاعوا بينهم الإسلام ، وتحولوا مع الزمن إلى أندلسيين كان لهم أعظم الأثر في انتشار الإسلام وقبوله ، لأن الإسلام بالنسبة لهم كان رمزاً للسيادة ، فأظهروا العصبية له ، وجاهدوا في سبيل نشره ، وكانوا أبسط من العرب طبعاً ، وأقرب إلى تذوق بساطة الدين منهم ،

لأن العرب - أو جماعات منهم - جاءوا إلى أسبانيا يحملون على ظهورهم آثار تاريخ طويل من التقلب في الفتن والاضطرابات ، وكان البربر أكثر حماساً من العرب في المطالبة بالتمسك بمبادئ الإسلام في الحرية والعدالة والمساواة ، لأن تعاليم الخوارج بإفريقية ودعائياتهم القوية لها ، وآراؤهم الصريحة الواضحة قد جذبتهم إليها ، وفتنتهم بها ، فأصبحوا المدافعين الأقوياء عن حقوق المسلمين من غير العرب ، والمطالبين بتطبيق مبادئ الإسلام على المسلمين جميعاً .

ثم أساء إليهم بعض الحكام العرب ، وأساءوا هم بدورهم إلى الحكام العرب ، وإلى العرب جميعاً ، ولم يستطيعوا أن يتوصلوا معاً إلى اتفاق يخدم المصالح العامة للجماعتين ، ونما الشعور بالخوف وسوء الظن بين الجميع ، ولم يكن من السهل نسيان حوادث الصراع الطويل الذي استمر سبعين سنة بين القوتين الكبيرتين ، وهو صراع اختلطت فيه العوامل القومية والوطنية بحب الدين والحرية ، ولم تأت نهايته نتيجة لهزيمة كبيرة لأحد الجانبين ، وإنما كانت نوعاً من الاعتراف بتفوق العقيدة الإسلامية وقبولها ، وهذا التفوق أعطى للإسلام نصراً عظيماً ، وجعل قوة البربر تنضم إلى قوات أنصاره ، ولكنه لم يعط العرب حق السيادة على البربر ، وظلت قضية السيادة على شمال إفريقيا غامضة وغير مفهومة ، وإذا حكمت الجماعات العربية الغالبة فإنها استمرت تواجه المعارضات القوية من الجماعات البربرية المغلوبة ، وظهرت آثار ذلك في ثورات عنيفة استهدفت ضياع نفوذ العرب بالمغرب ، وإعلان السيادة البربرية على بلاد البربر ، واستمر الصراع وقتاً طويلاً ، وكان يعني قبول العقيدة الإسلامية والإيمان بها ورفض السيادة العربية والخضوع لها .

دخل المسلمون الأندلس فاتحين ، وهم على هذا المستوى من الفهم والتفكير ، وكانت إرادتهم متعارضة ، ورغباتهم مختلفة ، وحدث بينهم نوع من التصالح المؤقت ، ولكنه لم يسمح لهم جميعا بالامتزاج في النهاية في صفوف واحدة ، فلم يصبوا شعبا واحدا منسجما ، وكان قد ظهر بينهم شيء من الانفصال في أيام الفتح الأولى ، فكان البربر يعملون تحت زعامة بربرية ، ويريدون أن يكسبوا مجالات جديدة ، ليظهروا في الميادين الجديدة أمام العرب كأنداد لهم ، وصحيح أنهم كانوا يعملون هناك باسم الإسلام وحده ، ولكن الإحساس باختلاف الجنس كان يخالط الإحساس بوحدة الدين في قلوبهم .

والعرب بدورهم كانوا يحاولون تأكيد وجودهم كقوة لها شرف الزعامة ، ولها حق السيادة ، لأنها كانت تمثل الدعوة الإسلامية ، ومعنى هذا أن الولاء المشترك بين العرب والبربر للدين الواحد لم يساعد على التقاءهم معا في مجالات العمل السياسية .

وربما كان من ذلك الخلاف بين قائد الفتح الإسلامي موسى بن نصير وطارق بن زياد ، فكان طارق بين زياد يمثل الانطلاق البربري الذي لا يريد الاعتراف بالقوى بالزعامة العربية ، وكان موسى بن نصير يحاول فرض هذه الزعامة على البربر ، ولم تكن أسس التعاون واضحة بينهما ، فعملوا ما لصالح العقيدة التي اتفقا عليها ، وتركوا خلافاتهم للزمن ، وربما لم تكن مصالحهم في مواجهة هذه الخلافات أيام الفتح ، أو ربما جاء فتح الأندلس حدثا عارضا بعد الحياة العنيفة الطويلة في إفريقية فتجمعت حوله الرغبات ، وتماسكت به الجهود ، ونجحت عمليات الفتح باسم الإسلام ودعوته ، وعرض الجميع قوتهم وجهودهم ، ورضوا بالتضحيات في سبيل الدين والتطور ، وساد السلام والتآلف لفترة لم تدم طويلا ، لأن خلافات جديدة



جاءت بعد الفتح ، تتنازع الفاتحون فيما بينهم ، وظهرت منهم محاولات ثورية لم يكن من أهدافها رفض الدين أو الطعن فيه ، وإنما كان من أهدافها البحث عن الحقوق المشروعة وعدم الرضا بالخضوع للآخرين ، أو رفض القيام بدور ثانوى في حياة المجتمع الجديد .

قبل البربر إذا دعوة الإسلام وخدموا قضيته ورفضوا سيادة العرب المطلقة عليهم ، وأرادوا المشاركة في العمل الجديد كما شاركوا في الفتح والتضحية ، وكان الإسلام في نظرهم طريقا صريحا لتحسين أحوالهم وتطويرهم ومساواتهم بغيرهم ، وشغلهم مبادئه في المساواة والإخاء والعدالة وكان دعائه يلحون عليهم بها ، فأرادوا تنفيذها وتطبيقها على كل المسلمين ، وأحس العرب بتهديد سيادتهم ، وكانوا يشعرون بأعجاسهم وبدواتهم ، وبحقهم في السلطة على العالم الجديد .

وتغلب العرب في الحروب الصليبية بين أصحاب العقيدة الواحدة ، فهاجر البربر من أماكنهم الشمالية ، وكانوا قوة إسلامية كبيرة تستطيع أن تقاوم أطماع المسيحيين في الشمال ، وتستطيع أن توقف تقدمهم إلى الجنوب ، وتفرقت جماعتهم في بلاد الأندلس الأخرى ، وذهب بعضها إلى وطن الأجداد بشمال إفريقيا .

وجاء بعد هؤلاء جيل جديد اتخذ الأندلس له وطناً ، وأسرع في الاندماج في البيئة الجديدة ، وكان يريد المعاشة السلمية وحدها ولا يبعده عنها أى شعور بالانفصال بسبب اختلاف الجنس والعنصر ، ودرس البربر الإسلام وتحضروا بسببه ، وساعدوا في نشره ، وكانت لهم بعد ذلك مشاركة إيجابية في بناء دولة الإسلام في الأندلس .

...

٣ - ثم كان هناك الموالي ويقصد بهم الجماعات للولاية للدولة الأموية أو أنصارها المرتبطون بها أو بأفرادها بنوع من الرباط المعروف عند العرب باسم الولاء ، وهو أنواع كثيرة منها ولاء العتق وولاء النعمة والنصرة والاصطناع وغيرها<sup>(١)</sup> ، وكان الناس بالأندلس يحتفظون بالولاء ويعتزون به ، ويرونه نوعاً من الأمان في الحياة في حاضرها ومستقبلها ، وكانت تلجأ إليه الجماعات والأفراد الذين يريدون الارتباط بالدولة ، لأن مصالحهم كانت في هذا الارتباط وحده ، وكونوا به ما يشبه الشخصية المستقلة ، وإن بدت بعض أمورهم محاطة بنوع من الغموض لغموض وصفهم ذاته ، لأن حقيقة الأسس التي كانت تبني عليها هذه الرابطة السياسية والاجتماعية لا تزال غير معروفة ، وقد تكون نوعاً من تبادل المصالح ، أو من الانجذاب نحو القوة المثلة في الدولة وأصحابها ، وقد تكون شيئاً يشبه التنظيم للسياسي الذي أرادته الأقوياء ليبقوا أنفسهم في مكان السلطة بتأييد الذين يتلقون الجزاء منهم .

وإذا لم تكن حدود هذا الولاء معروفة بوضوح ، وإذا كان من غير المعروف شيء عن عدد الموالي بالأندلس ، فإن دورهم في توجيه السياسة هناك كان معروفاً ، وكان دوراً إيجابياً ، لأنهم لم يقفوا متفرجين على الأحداث حولهم ، ولم يكونوا بمعدين عنها ، وإنما كانوا صانعيها أو مشاركين فيها ، وكانوا أشبه بتشكيل سياسي نشيط متماسك يجمعه رابطة المودة للأسرة الأموية الحاكمة أو يجمعه الإيمان بقضية الدولة وأصحابها ويقال إن هذه الرابطة كانت أقوى من روابط العصبية ، لأنها لم تكن رابطة عاطفية يضعفها تضارب المصالح واختلافها ، وإنما

---

(١) نشر بمراجعة المصادر اللغوية العربية وغيرها ، لمعرفة معنى الولاء وأنواعه عند العرب والمسلمين .

كانت رابطة مبنية على ، المصلحة المباشرة لأصحابها الذين وجدوا خيرهم في الولاء للدولة ووجدوا مستقبلهم معها ، فأخلصوا لها وعاشوا من أجلها ، وكانت منهم جماعات عربية وجماعات بربرية جاءت من الشرق مع الولاة ، أو جاءت من الجنوب مع الفاتحين ، وكانت منهم أيضا جماعات أندلسية كانت تميل إلى الاستقرار وتأييده ، وترفض تأييد المغامرين والثوار <sup>(١)</sup> .

كان للوالى يتبعون البيت الأموى ، ويرون مصلحتهم في مصلحته ، ويمكن أن نسميهم حزب الدولة الأموية ، وكانوا جماعات مختلفة قوية ومخلصة ، وتتكون من كتل متناسقة من الرجال الأقوياء الذين كانوا يتمتعون بمركز اجتماعى مثل مركز العرب أو يزيد عليه .

ومما جعل للوالى أهمية قصوى في الأندلس أنهم كانوا جماعة منظمة هادفة ترتبط فيما بينها بوحدة الهدف وتعمل من أجله رغم اختلاف عناصرها وأجناسها ، وكانوا يؤثرون في نتائج الخصومات بين المتنازعين ، وكان المتنازعون يحرصون على كسب ودهم ، وظل الموالى كتلة واحدة مؤثرة وقوية ، ثم أصبحوا عند قيام الدولة الأموية أصحاب الدولة ولم يبد العلى فيها واستطاع عبد الرحمن الداخل أن يغير بهم وجه التاريخ في الأندلس ، بعد أن استغل حماسهم لمصالح قضيته وقضية أمرته كلها .

وكان الجو كله مناسبا لأن يلعب الموالى دورا حاسما في شئون السياسة الاجتماعية بالأندلس ، فلم يكن هناك أحزاب سياسة منظمة أو جماعات لها قوة تأثير عليهم ، ولم يكن لهم رئيس معروف ، ولا رئاسة مؤسسة ، وإنما هيئوا أنفسهم كجماعة تشترك في شعور واحد ، وتربطها الاحساسات المتبادلة والمنافع الحيوية ،

---

(١) دخلت قبائل بربرية كاملة في ولاء الأمويين ، وحصلت جماعات أندلسية أيضا

على هذا الولاء .



وتحس بالخير المشترك وبالخطر المشترك معاً، وفي كل الأحوال كان الموالي قوة إيجابية تمثل إرادة الدولة وإرادة أنصارها .

\* \* \*

كانت العناصر الثلاثة السابقة عناصر إسلامية ، وهي التي وضعت أساس الإسلام والعروبة بالأندلس ، وبدأت التاريخ الذي نحاول الآن توضيح بعض جوانبه .

دخلت هذه العناصر الثلاثة في الأندلس في محاولة من محاولات الفتح العربية الناجحة ، التي لم يقصد منها تكوين امبراطورية سياسية واسعة يسودها الجنس العربي وحده ، وإنما قصد بها أن تكون حركة امتداد لتطور فكري شامل ، ولتطور ديني جديد جاء عن طريق الدعوة الإسلامية في القرن السابع الميلادي ، وكانت حركة التطور هذه عظيمة وشاملة ، وكان للعرب فيها شركاء أقوياء من البلاد التي فتحوها والتي شاركهم أهلها في الدين والأمل ، ووجدوا مستقبلهم وحياتهم وعاطفتهم في نشر الإسلام والعمل من أجله .

وصحيح أن الطريق الذي اتبعه المسلمون لنشر الإسلام في الأندلس تظهر الآن غير واضحة ، غير أنه يبدو أن العمل سار في نفس الطريق المعروفة عن الدعوة الإسلامية وعن الدعاة المسلمين ، لقد سار العمل بهدوء وتسامح وإصرار ، وبدون ضغط من المسلمين على مخالفيهم ، وكان هذا أسلوب العرب في الدعوة لديهم ، ولا شك أنهم اتبعوا نفس الأسلوب طوال خطوات الفتح في بلاد الأندلس وبعد استقرارهم وانتصارهم فيها .

وكان المسلمون دعاة حضارة مبنية على الدين ، ودعاة دين جاء بحضارة

متطورة ، وكان فيهم الكثيرون من دعاة الدين الذين درسوا علوم الدين وفهموا مسائله ، ثم كانت تظهر هناك دفعات من الحماس العارض للإسلام من وقت لآخر ، وأهم هذه الدفعات جاء عن طريق الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكأنه كان داعية للإسلام وحده ، أو كأن أمر الإسلام كان يشغل هذا الخليفة وحده ، أو كأن أعمال المسلمين قبله لم تكن في مستوى جهوده فقيم إن الإسلام انتشر في شمال إفريقيا والأندلس على يديه ، وجاءت النتيجة الحاسمة ، وتحول الناس إلى الإسلام ، ودخل عبدالرحمن الأموي إلى الأندلس طريداً سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥ م ، وقد أصبحت بلاداً إسلامية ، أو قد غلب عليها الإسلام ، بعد وقت يقل عن نصف قرن منذ فتحها .

ولم ينظر العرب لأنفسهم كأنهم كانوا فوق مستوى الناس من حولهم ، ولم ينظر لهم الناس على أنهم كانوا شعباً مختاراً من دون الشعوب كلها ، بل كانوا جماعات عملية تمش حياة عادية ، وتشارك الناس في العمل لخدمة التطور والحضارة ، وتنصرف عن الرغبة في الاستغلال والسعي وراء النعيم على حساب الآخرين ، وإن امتازت بأنها كانت رمز الحركة الإسلامية ، ولدين المسلمين .



٤ - وأما بقية الناس ، أو الشعب الذي فاجأه وجود العرب في بلاده ، فقد كان شعباً أوريباً مسيحياً ، يتجه بإيمانه نحو الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت له نظم سياسية ، ومعالم حضارية رومانية خالصة ، وأطلق عليه العرب اسم الروم أو الذمة أو النصراني أو العجم أو غير ذلك من الأسماء .

كانت أسبانيا أيام الفتح العربي بلاداً مسيحية أو تغلب هاها المسيحية ، ولا يعني ذلك إلا أن للمسيحيين فيها كانوا أغلب سكانها ، أو كانوا أكثر

من المسلمين فيها ، ولكن جماعات كبيرة ممن عاشوا بين الطوائف المسيحية هناك كانت في حالة وسط بين الإيمان بالمسيحية والكفر بها لعدم فهمها ، أو لاضطرابها بسبب اختلاف وجهات النظر بين أصحابها وللتضارب بين آراء المسيحيين في فهمها .

ووجد أنصاف المسيحيين هؤلاء في الإسلام حلا مناسباً لمشكلاتهم الدينية ، وكانت هذه المشكلة أخطر أمورهم ، وأبعداً أثراً في حياتهم ، فانضموا للمسلمين وشاركوهم عقيدتهم ، وزادت بهم أعدادهم ، وانضفت إلى هذه الجماعات جماعات أخرى من الوثنيين الذين لم يكن وجودهم في المجتمع الأسباني واضحاً أو قوياً ، ثم وفد العرب على البلاد من الشرق ، وجاءت جماعات بربرية كثيفة من شمالي إفريقيا ، فتضخمت أعداد المسلمين ، وأصبح وجودهم ظاهرة قوية في المجتمع كله .

وواجه المسيحيون تناقصاً مطرداً بسبب تزايد الرغبة في الإسلام بينهم ، وبسبب هجرة بعضهم إلى للناطق الشمالية التي اتخذوها موطناً بعدد انتظروا فيه دورات الزمن ليعودوا إلى بلادهم — كما أملوا — من جديد ؛ وهاجر آخرون منهم إلى البلاد الأوربية المسيحية رغبة عن الخضوع لمن كانوا يمثلون ديناً غريباً يرفضونه ، ويأبون التسليم له ، ودفعهم لذلك سوء الظن بالمسلمين أو خوفهم من مخاطر الحروب أو نحو ذلك من أسباب أخرى ، وكان في المهاجرين زعامات قوية لم تجد لها مكاناً في نظام المسلمين ، لتعارض وجودها مع أهداف هذا النظام .

وقبل الفتح كانت الكنيسة قد فشلت في حل مشكلة العقيدة المسيحية ، ورغم ما كان يبدو من ظواهر اتحادها فقد كانت محاطة بأعداء مسيحيين لهم



آراؤهم وعقائدهم ونزعاتهم المخالفة لها ، ولم تجد وسيلة للالتقاء مع أعدائها لأن الجميع كانوا يخضعون لوجهات نظر متعصبة لا تلتقي عند شيء ، فسلطت عليهم سوط العذاب ، وتعمق الخلاف وزادت حدته بين الكنيسة وأعدائها وضحي للناس بحياتهم في سبيل عقيدتهم ورأيهم .

ومعنى هذا أن انتصار الكنيسة الكاثوليكية في أسبانيا في فرض سلطتها على الدولة وعلى الناس لم يكن حلا حاسما للقضية الدينية المسيحية ، ولم يكن لجوؤها للعنف في فرض مذهبها ، ولا وضعها رقابة شديدة على عقائد الناس وتصرفاتهم مما يساعد على سلامة العمل وتحقيق الهدف ؛ وكان تحالفها مع الدولة ، بفرض أن تشاركها في مغامرات السلطة ولتحظى بنصيب من موارد الثروة ، فكان لها جزء كبير من أراضي أسبانيا الخصبة التي عاش عليه رجالها بعيدا عن حياة المؤمنين الزاهدين في الدنيا .

ولم تنقطع المنازعات والخصومات حول أمور العقيدة المسيحية ، وازدادت حيرة الناس فيها بعد تضارب آراء المتطاحنين حولها والتمسوا حقيقة الإيمان فلم يهتدوا إليه ، اشتد الغموض أمامهم ، وأصراف المتخاصمون في العناد والمنف وهم أصحاب عقيدة واحدة ، وعسفت الكنيسة بمخالفاتها وعبثت بهم ، فزاد خوف الناس من سلطتها ومن سلطة الدولة معها ، وأصبحوا غير آمنين في بلادهم .

وجاء تسامح المسلمين مع غيرهم — وكان طبيعية في سلوكهم وشيئا أمر به دينهم — جاء ذلك سياسة مثلى لاجتذاب المخالفين لآراء الكنيسة ، واستهوى تسامحهم جماعات كبيرة كانت تتعمس لوجـودهم ، وترى سمو أهدافهم

وعدااتهم ، وتعرف الكثير عن سلوكهم بعد أن اتصلوا بالناس وظهروا أمامهم  
كمثلين لشعب طيب يطلب العيش بسلام مع الآخرين ، وأنست بهم جماعات  
كثيرة وأنصوا بها ، وعاش الجميع في مكان واحد ، يساهمون معاً في بناء  
حياة مشتركة .

لقد ترك العرب المسيحيين ليكونوا مسيحيين كما يشاءون ، وأعطوهم أمان  
المسلمين ودمتهم ، ولم يطلبوا منهم إلا ضريبة مالية مفروضة عليهم بأمر الدين  
ذاته ، وكانت في مستوى قدراتهم المالية ، وتوزعت على مستوياتهم المختلفة ،  
وحفظوهم بعد الالتزام بها من عنت مخالفتهم في المذهب والرأى ، وجعلوهم  
في أمان من عسف البابوية وقسوة رجالها ، وكانت هذه تمثل مراكز القوى  
المتسلطة التي ترى حقها على الناس فوق إرادتهم ورغباتهم .

ومع استمرار المناقشة حول العقيدة المسيحية بين المسيحيين ، وقف المسلمون في  
الوسط بين المتنازعين ، وأمن الضعفاء بهم من طغيان الأقوياء ، وهدأت حدة  
الخصومة واستبدل الناس اللعن والتعذيب والطرد بالمجادلات التي حرص عليها  
المسيحيون في مراحل تطور عقيدتهم .

ومنذ أيام الفتح الأولى كان المسلمون حريصين على أن يفهموا غيرهم أنهم  
ما جاءوا للقضاء عليهم وعلى دينهم ، فكانوا يؤمنون رجال الدين الممارين ،  
ويعطونهم العهد بالحفظ والرعاية ، ولم يسيثوا لمن أرادوا الصلح والسلام معهم ،  
وضمنوا حريتهم وسلامتهم وأمنهم ، وصالحوا بعض الناس على شروط كانت  
تبقى لهم بلادهم شبه مستقلة ، وتجعل لهم فيها حكومات محلية يختارونها  
بأنفسهم .

وفي كل الأحوال ضمن المسلمون الحرية الدينية، وأعطوا للناس عهدا بالأمان كما تقضى بذلك شريعتهم ، فأمن النصارى واطمأنوا للحكام المسلمين ، وحفظت لهم كنائسهم ، والتفوا حول رجال دينهم ، ولم يتدخل المسلمون في علاقاتهم ، فانتعشت المسيحية بعد فتح المسلمين لأسبانيا ، وثبت عليها المؤمنون بها ، وانصرف عنها المتشككون فيها ، والمترددون في قبولها .

وعاد الرهبان الهاربون ورجال الدين المتشككون في المسلمين ونظامهم إلى الأندلس بعد الفتح ، وعاد معهم بعض من فروا أيام الحرب ، وقبلوا شروط المسلمين ، ومارسوا حياتهم كما يشاءون ، وتبادل المسيحيون العلاقات مع رعائهم وظلت كنائسهم تؤدي رسالتها الدينية والاجتماعية بإشراف المسيحيين وحدهم ، وكانت شئون المسيحيين بيد رؤساء منهم ، وهؤلاء كانوا مسئولين أمام المسلمين عما يتصل برعاياهم ، فكانوا يجمعون منهم الضرائب لحساب الدولة ، ويعينون لهم القضاة ، ويشرفون على أموالهم كلها ، وتشير مصادر التاريخ إلى حدوث اختلاط مبكر بين المسلمين وغيرهم من المسيحيين في الأندلس ، ومن ظواهر هذا الاختلاط أن ثانی ولاية المسلمين هناك تزوج امرأة لقريق المسيحية وكان وفيا لها ، وتزوج المسلمون مثله من أهل البلاد وامتزجوا بهم ، وتناصلت علاقات الود بين المسلمين وغير المسلمين وظهرت شخصيات مسيحية أسبانية إلى جانب الشخصيات العربية ، ولم يصب المسلمون غيرهم بأذى أيام الخصومات والفتن التي سادت بينهم ، وكأنها كانت من شئونهم الخاصة فلم يورطوا غيرهم فيها .

لقد أعطى العرب للناس عهدا واحترموها ، ووفوا بعهودهم كلها ، وبقيت أجزاء من نصوص هذه المعاهدات لتدل في وضوح على الروح الطيبة التي سادت العمل العربي كله ومنها قطعة لعهد موسى بن نصير لأهل ماردة وفيها :



« فذهبوا إليه ، وقالوا : إنهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ،  
ومن جرح ، وممتلكات الكنائس ، وما فيها ... وكل ممتلكات رجال الدين .  
وبعد أن تم التوقيع على ذلك في عهد صحيحة ، افتحوا له الأبواب ، وأدخلوه  
البلد ، وأسلموه إياها ، ولم يمس المسلمون من أقام في البلد من النصارى بأذى ،  
وأما من أراد ترك البلد منهم تركوه يمضى دون أذى . »

وتحفظ المراجع نص كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى  
٩٤٤ هـ / ٧١٣ م لتدمير بن غيدوش حاكم إقليم مرسية وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته ألا ينزع عنه ملكه ، ولا  
أحدا من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساءهم  
ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبدون نصيح ، وأن الذي اشترط  
عليه أنه صالح على سبع مدائن ... وأنه لا يأوى لنا عدوا ، ولا يخون لنا أمنا ،  
ولا يكتنم خبرا عنه ، وأنه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة ، وأربعة أمداد  
قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسط عسل ، وقسط زيت ،  
وعلى العبد نصف ذلك .

كتب في رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة .

شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي ، وحبيب بن عبيدة الفهري ،  
وعبد الله بن ميسرة الفهمي ، وأبو قائم الهذلي .

لقد آلت أراضى الكنيسة والملوك والإقطاعيين الهاربين والمقتولين في الحرب

للمسلمين ، فأخذت الدولة خمسها ، وتركته في يد المزارعين الأسبان ليزرعوه ،  
ويدفعوا لها عنه مالا يكون للمسلمين جميعا ، ووزعت الأرض الباقية على الجنود  
فزرعوا بعضها ، وتركوا بعضها الآخر للمزارعين يعيشون عليها ، ويدفعون لهم  
عنه مالا ، وأطلق المسلمون الأمرى ليزرعوا الأرض ويعمروها ، وأزالوا نظم  
القوط التي كانت تعتبر المزارع عبدا ، أو تعتبره عاملا في الأرض قريبا من العبيد ،  
وأباحت الدولة حرية الحركة للمسلمين وغير المسلمين ، فهاجر بعض المسيحيين إلى  
البلاد التي تزكها المسلمون بعد حروبهم الأهلية ١٣٣ - ١٣٨ هـ ٧٥٠ - ٧٥٥ م  
والتحقوا بالمسيحيين في الشمال ، وعمروا النواحي الشمالية الغربية والشرقية ،  
ووضعوا مع غيرهم أسس الدولة المسيحية التي ظلت تناوى المسلمين قرنا بعد  
قرن ، حتى أزالوا دولتهم من الأندلس كلها .

ويلفت الانتباه دائما أنه لم تقم بالأندلس ثورة مسيحية أيام الفتح ولا بعده في  
عصر الولاة ، ولم تكن هناك معارضة قوية لحكم المسلمين مما يدل على أن نصر  
المسلمين كان حاسما ، أو أن حكمهم كان مقبولا ، فلم تنجح محاولات الفارين  
في تحريض جماعات مسيحية كبيرة على الهرب من أسبانيا رغم ما كان بينهم  
وبين العناصر الباقية من الشعور بالتعاطف والقراية ، وكان المسيحيون الهاربون  
على رأى بأن أسبانيا لم تكن إلا موطننا لديانتهم ، ويجب أن تظل موطننا لهذه  
الديانة ، ولم تكن إلا بلادهم وخدمهم ، ويجب أن تظل بلادهم وخدمهم ، ولهذا  
حرصوا على حالة من الحرب شبه الدائمة مع المسلمين ، واعتبروهم غرباء أو أجانبا  
في أرض الوطن ، واستمر الصراع طويلا بين المسلمين والمسيحيين في  
أوروبا<sup>(١)</sup> .

---

(١) قصد بذلك الصراع غير المرئي ، لأن تاريخ الأندلس لا يمكن أن يكون صورة

• - وأما اليهود فكانوا غرباء مهاجرين إلى أسبانيا، دخلوا إليها في أيام هجرانهم المعروفة بعد اضطهادهم على يد الرومان في الشرق، وظلوا يعملون بها من أجل الحياة بعيدا عن الاضطهادات الدينية التي كانت تلاحقهم في كل مكان، ومع كثرتهم بأسبانيا، ومع أن بلادا كلها كانت مسكونة بهم، فإنهم لم يكونوا على وفاق مع القوط، بل كانوا مضطهدين في عهدهم، وتشير المراجع إلى حالات غريبة من العقاب كان القوط يمارسونها ضد اليهود في أسبانيا قبل الفتح العربي، فكانوا يطلبون منهم أن يتنصروا أو أن يتركوا البلاد لأهلها، وطردهم من أماكن كثيرة، وصادروا أملاك بعضهم، ووزعوا على المسيحيين كأرقاء وحرماو تحريرهم، وأخذوا منهم أولادهم، ونصروهم وصدرت ضدهم القوانين في سنة ٦١٣ م و٦٩٤ م، وكلها كانت وتفرض عليهم أن يخالفوا دينهم، وأن يخضعوا لما يعارض شريعتهم، فكانوا يهاجرون من أسبانيا ليتأمروا ضد دولة القوط، أو كانوا يسترون بعيدا عن الناس أو يتظاهرون بالمسيحية والميل إلى الحكم.

وجاء العرب فكان اليهود بجانبهم، وساهموا بطلاقتهم المتاحة في عونهم على الفوز والانتصار، ونالوا من المسلمين لذلك الأمان والسلامة والرعاية والمشاركة في إدارة الدولة، وجعلوهم حراسا على المدن مع المسلمين، فاستعربوا ونشئوا بين العرب، وكانت لهم قوانينهم ونظمهم وشريعتهم ومعاييدهم، وكانوا أحرارا في كل أمورهم، وأصبحت لهم الأندلس جنة الدنيا طوال فترات حكم العرب فيها.

\* \* \*

= مكررة لصراع دائم بين قوتين، وفي القول بذلك مبالغة يقصد بها نوع من التقدير لحركة الاسترداد المسيحية التي يقال عنها إنها بدأت منذ دخول العرب أسبانيا.



تتضح لنا الآن صورة المجتمع الإسلامى الأندلسى عند ظهوره ، وكان مجتمعا يتحكم فيه عنصر ان فاتحان قويان ، لم يتفقا معا ، ولم يتقابلا إلا عند هدف واحد هو خدمة الدين ونشره ، وعاشا شبه منعزلين فترة طويلة من حياتهما ، وقامت بينهما حروب أهلية همت الشمور بالعداء المشترك عندهما ، وساعدتهما على سوء الظن ، وكانت هناك جماعات أخرى تنقسم لأصول كثيرة بعيدة ، ولا تلتقى إلا فى الإيمان بالمسيحية ، وكان يطلب منها أن تسالم الفاتحين ، وأن تسير معهم فى طريق العمل لخير الجماعات كلها ، وذلك رغم إحساسها بحرمة الوطن والدين ، ورغم ضغوط الدعايات المعادية للمسلمين عليها ، وإذا لم تكن هذه جماعات مسيحية متدينة فإن الاسلام بدورة كان غريبا عليها ، أو كان شدينا جديدا على حياتها ؛ وأما الجماعات المسيحية المؤمنة فلم تكن فى حاجة إلى دين جديد ، وكان يكفياها ويشغلها أن تعيش بدينها وحده .

وبعد إدراك جهد المسلمين لخدمة الحضارة والتطور سار الجميع فى الطريق العام ، واعترف الناس بسلطان العرب فى أسبانيا ، ثم غابت من البلاد القيادات المؤثرة ، وكان يمثلها الفاتحون الكبار من العرب ، وجاءت قيادات جديدة لم تكن فى مستوى الأحداث حولها ، فكانت تعبر عن وجهات نظر حزبية أو عنصرية أو قبلية .

كان المجتمع الأندلسى عند ظهوره مجتمعا منطلقا ، يرفض القيود ، ويرى إمكان الحياة فى وحدات صغيرة أو كبيرة تجمعها المصالح المباشرة ، ويربطها الشمور بالقرابة ، أو يربطها الفهم الواحد المشترك فى المسائل العارضة ، وجرب هذا المجتمع التكتلات الأسرية الصغيرة ، والتكتلات الحزبية والدينية والعنصرية

الكبيرة لمدة قاربت نصف قرن من الزمن ٩٢ - ١٣٨ هـ / ٧١١ - ٧٥٥ م ، وبدأ في هذه الفترة أن رجل الشارع وحده أو الرجل العادي في الجماعة الصغيرة أو الكبيرة كان سيد الموقف بالأندلس كلها أو كان المؤثر في حركة المجتمع وتطوره وظهر الحاكم المسلم الممثل للجماعة كلها ، وكأنه كان يمثل فقط جماعة منها ، وربما كان لا يخرج في تفكيره وآماله عن الرجل العادي في أي وحدة بالبلاد ، وظل المجتمع كله مشغولا بعناصر لا تؤمن إلا بالولاء لمصالحها وحدها .

وبعد هذه التجربة التي لم تكن سليمة أو موفقة أيد المجتمع الأندلسي برغبة وبدون معارضة مؤثرة القادم الجديد ، وهو عبد الرحمن الداخل ، وتحمس لوجوده ، وربما كانت الحال السياسية والاجتماعية التي سادت البلاد قبل مجيء عبد الرحمن صورة مكررة لحياة العرب والبربر في شمالي إفريقيا ، وربما كانت تعكس بوضوح قلق الجماعات العربية وغير العربية ، وعدم استقرارها في آخر حياة الدولة الأموية بالشام .

ومهما يكن من أمر فقد اختار الأمير الجديد من جانبه أقل العناصر حماسا وتطلعا للسيادة ، فأنشأ بهاملكا أو إمارة له ولأولاده ؛ ولم تعطله معارضات الأقوياء الذين كانوا قد أوجدوا لأنفسهم هناك مكانا ورئاسة ، وظل عبد الرحمن ابن معاوية الأموي سيد البلاد طوال حياته ، ثم ترك لأمرته بعده دولة قوية كانت أعظم دويل أوروبا كلها .





## الفصل الثالث

١ - دولة جديدة

تمهيد

العباسيون والأندلس

عبد الرحمن الداخل

تحقيق الأمل

مرحلة الاستقرار

في مواجهة الخطر

عصر القوة

ضياع الوحدة



هرب عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك بطريقة روائية مثيرة من الشام إلى شمالي إفريقيا ، وكان قد تعرض للموت أمام جنود العباسيين المنتصرين على أسرته بعد الصراع الطويل على السلطة في دولة المسلمين سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م ، وظل - رغم هروبه واختفائه بعيداً عن مجال الرؤية الممكنة لأعدائه - معرضاً لخطرهم وانتقامهم ، لأنهم كانوا يطلبون جميع الأحياء من بني أمية ، ويطاردونهم في كل مكان ، ويصرفون كل اهتمامهم للبحث عنهم ، ويجعلون القضاء عليهم هدفاً من أهدافهم .

وتعرض الأموي المارب للموت والإرهاب وهو في الطريق إلى المأوى البعيد ، وبعد جهد قدم فيه كل وسائله وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى الشمال الإفريقي ، وكان يجد في هذه المنطقة عن نفوذ السلطات العباسية القاسية ملجأً يتلمس فيه لنفسه ولأماله سبل النجاة من الخطر ، وقضى هناك خمس سنوات في قلق واضطراب ، وعرف في هذه السنوات الطويلة أحوال إفريقية ، ومتاعب أهلها ، وكانت بلاداً ممزقة الروابط ، لا تجتمع ولا تتحد ، ولا تعرف لنفسها غاية أو هدفاً ، وقد ساعد على تفتتها ، وتحطيم وحدتها غياب سلطة الدولة عنها ، واختلاف الولاء فيها بين سلطات متنافسة لا تميل للتفاهم والانسجام ، ولا تؤمن بضرورة الوحدة وأهميتها ، وكانت السلطات المتعادية بها تقف كلها أمام الأحداث حولها لتراقب تطورها ، وتعرف نتائجها ، فلا تندفع بإعلان الولاء للعباسيين ،



ولا بالخروج على طاعتهم ، لأنها كانت تهتم أولاً بسلامتها وأمنها من اندفاعات الخطر القادم على الطريق مع الخوارج الثأرين على النظام وعلى الحكم في طول البلاد وعرضها .

وكان عبد الرحمن بن حبيب — أقوى حكام إفريقية في ذلك التاريخ — قد فرض نفسه وسلطنة على القيروان وما حولها ١٢٧ - ١٣٧ م / ٧٤٤ - ٧٥٤ م ، وتعود أن يستقبل الأمويين من المشرق العربي ليقم عليهم نوعاً من الوصاية وليحاول بوجودهم حوله أن يدعم حكمه بالشرعية للمثلة في الأمراء الأمويين أبناء الدولة وربما كان يرجو أن يقاوم بهؤلاء الأمراء ضغط العباسيين عليه ، أو أن يدفع بهم عن نفسه بعض اللتاعب العارضة ، أو لعله كان يأمل بتجمعهم معه أن يثير اهتمام الناس به كزعيم كبير لإفريقية وأهلها وأن يلفت نظر العباسيين إلى خطورة دوره فيقابلوه في منتصف الطريق ، ويجعلوا له حظاً في الولاية على بلاده .

ولكن الأمويين اللاجئين لشمال إفريقية لم يجدوا في زعيمها سيداً ، ولم يتفقوا معه على غاية ، وربما رأوا أنفسهم أحق بولائه منه بطاعتهم ، فرغبوا عن الرضاء له وتعرضوا بسبب ذلك لعقابه ، فقتل بعضهم ، وفر منه الآخرون إلى الأماكن النائية في المغرب الأقصى ، وكانوا يأملون أن يجدوا في المغرب البعيد نوعاً من الأمن والسلامة ، وما يشبه الفرصة الطيبة للعمل المناسب لقضيتهم كجماعات كانت لها السلطة على كل الناس ، أو كجماعات كانت ترى حقها في السلطة على كل الناس .

ومرّب مع الفارين من عبد الرحمن بن حبيب عبد الرحمن بن معاوية الأموي بطل الدولة العربية بالأندلس ، ووجد عبد الرحمن الأموي لنفسه بعد قراره مكاناً بالمغرب الأقصى ، ولم يعيش في هذا المكان منعزلاً عن الناس ، ولا منصرفاً

هما حوله، بل راقب حركة المجتمع وعرف بعض أسرارهم، وقابل جماعات البربر  
الراغبين عن العمل لصالح غيرهم، وكانت كراهية حكامهم العرب قد شملتهم،  
بسبب ظلمهم لهم، وسوء سياستهم معهم، فلم يكن أمام عبد الرحمن إلا الأمل في  
السلامة وحدها، فتجول في نواحي إفريقية الشمالية الغربية، وعاش حياة الخطر  
والاضطراب التي عرفها منذ هروبه من بلاد الشام، وأشدت عليه بعض قبائل  
البربر، وحثت وجوده، ورغبت في العمل معه، غير أنه لم يقنع بدوره في  
إفريقية، أولم يجد له مكاناً فيها، وخاف أن يدور هناك في حلقة مفرغة، أو أن  
أن ينتهي به السير إلى طريق مسدود، فطلب بلاد الأندلس، وتحقق له فيها  
الأمل، وكان له فيها دولة.

والاهتمام واضح في التاريخ الإسلامي بالحديث عن تكوين أول دولة  
انفصالية في بلاد المسلمين، وقد لا يكفي الآن أن نقول إن شاباً أموياً اضطره  
حب الحياة بين الأحياء إلى أن يلجأ بنفسه وآماله إلى بلاد بعيدة كان يرى  
عدم ارتباطها بدولة أعدائه العباسيين، أو كان يربطه بها الشعور العاطفي  
الطيب نحو أمه البربرية، ففر إليها، وهو لا يرجو إلا أن تخفيه بين أهلها، وإلا أن  
تحفظ عليه حياته ثم هدته العناية، وصادفه التوفيق، وجاءه الخير المفاجيء، فأقام  
لنفسه ولأسرته بالأندلس دولة، وكان لهذه الدولة شأن كبير في تاريخ الإسلام  
والمسلمين، لأن قصة عبد الرحمن بن معاوية الأموي تبدو مخالفة لهذا القول  
الشائع، ويظهر أنه كان يعيش مع الأمل في أن يعيد من جديد دولة الأمويين  
بعد انهيارها في أي مكان من أرض المسلمين، وكان أسير الرغبة ملكة  
عليه شعوره وهي أن يكتب لأسرته تاريخاً جديداً بعد أن انتهى وجودها أمام  
أعدائها العباسيين في كل مكان، فجاء إلى شمال إفريقية ليتحقق رغبته وأمله،

وفشلت محاولاته هناك وأدرك خطورة الظهور قريباً من مجال النفوذ العباسي القوي في مصر، وعرف الكثير من إلحاح المذاهب الدينية الإسلامية على البربر سكان إفريقية، وكانت هذه المذاهب الدينية المتصارعة قد أفسدتهم، وجعلتهم في حالة دأمة من الغضب والهياج على حكامهم العرب، وكلها كانت مذاهب تأثرة على الدولة وعلى نظامها، وعلى حكامها الأمويين والعباسيين معاً، فرأى عبد الرحمن السلامة في أن يكون دوره بعيداً هناك بالأندلس.

ويظهر أن الغرض من المبالغة في ذكر الصعوبات التي قابلت عبد الرحمن ابن معاوية قبل إعلان قيام دولته بالأندلس كان إشاعة نوع من الجواهدامي حوله، وإظهاره كبطل عربي كبير لم يسبقه غيره إلى هذا العمل الجديد في تاريخ المسلمين، وكان العمل الجديد مثيراً وغريباً في ذلك التاريخ، لأنه عبد الرحمن فسم وحدة المسلمين، وكون لنفسه دولة قوية في الأندلس البعيدة، وهو في حقيقته كان واحداً من الذين وجدوا حولهم جواً مناسباً لإنشاء دولة مستقلة في الأندلس التي كانت تخضع لظروف تساعد على إعلان الاستقلال عن دولة العباسيين في الشرق، وكان الزعيم الجديد ينتسب لدولة كبيرة لها دور عظيم في تاريخ المسلمين، وربما كانت منطقة المغرب العربي كله لا تعرف أيام هروبه غير دولة الأمويين وحدها، وقد ظل ذكر هذه الدولة يتردد هناك منذ أن انضمت المنطقة كلها لدولة المسلمين بعد فتحها على يد الأمويين وجيشهم، ولم يظهر فيها بعد فتحها دعاة يتعمسون للعباسيين حتى أعلن هؤلاء قيام دولتهم بالعراق.

## ٢ — العباسيون والأندلس :

اختار عبد الرحمن بن معاوية المكان البعيد عن نفوذ العباسيين ودعائهم،



وجاء في الوقت المناسب الذي كانت فيه دولة أعدائه في المشرق العربي مشغولة بشؤونها الداخلية ، وبشئون المناطق التي كانت تهمها أولا ، وكانت دولة العباسيين قائمة عند قيامها بما أخذته من تركة الدولة الأموية العظيمة ، وزاد في قناعتها بما كسبته بعد الحرب الطويلة مع أعدائها عجزها عن العمل الحاسم الكفيل بالنجاح في المغرب البعيد ، فتركت المغرب لمصيره أو تركته لما بعد الفراغ من الشئون العاجلة، وظهر القلق بوضوح بشمال إفريقيا في أول عهد العباسيين لأن اهتمامهم به كان ضعيفا لا يساوي اهتمامهم بمصر والشام والحجاز وغيرها من الأقاليم القريبة من مركزهم بالعراق ، فكان حرصهم على هذه الأقاليم عظيما منذ بداية عملهم وبعد إعلان خلافتهم ، لأن أهمية هذه الأقاليم كانت مباشرة ومؤثرة على كيان دولتهم ذاتها ، وكان لابد لهم قبل أن يستقروا في أي مكان من أرض المسلمين ، وقبل أن يعلنوا سيادتهم على بلاد المسلمين — كان لابد لهم أن تعترف بوجودهم هذه الولايات ، وأن تعلن الولاء لهم .

فمصر كانت تمثل قوة إقتصادية وبشرية ضرورية للدولة الجديدة ، وكان لها دورها العظيم منذ فتحها في حياة المسلمين وتطورهم ، وبالشام كانت عاصمة الدولة الأموية ، وفي الشام كانت قوة هذه الدولة ومجدها ، وكانت بلاد الحجاز تمثل السيطرة الدينية والنفوذ الروحي على كل المسلمين ، وبها الأماكن المقدسة التي كان يجب أن تكون مع المنتصرين وحدهم ، ولم يكن من الممكن القول بخلافه شاملة للمسلمين بدون واحدة من هذه الأقاليم لوضوح أثرها في الدولة وفي مواطنيها جميعا .

وأما بلاد الأندلس الواقعة عند أقصى الشمال والمغرب فكان يمكن تركها

للزمن ولساعات الفراغ من الأعمال العاجلة ، وكان بعدها شديداً على العباسيين القادمين من أقصى الشرق من خراسان ، وظلت كذلك بلاداً بعيدة عنهم حتى بعد ظهور سلطتهم في العراق ، وبعد استقرارهم فيه ، ولم تكن هذه البلاد الغربية النائية من مراکز اهتمام العباسيين في أي وقت من تاريخهم .

لم يكن ممكناً إذاً للعباسيين أن يسرعوا للأندلس بعد انتصارهم على الأمويين في شمال العراق ، ولا بعد قتلهم خليفة الأمويين في مصر ، ولذلك تركوا بلاد الأندلس لغيرهم ، وعاشوا بعيداً عنها ، وكأنها كانت جزءاً غير مرغوب فيه عندهم ، أو كانت جزءاً لا أمل لهم فيه ، ولم يكن ممكناً بالمثل أن تستمر الأندلس مجرد مقاطعة تابعة لخلافة العباسيين في المشرق العربي بعد أن حول العباسيون مركز الخلافة الإسلامية للعراق البعيد ، وقد شاركت في فتح بلاد الأندلس عناصر جديدة غير عربية ، وكانت لاتحس بضرورة الولاء لدولة المسلمين ، ولا تؤمن بوحدتهم الشاملة ، ولا بوجود تماسكهم .

ولا شك أن العباسيين لم يعملوا للسيطرة على الأندلس لاقبل قيام دولتهم ولا بعده ، وقد انصرفوا عنها بدعوتهم ودعائيتهم ، وانشغلوا بغيرها ، ومضت ست سنوات بعد الإعلان التاريخي لقيام دولة العباسيين بالعراق وبين إعلان قيام دولة الأمويين بالأندلس ، وكانت هذه فترة كافية للعمل على كسب هذه البلاد وضمتها لملك بني العباس ، وكان فيها فراغ في السلطة ، ويستطيع العباسيون بسبب هذا الفراغ أن يقوموا بدور سهل يضمن لهم النجاح بها ، ولكن دعوة العباسيين ظلت بعيدة عن المسلمين بالأندلس ، ولم يمنع وصولها إليهم عبدالرحمن ابن معاوية أو غيره من أعداء العباسيين وإنما لم يتقدم بالدعوة العباسية إلى

هذه المناطق النائية أصعابها ودعاتها أنفسهم وتركوها للأُمويين ، وغيرهم من المغامرين ليقوموا بها دولة إذا استطاعوا ، وكان العباسيين ساعدوا بإهمالهم ، وتكاسلهم في إنجاح خطط أعدائهم ، وفي تمزيق الوحدة الإسلامية منذ فجر تاريخهم .

ولقد ترك العباسيون المجال مفتوحا بالأندلس أمام العمل الأموي وغيره ، وأمام أنصار الأمويين هناك ، فلم يجد هؤلاء الأنصار في بلادهم البعيدة من يؤيد العباسيين ودعوتهم ، وكان هذه الدعوة كانت مقصورة على الشرق وحده أو كانت بعيدة عن الأندلس على كل حال ، وقد ظهرت للعباسيين محاولات لكسب بلاد الأندلس إلى جانبهم ، ولإرجاع وحدة المسلمين العامة بعد ضياعها ، ولكنها كانت محاولات ضعيفة ، أو محاولات غير جادة ، فلم تؤيدها قوات كافية ، ولم تثر انتباه الناس وحاسهم ، مع أنها كانت تستطيع أن تشكل تهديدا خطيرا ، وخطرا مباشرا لسلطة الأمويين بالأندلس ؛ وقنع العباسيون بما وصلوا إليه في الشرق البعيد ، وسمحوا يعجزهم عن العمل السليم في الوقت المناسب بإيجساد جو ملائم يؤدي فيه الأمويون الأكفاء دورهم في الأندلس بنجاح .

وقد شغل العباسيون أنفسهم عند قيام دولتهم بالانتقام القاسي من أنصار الدولة الأموية ، قبل أن يحاولوا السيطرة على المناطق التي كانت تابعة لهذه الدولة ، وتبعوا أفراد الأسرة الأموية بالأذى في كل مكان ، وأرادوا أن يزيلوا وجودهم كله من البلاد كلها ، وأن يقيموا عقابا غير مفهوم ، وغير مقبول ، حتى على الأموات منهم .

وكان يبدو غريبا أنه خلال محاولات عبد الرحمن الداخل الأولى لكسب



للوقوف لصالحه في الأندلس ، لم يحاول العباسيون أن يقفوا ضده ، ولم يسرعوا بالعمل لتعطيل تقدمه ، وكأنما كان هذا يعمل في عالم غير عالم المسلمين ، وفي دولة غير دولتهم ، وانشغل أعداء عبد الرحمن عنه بمشكلات كانت تستغرق وقتهم ، وتستنفذ جهودهم ، وكانت أيضاً فوق رغبتهم في السيطرة على كل بلاد المسلمين ، أو كانت تعجزهم عن تحقيق هذه الغاية ، وربما بدت قضية الأندلس أمام العباسيين قضية خامسة ، فلم يظهر لهم عملاء بها في الوقت المناسب — وكانوا يهتمون أمور البلاد الواقعة غربي مصر — واكتفوا بإنهاء التمثيل الأموي للمسلمين بقتل آخر خلفاء الأمويين بمصر ، وقاموا بنوع من الإشراف الخفيف على رعاياهم ومؤيديهم في الشمال الإفريقي وحده .

وربما كانت دعوة العباسيين تبدو غير مفهومة أو غير مقبولة عند الأندلسيين ، أو كانت تبدو أمامهم دعوة غير إيجابية ، لأنها كانت مبنية على القول بوجوب رفع الظلم الاجتماعي والاقتصادي عن المظلومين من مواطني الدول العربية ، وكانت هذه الدعوة تنهم الأمويين بمحاباة العرب على حساب الشعوب الأخرى ، وتقول باغتصابهم السلطة من أصحابها ، وكل هذه الدعاوى كانت بعيدة عن فهم الأندلسيين وحاجتهم ، ولم يكن عندهم إحساس مباشر بقسوتها لأن الظلم الاجتماعي والاقتصادي لم يكن معروفاً في الأندلس ولم يكن اغتصاب السلطة من أصحابها من المشكلات الأساسية لهذه البلاد ، وإنما كانت مشكلاتها الظاهرة تنحصر في قلق شعبها ، وإحساسه بالضيق وسط الفوضى التي كان يسببها عدم الاعتماد إلى نظام ثابت يريح الناس من معارك الخلاف حول الرئاسة ، وحول العصبية المتعددة ، لهذا ظهر عبد الرحمن الداخل هناك كأنه كان الأمل الباقي

في السلام والاستقرار ، وطالب مؤيدوه وأنصاره بأن تتجمع حوله العناصر القوية  
لبيعد للبلاد الأمن والوحدة والنظام .

ثم إن سكان الأندلس لم تكن بينهم عناصر شيعية قوية تفهم مشكلة  
آل البيت ، وتمطف على قضيتهم ، وتذكر أهداف العباسيين من دعاياتهم  
القائلة بحقهم في حكم المسلمين ، وكانوا كلهم — شاميين وبلديين — يعيشون  
بعيداً عن تأثير الدعايات المذهبية المنادية بحق العباسيين أو بحق غيرهم في السلطة  
على الناس جميعاً ، ولم يسمع البربر بدورهم في شمالي إفريقيا غير الآراء الخارجية  
المعارضة لاحتكار السلطة في أسرة أو جماعة ، وكانوا يتأثرون بقوة بفكرة  
المساواة في الاسلام ، ويتحمسون لهذه الفكرة ، وأما محاولة خروج بعضهم  
باسم الشيعة على عبدالرحمن الداخل بعد إعلان دولته ، وبعد استقرارها ، فيبدو أن  
هذه كانت تجربة سريعة من تجارب المغامرين الراغبين في السلطة وحدها ، أو  
كانت نوعاً من الاستغلال الساذج لمواطف الجماعات البربرية الراغبة في البعد  
عن سيطرة هذا الوافد الجديد .

لقد كان يناسب الأندلسيين أن يجدوا في بلادهم أميراً يمثل أسرة لها تاريخ  
يعرفونه فيجتمعون حوله ، ويحققون معه وبه آمالهم في السلام والانسجام ،  
ومن تاريخ الدولة الأموية المعروف عند المغاربة أنهم لم يعرفوا دولة المسلمين إلا  
برئاسة أموية ، وبعضهم لم يعرف الاسلام إلا عن طريق الأسرة الأموية وحدها ،  
وقد قدمت هذه الأسرة وهي في مراكز السلطة جهوداً قوية ساعدت سكان  
المغرب والأندلس على الدخول في الاسلام وفهمه ، وكان منها أبطال أُنقياء  
خدموا قضية الدين وضحووا في سبيله .

وجد عبد الرحمن الداخل عيون أعدائه حوله في كل مكان، وعرف وهو في إفريقية تذبذب الحكم بين الولاء للعباسيين والوفاء للأمويين وأساءه ميل الناس عن المهزمين مثله، وكان الجو كله كان قد فسد أمامه في شمالي إفريقية بالنسبة للعرب جميعاً، ولكنه كان يريد الأندلس بجهد، وكان يأمل أن ينجح فيه وحده، فأقام في طنجة قريباً من الأندلس وعرف الكثير عن هذه البلاد، وعن مشكلاتها، واتجاهات أهلها، وكان الأندلس كله إقليماً يفسد الاضطراب أمره، ويعانى من الفراغ في مكان السيادة فيه، فرسم عبد الرحمن خطة العمل، وأرسل لبلاد الأندلس وفداً من مؤيديه وأنصاره، وفتح له هذا الوفد أبواب العمل والأمل، وأبلغه تأييد الموالى واليمينين له، وتحسبهم لوجوده، وكان بين اليمينين وبين المضربين حكام البلاد خصومات نشأت بسبب الخلافات على السلطة هناك، فأراد اليمينيون من عبد الرحمن الأموي أن يأخذ دوره في حكم البلاد كلها، وأن يفسح لهم مكاناً للعمل بين أعدائهم الذين غلبهم وتسلطوا على مصيرهم ومصير بلادهم بالقوة وحدها.

ويشير المؤرخون إلى بساطة الدور الذي قامت به رسل عبد الرحمن بن معاوية في أول لقاء لهم بأهل الأندلس، ويذكرون الكثير عن الدور الإيجابي الذي قام به موالى الأمويين هناك، فقد نشط هؤلاء الموالى للعمل مع الأمير الجديد، وكانوا كانوا معه على ميعاد؛ أو كما كانت له هناك « شعبية » قوية مخصصة تدفعها إلى تأييده الرغبة في الخلاص من للنزاعات المتكررة حول السلطة والسيادة بالبلاد، وكان هذا الأمير يمثل أمام مؤيديه تاريخاً عظيماً لدولة



عظيمة ، فحرصوا عليه وأيدوه ، وكان ارتباطهم بأعدائه العباسيين ضعيفاً ، ولم يكن عندهم إحساس بالتبعية للعباسيين أصلاً .

ودخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس تصحبه أماله وحدها سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م ، ولم يكن همه أن يحفظ على نفسه الحياة فيها ، أو أن يعيش واحداً من أهلها ، وإنما كان يريد أن يحقق آماله القوية التي كانت تزداد وضوحاً أمامه مع الأحداث والزمن ، وكانت تشغله وتزيد في حماسه وجراته .

وجاءته بشار النصر بقدوم المؤيدين له من كل مكان ، ، وقدم نفسه لمؤيديه كأمر يستظل بالراية الأموية ، ويحس بقوة نفسه وحزبه ، وكان عقله يبعى كل أمجاد قومه الأمويين ، وكان قلبه مفعماً بالرغبة في بعث الدولة الأموية التي انهارت بالشرق البعيد أمام العباسيين ، ثم بقي لها من القوة في الغرب ما استطاعت بها أن تجدد كيائها ، وأن تحقق وجودها في المكان الذي وجدت لنفسها فيه فرصة للحياة من جديد .

جاء عبد الرحمن الأموي للأندلس البعيدة ، وكأنه كان مدعوا إليها بالحاح وقوة ، أو كأنما كان يجذبه إليها إحساس الخير الواعي ، فوجد فيها جماعات من الممارين الراغبين عن الحياة مع العباسيين في للشرق العربي ، وكان المعارضون لسياسة العباسيين قد اتخذوا بلاد المغرب وطنهم بعد أن انتهى الحساب في للشرق كله لصالح العباسيين وحدهم ، وكان في وجود عبد الرحمن بن معاوية بين الناس هناك فرصة طيبة للعناصر الراغبة في الاستقرار بعد الضياع في الفتن التي كانت تثور دائماً حول الرئاسة أو حول مصادر الرزق الواسعة ، وشغلت للفتن بلاد الأندلس كلها منذ أيام فتحها الأولى ، وكأنما جاء هذا الواقع الجديد للجمع كان يبعث عنه ، أو كان في حاجة إليه .

ولا يعنى ذلك أنه وجد الطريق أمامه سهلاً ، أو أنه لم يواجه الأخطار من حوله ، وإنما يعنى أنه وجد من عناصر المجتمع القوية من استطاع بهم أن يحقق رغبات الناس حوله ، وأن يقضى على عوامل القوضى ليؤسس بالأندلس إمارة أموية وزائية قوية .

ومعنى هذا أن محاولة عبد الرحمن بن معاوية الناجحة ببلاد الأندلس لم تكن محاولة عشوائية صادفتها السلامة ، ولم تكن محاولة أخيرة لشخص يأس يريد أن يتخلص من متاعبه وهمومه ، ولم تكن مفاصرة سريعة لا يؤمن صاحبها بشئ من نتائجها ، وإنما كانت عملاً آمناً صاحبه بسلامة نتائجه قبل البدء فيه ، ولا شك أن عبد الرحمن الداخل كان يدرك أن تعرضه لتحدى العباسيين الأقوياء وهم في ذورة مجدهم وانتصارهم كان يعنى الخطر عليه وعلى آمله ، وأن كل الأمويين كانوا مطاردين في كل مكان ، ومطلوبين عند كل الحكام ، ومع ذلك فلم تستطع أعمال العنف والقسوة التي مارسها أعداؤه ضد أسرته أن تحطم إرادته ، أو أن تجعله يخفى وجوده في بقاع الأرض الواسعة ، فسار نحو غايته ، وكانت أعماله تظهر مدى وثوقه من مستقبله ، ومدى أمله في نجاح عمله .

وبعد نجاح عبد الرحمن الداخل بالأندلس عرض نفسه للرؤية الواضحة أمام أعدائه العباسيين ، وظهر كمتحد لسلاطنتهم هناك ، وكان يمثل الدولة التي قضوا عليها ، وكان في وجوده إحياء لذكرى هذه الدولة في نفوس مؤيديها وأنصارها ، وفيه أيضاً الأمل الكبير لأعداء العباسيين في كل مكان .

جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وساهمت عوامل رئيسية في نجاح خطته ، وكان منها حالة الانهيار والتمزق التي شملت عالم المسلمين أثناء الصراع

الطويل على السلطة بين العصبية الأموية والعصبية العباسية في كل مكان بالشرق العربي ، ثم شغلت الاضطرابات والفتن حكام المسلمين الجدد ، فانصرفوا عن مزاحمة ، وتركوه يعمل بعيداً عنهم ، وكانت بلاد الأندلس بعيدة عن مواقع الصراع بين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين وهي لهذا السبب ذاته كانت تعاني من غياب السلطة أو ضعفها ، فلم تكن فيها قوة تقف بين الأحزاب المتنازعة على السيادة فيها ، ومن هنا وجدت الأحزاب هناك فرصتها للتطاحن والصراع فيما بينها ، وخضعت البلاد كلها بسبب ذلك للفتن الداخلية .

ومعنى هذا أن بعد بلاد الأندلس عن مركز السلطة بالدولة كان من العوامل القوية في ازدياد الخلاف بين عناصرها ، وأن سلطات الدولة البعيدة كانت تعجز في كثير من مجاولاتها عن فرض نوع من الحلول الضرورية على المتصارعين حول السيادة فيها .

وتوزعت العناصر العربية إلى يمنية ومضرية ، وإلى شامية<sup>(١)</sup> وبلدية ، واختلفت دائماً وتقاتلت في حروب أهلية مؤسسية ، وكانت هذه العناصر نفسها تتجمع أحيانا لتعارب الأكثرية البربرية النائرة على السيادة العربية الغاضبة من ضياع حقوقها المشروعة .

وبسبب الصراع العنيف بين العرب والبربر أضاع المسلمون مناطق واسعة

---

(١) كان صراع العرب فيما بينهم بعد فتح الأندلس بين الجماعات البلدية (الفاتحين الأول) وبين الجماعات الشامية (الوافدين الجدد) ثم تغيرت أسماء التجمعات العربية المختلفة بعد استقرارها في الوطن الجديد ، فأصبحت يمنية ومضرية ، ورجعت بهذه التسمية إلى مسمياتها التي كانت معروفة بها بالشرق العربي .



من البلاد التي فتحوها ، وتركوا هذه المناطق الضائعة لأعدائهم المسيحيين  
ليعمارها بعدهم ، وليهيئوا لأنفسهم فيها وجودا مستقلا ، وكان الوجود المسيحي  
بالمناطق القريبة من بلاد المسلمين - أو المناطق التي كانت من بلاد المسلمين -  
بعيد الأثر في حياة المجتمع الإسلامي الأندلسي كله .

ولم يسفر النزاع بين المسلمين المختلفين في الأندلس عن نتيجة حاسمة لصالح  
أحد الفريقين ، أو عن تفوق صريح لأى من القوات المتحاربة وإنما زاد الجميع  
ضعفا ، وجعلهم لا يلتقون ولا يجتمعون على شىء من أمورهم أبدا ، وكان ضعفهم  
يعنى أن أية قوة خارجية كانت تستطيع أن توجه الموقف كله لصالحها وحدها ،  
ويكون لها بذلك المستقبل في النهاية .

لقد أسهمت الصراعات الداخلية بين العناصر الأندلسية في نجاح عبد الرحمن  
الداخل ، فحاول أن يضم هذه العناصر حوله ، وأن يقوى وحدتها وتماسكها ،  
ونجحت محاولاته فأظهر للبلاد شخصية مستقلة ومتميزة ، وأبعداها عن التبعية  
المباشرة وغير المباشرة لدولة الخلافة العباسية ، وكان بذلك أول العاملين على  
تقسيم بلاد المسلمين إلى دولتين منفصلتين ، وأقوى الناجحين في تحقيق هذه  
الظاهرة الجديدة ، وربما كانت هذه الظاهرة شيئا غريبا عند المعاصرين  
لعبد الرحمن الداخل ، أو ربما كانت شيئا جديدا لم يعرفه الناس هناك ، ولكنه  
نجح في بيان أهميتها ، وفي تشجيع الناس على قبولها .

وكان عبد الرحمن سياسيا فلم يسرع إلى الإعلان عن رغباته الصريحة ، ولم يرفض  
سيادة العباسيين على بلاده ، بل ظل يدعو لهم عن المنابر في الأندلس ، وكأنه

كان واحدا من ولايتهم ومؤيديهم ، أو كان لا يشعر بالأمس منهم ، وقصد بذلك نوعا من التغطية لأهدافه الحقيقية، أو أراد أن يتفادى غضب المتعاطفين من أهل الأندلس مع أعدائه، حتى يتأكد وجوده ، ويستقر سلطانه .

ولم يبطل عبد الرحمن بن معاوية الدعاء لخليفة العباسيين في العراق من فوق منابر الأندلس إلا بعد ستة أشهر من إعلان قيام دولته ، وقال إن ذلك كان مطلبا من مطالب أسرته وبإلحاحها ، وبعد أن نجح في خطواته الأولى بدعم سلطانه على البلاد كلها ، وتمكن من الاستقرار فيها ، وغلق أبوابه كلها أمام دعايات أعدائه ، ونمى بالتدريج شخصية بلاده المستقلة ، وعاش فيها أميرا يطلب من الناس الولاء لنفسه ، ويرفض أن يتولى هو الآخرين .

ولا شك أن مجالات العمل المناسبة لتكوين الدول المستقلة في الأطراف البعيدة كانت مهياة أمام المغامرين طول عهد الدولة العباسية ، وقد برزت هذه الظاهرة حتى في العصر الذهبي لهذه الدولة ، ولكن أسئلة واضحة تبدو دائما للدارسين لتاريخ الأندلس وهي :

كيف تهيأ مجتمع المسلمين بهذه البلاد في هذا العهد المبكر لقبول فكرة الانفصال عن دولة المسلمين الكبيرة المثلة في الزعامة العباسية ؟ .

ولماذا ساعد المجتمع الأندلسي على هذا الانفصال السريع عن جسم الدولة العباسية وكانت لا تزال تملأ دنيا المسلمين بالدعايات القوية المؤثرة ؟ .

ثم إلى أي مدى كان حرص هذا المجتمع على الدولة الأموية الجديدة ؟ . وكيف حرصها مجتمع الأندلس ورعاها ودعمها ؟ .

وكان استقلال المنطقة برئاسة أمير أموى يمثل وجهة نظر المعارضين أصحاب الدولة المنهارة ، وهذا يعنى أن ذلك الإقليم البعيد كان يتحدى بتأييده للأمويين سلطة الدولة العباسية فى صراحة ، وكان يرفض ضياع السلطة الأموية جملة من دولة المسلمين .

وقد أشرنا إلى بعض أسباب النجاح فى تحقيق هذه الظاهرة الجديدة عند الحديث عن قيام هذه الدولة ، وقلنا إن بعد بلاد الأندلس عن مركز الدولة العباسية فى العراق ، وعدم تأثيرها الواضح بالأحداث السائدة فى المشرق العربى جعل عبد الرحمن الداخل يعمل وكأنه كان بعيداً بعملة عن عالم المسلمين ودولتهم ، فلم يشعر العباسيون بوجوده أو بخطورة أعماله ، أو كانوا يدركون دوره ويفضون نجاحه ولكن عجزت قدراتهم عن الإسراع بالوقوف ضده ، وتعطيل عمله .

ومعنى هذا أن فرصة مناسبة كانت هناك ببلاد الأندلس أمام الراغبين فى الاستقلال بها بعيداً عن نفوذ الدولة العباسية وسيطوتها المباشرة ، وكانت هذه البلاد لا تخضع طول عهدها لإشراف الحكومات المركزية ، وقد عجزت الدولة الأموية نفسها عن فرص سلطتها عليها وعن إشاعة السلام فيها ، ومن المعروف أن الخليفة عمر بن عبد العزيز الشهير بالعدل والتقوى فكر فى إرجاع المسلمين منها ، وربما كان ذلك لبعدها ، أو لغموض أحوالها واضطرابها ، وقد ظل منصب الوالى فيها يخضع لرأى العصبية القوية بها ، وكانت هذه العصبية تلعب دوراً أساسياً فى شئون البلاد كلها .

ثم هى بلاد لم تكن بطبيعتها هدفاً مباشراً للدعوة والدعاية العباسيتين ،



وغربي دولة المسلمين كله لم يكن هدفا أساسيا للدعوة العباسية، وربما حدث نوع من العمل الدعائي والسياسي لصالح العباسيين في هذه المناطق البعيدة بعد قيام دولتهم، وأما قبل قيام هذه الدولة فكان العمل كله موجها لدوائر الشرق النائية في خراسان وما حولها، وكانت دولة الأمويين تقف في الطريق إلى الأقاليم الغربية من دولة العرب والمسلمين.

ولم تمر فترة من الزمن - منذ فتح الأندلس حتى قيام الدولة الأموية بها - تكون كافية لظهور الشخصية الاجتماعية القوية للأندلسيين، فقد كان مجتمعهم مجتمعا موزعا مضطربا لا يستقر على حال، وتتنازع فيه الرئاسات القوية لجماعات كبيرة كانت تشبه الأحزاب السياسية الباعثة عن المكاسب السياسية وغير السياسية في المنطقة كلها، فكانت حاجة هذا المجتمع الأولى في أن يجد السبيل إلى الاستقرار حول زعامة واحدة تعرض نفسها في داخل البيئة ذاتها، وتكون مع ذلك بعيدة عن الإحساس بالتبعية لقوة أخرى تفرض سيطرتها على الناس من بعيد، وكأن الأندلسيين كانوا يريدون زعيما يقيمونه بأنفسهم ليعيش معهم، ولا يشعر بالتبعية لغير بلاد الأندلس وحدها.

وصاحب قيام دولة العباسيين أعمال عنف شديدة، جعلت بعض العناصر النشيطة المعارضة لهم تترك بلاد المشرق العربي، وتفر بعيدا عن خطرهم، وتقف ضدهم في أماكن الأمان النائية، وقد أسرف العباسيون - كما هو معروف - في القسوة والعنف مع أعدائهم جميعاً، وأرادوا إقامة دولتهم ولو بالبعد عن التقام مع مواطنيهم، وكانت تشغلهم أولاً أمور أعظم من الرغبة في الحرص على امتلاك بلاد الأندلس، ومنها محاولة العمل على الاستقرار في المناطق التي كسبوها

من أعدائهم الأمويين ، لأنه بدون استقرار هذه المناطق وبدون تسليمها بسلطتهم ما كانوا يستطيعون المحافظة على ما كزهم كسادة لمجتمع المسلمين كله، وصحيح أنهم رغبوا في أن يرثوا كل التركة الأموية وألا يتركوا شيئا لغيرهم منها ، ولكن أمانيتهم ورغباتهم كانت أكبر من وسائل العمل المتاحة لهم ، فكان المغرب يحتاج لجهود كبيرة حتى يحس سكانه بوجودهم كسادة جدد لدولة المسلمين الواصلة ، وكانت كل بلاد المغرب تموج بالفتن وتتردد في أجوائها أصدااء الدعايات الخارجية المعادية للعباسيين والأمويين معا ، وكانت أيضا مشحونة بحموش الخوارج الثأرين على السلطات كلها ، ولم يستطع الخليفة أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٣ - ٧٧٤ م - رغم كفاءته - أن يتغلب على العناصر الثائرة بالمغرب العربي إلا بعد جهد كبير ومحاولات قوية ، ومع ذلك استمرت المنطقة مصدرا لمتاعبه ومتاعب أسرته بعده، وعجز هارون الرشيد نفسه - وهو واحد من أعظم خلفاء المسلمين جميعا - عن أن يمد نفوذه لهذه البلاد البعيدة ، ووجد لها الحل المناسب في إقامة دولة الأغالبة بإفريقية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م، وكان قيام دولة الأغالبة يعني حماية العباسيين وحماية ممتلكاتهم شرق تونس من شر أعدائهم المسلمين في المغرب والأندلس .

#### ٤ - تحقيق الأمل :

لقد كان القادم الجديد على مستوى الأحداث حوله ، فعرض رئاسته على أطراف النزاع التي كانت تقف متحفزة لتكرار أعمال العنف فيما بينها، ولم يكن هناك أمل في اتفاقها أو تلاقيها حول شروط مقبولة ، وانحاز له الجانب البعيد عن السلطة ، أو الجانب الضعيف المهزوم ، وكانت تشغله الرغبة القوية في النصر

الأخير على خصومه المتحكمين فيه ، وانضمت للأمير جماعات من العرب  
والبربر، فكسب بهم المعركة الأولى ضد والي الأندلس يوسف الفهري في ١٠ ذي  
الحجة ١٣٨ هـ / ١٣ مايو ٧٥٦ م ، وكتب الأمير الأموي بعد النصر لبلاد  
الأندلس كلها تاريخاً جديداً ، ولكن نجاحه في المعركة الأولى لم يكن يعني أنه  
سيعيش بعدها حياة مطمئنة آمنة ، لأن النصر في هذه المعركة كان فاتحة لمهد  
جديد من المتاعب والفتن ، ولم يضمن عبد الرحمن بن معاوية لنفسه بهذا النصر  
الحاسم إلا أن يكون والياً ، أو قريباً من الولاية الذين يفرضون أنفسهم على  
الأحداث ، أو الذين تفرضهم الأحداث على الناس ، وبقيت أمامه بعد  
ذلك مشكلات أخرى كان من أهمها وهو شاب لم يتجاوز عمره ستة  
وعشرين عاماً :

(أ) أن يثبت كفاءته كما كم قوى لجماعات ترجع في أصولها البعيدة إلى  
عصبيات مختلفة ، وتتعارف بهذه العصبية وتحرص عليها ، وتدور حولها ،  
وكانت كلها جماعات لا تعرف التماسك والانسجام في وحدة شاملة .

(ب) وكانت أمامه أحزاب للمعارضة تهددها الهزيمة ، ويتراءى لها الفشل ،  
ثم هي ترفض الهزيمة ، وتأبى التسليم بها ، ومن هنا كانت تتجمع لتأخذ  
دورها في الانتقام عند مجيء الفرصة .

(ج) وكانت هناك العناصر البربرية القوية المتزايدة العدد التي تحتفظ في  
قلوبها بالشك وسوء الظن بكل العرب ، وقد جربت حكم العرب قبل مجيء  
عبد الرحمن بن معاوية ، ومارست الحياة معهم ، وفي العهد الجديد دخلت مع



الأمير في حروبه لتحصل بهذه الحروب على مكاسبها السريعة المغرية ، ولتتال حظه من مفاتم الصراع على السلطة بين المتحاربين .

( د ) وفي جانب الأمير الجديد وقف أنصار له وحلفاء ، ولم يريدوا من العمل معه إلا تأكيد امتيازاتهم القبلية لأنهم كانوا جماعات متميزة في المجتمع الأندلسي المكون من أجناس بشرية متعددة وكان غريباً على هؤلاء الأنصار والحلفاء أن يجدوه رجلاً يسعى لإقامة دولة ، أو رجلاً مخالفاً في آماله كل اتجاهات المغامرين الذين أخذوا دورهم قبله بين المارين على طريق السيادة المؤقتة .

( هـ ) وهناك في الشمال كانت الجماعات المسيحية التي تتجمع وتربص بهدف تخليص المسيحية من الإسلام ، واسترداد الأرض من المسلمين ، وقد وجد هؤلاء في الصراع الداخلي بين المسلمين فرصتهم المطلوبة وشجعهم انتصار من ادعوا تمثيل المسيحية من الفرنج على العرب في موقعة بلاط الشهداء سنة ١١٤ / ٧٣٢ م ، وقد عرف المنتصرون على العرب معنى النصر لأول مرة ، وكانت هذه المرة الأولى سابقة مثيرة ومشجعة تدعو للأمل ، وتدفع إلى الجرأة على المسلمين في كل مكان .

( و ) وطول الفترة السابقة لقيام الدولة الأموية ٩٢ - ١٣٨ هـ / ٧١٠ - ٧٥٥ م كانت بالأندلس جماعات عربية ، وجماعات غير عربية تعيش كلها منعزلة بالمناطق البعيدة ، وتساعدتها الأوضاع الجغرافية - التي كانت تختلف تبعاً للأقاليم - على الانعزال ، والبعد عن الآخرين ، ولم تكن هذه الجماعات تفهم

معنى لسلطة الدولة المركزية ، أو لم تكن تجده هذه السلطة ضرورة أو حاجة ، وربما وجدت فيها نوعاً من الاعتداء على حريتها وإرادتها ، فعاشت في شبه انفصال وتمزق ، وتعودت على الحياة المتحررة من سيطرة الزعامات الخارجية .

(ز) وكان هناك دائماً خطر العباسيين الأقوياء الذين ظلوا يلحون بالدعاية ضد الأمويين جميعاً ومنهم عبد الرحمن بن معاوية ، فكانوا يتهمونه بالخروج على وحدة المسلمين المطلوبة بأمر الدين ذاته .

فكان على الوافدين الجديدين إذا أن يفهم الناس بلغة عصرهم أنه يريد ملكاً ولا يسمح لأحد بتهديده ولا بالمنافسة فيه ، وإذا كان بعض الناس هناك من وسائل العمل الضرورية لإقامة هذا الملك فإن عبد الرحمن بن معاوية كان يرفض الوصاية على شيء من أموره حتى من أنصاره ومؤيديه ، وكان عليه أن يجمع الناس حوله وتحت رئاسته ، ولو بوسائل القوة بعد أن فشل التأثير فيهم بأساليب البلاغة وعباراتها ، وكانت لغة العرب قد عجزت عن التأثير في العرب أنفسهم بعد أن ذاعت بينهم الخصومات والفتن ، وكان عليه أن يعمل مع قواته ومؤيديه ، وأن يستمر في العمل طول حياته ليحفظ نفسه ودولته من الأخطار حوله .

١ — وقد جاءت له الأخطار في ثورة يقودها أحد العاملين لحساب العباسيين<sup>(١)</sup>

في المغرب سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م وليس غريباً أن يكون عبد الرحمن الداخل مقعاً

---

(١) اسمه العلاء بن مغيث ، وكان حبه للعباسيين في درجة ينفضه لأية سلطة أموية

في صميمه بالحق على العباسيين وعلى العاملين معهم . لأنه كان يأسي لقوتهم مع أمرته ، وكان يدرك أيضا حجم الأخطار التي تمثلها دعوتهم بالأندلس ضده ، فقد تكسب هذه الدعوة في هذه البلاد أنصارا أقوياء يجدون في أنفسهم لها قبولا ، ويجدون من منطقهم لتأييدها حججا ، مثل القول بضرورة اجتماع المسلمين جميعا في وحدة شاملة ووحدة كلمتهم حول أمير المؤمنين في بغداد ، والقول بأن الفرقة ضد الدين ذاته ، وأن الأمويين خارجون على الدين وعلى النظام ، وقد ملأت الخلافة العباسية دنيا الناس في ذلك الوقت بالدعاية الملحة بأنها كانت تعمل لصالح كل الطوائف وكل الجماعات ، وبأنها كانت تستمد الحياة واستمرار البقاء في السلطة من الصبغة الشرعية التي كانت تستظل بها دائما ، وقد تطورت هذه الصبغة الشرعية إلى ما يشبه التأييد الإلهي لحق الخلافة العباسية وحق رجالها في السيادة على المسلمين جميعا .

ورغم بعد المسافة بين الأندلس والعراق ، ورغم قوة الأمويين وظهورهم بالمغرب البعيد فقد أثار أمر العباسيين عبد الرحمن الداخل وأزعجه ، ولكنه وجد من كفاءته وقدرته ما ساعده على أن يقف لينتصر على ممثل المنصور العباسي بالأندلس ، ثم قتله ، وأرسل رأسه في مكة أيام حجه سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م .

٢ - وتكررت على الأمير الجديد ثورات البربر المتوالية في السنوات : ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م ، ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م ، ١٥٥ هـ / ٧٧١ م ، ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م ، ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م ، وادعى زعيمهم صلة القرابة بالرسول الكريم عليه السلام ، وكانت هذه الدعوى إحدى الخدع السياسية المعروفة ، وإحدى الطرق المباشرة إلى قلوب الناس في كل مكان ؛ ولم تنجح دعوى القرابة من الرسول وآله ،



وراح الثائر البربري وجيشه ضحية لسوء تقديره، ولقوة عبد الرحمن الداخل  
سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٧ م .

٣ - ثم واجه الأموي المنتصر مؤامرة أخرى، اشترك فيها خصومه العرب  
في داخل البلاد<sup>(٣)</sup> مع خصومه الفرنج في خارجها، واختلف المتآمرون عليه  
حول خطة العمل المشتركة، وتسبب اختلافهم في نجاة عبد الرحمن وجيشه ودولته  
وكان معرضا في هذه المؤامرة لاختبار رهيب يتحدد بعده مصيره ومصير  
بلاده، ورجع شارلمان ملك الفرنج لى بلاده مهزوما سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م .

لقد ألحت الأخطار والفتن على عبد الرحمن بن معاوية طول حياته، وأجلائه  
إلى أن يعيش في غمار المتاعب التي تواجه دائما بناء الدول في كل زمان ومكان،  
وكان قد ابتدأ العمل في مواقع العمل ذاتها، ووعى كل الأمور حوله لينجح في  
غياب سلطة الدولة العباسية، ودفعته كفاءته الشخصية، وإحساسه العميق بمحنة أسرته  
لعمل بثبات وعزيمة، وأيده الراغبون في الاستقرار والتغيير، ونصره حزب  
الدولة الأموية المنهارة، وبهذا الحزب وحده استطاع الأمير الجديد أن يواجه  
أعداءه في جرأة، وأن يهاجمهم بقوة، وأن ينتصر عليهم في النهاية، ولم يكن  
أعداؤه يعملون تحت زعامة شاملة، أو في قوات موحدة، بل كانوا جماعات

---

(١) تحالف والى برشلونة، ووالى سرقةطة العرييان مع شارلمان الفرنجي  
ضد عبد الرحمن الداخل بالأندلس، واقترحا عليه غزو البلاد الأندلسية الشمالية  
وتمهدا بمعاوته وبتسليمه بعض الحصون والمدن، ثم اختلف المتآمرون معا ورجع  
جيش الفرنج إلى بلاده تاركا الأندلس للأندلسيين، وكاد هذا التحالف يعرض  
للمسلمين بالأندلس كلها لمعركة الحياة أو الموت .

متخصصة، أو كانوا جماعات متقاتلة، انتظرت دورها معه، ووجدتها مفتتة فشلت  
في اعتراض مسيرته، ثم تابعت أمامه على طريق الضياع والموت .

لقد نجح عبد الرحمن الداخل في تأسيس دولة مستقلة بالأندلس، وكانت هذه  
الدولة امتداداً لدولة الأمويين بالشام، وكانت نهاية لعصر الاضطراب والفوضى،  
ويظهر أن جماعة من الأمويين وأعوانهم كانت تشعرق بيل انهيار دولتهم أمام  
العباسيين بالخطر القادم عليهم من الشرق البعيد، وبعد أن ضاع جهدهم في  
مقاومة ضغط أعدائهم، وبعد أن فشلت كل محاولاتهم أمام الخطر الجديد أدركوا  
خسارة القضية التي كانوا يدافعون عنها، وفكروا في البعد عن بلاد الشام كلها  
وزادهم الخلاف بين الزعماء الأمويين أنفسهم في آخر أيام دولتهم رغبة في البحث  
عن مكان جديد، فأسرعوا للغرب البعيد، واتخذوه ملجأ للأمن والأمان،  
ولم يدرك العباسيون من جانبهم خطورة العمل في هذا المكان النائي، فتركوه  
لمصيره، وقنعوا بأن يكون بينهم وبين أعدائهم الأمويين بالأندلس بحراً،  
والتمس المنصور — أقوى خلفاء بني العباس — لنفسه عذراً في الفشل أمام  
عبد الرحمن الداخل، وكان يثنى على كفاءته، ويرى فيه ندا خطيراً له ولدولته.

وقد استمر المنصور العباسي السنوات الأولى من حكمه الطويل مشغولاً  
بالأعمال التأسيسية المطلوبة لسلامة دولته، وكان يواجه في أول حكمه  
ثورات خطيرة، كان بعضها من أسرته العباسية نفسها، وكان بعضها من أقباطه  
الكلبيين، وكان بعضها الآخر من القرم أو غيرهم، ومع نجاحه في القضاء  
على هذه الثورات جميعاً فقد استمر يائساً من حكم بلاد الأندلس  
وظل بعيداً عنها، وقد عاش همراً طويلاً، وتهيأت له خلال هذا العمر الطويل

الظروف المناسبة ، والوسائل الكافية لحرب الأمويين وراء البحر ، ولكنه لم يحاول هذه التجربة ، ولم يغامر بالعمـل هناك ، وربما كان يحس بفشل محاولاته قبل البدء فيها ، لأنه كان يعرف قوة عدوه ، وقد جرب العمل معه فلم ينجح ، فاكتمى بالوقوف بعيدا عنه ، ليراقب أعماله ، ويشنى عليه ، وكان يجد فيه ضرورة أخرى من نفسه .

وقبل محاولة عبد الرحمن الداخل الناجحة بالأندلس ظهرت محاولات أخرى للاستقلال بهذه البلاد ، ولكن الذين قاموا بها لم يكونوا في مثل كفاءته ، ولم تكن جهودهم في مستوى جهوده ، وتعرض كل من قاموا بمثل هذه المحاولة قبله للفشل ، لأنهم كانوا يمثلون أحزابا تواجه المعارضة والمعارضين في كل مكان ، ولم يكن أحدهم يفضل الآخر في وجهة نظره الحزبية ، ولم يكن لأحدهم امتياز على الآخر في شيء ، وظلوا يفتقدون العصبيات القوية التي تسندهم ، فجاء دورهم على طريق الفشل ، ونجح عبد الرحمن وحده ، لأنه كان يمثل الأمل الباقي في الاستقلال ، والبعد على السيطرة الخارجية ، ومن الغريب أنه لم تقم بالأندلس محاولة للعمل باسم العباسيين قبل ظهور عبد الرحمن الداخل ، وكانت قد مضت على إعلانات دولتهم ست سنوات كانت كافية للتخطيط والتنفيذ والنجاح ، وظلت البلاد محكومة خلال هذه السنوات الست بولاة يوالون أنفسهم ومصالحهم وقبائلهم وأحزابهم وعصبياتهم وحدها .

كانت هناك إذا فرصة للعمل لصالح العباسيين في الأندلس قبل مجيء عبد الرحمن الداخل ، ولكنهم لم يجدوا الداعية الذي يعلن وجودهم هناك ، والذي يستطيع أن يحمى هذا الإعلان بالقوة ، وجاءت محاولة المنلاء بن مغيث



سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م محاولة مهزوزة ليس لها مؤيدون أقوياء وربما كان  
العلاء إنساناً ضعيفاً ، غرر به العباسيون ، وحرصوه على العمل لصالحهم ، وقبوا  
عنده الأمل في الزعامة ، ولم يقدموا له بمد ذلك جيشاً ينفذ به إرادتهم ، بل تركوه  
يصارع قوة الدولة الأموية بجيش ضعيف لا يحقق غرضه ، وظهر كأنه كان  
لا يعرف الطريق إلى هدفه ، ولا يملك وسائل النصر لتحقيق هذا الهدف ،  
وجاءت ثورة العلاء على عبد الرحمن الداخل بالأندلس في وقت كان فيه هذا الأخير  
قد ملأً بوجوده الفراغ في السلطة هناك ، وكان عبد الرحمن يقظاً يعرف مدى  
خطر العباسيين عليه ، ومدى خطر دعايتهم ضده ، وقد ألحوا على الناس بالقول  
بمخروجه على وحدة المسلمين ، ولكن الإحساس بهذه الوحدة لم يكن قوياً في  
الأندلس ، لأيام ثورة العلاء بن مغيث ولا قبل هذه الثورة ، لأن المنطقة كلها  
لم تشعر - منذ أن انضح كيائها وانتسابها للمسلمين - بالانجذاب القوي  
لوحدة شاملة لكل المسلمين في كل مكان ، وربما كانت تحس بنوع من  
الوحدة العاطفية المعنوية أساسها الاشتراك في الدين والإيمان الواحد به ، وأما  
الوحدة السياسية فلم تكن لها هناك معالم قوية ، فكان النظام يضطرب  
في الأندلس وكانت العناصر تختلف فيه وتقوم بينها الحروب وتشتعل ، ومع  
ذلك تظل سلطة الدولة بعيدة لا تتدخل لتحمي الناس من المتاعب والفتن .

ولم يتردد اسم المنصور بالأندلس بعد هزيمة ممثله العلاء بن مغيث ، لأن فشل  
التجربة الأولى لم يشجع على الرغبة في تكرارها ، وقامت هناك ثورة<sup>(١)</sup> ثانية في

---

(١) قاد هذه الثورة من شرق الأندلس عبد الرحمن حبيب الصقلي .

شرق الأندلس سنة ١١١ — ١٦٣ هـ / ٧٧٧ — ٧٧٩ م باسم العباسيين  
بعد موت المنصور ، وفشلت هذه المحاولة بدورها كما فشلت التجربة الأولى ،  
وضاع أثرها ، لأن سلطة الأمويين كانت قد تآكدت في البلاد ، ووجدت  
لها هناك أنصارا أقوياء ، ولم تكن مقدمات العمل التي عرفت عن العباسيين  
تعطيهم امتيازاً على غيرهم من حكام المسلمين ، فلم يؤيدهم الناس بالأندلس ،  
ولم تجد دعوتهم استجابة من أحد ، وبدا العباسيون لأهل الأندلس مجرد جماعات  
قوية منتصرة ترغب في السيادة ولو بوسائل العنف والقسوة ، وتريد السيطرة  
على الناس بأساليب العصر وحدها ، ومن المعروف أن العباسيين لم يسبقوا  
عصرهم بمحاولة تطوير وسائل الحصول على السلطة مثل الرغبة في رضا الناس  
وتأييدهم عن طريق السلم والتفاهم ، أو الحرص على السلامة والأمان للمواطنين  
جميعاً ، وكانت قوة العباسيين تكفي لتحكمهم في المناطق القريبة من مجال  
تأثيرهم ، ولكنها لم تكن كافية للنجاح في الأندلس البعيدة بعد أن ضاعت  
عليهم الفرصة الأولى للعمل فيها ، وبعد أن وجدت بها الدولة القوية المالكة  
لكل أسباب البقاء والاستمرار .

ووظهر الانقسام السياسي في بلاد الأندلس قبل ظهوره في مكان آخر  
من دولة المسلمين ، لأن المنطقة كانت مزدهجة بالعناصر المعارضة لسياسة  
العباسيين ، وبعض هذه العناصر كان له تجارب سابقة مؤسفة في السياسة الإسلامية  
والصراع الداخلي بين المسلمين ، وبعضها كان يعرف العباسيين قبل قيام  
دولتهم ، ويشارك في القول برفض قبول دعوتهم ، ويعرض جهوده للقتال  
ضدهم .

ولقد استقلت دول أخرى بالشرق عن دولة العباسيين ، ولكن ظهور هذه الدول كان متأخرا عن محاولات الأمويين والأدارسة والرسّامين في المغرب والأندلس ، لأن مناطق الشرق كانت تتأثر بدعاية العباسيين بقوة ، وكانت أصداء الدعايات العباسية تتردد فيها ، وتجد المنصتين لها ، ولقد انتظرت الأقلية التي خرجت على العباسيين في الشرق حتى مرت بها تجربة الحكم العباسي ، وعرفت بالخضوع للعباسيين وطاعتهم شيئا عن أهداف حكمهم وأتجاهاتهم ، وجاء خلاف بعض هذه الأقاليم على العباسيين لعوامل قومية ، أو لاختلافات دينية ومذهبية ، أو لأنها كانت تريد نصيبا من مقام التغيير في السلطة ، ثم صدمتها قوة الدولة وقسوة حكمها وعدم تسامحهم ، فانصرفت عنهم لتحتّم بالروح القومية ، وكانت القوى الوطنية فيها تنسى هذه الروح وتعمل باسمها ثم ازداد الشعور القومي في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة ، ورفض المتحمسون لأهدافهم أن يستمر حكم دولة واحدة وجماعة واحدة مدة طويلة لأقوام مختلفون عنها في جنسياتهم وقوميتهم ووطنهم ولغتهم وتاريخهم .

ثم مات عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م بعد أن جاهد باستمرار مدة ثلاثة وثلاثين عاما — قضاها كلها أميرا على الأندلس — ليقم دولة عربية الأمويين فيها ، وليس غريبا أن تسكون بلاد الأندلس أول المناطق الإسلامية انفصالا عن دولة المسلمين الخاضعين لخلقاء بني العباس ، لأنها — كما قلنا — كانت بلادا منعزلة منذ البداية ، وكانت مكانا مناسباً لقوات المعارضة الراضية لسلطة العباسيين ، والماربة منهم ، ولقد شجعت العناصر غير المتعاطفة مع العباسيين على الانفصال عنهم ، وكانت تدرك خطورتهم عليها ، وأبدتها



فدغبتها جماعات كبيرة من البربر والعرب، كانت قد هاجرت إلى الأندلس في سنوات الفتح الأولى، وكأنها بعد هجرتها قد اكتشفت لنفسها هناك دنيا جديدة فأرادت أن يكون لها فيها وجود جديد، وحياة جديدة، وجاءتها فرص العمل المستقل، وفرص البعد عن الإحساس بالتبعية الضاغطة من جانب الدولة البعيدة فانطلقت لتملأ الفراغ حولها، وظلت تشكو من الوافدين عليها، وتظنهم غرباء عنها قد جاءوا لينالوا حظا من بلاد لم يشاركوا في فتحها، وكأنما كان يملأ هذه الجماعات الشعور الأناني بأن البلاد كلها كانت من حق فاتحيها وحدهم<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - مرحلة الاستقرار :

استعرضنا بالتفصيل كل الظروف التي أحاطت بدولة الأمويين بالأندلس عند قيامها، وبيننا أهم الأسباب التي ساعدت عبد الرحمن الداخل في عمله لإقامة هذه الدولة، وأشرنا للعوامل المعطلة التي صرفت العباسيين عن العمل في هذا المكان البعيد، وقلنا إن الأمير الأموي ظل ثلاثة وثلاثين عاما يعمل جاهدا لنجاح أهدافه، وإنه اضطر ليقاوم طول عهده كل مظاهر الضعف داخل الدولة وخارجها، وذكرنا أهم الصعوبات التي واجهته وعارضت نجاحه؛ ونضيف الآن أن هذه الدولة إذا كان قد ابتداء تأسيسها سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ثم استقر

---

(١) رأى السمع بن مالك وإلى الخليفة عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م أن يشرك أربعمائة من العرب الجدد مع عرب الأندلس الذين كانوا قد استقروا بها منذ سنوات الفتح الأولى، فهدد هؤلاء بترك الأندلس كلها والعودة إلى بلادهم.

شأنها ، وتوالى استمرارها حتى أخذت صورة الدولة المستقلة في عهد عبد الرحمن الداخل، فإن النجاح في تأسيسها وحمايتها لم يكن يعنى أن الأمويين الحاكمين بها كانوا قد تغلبوا على كل العناصر المعارضة لهم ، ولم يكن لهم أن يعيشوا بعد ذلك حياة الدعة والاطمئنان ، لأن المتاعب استمرت تعرض لهم حتى بعد استقرار دولتهم في عهد مؤسسها، وكان على الحاكمين بعد مؤسس هذه الدولة أن يتصدوا لجملة من الأخطار التي هددت دولتهم في الداخل والخارج معا .

ومع وجود الأخطار وعنفتها استقطعت دولة الأمويين بالأندلس أن تظل قوية حتى سنة ٨٢٣٨ / ٨٥٢ م ، وكانت خلال هذا القرن الذي مر عليها منذ إعلان قيامها قادرة على الانتصار في المعارك كلها ضد خصومها وعلى أن تتفوق على أعدائها جميعا ، وحاولت بسبب تفوقها ، وتخلصها من متاعبها أن تعمل لتطور الحضارة بها ، ولتزدهر الحياة فيها .

وحكمها خلال الفترة المشار إليها - ١٣٨ - ٧٥٥ / ٨٢٣٨

- ٨٥٢ م - :

(١) عبد الرحمن الداخل ١٣٨ - ١٧٢ / ٧٥٥ - ٧٨٨ م

(ب) وابنه هشام بن عبد الرحمن ١٧٢ - ١٨٠ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م

(ج) وحفيده الحكم بن هشام ١٨٠ - ٢٠٦ / ٧٩٦ - ٨٢١ م

(د) ثم عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ - ٨٢١ / ٨٢٣٨ - ٨٥٢ م

وإذا استعرضنا أهم الأحداث التي حفل بها تاريخ هذه الدولة خلال هذا القرن نجد — مع البعد عن تكرار القول حول تاريخها أيام فترات التأسيس الأولى — أن هذه الدولة قامت بالأندلس وفي تاريخ واحد تقريبا مع قيام الدولة العباسية بالعراق ، وكان العباسيون هناك يابسون مسوح الإخلاص للإسلام ، ويحيطون أنفسهم بالفقهاء ورجال الدين ، ويشيرون الدعايات القائلة بأنهم وخدم كانوا حماة الدين وأهله ، وأنهم أحرص الناس على الوفاء لهذا الدين ، وكانوا يهاجمون الأمويين الحاكمين قبلهم ، ويتهمونهم بالبعد عن روح الإسلام ، وبعدم التمسك به .

فراى الأمويون بالأندلس أن يدفعوا عن أنفسهم الاتهامات التي وجهت لأسلافهم ، وكانت هـذـه الاتهامات تؤثر في الناس وتثير عواطفهم فساروا في نفس الطريق مع منافسيهم وخصومهم العباسيين في الشرق ، وحاولوا إظهار التزامهم بالتمسك بعبادة الدين ، واحترام أوامره ، واهتموا بشئون الإسلام كلها ، وأظهروا الغيرة عليه ، وإذا كان عبد الرحمن الداخل قد عاش فترة مضطربة تأسست فيها الدولة الأموية واستقامت شئونها ، وإذا كانت المتاعب والاضطرابات قد شغلته عن العناية الكافية بأمور الدين فإنه ظل مع ذلك حريصا على الوفاء للدين ، فبدأ في بناء مسجد قرطبة سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ثم أكمله أبنائه بعده ، واهتم بشئون المسلمين في كل بلاد الأندلس فبنى لهم المساجد ورعى حرمتها ، وقد يكون بناء المساجد الجامعة إحدى الظواهر الواضحة عند قيام الدول الإسلامية ، وقد لا يدل مثل هذا العمل من جانب عبد الرحمن الداخل على اتجاهه الديني أو على حماسه للدين لأن هذا كان هملا تقليديا سبقه به كل بناء الدول المسلمين حتى أصبح عملا



لا يكشف عن حقيقة الشعور الديني في نفس صاحبه ، غير أن ابنه هشاما جاء بعده دليلا قويا على سيطرة الروح الدينية على الية الأموية ، وكان هشام بن عبد الرحمن أميرا ورعا يشير سلوكه إلى أنه كان يخشى الله ويرجو رحمته ، وقد فهم منه ذلك رجال الدين المسلمون ، فأحاطوا به وتسلطوا عليه ، وفرضوا عليه نوعا من الوصاية الدينية المتعككة ، وحاولوا مع ذلك أن يقيموا لأنفسهم باسم الدين سلطة قوية في البلاد كلها ، وأصبحت لهم دولة في داخل الدولة ، أو كانوا هم الدولة ذاتها ، وكانوا يعرفون شعور الأمير وإحساسه الديني فأخضعوه لنفوذهم ، وأخضعوا الناس معه لنوع من الإشراف على سلوكهم الاجتماعي ، فظهرت سلطة الفقهاء بالبلاد الأندلسية ، وكانوا يتبعون مذهبا واحدا هو مذهب الإمام مالك ، ووافقهم الدولة في رعاية هذا المذهب وجده لأسباب دينية وسياسية ذكرنا بعضها عند الحديث عن جوانب الإيمان في بلاد الأندلس.

وكان من أثر سيطرة الفقهاء على أمور الدين والدولة أن أسرف الناس في التعبير عن شعورهم الديني ، وتحكمت فيهم العواطف الدينية ، وانساق الجميع لاتباع مذهب ديني واحد كان الفقهاء يمثلونه ويتحمسون له ، ويعارضون غيره من المذاهب الإسلامية الأخرى .

ولانعني المعارضة المشار إليها نوعا من مطاردة المذاهب الإسلامية الأخرى لمحاولة القضاء عليها ، وإنما تعني أن الاهتمام بمذهب واحد في الدولة واعتبار الولاء له واتباعه شرطا ملاحظا عند التعيين في الوظائف الدينية بالدولة ، ثم القول بأنه كان مذهب الأمير ودولته - كل هذا وغيره كان يعني أن المذاهب الإسلامية الأخرى كانت لاتعيش في جو صحي ، ولانأمل في تحقيق نوع من تكافؤ

الفرص بينها وبين مذهب الإمام مالك الذي غلب على البلاد كلها ، وأمر ف مؤيدره في الخامس له .

لقد حاول الفقهاء المسلمون أن يكسبوا الجولة الأخيرة في الصراع بين الدين والدولة ، فدخلوا في شئون ليست من أمور الدين في شيء ، وكانوا يمتلكون عواطف الناس ، ويتحكمون فيهم ، وزادت محاولاتهم المتزمطة مع الزمن وكانوا يدعون للالتزام بنصوص الدين كما كانوا يفهمونها ، وطلبوا من الناس أن يدوروا وراءهم في دوائر ضيقة محاطة بالشعور الديني والعواطف الدينية وحدها ، فتطرفت العواطف الدينية في البلاد كلها وأمر ف الناس في إظهارها ، ووجدت الدولة نفسها محاصرة بجماعات كبيرة لا تؤمن بالولاء لها بقدر ما تؤمن بالولاء لرجال دينها ، وكانت هذه الجماعات من أسباب للتأعب والأخطار التي واجهت الدولة خلال هذا القرن .

ويبدو أن محاولة الفقهاء المسلمين أن يظهروا بقوة في المجتمع الأندلسي كانت نوعا من الرد على سلوك غيرهم من المسيحيين الذين عاشوا في دولة المسلمين بروح مسيحية متعصبة وكان تسامح المسلمين زمن الفتح وبعده يعطى لغيرهم الفرص المناسبة للتجمع حول رجال دينهم ، وللمحاولة الظهور في المجتمع كقوة مؤثرة في حياته ، بمعنى أن عمل فقهاء المسلمين هناك كان محاولة من المحاولات القوية لإظهار الوجود الإسلامي في مجتمع تميل فيه العواطف نحو الأديان .

قلنا إن الدولة الأموية بالأندلس مالت منذ تأسيسها نحو رعاية الدين وأهله وإن الأمير هشام بن عبد الرحمن كان إنسانا تقيا ، يلزم نفسه بمبادئ الدين ، ويخلص لهذه المبادئ ، فتسلط عليه الفقهاء ، حتى حسبوا أن ذلك كان مبدءاً

مقبولا أو وضعا طبيعيا في الدولة الجديدة ، وفي المجتمع الجديد ، ثم سار الفقهاء في طريق السلطة حتى هازموا ، وجاء الحكم بن هشام بعد أبيه ، فوجد أنه لن يستطيع العمل كأمير صاحب دولة في جو تتسلط عليه فيه جماعات كبيرة تتكلم باسم الدين وتعلن الوصاية عليه وعلى المسلمين معه باسم هذا الدين وتمتلك عواطف الناس لتتلاعب بها ضده ، فكان ضروريا أن تتعارض قوة الأمير وإرادته مع قوة الفقهاء وإرادتهم .

وسواء قلنا إن ظهور الأمويين منذ قيام دولتهم بمظهر الولاء للدين كان لإظهار درجة الإخلاص للدين أكثر من حقيقة الإخلاص في ذاته ، أو كانت فيه جوانب التمثيل على الناس أكثر من وجود حقيقة الإيمان الثابت في قلوبهم ، أو قلنا إن ذلك كان شعورا حقيقيا له واقع صادق في عقول الحكام وقلوبهم بعد نجاحهم من مذابح الشرق الهائلة على يد أعدائهم العباسيين ، وبعد ظهور مجدهم مرة أخرى في بلاد المسلمين في الأندلس — فإنهم في الحالين وجدوا من الضروري أن يتخلصوا من وصاية الفقهاء عليهم ، ليفرغوا للعمل في دولة أقيمت باسمهم وحدهم .

وكان الحكم بن هشام يملك الإرادة والقوة للعمل ضد خصومه ، ولو كانوا من فقهاء المسلمين ، وكان يستطيع أن يحطم عناد أعدائه ونفوذهم بقسوة لم يعرفوها قبل أيامه ، وبعد أن قاد الفقهاء ضده جعافل<sup>(١)</sup> العامة ، المنادين بالتمسك بمعالم الدين ، وبعد أن ثاروا عليه ، واتهموه بالجرأة على الدين أو بالخروج عن مبادئه استعمل ضدهم قوة الدولة ، واضطروهم سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م للهجرة من الأندلس

---

(١) نأثروا ضده قبل ذلك سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، ولم تنجح محاولاتهم للتخلص منه



كلها ، فذهبوا لشمالى إفريقيا كوافدين ممتازين<sup>(١)</sup> كانوا يسجلون بمظاهر الحضارة الأندلسية المتطورة ، ورحب بهم أمير الأدارسة بالمغرب الأقصى إدريس بن إدريس ، وكانوا قوة جديدة أضيفت إلى قوته الناشئة ، وجماعة متدينة نظرت إليه كأحد حماة الدين فى بلاد المسلمين ، وكان إدريس بن إدريس من جانبه يرغب فى قدوم الجماعات العربية عليه ، ليعيش بهم ومعهم فى وسط شعبه البربرى .

وذهبت جماعات أخرى غير هؤلاء إلى شواطئ مصر<sup>(٢)</sup> الشمالية، وأقامت لنفسها نظاما مستقلا بمدينة الإسكندرية ، ثم أجليتها عن الاسكندرية فسوات الخليفة المأمون العباسى ، فذهبت إلى جزيرة كريت<sup>(٣)</sup> ، واتخذت منها ملجأ أخيرا ٢١٢ — ٣٥٠ هـ / ٨٢٧ — ٩٦١ م ، وشملهم بعد ذلك مظاهر الغموض والنسيان .

لقد ظهرت الخصومة إذا واضحة بين رجال الدين ، وبين رجال الدولة فى الأندلس ، ومع ذلك حرصت الدولة الأموية على أن تظل وفية للدين فى بلادها ، وأن تخاصم من يستغل هذا الدين لتحقيق أغراضه ، ومن يريد السيطرة به على الناس وعلى نظام الدولة ، وشغل رجال الدين أنفسهم بعد ذلك بأمور الدين وحدها ، وانصرف رجال الدولة الأموية لرعاية شئون الدين والدنيا معا .

وتخلصت الدولة الأموية فى عهدها الذى نوضح بعض خصائصه من

---

(١) كانوا ثمانية آلاف أسيرة أندلسية .

(٢) كانوا خمسة عشر ألفا من الأسرى الأندلسية ، بأولادها ونسائها ، وبعض متاعها .

(٣) استردها منهم البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

نفوذ رجال الدين لتسير في طريق يسى<sup>١</sup> لشعور المتدينين بها ، فالتفتت إلى مظاهر التطور في حياة الناس البعيدة عن العواطف الدينية والسلوك الديني ، وسارت بعيدا لتعطى حياة الناس غير الملتزمين برقابة الضمير الديني المؤثر في حياة المتدينين - لتعطى هذه الحياة نوعا جديدا من المتع الجديدة ، فطلبت المغنين واللاهين من بغداد ومن غير بغداد ، وكانت بغداد آنذاك مثالا طيبا لمدينة النعيم والمتع والرفاهية ، وملأت الدولة على الناس بالأندلس حياتهم باللهم - و المبحون بعد أن هزت الشعور الديني في نفوسهم بضرب المنادين بسلطة الدين ، وتراجع رجال الدين المسلمون بعيدا عن التدخل في شئون السلطات الحاكمة ، وخافوا من قسوة العقاب الذي عرفه من رفعوا صوت الدين عاليا بالأندلس .

ورغم أن البلاد كلها كانت تسير في مراحل التطور الواضحة إلا أن قضيتها لم تكن تدور حول الأهمية الحضارية لمجتمع بشرى يعيش بالأندلس ، أو لم تكن التساؤلات قائمة حول تقدم البلاد في ذاتها ، بقدر ما كانت قائمة حول من له حق الحياة فيها ، أو من له حق السيطرة على شئونها ، فكان المسلمون جاهادين ومخلصين في العمل بعزيمة في سبيل التطور الحضارى المطلوب لبلادهم ، وكان يمكن تعجيل النجاح في هذا العمل وتعميقه بمساهمة غيرهم معهم ، إلا أن المسيحيين من جانبهم كانوا أو كان بعضهم يسير في طريق مخالف - كانوا يعملون بالوسائل المعطلة للمشاركة المثمرة في الأعمال الناجحة فلجثوا إلى خطة مجنونة من التعصب الأعمى للدين ، وظهرت بالبلاد ثورة منظمة ، ومنسندفة بتخطيط يهدف إلى لإفساد ومجالات العمل النافع أمام الحكام المسلمين .

وسواء أكان المسيحيون المواطنون في بلاد الأندلس في حالة من الكراهية

الصيقة لتطور الحكومة الإسلامية ونجاحها ، قاموا بأعمالهم التي بدت في شكل اندفاعات شخصية فردية نحو لعن دين المسلمين والظعن فيه ، وسب الرسول الكريم أمام المؤمنين برسائله بقصد تحطيم معالم الانسجام الظاهرة بين المسلمين والمسيحيين ، أو أن هذه الجماعة المسيحية الغاضبة كانت تستغلها عناصر مسيحية خارجية وتتخذها وسيلة مؤثرة لنصرة الوجود المسيحي في الشمال ، وسواء أكان هذا الفرض أو ذلك فإن الظاهرة كانت واضحة وقوية ، وكان الهدف واحداً بين سكان الأندلس وغير سكان الأندلس من الأسبان المسيحيين .

امتنع رجال الدين المسلمون إذاً عن محاولة العمل في مراكز القيادة السياسية بالدولة الأموية بالأندلس ، لتأتى بعدهم جماعات تمثل الدين المسيحي بثورة دينية غاضبة نسب الإسلام والمسلمين جميعاً ، وقامت هذه الجماعات المسيحية بانتفاضة غربية في المجتمع الأندلسي لأول مرة في تاريخ البلاد منذ فتحها ، والعجيب أن الجماعات المسيحية المتعصبة التي أخذت تطعن في المسلمين وفي دين المسلمين علناً أمام الناس وأمام الحكام لم تتهم المسلمين بالتضييق عليها في شئون الدين أو السياسة أو غير ذلك ، ولم ترفع لهم مظالمها الاقتصادية أو الاجتماعية ، أو ما كان يشير خواطرها من أمور أخرى ، وإنما تسابق الأفراد من بين هذه الجماعات ليطلبوا الموت من أجل المسيح والمسيحية ، وعوقب بعضهم بالموت الذي طلبوه<sup>(١)</sup> ، وحسبهم زملاؤهم في الدين شهداء أبراراً فسجلوا أسماءهم في قوائم القديسين ، وكانت حركتهم ثورة مجنونة تسرف في الغضب على المسلمين وعلى

---

(١) يختلف عددهم في مصادر التاريخ بين الأربعين والأحد عشر شخصاً ، وقتلوا في صيف سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م .



دين المسلمين ، وتستغل تسامحهم مع جميع الأديان ، وانغماسهم في شئون الدنيا بعيداً عن الإسلام والمسيحية معاً .

وكانت هذه الحركة أيضاً محاولة مدفوعة بدعايات صريحة وخفية تطالب بضرورة التمسك بالدين المسيحي ، وإظهاره كقوة فعالة في مجتمع المسلمين بالأندلس<sup>(١)</sup> ، وكأنما أراد المتعصبون بأعمالهم هذه أن يكون لهم دور واضح في قيادة المجتمع الأندلسي بعد خلو الميدان من رجال الدين المسلمين ، أو بعد الخصومة بين رجال الدين ورجال الدولة المسلمين .

ولقد دفعت الأحقاد الدينية التي كانت تغم بها قلوب القساوسة المسيحيين المتعصبين بسبب انتشار الإسلام بالبلاد ، وبسبب الدرجة الممتازة التي بلغتها الدولة الأندلسية على يد العرب والمسلمين في ذلك الوقت - دفعت هذه الأحقاد إلى قيام مثل هذه الثورة الغاضبة ، وسيطرت الروح الدينية المتزمته على المنطقة كلها ، ولا شك أن الإسلام كان قد ظهر وانتشر ، وقويت سلطته بالأندلس أيام هذه الثورة الخطيرة ، وكأن المستشعدين المسيحيين أرادوا إثبات وجود

---

(١) يسجل للتاريخ حشرات الراهب آلروا القرطبي بسبب افتتان المسيحيين بلغة العرب وآدابهم وحضارتهم ، وإذا كانت هذه حقائق تاريخية ثابتة فإنها لم تكن مجرد حشرات شخص حزين آسف لأحوال قومه ، وإنما تعني أنه كان يلوم المسيحيين مثله على فتور الروح القومية والدينية عندهم ، فكان يلفت نظرهم بأقواله إلى ماضي المسيحية بأسبانيا ، وإلى وجوب العمل للمستقبل المسيحي هناك ، وكان هذا الراهب واحداً من زعماء الثورة المسيحية على الحكم العرب في ذلك التاريخ ، ولم تكن كلماته الغاضبة إلا إحدى وسائله لشحن نفوس المسيحيين بالثورة على حكامهم المسلمين .

المسيحية بالبلاد كمقيدة قوية لها أنصار يمكن أن يموتوا في سبيلها ، وأرادوا أيضاً الإشارة إلى أن الإسلام يمكن مهاجمته رغم قوته وثباته ، وأن بالبلاد قوة تعارضه ولا ترضى به ، وفي ذلك كسب لعواطف المسيحيين بالمناطق المسيحية المجاورة ، وفيه أيضاً تعطيل لحركة المندفعين للإسلام بحماس ، وكأن الحركة كلها قصد بها أن تهز ضمير المسيحيين الراغبين في الدخول في الإسلام

ثم انتهت ثورة المسيحيين الفاضلين سريعاً ، وسار الناس جميعاً مسلمين ومسيحيين في الحياة الجديدة المليئة بالرفاهية والمتع ونعيم الدنيا .

يبدو إذاً أن ميل الأمويين للدين عند قيام دولتهم ، واندفاعهم بحماس لتأييده سبب لم نوعاً من مزاحمة رجال الدين لهم في السلطة ، فلم يستطيعوا الحياة كأمرأء لهم وخدم حق السيادة بالدولة إلا بعد التخلص من ضغط الفقهاء ونفوذهم ، وكما كانت رغبة الفقهاء قوية في طلب السلطة ، وكما كان ضغطهم عنيفاً على أصحاب الدولة — كذلك كان رد الدولة عليهم عنيفاً وقاسياً .

وبعد أن انتهى الحساب في هذه الخصومة العارضة بين المسلمين لصالح الحكم وخدمهم ، أصبحت العلاقات واضحة بين رجال الدين ورجال الدولة ، وسار كل في طريقه بعيداً عن اللقاء في ميدان الحرب من جديد .

وإذا كانت دولة الأمويين في هذه الفترة قد عاقبت المسلمين بعنف وقسوة ، فإنها لم تسلك نفس الطريق مع غير المسلمين هناك ، وسمحت للمسيحيين بالاضطراب في مجال واسع بداخل الدولة التي كان يحكمها المسلمون وخدمهم ، ولم تعاقب المتمردين عقاباً صارماً بعيداً لهم الصواب والحكمة ، مع قدرتها على العقاب ، وامتلاكها وسائله ، وتركهم بعد حالات من العقاب الفردي الذي

كانت تتردد فيه ولا تتحمس له ، وكأنما أرادت أن تعطيهم درساً في التسامح مع القدرة على الانتقام ، أو كأنما رأت في حركتهم نوعاً من الثورات الفردية التي يمكن أن تنتهي بعد دفعات الجاس الأولى ، والتي لا تستحق أن تجند لها الدولة قوتها ، وصحيح أن المسلمين في أسبانيا كانوا ضاحكين مع المسيحيين ومع غير المسيحيين فيها ، ومنذ ظهورهم بها حتى أيام رحيلهم عنها ، وكانوا في هذه الفترة التي نتحدث عنها أقوياء لا يخافون المسيحيين ، ولا يخشون القوة الخارجية التي تؤيدهم ، وإنما كانوا يحترمون دين المسيح ، ويرون لأصحابه الحق في الحياة في ظل الحرية الدينية التي كفلها الاسلام ذاته لغير المسلمين ، ولا شك أنها كانت معروفة عن العاملين باسم هذا الدين في كل مكان .

وانحلت مشكلة الدين في الأندلس على أساس عدم تأثيره القوى في حياة المجتمعات الأندلسية ، وأصبحت مسائل الدين أموراً تخص الدولة والمسلمين فيها ، وضمنت الدولة الاسلامية لنفسها حق العمل في حرية بعيداً عن الرقابة الدينية المترتبة ، ولكنها لم تعش مع ذلك بعيداً عن نفوذ الجماعات الدينية الواعية ، ولم تنصرف أبداً عن العناية بالدين ، واحترام أهله ، وظلت تهتم بشئون الدين وتحترم مبادئه ، وكانت تقيم المساجد في كل مكان ، وترعى شئونها دائماً ، وتسمح أيضاً للمسيحيين بالحرية الدينية ، وبإقامة الكنائس ، وممارسة شعائر الدين المسيحي ، ولكنها في نفس الوقت كانت راغبة في التخلص من الوصاية الدينية عليها من أي جماعة دينية ، وأرادت أن تكون سيادة الأمور كلها دينية كانت أو غير دينية ، ونجحت في ذلك فأبعدت المجتمعات الأندلسية عن الحساسيات الدينية المضرة ، ورفضت أن يكون لبعض الناس الحق في كسب السلطة باسم الدين .



ولم يكن أحد الأمراء الذين حكموا الدولة الأموية خلال هذه الفترة متحرراً من الدين أو جريئاً عليه ، وإنما ظهرت القوة منهم في الحرص على السلطة بعيداً عن سيطرة النفوذ الخارجى ، وأرادوا أن يظهر وجه للدولة واضحاً وقوياً دائماً ، وكان هذا سلوكاً متطوراً ، وسياسة مطلوبة في المجتمع الأندلسى الذى كانت تعيش فيه جماعات غير مسلمة تحس بقاريلها في المنطقة ، وتتأثر دائماً بما حولها من دعايات قوية تطالبها بالعمل لصالح المسيحية والمسيحيين .

كان على الدولة الأموية أن تقنع العناصر المختلفة عليها بوجودها ، وقد نجح في ذلك عبد الرحمن الداخل وأبناؤه بعده في القرن الأول الذى يدور الحديث حوله ، واستطاع الحكام الأمويون خلال هذه الفترة المهمة من تاريخهم أن يحافظوا على دولتهم ، فعاربوا معارضيهم وانتصروا عليهم ، ووجدوا من أنصارهم القوة السكافية للحياة في أمن من الأخطار ، ولكن نجاحهم لم يكن يعنى إلا أنه ضمن لهم قيام الدولة واستمرارها ، وإن ظلت هذه الدولة نفسها تعيش وسط المعارضين لها ، والقادرين على التأثير فيها ، وكانت معارضات أعداء الدولة تتجدد وتزداد كلما رأوا فيها وفي أنصارها ضعفاً ، وهذا يعنى أن الدولة الأموية كانت دائماً في حاجة لأن تجدد نشاطها وشبابها ، ولأن تكون قوية لتحافظ على وجودها ، ولأن تكون واعية لخطر أعدائها من حولها .

وقد جاءت لها الأخطار من بعض عناصرها القوية التى ساعدت على قيامها وساهمت في انتصارها على أعدائها ، جاءت من العناصر العربية التى مثلت قوة المعارضة القوية للأمويين ، وكان يمكنها التهديد بسحب ولائها لهم وموالاة أعدائهم

العباسيين ، وكانت عند هذه العناصر العربية القوية الجرأة الكافية على المعارضة المؤثرة في مراكز حكام الدولة ، لأنها كانت تعرف حرج موقف الأمويين بالأندلس وسط المسلمين بعد انشقاقهم عنهم ، ولهذا كله تعرضت العصبية العربية القوية في مراحل تاريخ الأمويين الطويل بالأندلس إلى اضطهادهم وظلمهم ، وكان الأمويين في دولتهم الجديدة كانوا يخالفون سياسة دولتهم المنهارة في الشام ، وكان خلفاء بني أمية — كما يقال عنهم دائماً — يحتفظون في قلوبهم بوجد العرب وحدهم ، أو كانوا يوالون الجنس العربي دون غيره من الأجناس التي يرجع إليها المواطنون في دولتهم ، وربما كان من أسباب قوة الدولة الأموية في فترات طويلة من تاريخها اعتمادها على العصبية العربية القوية ، وميلها إلى العناصر العربية التي استطاعت بها أن تحكم عالمها الواسع ، بل وأن تزيد من مساحة هذا العالم كذلك ، ومن جهة أخرى كان الاعتماد على العصبية العربية وحدها من أسباب ضياع دولة الأمويين وسقوطها بعد أن عجزت إدارتها المختلفة عن تصريف الأمور فيها ، وقد استفل العباسيون هذا الاتجاه ضد خصومهم الأمويين ، فأناروا عليهم الدنيا من حولهم ، بدعوى أنهم كانوا يميلون للعرب وحدهم دون جميع الشعوب .

وسواء أكانت هذه حقيقة تاريخية ثابتة ، أم كانت مجرد دعوى غير مؤكدة - والمناقشات طويلة حولها - فإنها كانت من الاتهامات المعلنة بقوة ضد الأمويين طول تاريخهم ، ولم يحاول الأمويون من جانبهم أن يبعدوها عن أنفسهم ، ولم تتغير سياستهم مع مواطنيهم منذ قيام دولتهم حتى نهايتها ، وكانت عندهم بعض الظواهر الدالة على ميلهم للجنس العربي والعصبية العربية ، وربما

لم يكونوا متطرفين في هذا الميل إلى الدرجة التي اتهمهم بها أعداؤهم ، ولكن كثيرا من ولائهم كانوا يسرفون في عصبيتهم وفي ميولهم لأصولهم العربية ، وقد جاء الأمويون لحكم المسلمين بعد ظهور قوة العرب ومجدهم ، وبعد نجاحهم في فتوحاتهم العظيمة زمن الخلفاء الراشدين ، فساهموا بدورهم في أمجاد العرب ، وأوصلوها إلى غايتها بفتوحاتهم في أقصى الشرق وأقصى الغرب على السواء ، وكانوا يشاركون شعبهم الغربي في الإحساس بعظمة العرب وسؤددهم .

لقد ظهر الأمويون بالأندلس كأنهم كانوا على هوى مخالف لسياسة أسلافهم حكام دولة الأمويين بالشام ، وقد وجد الأمويون - طول تاريخهم بالشرق - قوتهم وعصبيتهم في العرب وفي موالى العرب معهم ، فحكموا بهم دولتهم ، واستطاعوا بهم أن يوسعوا من حدود هذه الدولة ، وأما الأمويون حكام الأندلس فقد وجدوا العرب يثقون في صفوف المعارضين لهم ، أو المناوئين لسلطتهم ، فمالوا عنهم ، وبحشوا لدولتهم عن عناصر جديدة تحفظها وتدعم وجودها ، وكان البربر هناك يؤلفون قوات كبيرة تعرض جهودها وخدماتها على الأمراء في مقابل الرعاية والمكافآت المالية منهم ، بالإضافة إلى قوات الموالى والصقالبة والمولدين والمرزقة المسيحيين معهم ، وكان في هؤلاء جميعا ما يكفي أغراض الأمويين في إقامة الدولة وحمايتها ، وفي التخلص من كل أنواع السيطرة أو الوصاية التي حاولت قوات العرب المتنافسة أن تفرضها عليهم .

لقد كان العرب خلال القرن الأول من حكم الأمويين بالأندلس أقوى العناصر التي يمكن أن تخدم قضية الدولة الأموية إذا تلاقت هذه العناصر القوية مع حكامها الأمويين عند وجهات نظر مشتركة ، وكان يمكن للعرب أيضا



أن يسببوا للأمويين المتاعب والأخطار بالثورة عليهم أو تهديدهم بموالاة أعدائهم العباسيين ، ولكنهم كانوا مختلفين لا يجتمعون معا على شيء ، فحيات اختلافاتهم الأسباب للأمراء الأمويين لكي يضربوا زعماءهم ويشتتوهم ، وبقي مع الدولة منهم بعد ذلك من قبلوا الخضوع لها ، ومن أرادوا الحياة مع الناس في الدنيا الجديدة ، وكان يمكن للأمراء أن يرضوا حاجات الباقين من العرب معهم بالمجاملات الودية أو بالسخاء بالمال بشرط أن يظلوا عنصرا غير متميز بين قوات الدولة .

لقد كانت دولة الأمويين بالأندلس منذ تأسيسها تخشى منافسة العناصر العربية لها ، وتحاول أن تجدد لهذه العناصر منافسا قويا في جيشها ، ورغم جهود العرب في إقامة هذه الدولة فإن الأمويين لم يفهموا أن هذه الجهود كانت تقدم باسم الولاء للدولة أو لصاحبها وحده ، وإنما كانت تقدم باسم المنافسة بين العناصر العربية القوية هناك ، ولم يرد أصحاب الدولة أن يحكموا البلاد باسم جماعة من مواطنيهم ، أو أن يمثلوا وجهة نظر واحدة لجماعة من الناس ، بل أرادوا أن يحكموا الجميع باسم دولتهم وحدها ، فلم يميلوا إلى أحد العناصر العربية المتنافسة ، وكانت منها العناصر اليمينية التي ساهمت بجهدها في قيام الدولة وحراستها ، وترك الأمويون العصبية المختلفة لظروفها . وحدها ، وراقبوا تصرفاتها وقد وجدوا بالمكان نفسه — وطلبوا من خارجه أيضا — قوات أخرى قوية أعانت على حراسة دولتهم واستمرارها وكانت تساهم في ذلك مع قوات العرب التي تساوت عندهم مع غيرها .

وأما قوات المسيحيين العسكرية الهاربة إلى الشمال في انتظار ظروف العمل

للوانية ، فإنها لم تستطع تهديد دولة الأمويين قبل القرن الخامس الهجرى ،  
والحادى عشر الميلادى ، لأن المسلمين كانوا أقوياء خلال هذه الفترة ١٣٨-٢٣٨  
٧٥٥ / ٨ - ٨٤٢ م ، ولم يقيم المسيحيون الهاربون بمحاولات عسكرية تزعج  
سلطات الدولة ، لأن قوتهم كانت فى مراحل تكوينها الأولى ، وقد طالت مراحل  
التكوين هذه ، واستمرت أربعة قرون بعد الفتح ، وليس معنى ذلك عدم  
وجود ما كان يسمى بحركة الاسترداد المسيحية خلال هذه الفترة من حياة الدولة ،  
وإنما يعنى ضعف هذه الحركة ، أو عدم ظهورها أمام العرب أيام وحدتهم  
وتماسكهم ، واستمرت العناصر المسيحية القاطنة فى دولة المسلمين فى حالة من الجمود  
أو عدم الحركة المؤثرة فى كيان الدولة العربية ، وكانت تشارك المسلمين فى بناء  
الحضارة الأندلسية الرائعة ، وتندفع بقوة إلى التعريب ، حتى افترقت باغة العرب ،  
وآداب العرب ، ويثبت التاريخ لأحد القساوسة قوله :

« إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ،  
ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا يردوا عليها  
وينقضوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا ، وأين  
تجد الآن واحدا — من غير رجال الدين — يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت  
على الأناجيل المقدسة ؟ ومن — سوى رجال الدين — يعكف على دراسة  
كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للعسرة ! إن الموهوبين من  
شباب النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ، ويقبلون  
عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ، ويصرحون فى كل  
مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب ، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية

أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ، ياللاً لم !  
لقد أنسى النصارى حتى لغتهم ، فلانكاد تجد بين الآلاف منهم واحدا يستطيع  
أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب  
فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من  
الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا<sup>(١)</sup> .

وصحيح أن المسيحيين قاموا في آخر القرن الأول لحكم الأمويين بالأندلس  
بحركة دينية تعرضوا بسببها لعقاب الدولة وغضبها ، ولكنها لم تكن حركة  
جماعية كبيرة فلم تؤثر في مسيرة التطور الحضارى بالمنطقة ، ولم تكن آثارها  
خطيرة على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين هناك ، وظلت الجماعات المسيحية  
تعاون المسلمين في حدود مصالحها وحدها ، وساعد على هذا التعاون ما كانت  
تشعر به من تسامح المسلمين معها .

وناب الفرنج المسيحيون عن مسيحي أسبانيا في الاشتباك مع المسلمين في  
حروب عسكرية في السنوات ١٧٦ م / ٧٩٢ م ، ١٧٩ م / ٧٩٥ م ، ١٨١ - ١٨٥ م /  
٧٩٧ - ٨٠١ م ، بعد أن اتصلت مصالحهم بمصالح العباسيين في الشرق ، أو  
بعد الاتفاق على ما يشبه التخطيط السرى بين شارلمان وهارون الرشيد<sup>(٢)</sup>  
وكان الحاكم في حاجة إلى اللقاء مع الخدمة مصالحهما المشتركة ، وربما كانا  
على مزاج متشابه ، وكل منهما كان يريد من جانبه أن يثير حول نفسه دعايات  
واسعة بعضها صحيح ، وبعضها مكذوب ، وتقول الدعايات عنهما إلهما كانا

(١) تاريخ الف-كر الأندلس ص : ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٢) حكم هارون الرشيد دولة العباسيين في الفترة : ١٧٠ - ١٩٣ م / ٧٨٦ - ٨٠٨ م .



من حماة الدين ، ومن دعاة القوة في بلديهما ، وإنهما كانا من القوة السياسية والعسكرية في صورة لا تتكرر كثيرا في تاريخ الشعوب .

ومهما يكن من أمر فإن العباسيين كانوا دائما يرون في قيام إمارة الأمويين بالأندلس ، وفي ازدهارها أمرا يتنافى مع سيادتهم الشاملة لعالم المسلمين كله وهذا ، كان يثير في نفوسهم عوامل البغض والكراهية للأمويين ودولتهم ولما كانت دولتهم تسع بين مواطنيها ملايين المسيحيين الشرقيين فقد اعتبروهم وسيلة مناسبة للتفاهم مع حماة دين المسيح في الغرب ، وكان الفرنج من جانبهم يأملون في تأمين حدود بلادهم من خطر المسلمين الخاضعين للأمويين بالأندلس ، فالتقت رغبة العباسيين مع رغبة الفرنج عند المصالح الخاصة بكل منهم ، فكان العباسيون يؤيدون الفرنج على حساب دولة الأمويين في الغرب ، وكان الفرنج يؤيدون العباسيين على حساب دولة البيزنطيين في الشرق <sup>(١)</sup> .

واضطرب الأمويون لحكام الأندلس أن يدافعوا عن وجودهم ، ووجود دولتهم ضد خطر الفرنج الذي بدا في محاولاتهم الأخيرة وكأنه كان نوعا من التحالف المسيحي ضد المسلمين هناك ، وربما كان من المظاهر المألوفة في تاريخ الأندلس الطويل أن هذه البلاد المنعزلة ظلت وحدها تحمل مسئولية الدفاع عن عالم المسلمين في الغرب ، ولا شك أن العواطف الطيبة للمسلمين في كل مكان كانت تحيط بالأندلسيين وتمنحهم ، إلا أن العواطف الإنسانية وحدها لم

---

(١) لم يكن لهذا التأييد من الجانبين على كل حال أى نتائج تاريخية ذات قيمة ، وقد يشير ذلك إلى أن القول بتعاون العباسيين والفرنج معا إنما هو مجرد دعوى مهزوزة غير ثابتة ، وليس حقيقة تاريخية مؤكدة .

تكن تفيد شيئاً أمام قوات العدو المتطورة بالعمل والزمن ، وأمام شعور العداء الواضح عند حكام المسلمين أنفسهم .

وجاءت للدولة الأموية في عهدها المشار إليه متاعب جديدة مفاجئة من غارات النورمان عليها سنة ٢٢٩ - ٢٣٠ هـ / ٨١٣ م ، ولأول مرة في تاريخ الأندلس يواجه المسلمون محاولات قاسية للقرصنة البحرية تقوم بها جماعات نورمانية ، كانت تغير بسفنها الآنية من وراء البحر على السواحل الأندلسية في المناطق القريبة من الأشهر وكانت تدخل في الأنهار نفسها وتسبب للمسلمين خسائر جسيمة في وقت كان فيه المسلمون لا يتوقعون مثل هذه الحروب البحرية المفاجئة .

وتعرض مواطنو الدولة الأموية بالأندلس للخطر أمام النورمانين ، ولا سيما من كانوا يعيشون منهم على سواحل البلاد الطويلة ، ولقد أزعجت أعمال النورمانين حكام المسلمين في هذه الفترة التي نحاول أن نتعرف على أهم أحداثها ، واضطروا أمام الخطر الجديد إلى بناء البحرية الأندلسية ، وبعد معاناة وتضحية تحكم المسلمون من صد غارات النورمان عليهم ، وكان أسطولهم يستطيع أن يحمي حدودهم ، وأن يفرض التضحيات الجسيمة على أعدائهم ، وظهر أثر هذا الأسطول عندما تكررت غارات النورمان على بلادهم سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م بعد انتهاء القرن الأول من حكم الأمويين لهذه البلاد .

وفي خلال هذا القرن الحافل بالأحداث أخذت دولة الأمويين تتحول إلى أساليب الحضارة ، وتطورت شئونها ، وأخذت طريقها نحو المعرفة والثقافة ، وانتقلت إليها أعداد كبيرة من المثقفين المسلمين المشاركة ، وإذا كان الوافدون

إلى بلاد الأندلس قد عرفوا طريقهم إليها منذ افتتاحها فإن كثيراً منهم جاءوها بعد قيام الدولة الأموية بسبب ترحيبها بالعلماء المتفوقين ذوى الخبرة والكفاية .

#### ٦ - في مواجهة الأخطار :

وبعد قرن من الزمان عاشت فيه الدولة الأموية مراحل نشأتها واستمرارها واستقرارها وتطورها ووضوح شخصيتها في عالم المسلمين وغير عالم المسلمين حولها جاءت فترة تالية - ٢٣٨ - ٨٣٠٠ / ٨٥٢ - ٩١٢ م وحكم فيها من أمراء الأمويين :

(١) محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨ - ٨٢٧٣ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م

(ب) المنذر بن محمد ٢٧٣ - ٨٢٧٥ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م

(ج) عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٨٣٠٠ / ٨٠٨ - ٩١٢ م

واضطربت في هذه الفترة الخطيرة معالم الكيان الأندلسي كله ، وتمزقت وحدة البلاد ، وتبعثرت إلى مقاطعات مستقلة ، وتعرض الوطن الأندلسي كله للضياع النهائي ، وإذا كان اسم الدولة الأموية ظل معلنا هناك على مساحات من الأرض كانت تضيق وتقسع حسب ظروف الحرب بينها وبين أعدائها ، وإذا تعاقب الأمويون وخدم على الحكم بالمنطقة في هذه الفترة ، وإذا كان أولهم قد حكم خمسا وثلاثين سنة ، وثالثهم خمسا وعشرين أخرى ، وكان يمكن أن تطول فترة حكم ثانيهم لولا اغتياله بأمر أخيه فإن طول عهد الأميرين المذكورين في الحكم لا يدل على نوع من الاستقرار في دولتهما ، ولا ينطبق عليهما ما هو معروف عند الناس من أن طول العهد في الحكم يوحى بسلامة الدولة واستقرارها ، وانسجام عناصرها ، لأنهما حكما في قرطبة عاصمة الدولة وحدها ،



وكان نفوذها في فترات طويلة لا يتعدى حدود هذه المدينة وما حولها ، وكانت البلاد خارجها تموج بالفتن والحروب الأهلية بين عناصر الدولة من البربر والعرب والمولدين والنصارى ، وكان الأمراء الأمويين كانوا سادة لدولة غير موجودة ، أو كانوا عنوانا شرعيا لنظام مزعوم ، ولم تجتمع عليهم العناصر المعارضة لسياساتهم وسيادتهم لأنها كانت تختلف على نفسها ، ولا تجتمع على شيء فيما بينها .

وانشغل الأمراء الثلاثة طول عهدهم بالفتن الخطيرة التي أثارها المولدون الساخطون على كل شيء ، وكان هؤلاء مسلمين يمثلون بتصرفاتهم الوجه الكالح للمسلمين غير المخلصين ، ويمثلون بأعدادهم الكبيرة أكثر سكان الأندلس وأعظمهم شأنا ، وكانوا يرجعون في أصواتهم القريبة والبعيدة إلى المسيحيين القوط والأسبان ، ويفخرون بتاريخهم وأصلهم على المسلمين جميعا ، وإذا كانوا يتفقون مع المسلمين في الدين ، والإيمان بعميقة واحدة ، فإن الدين لم يجذبهم بقوة إلى حياة شركائهم من العرب والبربر ، بل ظلوا يتعاطفون مع المسيحيين الأسبان ، ويشعرون بنوع من القرابة معهم ، وكانوا دائما يتأثرون بالدعايات المسيحية التي كانت تهم العرب بالسلط على مصائر الناس بالأندلس ، فلم يعارضوا في التحالف مع النصارى داخل البلاد وخارجها ضد المسلمين .

وأقوى من كان يمثل المولدين خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس عمر بن حفصون ، ٢٦٧ - ٣٠٥ هـ / ٨٨٠ - ٩١٧ م ، وقد تزعم عمر هذا المولدين جميعا ، أو تزعم جماعات كبيرة منهم ، وقادهم مع نصارى الأندلس في ثورة خطيرة ضد سلطان العرب في كل مكان ، وظل منذ ظهوره يعارض الأمويين ويحاربهم ، ويقود ضدهم أخطر العناصر الأندلسية وأقواها ، وأشدّها جرأة ، وكان يعيش في منطقة رية الجنوبية بالجبال ، ويهدد بوجوده في جبل

« بربشر » كيان العرب بالأندلس كلها ، ويقول بالتحرر والاستقلال عن نفوذ القادمين من بلاد الشرق ، واسب بكل شيء يمكن أن يخدم أغراضه ، فهو مرة يهدد الأمويين بالدعوة للعباسيين خلفاء المسلمين ، ومرة يهدد بالتحالف مع الأغالبة حكام المسلمين في الشمال الإفريقي<sup>(١)</sup> ، وكان مسيحياً مع المسيحيين ، ومسلماً مع المسلمين ، وقد حارب الدولة طول فترة ظهوره مع أنصاره بمناطق الأندلس الجنوبية والوسطى وانتصر عليها ، حتى كشف عن عقيدته المسيحية في صراحة سنة ٢٨٦ هـ / ٨٨٩ م ، فهجره بعض أنصاره المسلمين وغضبوا عليه ، وجاهدوا مع دولتهم ضده فهزموه ، وأضعفوا قوته ، فلجأ للتحالف مع سكان طليطلة المتمردين على النظام كله ، وأمر مع المسيحيين في الشمال أيضاً ، وكان يحاول في يأس أن يبقى لنفسه بعض المكاسب التي حازها أيام انتصاره على جيش الدولة الأموية ثم مات ففرق جنده بعده ، واختلف أبناؤه ، وضاعت منهم نتائج الجهود الطويلة التي بذلها أبوم .

لقد سرى في هذا العهد ضرام الفتن في كل ولاية ، وفي كل مكان ببلاد الأندلس . ونضاءت سلطة الدولة بها ، ودخلت في سلسلة لانهاية لها من المعارك المستمرة ، حتى تمزقت أوصالها ، واهتزت أسسها إلى الأعماق ، وضاعت قواها ومواردها .

---

(١) كان الأغالبة يحكمون جزءاً من إفريقية الشمالية لا كلها ، وقامت دولتهم في منطقة إفريقية بحددها في الغرب الأدنى وحده ، ولكم كانوا يمثلون الدولة العباسية صاحبة الحق الشرعي في الرئاسة على المسلمين جميعاً ، ولهذا كان الأغالبة يقولون بتحقيقهم في حكم الشمال الإفريقي كله .

وإذا كان الثوار لم يستطيعوا القضاء على الدولة هناك فإن الدولة بدورها عجزت عن القضاء عليهم أيضا ، واستمرت القوتان متعارضتين ، وظل الخطر قائما على الجانبين المتعادين ، وانحصر نفوذ الدولة في قرطبة وحدها واعتصمت بالمعصبية القوية بتواضعها وحصونها ، وباعدت الخصومات بين هذه المعصبية ، وانتشرت الفتن والتعاب والمجاعات .

وجاء دور العرب فثاروا بمناطق الأندلس الشرقية ، وتجمعوا حول مدينة غرناطة ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م ليطاردوا المولدين والنصارى وجيش الدولة معا ، وحاربوا الدولة وهزموها سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م ، وطالت أيام ثورتهم وخروجهم على النظام حتى سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩١ م ، وعجزت الدولة الأموية عن حماية نفسها ومواطنيها من أخطارهم .

وهناك في الشمال كان المسيحيون يتآمرون ضد المسلمين وضد وجودهم بالبلاد كلها ، وكانوا يسرفون في تخريب سكان الأندلس المسيحيين والمولدين على دولتهم العربية ، وتترددوا في القيام بعمل عسكري حاسم ضد النظام القائم خوفا من إثارة الشعور الديني عند المسلمين ، وتركوا المسلمين وحدهم يتقابلون فيما بينهم ليضعف جانبهم جميعا .

وفي وسط الأندلس كانت مدينة طليطلة عاصمة القوط القديمة مصدرا من مصادر الخطر على المسلمين ودولتهم ، وكانت تمثل دائما تاريخ دولة القوط للنهارة ، وتمثل تطلم هذه الدولة للحياة المستقلة من جديد ، واستمرت هذه المدينة الكبيرة طول التاريخ منذ فتح الأندلس ثور ضد حكم المسلمين ، ولم يضعف من نشاطها ، ومن رغبتها في البعد عن السيطرة العربية ما كان من محاولة الدولة



الأموية أن تقضى على زعمائها في حادثة الخندق<sup>(١)</sup> سنة ١٩١ هـ / ٨٠٧ م. بل ظلت غاضبة بعنف طول فترات الضعف التي أشرنا إليها ، وكانت لها منعة طبيعية استغلتها في الدفاع عن نفسها أمام جيش الدولة ومؤيديها .

وربما كان من أخطر الظواهر التي ميزت هذه المدينة عن غيرها من مدن الأندلس أنها كانت شبه عاصمة دينية لجماعات المسيحيين المتعصبين ، فكانت مثوى للتيارات المسيحية الداعية للخلاص من حكم العرب والمسلمين ، وسكنها القساوسة المتحمسون الذين لم تفرغهم في إثارة غضب الشعب المسيحي على حكامه المسلمين ، وكانوا يطلبون من سكان هذه المدينة أن يدفعوا الضرائب الملوك المسيحيين وحدهم ، وكانهم كانوا لا يعترفون بسلطان الدولة .

وظلت طليطلة عصرا طويلا ترضى حكومة قرطبة بتمرداتها ، وثوراتها المتتالية وليس من العجيب بسبب هذا كله أن تكون هذه المدينة أولى الخواضر الأندلسية المهمة التي سقطت في يد المسيحيين سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وكان سقوطها من النذر القوية المشيرة إلى زوال سلطة المسلمين من بلاد الأندلس كلها .

#### ٧ - عصر القوة :

ثم جاء عصر جديد ، ظهرت فيه عظمة الدولة الأموية بالأندلس وحكمت فيه كفاءات عربية ممتازة كانت تجمع حولها الراغبين في بقاء العرب على عرش الأندلس ، وكان عهدها أعظم عهود الإسلام جميعا بهذه البلاد ، وكان أيضا

---

(١) نجح غمروس بن يوسف وإلى الأمير الحكم بن هشام على طليطلة في هذا التاريخ في القضاء على الزعماء المتمردين بهذه المدينة بعد أن دعاهم إلى مأدبة في حصن بها .

الحد الفاصل بين مراحل التقدم والازدهار ، وبين مراحل الانحلال  
والسقوط الأخيرة.

وبعد أن تفاقمت الخطوب حول الدولة ، وبعد أن استنفدت الثورات  
مواردها جاءها عصر جديد ابتداء سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، وانتهى سنة  
٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م وحكم فيه :

(أ) عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م

(ب) الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م

(ج) المنصور بن أبي عامر ٣٦٦ - ٣٩٢ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م

(د) عبد الملك بن المنصور ٣٩٢ - ٣٩٩ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٠٨ م

وفي هذا العهد وجد التقدم الإنساني ، وطريق الخير النافع للناس أربعة من  
الحكام العرب الذين يعتبر عصرهم ذروة ممتازة لعظمة التاريخ الأندلسي  
والحضارة الأندلسية .

وأولهم عبد الرحمن الناصر ، وكان حاكماً قوياً خطط لوحدة بلاد الأندلس  
الشامية ، ونجح في تحقيق هذه الوحدة وأقام الدولة البعيدة عن الفوضى والفتن ،  
بعد أن قام بسلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ونجح في هذه الحروب  
وكان أعظم حكام الأندلس وأشهرهم ، وجاءته العظمة والشهرة من الأثر الكبير  
الذي تركه في تاريخ بلاده ، فكانت دولته في الصدارة من العالم الإسلامي كله  
لأن العباسيين في العراق كانوا في أدوار انحلالهم ، ولأن الفاطميين في مصر  
كانوا لم يبلغوا بعد ذروة مجدهم ، فأصبح اسم الخليفة عبد الرحمن الناصر أعظم

اسم في تاريخ عصره ، وكانت عاصمته قرطبة زينة الدنيا<sup>(١)</sup> كلها ، ومركز الجاذبية الدبلوماسية في العالم الإسلامي كله ، فجاءته رسل الدول من كل مكان ، وكان قد جمع حوله أسباب القوة<sup>(٢)</sup> الكافية ليعلن نفسه أميراً للمؤمنين بالأندلس سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م ، بعد أن كانت تدور حول هذا اللقب أو هام وتخيالات تثيرها انعواطف الدينية الساذجة ، وبعد أن كان هذا اللقب محتكراً لواحد فقط في عالم المسلمين كله ، وكان هذا الواحد في عهد عبد الرحمن الناصر هو خليفة المسلمين في بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية ، ولكن الخليفة العباسي كان يعاني آنذاك من انهيار السلطة ، ومن ضعف النفوذ ، فضاغ بسبب ذلك بريق اللقب وأهميته ، وشك بخصومه في حقه فيه ، ونافسه على هذا اللقب العظيم سيد الفاطميين في مصر ، وسيد الأمويين بالأندلس .

وجاء بعد عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم المستنصر ، وكان أميراً مثقفاً ، شغف بالكتب والمكتبات ، وذاعت شهرته بالعلم والمعرفة ، وإذا قرأنا الإحصائيات الواردة من تاريخ عصره<sup>(٣)</sup> تبدو لنا فيها مبالغات هائلة تقبلها

---

(١) وصفها بذلك راهبة ألمانية زارتها في آخر القرن العاشر الميلادي .

(٢) وثق عبد الرحمن الناصر في العقالية المجلوين من كل مكان بأوروبا ، ومنحهم السلطات والمناصب والضياع بالأندلس ، وجمع حوله منهم أعداد كبيرة بلغت في أول عهده خمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف جندي ، ثم زادت أعدادهم إلى ثمانين وسبعمائة ألف ، ثم زادت إلى خمسين وسبعمائة وثلاثة عشر ألفاً ، وكان من هؤلاء حرسه وقواده ومعظم ضباط جيشه .

(٣) راجع كتاب : الدولة العامية ص ١٩ - ٢٥ ، وكتاب الإسلام والحضارة العربية ص ٢٦٠ - ٢٦٣ .



لورودها في كل مصادر التاريخ التي اهتمت بالحديث عنه ، وتذكر هذه المصادر التاريخية أرقاماً مذهلة لأعداد الطلبة والمعلمين ، والكتب والمسكبات في مدينة قرطبة ، وفي بلاد الأندلس كلها ، وكأن الأندلس بلغت من الرقي والتطور الحضاري والثقافي في عهده درجة تفوق ما عليه بعض الدول المتقدمة في عصرنا الحاضر .

\* \* \*

ثم انتهت ب وفاة الحكم بن عبد الرحمن دولة الأمويين بالأندلس ، لأن تاريخ هذه البلاد في الفترة ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م كان تاريخاً لدولة يحكمها المنصور بن أبي عامر ثم ابنه بعده ، وكان المنصور أيام نشأته يعيش على كتابة الرسائل للناس ، ثم جاءت له الفرصة ليتلاعب بطفل صغير تركه الخليفة المستنصر ليكون رئيساً لدولة الأمويين من بعده ، ووجد المنصور بقصر الخلافة الأندلسية وحدات سياسية قوية ، أو مراكز قوى كانت تلعب دوراً رئيسياً في الحياة السياسية بالدولة ، فأصبح واحداً من رجالها بمساعدة أم الخليفة الصغير ، وساهمت سيدة القصر الملوكي في تعيين المنصور بن أبي عامر وزيراً للدولة الأموية ، وجعلته شريكاً في إدارتها ، ووجد المنصور حوله في مكانة الجديد أعداء أقوياء كان عليه أن يخوض ضدهم معارك سياسية مصيرية يعيش بعدها المنتصر وحده ، وبعد انتصاره في المعارك السياسية الطويلة أصبح عظيمًا أمام نفسه وبطلاً أمام أنصاره ، فتقدم في حماس ليكون صاحب السلطة الأولى بالدولة كلها ، وكان يريد أن يزيل أسباب الضعف الكامنة في حياة هذه الدولة ، فعمل على تنظيمها وتنظيم جيشها ، وكان الجيش الأندلسي أهم مراكز العمل عنده ، فكون فيه فرقاً عسكرية من المرتزقة البربر والمسيحيين والصقالبة والمولدين وهاجم بهم التكتلات العربية في صفوف الجيش وقضى عليها ، فأمن بذلك على نفسه من

ثورات العناصر الجريئة انعاملة بأخطر مراكز القوى في الدولة ، ثم فرغ لأعدائه وأعداء دولته في خارج هذه الدولة فعاربهم خمسين أو ستاً وخمسين مرة<sup>(١)</sup> ، ورغب في تحطيم الممالك المسيحية المجاورة للمناطق الإسلامية في الشمال ، فعلا ذكره وأصبح بطلا قومياً عظيم الشأن ، وكسبت البلاد بوجوده قوة مع قوتها ، ووضعت في المكان الممتاز من العالم حولها .

لقد انتصر المنصور على أعدائه ستاً وخمسين مرة ، وأظهر وجود الإسلام والمسلمين كقوة هائلة بالمنطقة كلها ، وحاول العمل على تماسك المجتمع الأندلسي من الداخل ، فحطم المعارضات القوية المؤثرة ، وظهرت الدولة في عهده وكأنه كان عبقرياً أتت به الأقدار في وقت الحاجة ، وكتب تاريخاً عسكرياً مجيداً للإدارة القوية التي يملكها رجل ليس له ماض يساعده على العمل في مكانه الجديد بين الملوك .

ومع نجاح المنصور وكفاءته ومع تفوقه وانتصاره استمر إنساناً بفيضاً لا يميل إليه الناس ، ولا يتعاطفون معه ، وليس من المعروف ما إذا كان ذلك بسبب الوسائل غير الإنسانية التي اتبعها في الوصول إلى غايته لأنه كان يلجأ للعنف والقسوة والغدر ليكون سيداً على الناس ، أو بسبب نشأته المتواضعة وحدها ، أو للأسباب معاً ، وقد اعتبره أعداؤه وكثيرون معهم إنساناً يعمل في غير مكانه ،

---

(١) من غير المعروف ما إذا كان لهذا العدد مفهوم واقعي أم لا ، والمهم أن من حقائق التاريخ أن المنصور بن أبي عامر حارب أعداءه كثيراً ، وانتصر عليهم دائماً ، وحقق أهدافه في سيادة الدولة واستقرارها وإن لم ينجح في القضاء على الدول المسيحية المعارضة لسلطة المسلمين في شمال البلاد وغربها .

ويعتدى على حقوق غيره ، ومع أن الخليفة الناصر قبله كان يسلك سبيله ، ويتبع مثل أسلوبه في الحرب والسياسة إلا أن الناس أيدوه ونصروه ، واجتمعوا حوله وحققوا معه أمله ، وكان عندهم أعظم الحكام .

وربما كان المنصور سيء الحظ بنشأته المتواضعة لأنها ثبتت في أذهان الناس ولم ينظروا إليه إلا من خلالها وحدها ، فكانوا يعاملونه كإنسان رفعت المصادقات والحظوظ المفاجئة ، ولم يكن مهماً عندهم أن يكون جديراً بعمله وكفئاً له ، ولذلك كانوا يرجون للخليفة الصغير العاجز أن يتخلص من سيطرته ، وأن يتولى شئون عمله بنفسه ؛ وربما كان هذا الميل واضعاً في بلاد الأندلس بسبب ولاء الناس وإخلاصهم للأسرة الأموية التي كان الحكام يعملون باسمها ، أو بسبب قسوة المنصور وإسرافه في الشدة على أعدائه .

ومهما يكن من أمر فقد كان عند الناس شيء كثير من الولاء لسيد الدولة ، وهو نفسه الولاء الذي كان يؤمن به مواطنو الدولة العباسية في الشرق لخليفاتهم ، فمن المعروف أن الخليفة العباسي في بغداد لم يكن في ذلك الوقت أسعد حظاً من خليفة الأمويين بالأندلس فكان يواجه الضغط والقسوة والعذاب وكان يعانى من تسلط العناصر الغالبة عليه ، ومع ذلك كان الناس حوله يرجون له السلامة ، ويدعون له بانخير والسداد .

والعجيب أن المجتمع الأندلسي كان يعرف أن في نجاح المنصور وانتصاره على أعدائه حفظاً له ووقاية ، ولكنه مع ذلك كان يكرهه ويرجو زوال سلطانه لأنه كان يفتصب السلطة من صاحبها الخليفة ، وكان المنصور من جانبه يحس بشعور الناس نحوه ويعرف رأيهم فيه فكان يبادلهم سوءاً بسوء ويرهقهم بالحروب الدائمة ، ويضطهدهم لأقل الأخطاء ، وقد دفعه النصر الدائم على أعدائه



إلى أن يسرف في الاعتراف بذاته ، وإلى أن يتعالى على غيره ، فطغى على الناس وظلمهم ، وربما كان مدفوعاً لذلك الطغيان بطبيعته ذاتها أو بالأحداث حوله ، وهو لذلك كان بغضاً لكل الناس ، وكان أيضاً سيء الظن بكل الناس (١) .

ومن الغريب أيضاً أن بعض الناس في عهد المنصور بن أبي عامر كانوا يطالبون بإرجاع السلطة لصاحبها الخليفة ، وبعد موت المنصور ظهرت الانقسامات في بلاد الأندلس كلها ، وأقيمت بها بعد ربع قرن من وفاته عشرون دولة ، وكان أصحاب هذه الدول يملكون في دوائر نفوذهم الضيقة وحدها ، وعاش الناس حولهم ومعهم ، وكان هذا كان وجه الحق والسلامة في العمل السياسي والاجتماعي ولا شيء غيره ، ولم تحدث في المجتمع الكبير في ذلك التاريخ تساؤلات قوية عن صاحب الحق في حكم البلاد وأهلها بعد أن أصبح كل قوى صاحب حق بالمنطقة التي فرض عليها إرادته وبسط عليها نفوذه ، وصار الأمر الواقع مقبولاً ، بل وكان مؤيداً بالحماس والرغبة ، ورضى الأندلسيون جميعاً بتفتت وحدتهم ، واختلفت آراؤهم وتنازعوا حول مصالحهم المتضاربة .

ثم هل نقول بأن المجتمع الأندلسي كان مجتمعاً غريباً يلتزم بالصورة المعروفة له وإن كانت ضعيفة أو منهارة ، ولا يجد للتغيير معنى مادام صاحب الحق معروفاً للناس وليس مهماً أن يكون هذا جديراً بمكانه أو قادراً على أداء دوره ، فإذا غاب صاحب الحق المعروف لجأ الناس بعده إلى الأقوياء الذين كانوا يستطيعون بناء النظم الجديدة ، ولو كانت هذه النظم الجديدة تدور في حدود ضيقة لا تزيد على معالم المدينة الواحدة أو ما حول هذه المدينة من الأماكن المتأثرة بها .

---

(١) كأن جزءاً كبيراً من الشعب الأندلسي في عهد المنصور رسي هوايته في نقد الحكم والإسراف في مراتبهم ولذلك ترك المنصور يستبد به حتى النهاية .

لقد استطاع المنصور بتفوقه العسكرى وبنفوذه المطلق فى بلاد الأندلس كلها أن ينجح فى حروبه ، وأن يخفف من ضغط أعدائه على بلاده ، ولكنه رغم محاولاته القوية للقضاء على المعارضة المسيحية فى الشمال والغرب لم يحسم قضية هذه المعارضة ، ولم يقض عليها ، واستمر الصراع العقيم متبادلا هناك بين المسلمين والمسيحيين أجيالا طويلة ، وأصبحت الحرب بين الجانبين تقليدا عسكريا يرضى المواطن الدينى المتطرفة عند المسلمين والمسيحيين جميعا ، ولقد كانت هذه الحرب فى الوقت نفسه خطرا عظيما على القوتين معا ، لأنها كانت تستنزف مواردهما المالية ، وتعطل تطورها الحضارى .

هذا ونشير فى وضوح إلى أن حكام الدولة الأموية فى هذه الفترة العظيمة من تاريخها وجدوا فى دولتهم ومجتمعهم العناصر القادرة على تحقيق أغراضهم الأولى ، وكان من هذه الأغراض :

(أ) إيقاد الدولة من الانهيار بعد عهود الفتن والثورات .

(ب) والعمل على التقدم الحضارى الشامل للمنطقة كلها ، فأصبحت الأندلس من أعظم المراكز الثقافية فى العالم كله .

(ج) ظهور قوات الدولة العسكرية ، وتفوقها فى الحروب على أعدائها فى كل مكان

(د) تحقيق الرخاء الاقتصادى والازدهار الاجتماعى الشامل .

(هـ) ثم ظهور شخصية البلاد الأندلسية ، واحتلالها مكان الصدارة فى

عالم المسلمين .

وجاء بعد المنصور بن أبي عامر ابنه عبد الملك ، ثم ابنه الآخر عبد الرحمن ، ويقال في التاريخ الإسلامي إن الدهشة في نجاح المنصور في حروبه الكثيرة لا يقابلها إلا الدهشة من سرعة انتهاء دولة سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، إذ قامت بالأندلس ثورة غوغائية على ابنه الأخير تنادى بالحرية والخلاص من تسلط الغامرين على الناس ، وأسرف أصحاب هذه الثورة في العنف حتى هددوا النظام والأمن بالانهيار ، وبدأوا بأعمالهم المحاولات للتوسية لإفساد الحياة بالبلاد كلها ، وشملت الفن كل مكان ولم تنته إلا بالانهيار الحكومة ، وتمزيق وحدة البلاد من أساسها .

وفي الفترة ٣٩٩ - ٤٢٢ هـ / ١٠٠٨ - ١٠٣١ م زاد عدد الخلفاء الأمويين زيادة كبيرة ، وبرزت العنصرية البربرية والعربية والصقلبية وطوائف المولدين وغير هؤلاء وهؤلاء ، واستعان كل فريق على إخوته في الوطن بكل وسائل الكيد والتعطيم ، فوجد المسيحيون في الشمال فرصتهم بسبب هذا التمرق للحصول على مواقع جديدة ، وأدى ذلك في النهاية إلى سقوط الدولة الأموية ، وأعلن الوزير أبو الحزم بن جهور زوالها في : ذي القعدة سنة ٤٢٢ هـ / نوفمبر سنة ١٠٣١ م .

وبعد سقوط الأسرة الأموية زاد انقسام البلاد الأندلسية إلى ملكيات صغيرة تحكمها طوائف متعادية ، وكأن تجربة المنصور الناجحة فتحت المجال أمام من كانوا في مثل درجته الأسرية من الغامرين والراغبين في السلطة للعمل على الظهور في المجتمع المضطرب ، أو كأن ولاء الناس وطاعتهم كان يمكن أن تكون



لواحد من الأمويين وخدمهم، وأما أن يكون الحاكم واحدا من الناس فسيجد هذا الواحد الكثيرين الذين ينافسونه في مكانه، أو الذين يبحثون لأنفسهم عن أما كن يكون لهم فيها نوع من السيادة مثله، وقد حدث هذا في بلاد الأندلس.

وبدت القصة هناك كأن الأمراء الأقوياء وخدمهم كانوا يستطيعون بجهودهم وحماستهم وكفاءتهم أن يبنوا الدول القوية التماسكة، وكانوا يستطيعون الإبقاء عليها سليمة التنظيم من الداخل، وقادرة على تحدى أعدائها والصمود أمامهم، وأما العناصر المختلفة المكونة للمجتمع فكانت تنجذب إلى قوة الأمير وتؤيد وجوده وتساهم في نجاحه، وتظهره وهو في مكان القيادة كأنه وحده أساس القوة في المجتمع كله، ويأخذ الحاكم درره في طليعة المتقدمين للعمل المؤثر في حياة الناس كلهم ويبدو في جميع حالاته كأنه صاحب الفضل الأول في كل نجاح يمكن تحقيقه.

وبعد غياب أثر الأديوار الشخصية للزعماء الأقوياء تتوزع القوى في المجتمع ويظل هذا المجتمع تأنها يبحث بغير جدوى عن واحد يضعه في مكان الرئاسة فيه، وقد تجمع الآمال وغميل القلوب وتتعلق الرغبات المسكومة بمن يأتون على الطريق وهم لا يزالون في ضمير الغيب، وفي أثناء المحاولات السلبية لتحقيق الأمل تقدم الجماعات القوية رؤساءها فيأتون ليعبروا عن رأى قطاع واحد من قطاعات المجتمع المتعددة، ويتكلم كل واحد باسم جماعته وحدها، ويميل إلى توضيح دورها وكأنها كانت تعيش وحدها أو تعيش لنفسها في المجتمع الكبير.

وإذا جاء للناس حكام ضعاف ظهر في المجتمع أثر ضعفهم، وناقصتهم في السلطة على الدولة، أو على بعض أجزائها زعامات محلية مستقلة غير قادرة على النجاح في الأعمال المساعدة على تماسك المجتمع وتوحيده، وهؤلاء

يملئون صفحات التاريخ الأندلسي منذ ظهوره وبسببهم تعرضت دولة المسلمين بالأندلس للضياع ، وعانت المجتمعات الأندلسية من المتاعب الخطيرة المؤسسية وهم يظهرون عادة في التنظيمات السياسية التي لم تنجح في التخطيط الدقيق لاختيار رئيس الدولة ، وكانت هذه كما هو معروف مشكلة المجتمعات الإسلامية منذ ظهورها .

لقد كانت تظهر بوضوح آثار الجهود الفردية للزعامات القوية بالأندلس ، وهذه الآثار تظهر دائما في كل المجتمعات البشرية إلا أن التاريخ الأندلسي يحتفظ جيدا بالأدوار المهمة التي قام بها عبد الرحمن الداخل منشىء الدولة ، وعبد الرحمن الناصر باني عظمته وجلالها ، والمنصور بن أبي عامر أقوى رجالها ، وليس هناك كثيرون غيرهم من الأقوياء الذين ظهروا على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية في الأرض الأندلسية التي عاش فوقها المسلمون لفترات طويلة .

كان الزعيم القوي يظهر بالأندلس في الوقت المناسب بعد الاضطرابات الخطيرة التي كانت تعرض المجتمع كله للفتن والضياع ، وكأن كل حركات النشاط الفعالة المؤثرة في حياة الدولة ومواطنيها كانت مدفوعة فقط بجهد شخص واحد تاتف حوله القوى المنجذبة إليه بحكم مصلحتها ، أو بأثر إحساسها بتفوقه وامتيازه .

وإذا فقد المجتمع مثل هذا الفرد القدير بدا مجتمعا مفتتا مضطربا يمتوج بالفتن والمتاعب ولا يستطيع أن يحمي نفسه من فوضى تعدد العناصر فيه ، ولا يهتدى سريعا إلى تقديم زعيم يكون وجوده ضروريا لاستقامة الحياة فيه من جديد .

وقدم المجتمع الأندلسي دائما زعامات محلية كانت تساعد على التفرق

والانقسام ، وقدم أيضا زعامات صغيرة لم تكن تعيش إلا وسط الفتن ، ولم تنهيا الظروف المساعدة لتكوين الشعب المنسجم ، وفي العصور الذهبية نفسها كان من عمل الزعيم هناك أن يجرى سريعا وراء غاياته ، وأن يطلب من المجتمعات الخاضعة لسيطرته أن تتابع سيره ، وأن تطيع أمره ، ولم يفكر زعماء الأندلس طويلا في كيفية الوصول إلى تكوين المجتمعات التي تفخر بها الدول المتقدمة اليوم<sup>(١)</sup>.

لقد تطور الناس مع الحياة بالأندلس - وتشير إلى ذلك كتب التاريخ كلها بوضوح - وكان هناك شعب عظيم متحضر له من قوة الوجود والآخر ما خدم قضية الحضارة الإنسانية في كل مكان ، ولا تزال آثار هذا الشعب العظيم قائمة إلى اليوم تشير إلى عظمته البالغة وإلى تفوقه وامتيازه ، ولكنه مع ذلك لم يسبق الزمن في الإحساس القوي بضرورة الوحدة الشاملة لكل عناصره ، ولم يعمل كثيراً لهدف التماسك حول زعامة واحدة يقف منها موقف المؤثر فيها والحريص عليها .

لقد كان الوجود بالمنطقة شعبا قلقا يحس بالبعد والغربة ، ويشعر بالأخطار من حوله ، وكانت هناك شعب متمرّد ناقد لا يثق في كثير من زعمائه ، ولا يؤمن بسلامة مصيره ، ولذلك بدت تصرفاته في كثير من أموره تصرفات عصبية ليس فيها اتزان الأقوياء ، ولا حكمة الآمنين ، ولا شعور المواطنين في البلد الواحد بالهدف الواحد والمصير الواحد ، حتى في ساعات الخطر كان الجميع يحسون بضرورة مواجهة هذا الخطر في وحدة متماسكة ، ولكنهم مع ذلك

---

(١) كان من المأمول أن يخطر هذا التفكير لبعض قادة المجتمع الأندلسي ، لما هو معروف من تطور الحضارة الأندلسية وتقدمها .



كانوا يحرصون على تمايزهم وانفصالهم ، أو كانوا يحرصون على وجودهم كقوات متميزة ووحدات منفصلة .

وقد يكون ذلك بسبب انقسام العناصر المكونة لشعب الأندلس ، وكلها كانت ترجع في أصلها البعيد إلى أجناس مختلفة ليس بينها قرابة ، وحتى المجتمعين منهم في أصل واحد ما كانوا يميلون إلى الوحدة الشاملة ، وربما كان ذلك لأن العناصر الأساسية في المجتمع الأندلسي كانت قوية تستطيع الاعتماد على نفسها في المحافظة على وجودها المستقل بالمنطقة التي تعيش فيها ، وفي المحافظة على انفصالها كوحدات ترفض الخضوع لأي جنس منها كانت أسباب تفوقه ، ومنها كانت امتيازاته ، وكلها كانت ترى في استقلالها ، وفي الشعور القوي بمصالحها الخاصة نوعا من استمرار وجودها ذاته ، أو نوعا من عدم التعرض للانصهار المؤدى إلى التلاشي وضياع الشخصية .



## ب - ملوك المدن

عشرون دولة

بنو عباد

للرايطون

خلف الأعـداء

غراطة





## ١ - عشرون دولة :

قبل سقوط الدولة الأموية ببلاد الأندلس سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م كانت الإدارة بها قد ابتدأت تتوزع بين الزعامات والمصيبات القوية ، وبعد سقوط الدولة المشار إليها جاءت الفرصة للملأمة للمغامرين الباحثين لأنفسهم عن مقاطعات تتسع لرغباتهم وأطماعهم ، وانفسح الأمل أمام الراغبين في العمل في مجالات مناسبة يمارسون فيها سلطتهم وفوزهم ، ولم يكن تحقيق الرئاسة واستمرارها ممكناً إلا بالمصيبات المتغلبة على الأقاليم المختلفة ، لأن هذه المصيبات كانت تملك القوة الكافية للسيطرة على المناطق المنعزلة ، وساعد على وضوح دور هذه المصيبات القوية وتميزها ، وظهورها في المجتمع بصورة مؤثرة في كيانه كله ظواهر كثيرة لعل منها :

(١) ما كان من تفاعلها للقوى مع الأحداث الدائرة بالمنطقة التي عاشت فيها ، فكانت الوحدات البشرية المتجمعة تتأثر بهذه الأحداث وتؤثر فيها ، وكانت تصنعها أحياناً وتخضع لها في حركة إيجابية واضحة وقوية .

(ب) وضياء المصيبات الأموية المتميزة التي كانت الدولة تحرصها وتؤيدها ، وتعطيها الأمان والشرعية ، فتقوى وجودها ، وتثبت كيانها ، وتوضح أثرها ، وتزيد من قاطعيتها .

(ج) وجود عوامل جغرافية بارزة كانت تجعل البلاد المنعزلة كأنها

وحدات طبيعية منفصلة ، وقد أسهمت هذه العوامل الجغرافية المتباينة في تمزيق وحدة البلاد وتفتتها وساعدت بدورها على قبول الحياة الانعزالية فيها .

( د ) ثم تعدد الجنسيات بالبلاد واختلافها ، وتنازعها منذ فجر تاريخها ، وقد عمق تعدد الجنسيات واختلافها في البلد الواحد شعور الناس بالانفصال ، وقوى رغبتهم في الاستقلال ، وجعل المحافظة على الوحدة أمراً عسيراً .

وإذا كانت المصبيات القوية تستطيع أن تحمى حكام البلاد من خطر الثورات الداخلية ، وأن تكفل لهم الأمن والسلامة من مفاجآت الزملاء الجاورين فإن الحماية الخارجية من خطر القوات المسيحية المعادية كان يمكن أن تقوم بها هذه القوات نفسها بعد أن تدفع لها الإتاوات والأثمان المطلوبة .

وانقسمت وحدة البلاد الأندلسية بعد سقوط دولة الأمويين ، وتوزعت الرئاسات فيها بين جماعات كانت تعيش في نهم إلى السلطة ، ولو كانت هذه السلطة على حساب غيرها ، وكانت تعيش في خوف من الآخرين ، ولو كانوا رفاق الماضي ، وشركاء المصير ، وإخوة الدين والجنس والقومية والتاريخ ، وكانت هذه الجماعات كذلك تراقب الأجنبي وتخشاه ، وإن كان هذا الأجنبي ضعيفاً يمكنها دفعه ، والاعتصار عليه بالجهد والشجاعة والتعاون والتضحية .

وأصبح للسليين في الأندلس عشرون دولة<sup>(١)</sup> ، أو عشرون إمارة

---

(١) كانت الدويلات الأندلسية الصغيرة أشبه بوحدات إقطاعية متميزة تتخذ لنفسها مكاناً منعزلاً تعمل فيه بعيداً عن الآخرين، وكان حكامها إما وزراء لهم دور سابق في العمل مع =



أو مملكة، أو أية تسمية أخرى كان يريد لها الحاكسون فيها، وتميزت الجماعات بهذه الوحدات المنفصلة بأجناسها وعنصريتها فهي عربية أو بربرية أو صقلبية أو من الموالدين ، واتخذت كل جماعة<sup>(١)</sup> لها مكاناً في المناطق متى كان لها فيها أكترية سواء في الشرق أو الغرب أو الشمال والجنوب أو الوسط ، وأقام الخائفون منهم في مناطق قريبة من مناطق الفرار بإفريقية الشمالية ، وكانهم كانوا على شعور غالب بأنهم في الطريق إلى الضياع أو إلى النهاية ، وتأكد شعورهم بهذا الضياع بعد أن ضلوا سبيل الوحدة ، وبعد انشغالهم بالصراع الطويل لتحقيق الرغبة في الحكم والسيطرة ، أو لتحقيق الأمل في توسيع للمالك ولو على حساب مصيرهم كله .

وترأس الحكام هناك على جماعات متفرقة لا تتعد فيما بينها ، ولا تتعاون ضد أعدائها ، ولهذا خسرت هذه الجماعات بالتدريب ثمرات الجهود العظيمة وتنتج الكفاح الطويل الذي بذله الأبطال السابقون ، وانتصر أعداء المسلمين المتعدون عليهم في أهم معاركهم ، وحطموا آمالهم ، وأخذوا منهم بلادهم ثم قضوا بعد ذلك على وجودهم كله .

وكان هؤلاء الأعداء يعرفون طريقهم إلى الانتصار ، وطريقهم إلى العمل الناجح،

---

= الدولة الأموية للنهارة ، أو بعض قود هذه الدولة ، أو مغامرين أظهرتهم الأحداث وحدها ، أو شيوخاً من رجال القضاء للشهورين ، أو زعماء كانت تسندهم الثروة والعصبة والكفاءة الشخصية .

(١) ظهرت العناصر الغالبة بالمناطق الأندلسية ، وعاشت لنفسها في عالمها وحدها ، وأما غيرها من الناس فكان ملزماً بقبول سلطتها .

فمرة كانوا يظلمون بعض المسلمين ، وإخوة المصير معهم ينظرون إليهم في جمود ، وكأنهم كانوا في عالم غير عالمهم<sup>(١)</sup> أو في دنيا غير دنياهم ، ومرة كانوا يضربون بعضهم ببعض في شبه مهزلة مكشوفة من التلاعب السياسى والعسكرى ، ومرة كانوا يفرضون عن بعضهم نوعاً من الحماية المؤقتة في مقابل ضرائب مالية كانت تزيد عليهم كلما ازدادوا ضعفاً ، وكلما ازداد أعداؤهم قوة .

لقد كانت جهود حكام الظوائف أو ملوك اللدن بالأندلس موجهة لتحقيق غرض الاستقلال فى المناطق المنعزلة التى كانت تحرسها قواتهم القليلة ، ثم إلى محاولة أن يعترف جيرانهم للمسلمون بمحدودهم التى كانت تضيق وتوسع تبعاً لنتائج الحروب الأهلية المؤسسية ، وتبعاً لظروف القوة العارضة أو المتغيرة ، وأخيراً كان حكام اللدن يرغبون فى بناء معالم أثرية كانت تكاليفها تزيد عن قدراتهم المالية المحدودة ، وهذا يعنى أن آثارهم المعروفة لم تكن تدل دائماً على رخاء شامل للبلاد فى زمانهم ، ولم تكن تعنى دائماً أن الناس هناك كانوا يطمثون للحياة معهم ، وإنما تشير غالباً إلى الإسراف وسوء التقدير ، وإلى التطرف فى الاستغلال لتحقيق وسائل الترف الذى كان يعيش فيه الحكام وحدهم .

---

(١) عندما سقطت مدينة طليطلة فى يد حكام قشتالة المسيحيين سنة ١٠٨٥/٨٤٧٨ م — وكانت من أعظم مدن الأندلس أهمية وشهرة — كان ملوك المسلمين حولها يخضون بالصمت ، ويسكتون على أعمال أعدائهم خوفاً وعجزاً وتردداً ، وكأن انهار إحدى الممالك الإسلامية بالأندلس كان عملية موت ليس لأحد فيها حيلة .

وصحيح أن قوات أعدائهم لم تتجد ضدّهم منذ نشأتها ، وأنها اتحدت عليهم أخيراً بعد ظهورها وتطورها ، وأنها في كثير من مراحل وجودها كانت أبعد ما تكون عن التماسك والانسجام فيما بينها ، وصحيح أن القوات الإسلامية المتفرقة كانت تقابل قوات مسيحية متفرقة مثلها ، وأن قوات المسلمين بالأندلس كانت تمثل وحدات سياسية غير متفاهمة ، وأن قوات أعدائهم بدورها كانت تمثل وحدات سياسية مستقلة وغير متفاهمة كذلك ، غير أن هذه الأخيرة كانت تتلاقى وتتفق على هدف واحد لم يتغير طول قاريخها ، وقد انحصر هذا الهدف عندها في طرد المسلمين من أسبانيا كلها ، وجميع القوات المسيحية كانت تحاول أن تظهر البطولات القومية ، والإخلاص للعقيدة المسيحية على حساب المسلمين مهما اختلفت أما كن تواجدهم ، ومهما تغيرت أسماء دولهم .

كان النصارى أعداء ملوك المدن المسلمين إذا اختلفوا فيما بينهم ، ولكنهم جميعاً كانوا يجتمعون على المسلمين ، وعلى الإضرار بهم ، وكانوا يتنافسون دائماً على تخطيطهم ، وإضفاف شأنهم ، ثم كان لاتحادهم الأخير سنة ٥٨٨٤ / ١٤٧٩ م غاية صريحة أعلنوها ، وهي أن يتغلبوا على غير المسيحيين بأسبانيا ، وأن يطردوهم من البلاد جملة ، وإذا كانت قوات أعداء العرب لم تتحد إلا في نهاية الدور عند آخر مراحل الصراع بينهم وبينها ، فإن المسلمين لم يردوا بالمثل على خطط أعدائهم ، فلم تتحد قواتهم بعد تمزقهم إلا في بعض اللحظات العارضة ، وكانت هذه اللحظات غير كافية لعمل من أعمال القوة والتفوق ، ثم كان المسلمون دائماً ينتمون إلى التفرق والانفصال من جديد ، وكأنهم كانوا يحسون دائماً بفشل التجربة ، أولاً يؤمنون بضرورتها ، رغم الحاجة إليها ، ورغم أهميتها في وقت كانوا فيه كلهم يتعرضون للمواقف الحرجة ، أو يتعرضون لمراحل الضياع الأخيرة



والعجيب أن أعداء المسلمين كانوا يصابون أحياناً بنكسات قوية ،  
وبهزائم عسكرية كبيرة أمام قواتهم المستبعدة ، ولكنهم كانوا يسرعون دائماً  
إلى الوقوف أمامهم من جديد ، ولم ينسوا الهدف الذي كانوا يعملون من  
أجله ، بينما كان المسلمون حتى في أوقات الضعف والخطر يشغلون أنفسهم بالعداء  
الصريح فيما بينهم ، وكأنهم كانوا لا يحسون بالمتاعب ، أو لا يدركون مداها ،  
وربما كانوا يحاولون أن يقتنصوا الخطر بعد عجزهم عن مدافعتة ، والتغلب عليه ،  
وقد لجئوا في بعض محاولاتهم للرد على التحديات التي واجهت بلادهم إلى استدعاء  
قوات المراتبين الناشئة بشمال إفريقيا ، ولكنهم لم يتعدوا معها طويلاً ،  
ولم يسهحوا لها بحرية العمل بعد انتصارها على أعدائهم ، بل اشترطوا عليها قبل  
دخولها بلادهم أن تلتزم بالرجوع عنها ، ليعودوا من جديد إلى التفرق  
والنازعات والفتن .

وبدا من أعمال المثليين للمسيحية في أسبانيا أنهم كانوا يتقدمون ببطء  
وإصرار ، وعلى أساس من التخطيط والتنظيم والثقة ، فكانوا يلحون بالضغط  
على المسلمين في كل مكان ، ويأخذون بالعنف بلادهم واحدة بعد الأخرى ،  
ولا يجد المهزومون أمامهم وسيلة لاسترداد بلادهم الضائعة ، أو تنجى محاولاتهم  
عاجزة لا أمل فيها ، وربما ترك هؤلاء بلادهم نهياً للأعداء ، أو ظلوا عاجزين  
ومعترفين بالجزع عن استردادها ، وقد كانوا في ذبول دائم ، أو في حالة من  
الانكماش المطرد ، ولم يعرفوا السبيل إلى دفع الخطر عن أنفسهم أو عرفوه  
وعجزوا عن الوصول إليه

وكان على كل دولة من دول الطوائف أن تتوقع الأخطاء من الثورات  
الداخلية التي كانت تقودها العناصر المتمردة فيها ، وكان عليها أيضاً أن تحمي

وجودها من المسلمين المجاورين لها<sup>(١)</sup> ، ومن المسيحيين المتقدمين إلى أهدافهم ضدها ، ومعنى هذا أن الخطر كان يحيط بهذه الدول جميعا من كل جانب ، وكان خطرا عاما لا أمل لأحد في النجاة منه ، ومعنى هذا أيضا أن الاتفاق كان مفروضا على هذه الدول بالضرورة ، أو كان أمرا لازما من أجل السلامة الوطنية أولا ، ومن أجل الشرف القومي ثانيا ، ومن أجل كل شيء يحرص عليه الناس في حياتهم أخيرا ، ومع ذلك فالأمل الكبير لم يتحقق ، والشئ اللازم لم يكن له وجود ، فلم يتعاون المسلمون لرد الخطر عن أنفسهم ، وإنما انتظروا أدوارهم متفرقين أمام أعدائهم المتعصبين عليهم ، وقابلهم الأعداء الأقوياء وهم متفرقون متنازعون فهزموهم ، وانتصروا عليهم ، وكأن المسلمين في فترة حياتهم هذه لم تنفعهم كل مواظبات الدنيا ، ولم تؤثر فيهم تجاربها ، ولا شك أن قصة الثور الأبيض كانت معروفة في أدب العرب وأنها كانت متداولة في بلاد العرب كلها ، ولا بد أن تكون هذه القصة معروفة أيضا في بلاد الأندلس البعيدة وهي بلاد الأدب والمتأدبين ، ومع ذلك غاب عن سادتها وحكامها مثل هذا الأثر العربي الصادق المؤثر ، فلم يكن له — وهو من المواظبات الجيدة الموروثة — أثر في سلوكهم وتصرفاتهم .

ثم يبدو أن تقسيم البلاد الأندلسية بعد وحدتها لم يكن شيئا غريبا أو مثيرا عند الناس ، وكأنه كان الطبيعة العادية لمثل هذا المجتمع الغريب المزدهم

---

(١) اتسع ملك بني عباد بإشبيلية على حساب بني جهور ملوك قرطبة ، بعد أن احتلوا بلادهم سنة ٨٤٦٢/١٠٧٠م وحطموا تقوؤهم ، وكانت دولة بني جهور أول دول الطوائف الكبيرة الساقطة ببلاد الأندلس .

بالمصيبيات المتنازعة ، وكأن هذه المصيبيات المتنازعة لم تكن تدور إلا حول نفسها ، ولم تكن تتقابل إلا من أجل مصالحها وحدها ، فلم تجد حلاً لمشكلات الوطن الواحد المتداعي إلا بتقسيمه بينها ، وقبلت المصيبيات الأندلسية هذه الحياة الشاذة الغريبة حتى بعد نجاح تجربة الوحدة في عهد الأمويين الطويل ، ولم تقم بمحاولات مجددة للمطالبة بوحدة بلادها الممزقة المتناحرة ، وربما كانت تنتظر أن يفاجئها زعيم قوى يأتيها من وراء البحر كما أتى عبد الرحمن الداخل منذ زمن بعيد ، وتكون لهذا الزعيم إرادة أقوى من إرادة رؤسائها ، وقوة أقوى من قوتهم .

لقد تعقدت قضية الوطن الأندلسي ، وضاع تماسكه ، وأصبحت وحدته غير مقبولة ، أو غير مفهومة رغم ضرورتها ، ورغم الحاجة إليها ، ولم يدر أحد من الناس كيف يمكن أن تتجمع عناصر المجتمع الأندلسي المتناثرة في وحدة شاملة ، وكيف يمكن العمل على ترابط هذا المجتمع المضطرب ، وربما لم يكن عند الناس — كما قلنا — أمل في الاتحاد إلا حول زعيم يقدم من مكان بعيد ، ليكون بعيداً عن خصوماتهم ومعاركهم ، وليكون غير خاضع لتأثير جماعة منهم ، أو إلا حول زعيم تحرسه القوة الكافية التي تفرض على المختلفين إرادته ، وتلزم الجميع بطاعته .

وعجزت البيئة الأندلسية عن أن تقدم للمجتمع الأندلسي زعيمه المطلوب ، وعجز المشرق العربي بدوره عن تحقيق هذه الرغبة ، وكانت الأسباب قد قطعت بين المشرق العربي وبين الأندلس منذ قيام دولة الأمويين في الغرب ، وقيام دولة العباسيين في الشرق في العقد الرابع من القرن الثاني الهجري ، ثم كان



المشرق بدوره موزعا بين رئاسات متخصصة ، فضاء الأمل في الوحدة حول زعيم من داخل البلاد ، وحول زعيم من خارجها على السواء ، وظل الفراغ في السلطة قائما ؛ أو كأن هذا الفراغ كان مشغولا بجماعات لم تتفق أبدا على واحد منها .

ومن الغريب ألا يكون تفتت البلاد الأندلسية وضعاً شاذاً عند الأندلسيين ، وأغرب من ذلك أنهم لم يتلاقوا عند غاية إلا أن تترك المناطق الأندلسية المستقلة لشأنها ، وأن تترك الجماعات المتنازعة لمصيرها ، وأما هدف الدفاع عن الوطن عند الخطر فلم يصبح هدفاً مشتركاً بعد أن تقسم الوطن الكبير إلى أوطان صغيرة مستقلة ، وبعد أن ترأست في هذه الأوطان الجديدة جماعات كانت ترى مصالحها ومستقبلها وأملها في التجمعات الصغيرة وحدها .

وكان على أصحاب هذه الممالك الصغيرة وحدهم عبء الدفاع عنها ، وإذا كانوا جميعاً غير غافلين عن أهداف أعدائهم ، وإذا كان خطر هؤلاء الأعداء واضحاً بحيث لا يمكن لأحد أن يقول بعدم وجوده ، وإذا كان هذا خطراً مباشراً بحيث لا يمكن تجاهله ، وإذا كانت عدوهم لا يفهم معنى الاستثناء بعضهم من سخطه فلم يكن هذا كله كافياً لنجاحهم في تحقيق وحدتهم ، وبسبب للعجز عن تحقيق هذه الوحدة ضاعت منهم أسباب القوة ، وترددوا في تقديم التضحية ، وانتظر كل صاحبه ليقوم بالعمل وحده ، أو انتظر كل دوره أمام عدوه ، والتمسوا كلهم الوسائل لتأخير النهاية المؤسفة ، وربما جاءت منهم بعض المحاولات الهادفة للوحدة والتماسك ، ولكنها كانت محاولات كلامية لا تلتقي عندها الإرادة الواحدة ، ولا تؤيدها الاستجابة السريعة من الأفراد أو الجماعات ، لأن تأييد هؤلاء كان يعنى تضحية

الأفراد ببعض امتيازاتهم ، وتضحية الجماعات ببعض مكاسبها ؛ ولم يكن سهلاً أن تضحي الجماعات الحاكمة بشيء وهي تسعى في الوقت ذاته للمتعة في كل مظانها ، ثم هي لم تكن تعرف معنى للتضحيات خارج حدود وطنها الصغير .

كان لابد لنجاح الأمل في تحقيق وحدة البلاد الأندلسية من أن يتخلل الكثيرون من الزعماء ومواطنيهم عن أما كنهم ومرا كزهم ، وكان على هؤلاء أن يسيروا في الطريق العام وراء واحد منهم ، ولكن ذلك كان ثمناً كبيراً للوحدة المطلوبة حتى وإن كانت هذه الوحدة هي العلاج اللازم للمنطقة المضطربة .

ولم تنجح المحاولات الهادفة لوحدة البلاد رغم أهمية هذه الوحدة وضرورتها ، وربما لم تكن الوحدة الأندلسية موضوعاً للجدل في فترات طويلة من تاريخ دول الطوائف بهذه البلاد ، أولم تكن واردة حتى في أساليب الدعاية السياسية المتبادلة بين هذه الدول الصغيرة .

لقد اتخذت كل جماعة من العناصر الإسلامية لنفسها مكاناً ببلاد الأندلس ، وحكمت الجماعات هناك باسم القوة وباسم الكثرة ، ثم تنافست فيما بينها على الامتيازات ومراكز الصدارة وأدى تنافسها إلى قيام حروب أهلية انتحارية بينها ، وزادت هذه الحروب في ضعفها وفي تباعدها ؛ فلعبت بها قوات أعدائها ، وأخضعها لإرادتها ، وألزمها بدفع إتاوات مالية كانت تزيدها ضعفاً وتهالكاً .

وكثر عدد الجماعات الحاكمة ، واتخذت المدن الأندلسية مقراً لحكها وحكومتها ، وأحاط بهذه المدن ما كان حولها من القرى الصغيرة المتجمعة بأثر

العوامل الطبيعية أو بأثر الرغبات العنصرية، وكان لكل منها حصونها وقلاعها، وقوتها التي تحاول أن تحميها من الأعداء حولها، وعاشت الدول الصغيرة بين الأعاصير فترات كانت تطول أو تقصر تبعاً لكفاءة جيشها، وتبعاً لإرادة أهلها، وتبعاً لقوة الضغط عليها من أعدائها ولم يكن بينهما جميعاً مجال للتنافس المقيد إلا في نشر العلم، ورعاية الثقافة، وربما كان هذا هو الوجه الوحيد المشرق في تاريخ هذه الدوليات الصغيرة، ومن المعروف أنه خلال الانحلال الشامل لكل المدن التي أعلن فيها قيام هذه الدول كانت ممالك الطوائف تبدو في أثواب زاهية من العلم والمعرفة، وإذا لم يسدها النظام والاستقرار لفترات طويلة من تاريخها فإنها استطاعت خلال الفترات القصيرة التي كانت تتجنب فيها الحروب الأهلية أن تنعم بالنشاط والرخاء، وظهر الملوك هناك كأنهم كانوا جميعاً حماة للعلوم والآداب، وكان من أبرز ظواهر عصرهم رعاية الثقافة والعلم والمعرفة، فأسسوا الجامعات والمدارس والمكتبات، وكان ملوكهم أنفسهم من كبار الأدباء والشعراء<sup>(١)</sup>، وكانت قصور هؤلاء الملوك منتديات زاهرة ومجامع للعلوم والآداب والفنون، وحفل عهد ملوك الطوائف بمجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء وقادة الفكر المتأزمين.

وكانت هذه الدول الصغيرة تجد مجالا آخر للتنافس فيما بينها، فاستغلت شعوبها وأرهقتها بدفع الصرائب المالية الكافية لما يطلبه أعداؤها ثمناً لحمايتها وقبول

---

(١) مثل عمر بن الأفطس حاكم بطليوس للتوفى ٤٨٤/١٠٩١ م وللعتمد بن عباد ملك إشبيلية للتوفى سنة ٤٨٨/١٠٩٥ م وللمعتصم بن حماد صاحب المرية للتوفى سنة ٤٨٤/١٠٩١ م.



وجودها؛ والكافية لإشباع رغبات حكامها والمتسلطين عليها ، وكانهم كانوا يسرفون في بناء الحصون والقلاع التي كانت تحمي وجودهم وسلطتهم ، وكانهم كانوا يسرفون أيضا في بناء القصور والبساتين ليزدادوا من متع الدنيا .

أراد كل واحد من ملوك الطوائف أن يكون سيداً في مكانه ومتسلطاً على من حوله ، وحاول أن يصل إلى غايته بوسائله كلها ، وكان من هذه الوسائل التحالف مع أعداء الوطن والدين ، وبعد أن وضعت معالم الحدود بين هذه الدول الصغيرة حاول جميع الحكام بها البحث عن الحماية الضرورية ، ولو بالتواطؤ مع الأعداء خوفاً من خطرهم وبأسهم ، وظهرت بالبلاد محاولات غير طيبة لتعاون المسلمين مع غير المسلمين ضد مسلمين آخرين .

ومع ذلك لا يمكن القول بأن جميع ملوك الطوائف بالأندلس كانوا ينسون اعتبارات الكرامة الوطنية والشخصية بتحالفهم مع أعدائهم المسيحيين المتغلبين عليهم ؛ لأن ما كان يحدث هناك كان يظنه بعضهم نوعاً من الشعور بالقرابة بعد التواجد في بلد واحد ، وكان المسلمون يمثلون شعباً متسامحاً لا يعرف التعصب ولا يميل إليه ، حتى ليقبل هذا الشعب التحالف سياسياً وعسكرياً مع غير المسلمين ضد المسلمين ، أو ربما كانت مسائل الدين واعتباراته قد أصبحت أموراً جانبية ليست لها عندم حرمة أو رعاية ، أو ربما كان الدين في حقيقته مهزوزاً في نفوس بعض منهم ، وبعد أن واجهوا الخطر ، وضاع منهم الأمل كان المهم عند أقويائهم أن يحافظوا على استمرار وجودهم وعلى كيان جماعتهم داخل حدود جماعتهم وداخل حدود المنطقة المزدهجة بأعدادهم المتزايدة .

لقد تسامح المسلمون مع أعدائهم ، وأهملوا أمور دينهم واعتبارات

سلامتهم وسلامة أوطانهم ، ودفعهم لذلك عوامل الضعف الواضحة في جانبهم بعد أن تعرضت قضية وجودهم ، وقضية وطنهم للخطر الداهم وبعد أن عجزوا عن مقاومة ضغط الأعداء عليهم ، ولقد اعترفوا بضعفهم السياسي والعسكري، ودفعوا لأعدائهم بمن وجودهم ببلادهم ، وصحیح أنهم رفضوا التسليم بنهايتهم المؤسفة، وأنهم قاوموا هذه النهاية بشجاعة كبيرة ، ولكن موقفهم الشجاع جاء بعد ازدياد الخطر عليهم ، وبعد ضياع الأمل منهم ، فسقطت بلادهم واحدة بعد الأخرى ، وسلموا لأعدائهم في النهاية .

والغريب أن التحالف مع القوات المسيحية كان أمرا يلجئون إليه أحيانا بالضرورة ، ويلجئون إليه وأحيانا أخرى بالطلب والرغبة ، ولم يكن هذا التحالف ضد قوات مسيحية أخرى معادية ، وإنما كان ضد قوات المسلمين شركاء الدين والمصير والتاريخ ، فكان المسلمون يتحالفون مع المسلمين ضد مسلمين آخرين ، وأما أن يتحالف المسلمون معاً ضد المسيحيين ، فلم يرد ذلك في تاريخهم ، أو لم يكن ظاهرة مألوفة في سلوكهم وسياساتهم ، وهذا يعني أن سوء الظن والعداء كان واضحا بين المسلمين أنفسهم ، كما كان واضحا بالمثل بينهم وبين خصومهم المسيحيين .

ولإذا كان من الممكن تقسيم الجماعات الإسلامية الحاكمة بالأندلس في هذه الفترة إلى طوائف متميزة كالعرب والبربر والصقالية والمولدين ، فإن من غير الممكن القول بأن كل طائفة من هذه الطوائف كانت تتحالف فيما بينها على أساس من وحدة الأصل والجنس ، إذ لم يكن هناك نوع من تبادل الثقة حتى بين الحكام المنتسبين إلى جنس واحد ، ولم تكن أمورهم تدور دائماً حول الجنس المشترك ،

أو العقيدة الواحدة ، أو المصالح المشتركة لجماعة واحدة ، وإنما كانت أمورهم وأحوالهم تتأثر غالبا بوحدة القوة عند جماعة تعيش في منطقة تعلن عليها سلطتها ، وإذا كانت هذه الجماعة تعلن انتسابها في منطقتها إلى جنس أو أصل واحد ، فإنها لم تكن تلتزم بنصر شركائها في هذا الجنس أو هذا الأصل ماداموا خارج حدود المنطقة التي كانت تعيش فيها ، وكان انتساب جماعة تعيش في منطقة واحدة لأصل واحد كان وسيلة مقبولة من وسائل تجميع القوى لحفظ المصالح المشتركة ولحفظ الوجود داخل المنطقة وحدها .

ولم تقابل العصبية القوية الكبيرة فيما بينها ، ولم تجمع الطائفة الواحدة كل عناصرها ، ولو بدافع العصبية للأصل الواحد ، وظل الجميع حتى أصحاب العصبية الواحدة يعيشون في أماكن متباعدة ، ولا يلتقون في شيء ، ولا يجتمعون على شيء ، وتسابق أمراؤهم مع الزمن في الحصول على المتع السريعة ، وفي امتلاك نعيم الدنيا ، ولم يكن من أغراضهم إلا تكوين الجيوش القادرة على الدفاع عن الممتلكات الداخلة في مناطق نفوذهم وحدها ، وكان العداء وحب الانتقام متبادلين بين المتخاصمين إذا تقاربوا في المكان وتعادلوا في القوة ، كما كان الخوف والطمع يزداد بين الضعفاء والأقوياء المتجاورين في الأقاليم الواحدة ، أو المناطق القريبة ، ولم تكن هناك مسئولية وطنية واضحة أمام واحد من الحكام ، أو أمام جماعة من الجماعات ، وإنما كانت المسئولية حول قضايا الوطن موزعة على جماعات متفرقة ، ولا تشعر هذه الجماعات بأهمية القضايا الوطنية ، أو لا تريد أن تتحمل أعباءها .

لقد جاء ملوك الطوائف ليمثلوا وجهة النظر الحقيقية السكائمة في مجتمعهم المفتت ، فكانت هناك جماعات إسلامية تفصل عن طريق النسب بأجناس بعيدة



القراية ، وكانت طبيعتها تتعاطف مع أصولها البعيدة ، وتتخذ هذه الأصول وسيلة للوحدة العنصرية لتعيش بها في أمن من خطر الآخرين ، ولأن الوحدة الكبيرة الشاملة كانت تهدد هذا الشعور العنصري الضيق في صميمه فإن الجماعات كلها أبت أن تتلاقى في وحدة واحدة تحت زعامة واحدة ، وكأنها لم تكن من روح العصر أو لم تكن لها سابقة معروفة في تاريخ البلاد الأندلسية ، أو كأن التجربة لم تكن موفقة أو لم تكن صالحة للبيئة الأندلسية وظروفها . وانقسمت رقعة الوطن الأندلسي من الناحية الإقليمية إلى مناطق رئيسية كان منها :

( أ ) منطقة قرطبة ، وحكمها بنور جهور : ٤٢٢ - ٤٦١ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٦٨ م

( ب ) منطقة طليطلة ، وحكمها بنو ذى النون : ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٧٥ م

( ج ) منطقة إشبيلية ، وحكمها بنو عباد : ٤١٤ - ٤٨٤ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٩١ م

( د ) منطقة غرناطة ، وحكمها بنو زيري : ٤٠٣ - ٤٨٣ هـ / ١٠١٢ - ١٠٩٠ م

( هـ ) منطقة بلنسية ، وحكمها العامريون : ٤١٢ - ٤٧٨ هـ / ١٠٢١ - ١٠٨٥ م

( و ) منطقة مرسقطة ، وحكمها بنو هود : ٤١٠ - ٥٣٦ هـ / ١٠١٩ - ١١٤١ م

( ز ) منطقة بطليوس ، وحكمها بنو الألفس : ٤٢١ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٠ -

١٠٩٤ م

وبقى غير هذه المناطق الكبيرة عدد آخر من المدن والقواعد الأندلسية التي استقلت بنفسها ، وكونت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة أو أخرى ، ثم اختلفت بعض هذه الإمارات بانضمامها للأقوياء ، أو بخضوعها لهم ، وكلها كانت تختلف من حيث اتساع الرقعة والأهمية السياسية ، والعسكرية والثقافية ، وكلها كانت تنقصها العناصر اللازمة لتكوين الدول المستقرة ، ولم تكن واحدة منها تستطيع أن تعيش وحدها ، أو أن تستقل بشؤونها الصغرى بقرعة بالولاية ، والاضماف قدراتها ومواردها .

وتشابهت هذه الدول الصغيرة في المظاهر العامة المشتركة بينها ، وبقي لكل دولة منها بعد ذلك تاريخها وظروفها وأحوالها ، ومعنى ذلك أن الحكم العام عليها كلها لا يكون صحيحا أو سديدا دائما .

ولم يزد عهد ملوك المدن على ثمانين سنة ٣٩٩ - ٤٨٣ هـ / ١٠٠٨ - ١٠٩٠ م التأم بعدها شمل البلاد في رعاية المرابطين ٤٨٣ - ٥٤١ هـ / ١٠٩٠ - ١١٤٦ م ، وفي رعاية الموحدين بعدهم ٥٤١ - ٦٣٣ هـ / ١١٤٦ - ١٢٣٥ م واستردت بلاد الأندلس في عهد المرابطين والموحدين تفوقها العسكري القديم في شبه الجزيرة ولكنها لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية ، ولا تماسكها أيام دولة الأمويين ، لأن القوة التي وحدتها كانت من خارج حدودها ، وكانت تمثلها جماعات وافدة من شمالي إفريقية ، وهم المرابطون أو الموحدون الذين

كانت تحس بوجود العناصر البربرية الأندلسية وحدها ، ولم تكن العناصر البربرية غير إحدى القوى الكبيرة المتنازعة مع غيرها في طول البلاد وعرضها .

وإذا دحضت بلاد الأندلس في عهد المرابطين والموحدين بوفود المهاجرين البربر ، وأصبحت هذه البلاد وحدة من الوحدات الكثيرة التي كانت إمبراطورية المرابطين ثم إمبراطورية الموحدين يعدها ، وكانت رئاسة بلاد الأندلس تعيش بعيدا عنها في صحراء إفريقية ، وكانت رئاسات غربية عن المنطقة ولا تشاركها الشعور بمشكلاتها ، فأحسن الأندلسيون أيام حكم البربر بنماسة بلدهم ، وضياع سيادتهم ، ووجدوا في المرابطين ومن جاء بعدهم مجرد جماعات متخافة لا ترقى إلى مستواهم الحضارى والثقافى ، فلم يساندوهم ، ولم يدعموا سلطتهم ، وكان الأمويين وحدهم كانوا أصحاب الحق في حكم بلاد الأندلس ثم ذهبت بذهابهم روح الوحدة والانسجام حتى النهاية .

## ٢ - بنو عباد :

وإذا كان هناك نموذج مناسب لهذه الجماعات المبعثرة ، أول هذه القوى المتهالكة فإن بنى عباد ملوك إشبيلية ٤١٤ - ٤٨٤ / ١٠٢٣ - ١٠٩١ م كانوا أوضح الأمثلة على أحوال المسلمين بالأندلس كلها ، وربما كانوا أحسن النماذج ، وأكثرها صراحة وقوة ، لأنهم كانوا أقوياء ، أو كانت قوتهم فوق المستوى العام للمالك الإسلامية حولهم ، ثم كانت لهم أعظم شهرة بالبلاد كلها .

وعاش بنو عباد حياتهم وسط النعيم والرفاهية مع الإسراف والتطرف ومع المبالغة في طلب الزيادة حتى غايتها ، وكانوا يرعون التقسّم الحضارى في



بلادهم ويهتمون به ، فدعوا لها الممتازين من المفكرين والعلماء ، وذاعت شهرتهم  
بالمشرق العربي كله فجاءهم الباحثون عن العلم والدارسون له من كل مكان ، وكانت  
بلادهم أول الممالك الأندلسية التي أمل الناس في الخير معها ، ورجوا أن تلعب  
أهم الأدوار في حياة الأندلس كلها ، وكان الرجاء فيها أن تحمي بقوتها مستقبل  
الإسلام والمسلمين ما استطاعت .

وظل اسم بني عباد يتردد في بلاد الأندلس وقتنا طويلا وكانت لهم  
مملكة شهيرة تذكر أحوالها كتب التاريخ باهتمام ، وكأنها كانت النموذج  
الممتاز للدولة المتطورة في ظل تفتت العلاقات بين من كانوا يمثلون أمة واحدة ،  
وإذا كان مقياس العظمة ما يعرف عن الحكم من حياة الرفاهية ، وما يروى لهم  
من الآثار الأدبية وما يقال في مدائحهم من قصائد الشعر الجيد ، وما كان لهم  
من أثر فيمن حولهم ، أو في تاريخ بلادهم فإن ملوك بني عباد بإشبيلية كانوا  
النموذج الفريد لهذه الصورة كلها .

لقد تأسست هذه المملكة الواسعة الأرجاء في إشبيلية وما حولها بعد انهيار  
دولة العامين بالأندلس سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، وفي هذه السنة كان القاضي  
أبو الوليد إسماعيل بن عباد يحاول أن يأخذ طريقه إلى الشهرة والسيادة ، ويعمل  
في صمت وإصرار ليملك السلطة في مدينة إشبيلية التي تركت لقدرها ومصيرها  
كغيرها من بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة المشار إليها .

وجاد ابن عباد بجاله على الناس فأثار اهتمامهم به وجذب انتباههم نحوه  
واسكنه لم يحقق شيئا كثيرا في حياته فمات تاركا لأسرته بعده المال والشهرة والأمل في

السيادة على إشبيلية وما حولها ، ولم يكن العمل بعده سهلاً أمام ابنه محمد بن إسماعيل ، لأن أحداً من بني عباد لم يكن قد أصبح رئيساً قبله ، وإنما كانت السيادة هناك لأمره بربرية من بني حمود ، وبعد أن تنازعت هذه الأسرة فشلت في البقاء في مراكز السيادة على المنطقة واختار الناس لرئاستهم ثلاثة كانوا يمثلون وجهات النظر السائدة بينهم ، وكان منهم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وساعد هذا ماله وجوده ليفوز على شريكه فكسب قلوب الناس وأسرع لتأكيد وجوده سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م باختبار قوته أمام بني الألفطس أمراء بطليوس ولكنهم هزموه وتفوقوا عليه ، وضاعت جهوده معهم سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م ، وسنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ثم مات سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م .

وجاء بعده ابنه المعتضد عباد بن محمد فأرهم جيرانه الحاكمين في قواعد الأندلس القريبة منه بالحروب والإتاوات المالية ، وفرض عليهم سيادته السياسية والعسكرية ، وحارب أيضاً بني الألفطس سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م كما فعل أبوه قبله ولم تكن حروبهم إلا محاولات تخريبية لم يكسب بسببها شيئاً فصالحهم سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ليفرغ من جديد لجيرانه الأمراء المسلمين المستضعفين ، وبسبب نتائج الحرب معهم والغدر بهم ٤٤٥ هـ / ١٠٦٣ م ، ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م أصبحت إشبيلية مركزاً مهماً لمنطقة واسعة كانت تشمل جزءاً كبيراً من جنوبي شبه الجزيرة الأندلسية ، وعاش فيها المعتضد سوداً قوياً يرجو تحقيق آماله في النصر الدائم على من حوله .

ولم يتركه أعداؤه غير المسلمين ليعيش طويلاً مع أحلام نصره فغزوا بلاده وهددوا سلطته بها سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٦٣ م فصالحهم بماله ، وظل يدفع لهم

الإناوات المالية طول حياته ، وصان منهم بالمال ملكه ومكاسبه من حروبه الطويلة مع جيرانه المسلمين ثم مات سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م .

وتولى ملك إشبيلية بعده ابنه المعتمد بن عباد سنة ٤٦١ - ٤٨٤ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٩١ م ، وكان أشهر ملوك الطوائف وأعظمهم شأنًا ، وذاعت شهرة المعتمد بالشعر والأدب والفروسية وحب الحياة الناعمة ، وسار على طريق من سبقوه من بني عباد فتنازع على أخذ قرطبة من حكامها بني جمهور مع المأمون ابن ذى النون أمير طليطلة ، وكان المأمون بدوره ينافس المعتمد في الشهرة وحب السيادة ، ولما أحاط الخطر ببني جمهور استنصروا ببني عباد ضد ابن ذى النون ، فبعثوا لهم جيشًا قويًا قضى عليهم وأخذ بلادم سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وبذلك انضمت قرطبة عاصمة الأندلس الشهيرة لإشبيلية ، واتسع ملك أصحابها ، وأصبحت لهم المسكنة الأولى في عالم المسلمين حولهم ، وزادت شهرتهم ونفوذهم وتضاعفت قوة المعتمد بن عباد ، فحارب بها بني زيري ملوك غرناطة ، واستولى على بعض قواعدهم الشمالية سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، ولكنهم رفضوا الهزيمة أمامه ، ولم يجدوا من وسائل السكيد المؤثرة فيه إلا أن يستعينوا بعدوهم ألفونسو السادس ملك قشتالة المسيحي ، ودفعوا له الثمن الوافي لخدمات المرتزقة من جنوده وأغاروا بهم على أملاك بني عباد وهددوهم ، فأسرع المعتمد بدوره للتحالف مع ألفونسو السادس نفسه ، وتعهد ملك قشتالة لابن عباد بأن يعاونه بالجنود المرتزقة ضد أعدائه المسلمين ، وتعهد ابن عباد للملك قشتالة بدفع المال اللازم له ، وبعدم الاعتراض على مشروعه لفتح طليطلة وكانت من بلاد المسلمين ، وقبل الملك المسيحي أن يتعاون مع أمير إشبيلية ضد أمير غرناطة ، وكان قد اتفق مع أمير غرناطة على أن يشاركه في خصومة أمير إشبيلية ، وكان يأخذ المال من



الجانبين معاً ، وقيل المعتمد من جانبه أن يظل صامتا أمام تحديات الأسباب المتعصبين للإمارات الإسلامية الأخرى ، وأن يقف متفرجا على المسلمين حوله وهم يصرعون بيد حلفائه واحدا بعد الآخر لكي يفوز بالسيادة على الإمارات القريبة من بلاده .

وفي محاولة لإثارة الغضب في نفس المعتمد بن عباد رفض رسول ملك قشتالة أن يقبض منه الإتاوة المفروضة عليه سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م . فبجة أن ماله كان زائفا ، وهدد الرسول القشتالي ملك العرب باحتلال أرضه : وضياع بلاده فغضب الملك العربي وثار وقتل الرسول الجريء وسجن أصحابه ، وبان الشر صريحا بين الحليفين : المعتمد بن عباد ملك اشبيلية وألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأصرع النصراني بمحاصر اشبيلية ، فدافع عنها أهلها ببسالة الشجعان ، ولكن دفاعهم لم يقنع ملكهم بجذوى العمل منفردا ، ففكر في استدعاء المرابطين لحكام إفريقية لنجدته ، وكانت هذه فكرة عارضة لم تتأكد بعد في نفسه ، فاستعاض عنها بالتفاهم مع أعدائه ، وترك لهم الأبرى وتنازلوا له عن بعض ما طلبه .

وفي سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م أعلن ألفونسو السادس الحرب على طليطلة وكان يحكمها بنو ذى النون وطالت الحرب ستة أعوام ثم سقطت بعدها المدينة العظيمة في يد المسيحيين سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م بعد أن حكمها المسلمون اثنتين وسبعين وثلاثمائة سنة ، ووقف المعتمد هزيمة المسلمين في طليطلة جامدا لا يفض ولا يشور ، ولا يأسف ولا يعترض ، وربما كان يسرف في إظهار الولاء لأعدائه المنتصرين ، وكان يظن أنه بالمال وحده يستطيع أن يعيش حياته وسط الخطر ، ومع أن سقوط طليطلة كان ذروة النصر للمسيحيين في بلاد المسلمين ، وكان نذيرا بالنهاية لحكم

المسلمين جميعاً في بلاد الأندلس كلها إلا أن المعتمد ظل بعيداً عن أحداثها بجهد  
وماله وكان أى محاولة منه لم تكن تفيد شيئاً في دفع الكارثة .

وزادت جرأة أعداء المسلمين عليهم بعد سقوط طليطلة ، وظهر من الحرب  
حول هذه المدينة مدى عجز أصحابها عن الدفاع عنها ، ومدى ضعفهم أمام  
عدوهم ، ورأى المسلمون بعد فوات الوقت كيف قدّموا بأنفسهم بسبب تفرقهم  
إلى عدوهم الوسيلة المناسبة لظهور سلطانه عليهم ، ورأوا جميعاً شبح السقوط أمام  
أعينهم ، فشاعت بينهم فكرة استدعاء المرابطين حكام إفريقية ، وكان حماس  
الشعب<sup>(١)</sup> الأندلسي لهذا الاستدعاء عظيماً ، لأنه كان يدرك حجم الخطر المحيط  
بكل شيء حوله ، كما كان يدرك عجز حكامه عن دفع هذا الخطر .

وزادت الرغبة في استدعاء المرابطين للأندلس بعد أن جاء دور بني عباد  
ملوك إشبيلية على طريق الضياع أمام العدو المشترك لكل المسلمين ، فبعد سقوط  
طليطلة أخذ ملك قشتالة يغير على أملاك بني عباد ، وكان يريد أن يتقدم  
في سيره المظفر ليفتح الولايات الإسلامية كلها ، ولاحت للمعتمد طوابع المصير  
المروع الذي سوف ينحدر إليه إذا لم يبحث عن الطريق الصحيح للنجدة السريعة

---

(١) كأن استدعاء المرابطين للأندلس كان رغبة شعبية قوية ، وقد تعرض  
شعب الأندلس الواعي المتحضر للخطر المباشر ، ولم يجد أمامه طريقاً للنجدة إلا  
الاستغاثة بالمسلمين في إفريقية ، وقد كرر الأندلسيون رجاءهم للمسلمين في مصر  
وتركيا عندما وضعت أمامهم النهاية للؤكدّة : راجع نهاية الأندلس الصفحات

فرأى أن يستنصر بالمرابطين حكام المغرب ، واتخذ أمراء الأندلس معه في الرأي لأول مرة ، وتطورت فكرة المعتمد بن عباد إلى خطة عمليّة أيدها (١) سائر ملوك الطوائف ومعهم شعب الأندلس كله .

### ٣ - المرابطون :

وقبل المعتمد بن عباد - ملك العرب وأقوى حكام المسلمين بالأندلس - أن تأتية المخاطر من المرابطين المسلم - سادة المغرب ، ولا تأتية من أعدائه المسيحيين حكام قشتالة ، وكان عليه أن يختار بين أن يسحقه المسيحيون أو أن يلقي بنفسه في يد المرابطين ، ففضل - إذا لم يكن من أحد الأمرين بد أن يسوق الجمل في صحراء إفريقية على أن يرعى الخنازير في شمالي أسبانيا .

وأحسن شعبه معه بمخرج الموقف وخطورته ، فأمرعت الوفود الأندلسية للبحث عن النجدة العسكرية ، وتزعمها فقهاء المسلمين وقضاةهم ، وكسب هؤلاء بتوسلاتهم قلب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، وبعدهم أرسل الأمراء والملوك الأندلسيون استغاثاتهم بدورهم (٢) .

---

(١) عارض والى مالقة في فكرة استدعاء المرابطين ، وكان يرى أنهم أشد خطر على الأندلسيين من النصارى أنفسهم ، وأنه يمكن دفع الخطر بالاتحاد والتعاون والتضحية : انظر تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ٥٨/١ - ٨٠ .

(٢) وقع على الرسالة التي وجهت ليوسف بن تاشفين ثلاثة عشر أميرا من حكام الأندلس .



وجاء استنصار الأندلسيين بالمرابطين بعد سقوط طليطلة في يد الأعداء ،  
وكانت هذه المدينة من أعظم مدن الأندلس وأشهرها ، وجاء بعد تهديد المسيحيين  
المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، وكان المعتمد عندما طلب النجدة من المرابطين  
بافريقيه كان يخشى أن تكرر مأساة طليطلة في بلاده ، أو كان يرجو السلامة لنفسه  
وبلدوته ولمن كانوا معرضين للاخطار مثله ، وأما قضية بلاد الأندلس كوحدة  
كبيرة ، أو كوطن عام يعيش فيه المسلمون القاطنون في إشبيلية وفي غير إشبيلية ،  
فربما لم يكن هذا الملك يحس بها إحساساً مباشراً .

ويبدو غريباً أن تساؤلات الناس وحكامهم بالأندلس لم تكن تدور  
حول الطريقة المناسبة لاستئناف حياة جديدة في البلاد المهتدة بالأعداء  
من كل جانب ، ولم يكن الحديث هناك مثاراً حول وحدة القوى الإسلامية  
تحت زعامة واحدة ، أو حول نوع من التماسك القوى الذي يظهر البلاد كوحدة  
قوية أمام الخطر الدائم ، ولو كان مثل هذا التساؤل معروضا أمام الناس لوجدوا  
له نوعاً من الإجابة الصحيحة ، وإنما أراد الناس وأراد الحكام معهم دفع الخطر عن  
أنفسهم ولو بهزيمة سريعة تؤخر ساعات الموت وتؤجل النهاية المؤكدة وتشعر  
أعداءهم بخطر اندفاعاتهم المتهورة .

وانتصر المرابطون على المسيحيين في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، واسترد عالم  
المسلمين المتنازعين بالأندلس بانتصارهم بعض أنفاس الحياة من جديد ، ولم يكن  
انتصار المرابطين حلاً جزرياً للمشكلة الأندلسية من أساسها ، وإنما كان حلاً  
لمشكلة عارضة : وهي دفع أخطار المعتدين الذين هددوا سلامة إشبيلية وما حولها ،  
وتراجع المسيحيون للشمال بعد هزيمتهم حائقين يرجون أن تأتيهم فرص العمل

للمضاد من جديد؛ وتراجع المرابطون لبلادهم في المغرب التزاما بالشروط الصريحة التي كانت تفرض عليهم للعودة بعد النصر ؛ ورجع حكام المدن الأندلسية إلى مراكز نفوذهم وسلطتهم ، ولاشئ بعد ذلك إلا جث الضحايا من الجانبين . وقبل رجوع المرابطين اجتمع حولهم ملوك الطوائف وكانوا زعماء جماعات صغيرة العدد أنانية الغاية ، كل واحد منهم كان يشتكى الآخر ، ويتهمة بالحرص على الأطماع الشخصية ، ولم يذكر أحدهم مشكلة البلاد الأساسية ، وكان هذه المشكلة كانت بعيدة عن مجال تفكيرهم ، أو كانت غير واضحة أمامهم ، فلم يسأل أحدهم عن الطريقة المأمونة لجمع الناس والبلاد تحت قيادة واحدة يختارها الشعب أو تختارها هيئة تحكم يتفق عليها ، وإنما أراد كل منهم أن يستأنف حياته بعد انتصار المرابطين بنفس الأسلوب الذي كانوا يتبعونه قبل مجيئهم .

لقد جاء المرابطون إذا كعلاج سريع لحالة خطيرة طارئة ، وبعد نجاحهم في إبعاد الخطر عن ملوك المدن الأندلسية رجع هؤلاء الملوك إلى سيرتهم الأولى ، وإلى حالتهم المؤسسية من الانقسام والتفتت والمنازعات ، وكان هذه العناصر الأندلسية كانت لا تريد أن تجتمع أبدا ، وقد عاشت حياتها متباعدة ، وألفت الحياة في وحدات منفصلة ، ولهذا انصرفت كلها بعد النصر الكبير الذي شاركت فيه بجهدا إلى تثبيت كياناتها المنفصل ، ولم تحاول أن تتجمع في وحدة جديدة تقوى وجودها ، وتعطيها نوعا من الترابط الذي يتعارف عليه الناس .

ولم يفعل المرابطون شيئا سوى أن انتصروا على أعداء المسلمين في موقعة واحدة ، وبعد انتصارهم رجعوا للمغرب دون أن يتعقبوا الأعداء في بلادهم ، ودون أن يستردوا منهم ما كسبوه من المسلمين ، ودون أن يبحثوا قضية الوطن

الأندلسي ، وقضية المسلمين في هذا الوطن ، ودون أن يتفقوا على نوع من التعاون أو التحالف بين المسلمين هنا وهناك ، ولم تعرض للبحث وجهات نظر جديدة تحاول علاج الأحوال القائمة ، وكأن تفرقة الإمارات وتوزيع السلطة فيها على جماعات متعددة الأهواء والرغبات كان نظاما ثابتا أو كان أمرا مقبولا حتى بعد ظهور عجزه وفشله عن حماية الناس ورعاية مصالحهم .

أما كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بالمغرب يحس بكفاءة قواته ، ويعرف رغبتها في الجهاد عندما استنصره أهل الأندلس ، وكان قد صادف في معاركه إفريقية قبل دخول الأندلس نجاحا عظيما ، وربما كان ينسبه كسلم قوى الإيمان إلى تأييد خارجي من قوة الله سبحانه وتعالى ، وقد انتصر يوسف بن تاشفين في إفريقية ، وأقام هناك لنفسه دولة كبيرة ، واتسعت رقعة هذه الدولة ، واستقرت أمورها ، ولم يبق أمامه إلا أن يؤدي دور الزعيم المسلم المسئول عن العمل في ميادين الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين ، ووجد أمامه مجال العمل واسعا ، فتحمل بأمانة ورغبة شرف العمل لصالح المسلمين ودينهم ، وكانت تسانده قوة عسكرية مؤمنة تتحمس للجهاد ، وترغب في ظلال الجنة .

وقد يساعد ذلك على فهم بعض الأسباب التي دفعت المرابطين إلى التقدم للحرب في الأندلس بعيدا عن بلادهم ، ومع ذلك فلا يبدو أن زعيم المرابطين كان يخطط لعمل حاسم وراء البحر ، بمعنى أنه لم يقصد نظر القضية بحملتها ، ولم يهدف إلى حل مشكلة بلاد الأندلس من أساسها ، وإنما ترك الأمور غير واضحة بين المسلمين والمسيحيين هناك ، فرجع المسيحيون لبلادهم بعد هزيمتهم ، ولم ينقذ منهم مدينة طليطلة الساقطة في أيديهم قبل ذلك بعام واحد ، ورجع



الامراء المسلمون مع جيوشهم ولم يسألهم عن أعمالهم للمستقبل ، ولا شك أن أحداً من المرابطين أو الأندلسيين لم يكن يؤمن بزوال الخطر عن المسلمين بعد الانتصار في موقعة الزلاقة الشهيرة<sup>(١)</sup> ، وظل الخطر قائماً وتمرص له الأندلسيون بعد رحيل المرابطين من جديد .

وإذا كانت قضية الأندلس في مجملها تهم المسلمين الأقوياء بشمال إفريقيا فكان المأمول في يوسف بن تاشفين ألا يكون مجرد رئيس لجماعات مسلحة تعيد الأمن للمناطق الإسلامية المضطربة هناك ثم تعود دون عمل حاسم ، وإنما كان الأمل فيه أول مرة أن يعالج الأمور كلها بما يضمن سلامة الناس وأمنهم في حاضرهم ومستقبلهم ، وكان يعرف أخطاء أمراء المسلمين ، ويعرف الأخطار التي كانت تهدد كل الناس بهذه البلاد ، ولكنه كان وافداً جديداً على العمل في هذا الميدان الجديد ، أو كان يعمل في غير بلاده هو ملتزم بشروط يجد من واجبه الوفاء بها ، ولذلك أدى العمل الذي طلب منه ، ولم يزد عليه ، وترك العمل الأخير لأيامه القادمة .

ويبدو أحياناً من بعض الظواهر القوية أن جرب المرابطين بالأندلس لم تكن لأغراض إنسانية خالصة ، ولم تكن أيضاً لوجه العقيدة الدينية وحدها ، وإنما كانت مع ذلك للأمل في خدمة المصالح المباشرة لبطل بربري مسلم كان يريد أن يقوى سلطته في بلاده بإرضاء عواطف شعبه الدينية ، وقد حقق له الانتصار على المسيحيين في الأندلس الشهرة الكبيرة والذكر العظيم في عالم

---

(١) كانت هذه الموقعة في مكان قريب من يطلوس في: ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م ، راجع تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ١/ ٦٧-١٢٥

المسلمين كله <sup>(١)</sup> ، وخدم هذا الانتصار وجوده كحاكم قوى على امبراطورية واسعة بإفريقية ، وإذا كان المسلمون بالأندلس في حاجة إلى قوته فإن العمل في ميادين الجهاد الدينية كان فيه تجديد لنشاط جيشه الصحراوي ، وكان فيه إشباع لرغبات هذا الجيش في الكسب والثروة ، ثم كان فيه مع ذلك تأمين لحدود إفريقية من الشمال .

رجع الأمراء المسلمون إلى مناطق نفوذهم ليستأنفوا الحياة التي ألفوها ، ورجع المسيحيون بعد هزيمتهم ليعودوا من جديد للعمل ضد المسلمين ، بعد أن عطلهم انتصار المرابطين عليهم عن بلوغ غاياتهم وأهدافهم ، وفاجأ الخطر المسيحي المسلمين مرة أخرى ، فطلبوا المرابطين من جديد ، وعاد المرابطون للأندلس ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، ولم يكونوا في هذه المرة مجرد قوات احتياطية للمسلمين المظلومين في الأندلس ، ورفضوا أن يحصروا دورهم في المساعدات عند الحاجة إليها ، وإنما جاءوا ليقضوا على ملوك الطوائف جميعا ، وليعيشوا في الأندلس حكاما مسلمين يمثلون النماذج الطيبة للمجاهدين المخلصين .

وإذا كانت المكاسب المالية وحدها هي التي تدفعهم للحرب فهذه كانت في الأندلس لا في إفريقية ، وإذا كانوا يريدون دفع الخطر عن المسلمين المظلومين بالأندلس فلم يكن الخطر ممثلا في المسيحيين وحدهم ، وإنما كان الخطر قائما أيضا في وجود الأمراء المسلمين الذين كانوا يفرقون في العصبية والأطماع والفتن ،

---

(١) راجع : قيام دولة المرابطين الصفحات ٢٣١ — ٤٢٤ .

وكان لا يمكن تحقيق الأمل في النجاة والسلامة للمسلمين ودينهم إلا بالقضاء على ملوك المدن جميعا ، ثم إذا كانت الفاية أن يحصل المرابطون لبلادم على امتيازات عسكرية فالأندلس كانت تمثل خط الدفاع الشمالى لهذه البلاد .

وجاء يوسف بن تاشفين في المرة<sup>(١)</sup> الأخيرة لبلاد الأندلس ليكمل باسم الدين والشرف ، وليدافع عن المسلمين وحياتهم ومستقبلهم ، ولم يجد وسيلة سليمة لخدمة القضية التي جاء من أجلها إلا بالقضاء على الحكام المسلمين قبل أن يواجه وحده الجيوش المسيحية ، وكان يعرف أن هؤلاء الحكام يدركون رغبات قلبه ، وقد حاولوا بسبب ذلك أن يتحالفوا مع أعدائهم وأعدائهم ضده ، فخشى أن يقاتل في ميدانين في وقت واحد ، ويظهر من محاولة أمراء الأندلس المسلمين التعاون مع المسيحيين بعد أن كشفوا رغبتهم في القضاء على المسلمين جميعا بالأندلس أن قضية الوطن عندهؤلاء الأمراء كانت أمرا ثانويا إزاء مصالحهم المباشرة في السيادة على المنطقة .

وعاش المرابطون في الأندلس سادة لم نشاط المحاربين الشجعان ، وفيهم خشية الزاهدين الأتقياء ، ولكن لم يطل بهم عصر القوة ، أولم تدم عندهم عناصر القوة ، فشملهم النعيم ، وفقنوا بالدنيا بعد حياة البداوة المرهقة في صحراء إفريقيا القاحلة ، فضعفت هممتهم ، وضاع حماسهم ، وجاءت نهايتهم بعد أن هاجمتهم جماعات أخرى

---

(١) بعد أن عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م استنصره المعتد بن هباد مرة أخرى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، وأخفقت محاولته في هذه المرة فرجع لبلاده ، ثم عاد الأندلس في المرة الأخيرة بعد أن انتهى إلى فرار الاستيلاء عليها .



من المجاهدين الجدد القادمين مثلهم من صحراء إفريقيا ——— ، واندفع  
المجاهدون الجدد بالحماس الديني إلى تكوين دولة واسعة شملت لأول مرة في تاريخ  
المغرب كل شمالي إفريقيا والأندلس.

وجاء دور المرابطين في الهزيمة أمام الموحدين الأقوياء، وكانت بداية نهايتهم  
قد ظهرت قبل انتصار الموحدين عليهم بوقت طويل ، ثم انتصر الموحدون على  
المسيحيين<sup>(١)</sup> أيضا بالأندلس وحكموها بعد ذهاب المرابطين سنة ٥٩١/١١٩٥ م ،  
ولم تطل بهم الحياة الطيبة بعد النصر لأن أوروبا كلها أعلنت عليهم حربا صليبية  
صريحة<sup>(٢)</sup> ، فانهزموا أمامها سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٣ م ، وفقدوا السيادة على المنطقة  
كلها وفقدوا الأرض معها ، وضاعت ثمرات كفاحهم الطويل ، وعاد ممثلوهم إلى  
إفريقية من جديد ، وتركوا المسلمين الأندلسيين سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ليواجهوا  
نهايتهم القريبة المؤسفة .

ولم تسكن محاولات المرابطين والموحدين ذات نتائج مصيرية نهائية ،  
ولمّا كانت لتأجيل الفصل الأخير في المأساة ، ولتأخير ساعات الموت ، لأن الخطر  
كان ملحا ومستمرا ، ولم تقابله خطط عادية ، ولم يحاول المرابطون ولا الموحدون  
بمدهم أن يقضوا عليه بعد انتصارهم ، بل عاشوا مع الأعداء في مكان واحد  
والتمزوا معهم جانب الحذر ، وتركوهم مع آمالهم في انتظار ساعات النصر  
الأخيرة عليهم ؛ ومعنى هذا أن تبعية الأندلس للمرابطين والموحدين لم تحل

---

(١) في معركة الأرك: ٩ شعبان ٥٩١ هـ / ١٩ / ٧ / ١١٩٥ م

(٢) راجع تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢ / ٧٦ - ١٢٤ .

المشكلة الأندلسية المستعصية ، وبقى العدو في مكانه تتجسم فيه أشباح الخطر ، ولم تستطع قوات إفريقية الصعراوية أن تستمر هناك قوية فخضعت للحياة الناعمة ، وخضعت لضغط القوة ، ورغم أن جماعات أندلسية كثيرة كانت راغبة في حكم المرابطين والوحديين لأنهم جميعا كانوا يمثلون جماعات متدينة تقيم السنة ، وتمسك بمبادئ الدين ، وتلقى الضرائب الخالقة لرأى الإسلام إلا أن جماعات أخرى من الأندلسيين أنفسهم كانت ترى وجودهم يمثل السلطة الأجنبية ، وكانت مع ذلك تحس بتفوقها الحضارى عليهم .

#### ٤ - ضغط الأعداء :

واندفعت نحو بلاد الأندلس قوات المسيحيين المشتركة ، ودفعتها الإرادة القوية والحماس الطاغى ، ولاشك أن أعظم الأخطار التى واجهت للمسلمين منذ وجودهم بالأندلس كانت تتمثل فى مقاومة العناصر المسيحية الهاربة منهم إلى الشمال ، وكانت هذه عناصر قوية كونت لنفسها شبه دولة فى الخفاء والصمت منذ وقت بعيد وربما لم يشعر المسلمون بوجودها فى مراحل تطورها الأولى ، أو شعروا بوجودها وصرقتهم عنها أمور أخرى وجدوا لها أهمية عاجلة ، ثم فاجأتهم هذه الدولة ، بعد أن أصبحت قوة تستطيع العدوان والمقاومة ، وكانت تتخذ فى دعايتها حججا قوية مثل تحرير الوطن والعقيدة من سيطرة المسلمين الأجانب ، واستطاعت أن تبلور هدفها بوضوح فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، وكانت تتخذ لنفسها كيانا متميزا إلى جانب دولة المسلمين ، وعبر هذا الكيان المتميز عن وجود مرحلة من مراحل الصراع

الطويل بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا ، وجاءت الصورة القوية الجديدة بعد مراحل طويلة من العمل في الظلام ، وبعد أن كان للقوط المنتهزمون أمام العرب أيام الفتح ٩٣ هـ / ٧١٢ م يعيشون حياة متواضعة وراء الصخور في أسبانيا الشمالية الغربية أصبحت له دولة راسخة الدعائم تدعو إلى دخول معركة الحياة أو الموت مع الدولة الإسلامية في الجنوب ، وقد شغلت هذه المعركة ، وقتاً طويلاً من تاريخ العرب في أسبانيا ، وإذا كان صحيحاً أن المقاومة للنفوذ العربي بدأت في أسبانيا منذ معارك الفتح الأولى ، وأنها كانت ظاهراً إيجابية قام بها القوط المنتهزمون أنفسهم بعد الهزيمة ، وأنهم اختفوا وراء الجبال بغرض الحماية للوقت في وقت الضعف والخوف فمضى هذا أن الروح القومية الأسبانية ظهرت في الوجود مبكرة ، ولم تحركها الاعتبارات الدينية وحدها بل ساهمت عوامل أخرى سياسية واجتماعية وجغرافية في تقوية هذه الروح ، وفي انفراد نموها .

واجتمعت حول هذه الحركة عناصر كثيرة مختلفة كانت تتأثر بالدعاية لمستقبل المسيحية وحرية الوطن ، وكانت أوروبا للمسيحية المتعصبة تثيرها دائماً ضد المسلمين في كل مكان ، ولا شك أن الحروب الأخرى بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس كانت تتخذ صورة الممارك الصليبية العريضة ، فقد نشطت أوروبا في هذه الحروب ، وكانت تقف خلف الدفعات المسيحية المتقدمة للعمل ضد المسلمين في أسبانيا ، وإذا كان المسلمون يجاهدون في بلاد بعيدة عن مراكز الثقل الإسلامية في الشرق ، وإذا كانوا في الوقت نفسه متفرقين تحكم عواطفهم وتصرفاتهم أحقاد صغيرة معطلة فإن أعداءهم كان يحاربون في بلاد قريبة من مراكز الثقل المسيحية ، وكانوا يعملون معاً لصالح الهدف الواحد



المشرك وهو الانتصار على المسلمين في النهاية ، وفي نفس الوقت كان المسلمون هناك يعملون وحدهم ، ويشتركون في صراع مصيرى طويل ضد قوات كبيرة متعصبة ، ومن المعروف أنه منذ ظهور شخصية الدولة الأموية بالأندلس سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م وهي تعمل وحدها ، وكأنها كانت جزءاً منفصلاً عن عالم المسلمين ، أو جزءاً غير مشارك في أحداث هذا العالم ، أو جزءاً غير مرتبط مع المسلمين في آمالهم ، وغير خاضع لمصيرهم ، واستمرت بلاد الأندلس بعيدة بكيانها وسياستها وذوقها ومزاجها وآمالها عن أن تشارك في حياة المسلمين بالشرق العربى ، ولم يشارك المسلمون بدورهم في مشكلاتها ، فتركوها لشأنها ولظروفها ومصيرها وقدرها ، وكان عليها أن تصارع الأخطار طول حياتها وحدها ، وإذا كانت أيام قوتها تمثل جانباً قوياً من عالم المسلمين ، فإنها في أيام ضعفها لم تجد من المسلمين عوناً كافياً لأن بلاد المسلمين كانت تتعرض مثلاً لضغط الأعداء عليها في كل مكان .

ونشطت حركات التقدم المسيحية ضد المسلمين ، وسارت بخطوات ثابتة نحو تنصير أسبانيا وتوحيدها ، وكسب المسيحيون من المسلمين مواقع جديدة ، وسقطت أمامهم المدن الإسلامية واحدة بعد الأخرى ؛ وغدت قواعد الأندلس الكبرى مثل مرقسطة ، وبطليوس ، وقرطبة<sup>(١)</sup> ، وبلنسية ، وقرطاجنة ، ومرسية وإشبيلية مدناً أسبانية مسيحية<sup>(٢)</sup> ؛ ومال ميزان القوى في شبه الجزيرة الأسبانية لصالح مملكة قشتالة المسيحية وحدها ، وفي منتصف القرن السابع الهجرى

(١) كانت قرطبة عاصمة للدولة الإسلامية منذ سنة ٧١٦ هـ / ٧٩٧ م

(٢) كان سقوط هذه المدن الأندلسية الشهيرة في السنوات الآتية :

٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ، ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م ، ٦٦٦ هـ / ١٢٤٨ م .

والثالث عشر الميلادي كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت في يد أسبانيا المسيحية ، وقد المسلمون قواتهم ومواردهم تباعا ، وانكشت رقعة بلادهم تدريجيا ، حتى انحصرت مساحة الوطن الأندلسي الكبير في مملكة غرناطة وحدها ٦٣٠ - ٨٩٨ هـ / ١٢٣٣ - ١٤٩٢ م وكانت مملكة غرناطة الصغيرة هي كل ما تبقى من بلاد الإسلام بالأندلس ، أو كانت الإشرافة الأخيرة لشمس الاسلام الفاربة هناك كما يقول المؤرخون .

#### ٥ - غرناطة :

وبقيت غرناطة مركزاً إسلامياً تلتقى فيه الفلول الحاربة المتراجعة ، وتجمعات اللاجئين من كل مكان ، وظلت تعيش وسط الأخطار والأحقاد والمؤامرات ، وكانت ترمز ببقائها إلى إرادة الحياة عند المهزمين ، وأثيرت حول بقائها التساؤلات الكثيرة ، وقدم الكتاب الكثير من التعليقات المقبولة وغير المقبولة حول بقائها وسلامتها طول هذا العهد الطويل ، وكان منها لجوؤها لحسن السياسة ، ودفعها ضريبة البقاء لأعدائها بسخاء ، وتقبلها لأبطال الإسلام الباقين بالأندلس ، ولم يكن مأمولا ولا متوقفا أن يكون الانهيار سريعا لجماعات بشرية قوية متحضرة ، ولشعب عظيم عاش فترات طويلة على أرض الأندلس ، وكانت له على هذه الأرض حضارة ممتازة وأمجاد عظيمة .

وعاشت مملكة غرناطة مائتين وخمسين عاما بين قوات معادية تحيط بها من كل جانب ، وقاومت وحدها بشجاعة بعد أن جاءت نهاية المسلمين بالأندلس ، وبعد أن ضاع منهم الأمل والمستقبل ، وكان أعداؤها يستغلون ضدها عوامل الزمن ، وكلها كانت في صالحهم وحدهم ، وأرادوا الكسب بأقل التضحيات ، وشغلهم



عنها أيضاً انتصاراتهم على المسلمين بعد الصراع الطويل ، وكانوا يترددون في العمل ضدها بعد أن أصبحت ملجأاً للشجعان القادرين على العمل ببسالة في حرب الحياة أو الموت الأخيرة ، وبعد أن ارتبطت بنوع من التحالف مع بنى مرين حكام إفريقية .

ثم اتحدت مملكتا قشتالة وأراجوان المسيعيتان سنة ١٤٦٩ / ٨٧٤ م ، وكان هذا الاتحاد نذيراً نهائياً بضياغ نفوذ المسلمين كله من الأندلس ، وأسرع الدمار إلى غرناطة سنة ٨٨٨ - ٨٩٠ / ١٤٨٣ - ١٤٨٥ م بعد أن تورط حكامها في حروب أهلية مدمرة ، ولعبت بهم قوات أعدائهم ، وانتهى دورهم ، وسقطت دولتهم ، وضاع وجودهم كحكام في بلاد كانت تخضع لأثر العوامل الجغرافية والقومية والدينية ، وكل هذه العوامل كانت ضد وجود المسلمين في غرناطة ، واضطر الحاكم المسلم إلى التسليم للأعداء سنة ١٤٩٢ / ٨٩٨ م وقبل أعداؤه له سبعا وستين شرطاً ، وكانت كاهها تبدو ملائمة لأحوال ضعفايا الصراع الطويل بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الأندلس ، ووجد الملك أبو عبدالله محمد بن علي آخر ملوك الأندلس في هذه الشروط نوعاً من الراحة النفسية بعد الهزيمة ، وكان يتوهم وجود الشرف عند أعدائه ويظنهم سيلتزمون بشروط التسليم المفصلة ، فيضمنون له شيئاً من الحقوق الإنسانية المقبولة .

ولكن أعداءه كانوا يخضعون لسلطات الكنيسة المتعصبة ، يعملون باسم الدين قبل الوطن وكانوا كأي جماعة متعصبة لا تهتم بعهودها ، ولا تفهم معنى للاحتفاظ بهذه العهود إذا كانت تتعلق بالمخالفين لها في الدين ، وإذا كان المسلمون يمثلون في رأي رجال الدين المسيحيين خطراً على عقيدتهم فقد حرصوا على الإشراف على عذابهم ، وكانوا يمثلون روح العصر الصليبية المريضة .



وبدأت سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩ م حملة لإكراه المسلمين على  
التنصر ، وواصلت محاكم التفتيش عملها في مواطن المسلمين بالأندلس ، وفي  
سنة ٩٠٧هـ / ١٥٠١ م صدر قرار بتخيير المسلمين بين التنصر أو ترك البلاد  
كلها للسيحيين وحدهم ، فترك المسلمون أسبانيا ولجئوا لشمال إفريقيا ، وفي  
سنة ١٠١٨هـ / ١٦٠٩ م كانت آخر مرحلة من مراحل جلاء المسلمين عن  
أسبانيا كلها وانتهت قصة الصراع الطويل بطرد المسلمين من الأندلس وضياع  
بلادهم كلها ، وكان بأسبانيا عند سقوط غرناطة ثلاثة ملايين مسلم تعرضوا  
كلهم للمحن والآلام فمات بعضهم بالمذاب ، ولجأ الآخرون منهم إلى شمال  
إفريقية ليعيشوا مع المسلمين هناك .

## الفصل الرابع

### حركة المجتمع

- ١ - تمهيد
- ٢ - عند الفتح
- ٣ - مجتمع المسلمين
- ٤ - الانجذاب للشرق
- ٥ - حياة الاستقرار
- ٦ - حول الدين
- ٧ - عناصر جديدة
- ٨ - مجتمع الأقوياء
- ٩ - وحدات منفصلة
- ١٠ - النهاية





تعرض كتب التاريخ إشارات واضحة عن حال المجتمع الأسباني عند ظهور حركة النشاط الحضاري العربي في شمال إفريقيا ، وتشير إلى أن هذا المجتمع كانت له معالم الصور العادية المعروفة عن مجتمعات العصور المتخلفة ، بمعنى وضوح التكتلات المنفصلة غير المتعاطفة التي لم تتلاق عند أي وحدة مقبولة ، مثل وحدة الرأي في العقيدة ، أو وحدة الاتجاه السياسي ، أو وحدة الفلسفة الأخلاقية ، أو وحدة الميول المتشابهة في النظم الاجتماعية ، وكان اجتماع هذه التكتلات يدور غالبا حول الاحتفاظ بمكاسب غير مشروعة ، أو حول الرغبة في الابتزاز والطمع المتزايد ، أو حول أساليب المهنة التي كانت تؤدي في النهاية إلى تعميق التفاوت بين الطبقات (١) .

ويقال إن بعض الوحدات الكبيرة كانت تبدو غير منظمة وغير مؤمنة بالقيم المعروضة في مجتمعاتها ، وإن جماعات كثيرة هناك كانت تعيش في حال من الجهل والتأخر والضياع ، أو كانت تخضع للظلم وتري ضرورة القبول لما هو موجود في مجتمعاتها ، وكأنه كان شيئا أخذ صورة الشرعية الملزمة أو لائحة فيه ، وإذا كان هناك ما يشبه عدم الرضا الدائم إلى الاعتراض أو الثورة فإنما كان الباحث عليه صعوبة الحياة ذاتها ، أو عدم إمكان قبولها لفترات طويلة ، وجاءت الصعوبة من

---

(١) ولا يبدو أن للهن كانت لها قيم أسامية بقدر ما كانت تشير إلى درجات اجتماعية محددة للعاملين فيها .

وضع اقتصادى واجتماعى متخلف بسبب الإهمال وابتزاز مرا كز القوى لكل  
الخير الموجود كي تحفظ لنفسها الحياة الناعمة بين جماعات من الفقراء بتزايد عددهم  
بالزمن ، ويقال عن أم الشركاء فى مرا كز القوى إنهم كانوا سلطة السيادة العليا  
بالدولة التى كانت ممثلة فى جماعات أجنبية تحتكر العمل السياسى وحدها ، وتقيم  
نظاما للرئاسة عرف باسم الملكية المنتخبة ، أى أن الملك كان حاكما مستبدا جاء  
إلى أعلى مناصب الدولة عن طريق أصوات الناخبين ، وهؤلاء الناخبون لم  
يكونوا إلا أفراد أسرته وحدهم.

ولما كان الاتفاق لا يدوم طويلا حول واحد يعترف الناس بتفوقه أو يعطى  
سلطة العمل المنفرد وحده ، فقد تظهر الخلافات دائما وتوجد أسباب للتآمر  
والحروب بين جماعة قليلة تدور الدولة حولها ، ويخضع المجتمع كله لظروفها .

وظهر الصراع على السلطة قويا ، وقد الملك عرشه ، ولجأ حزبه وأقاربه  
سريعا إلى الزعامات العربية بشمال إفريقيا بطالبون بالكيد الصريح للمنتصبين ،

وأدى النزاع على العرش إلى تسلط من يستطيعون القيام بفرض إرادتهم  
عن طريق القوة العسكرية ، أو عن طريق نفوذهم فى دوائر العمل ، وكوسيلة  
مقبولة لتأمين المصير واستقرار الأوضاع الطيبة فى أعلى مرا كز الحياة الانسانية ،  
تخالف الحاكمان غير المؤمنين بوجه نظر الكنيسة مع دعائها الدينيين ، وازدادت  
بالتحالف جماعات المستغلين وأتباعهم ، وبعض هؤلاء كان يطالب باسم الدين وبعضهم  
الآخر كان يطالب باسم الدولة ، واتضح الاتجاه فى محاولة فرص الخضوع بالقوة لصالح  
القيادة السياسية ، وفرض المذهب الدينى الواحد لصالح القيادة الدينية ، وأسرفت  
الدولة فى عرض قوتها على خصومها السياسيين ، وعلى خصوم مذهب الكنيسة

الرسمى<sup>(١)</sup> الذى تؤيده واعتبرت المعارضات الدينية مخالقات سياسية داخلية تحت عقوبة الحياة للدولة ذاتها ، وكانت مسائل الدين من أشد الأمور تعقيدا وغموضا ، حتى أصبحت شغلا دائما ، أو مصدرا للقلق والأضطراب لأعداد كبيرة من الناس ، ولم يكن الهدف توضيح وجهات النظر الدينية لأن أمور العقيدة المسيحية ذاتها لم تكن واضحة حتى للباحثين فيها ، وإنما كان الغرض من ذلك فرض الرأى والالزام به .

وكمحركة مضادة قامت معارضة لسيادة الدولة ، وليسيادة المذهب الذى تدمر إليه ، وتطرفت الجماعات فى عنادها ، وأمسك رجال الدين بقوة الدولة يضربون بها خصومهم ، ويظهرون بها سيظرتهم ، وأطاعتهم الدولة فى ولاء مصطفى لتأخذ فى مقابلة حرية التصرف فى العمل ضد مصالح الناس المباشرة ، واندفع الأقوياء مع انهم وحب الدنيا إلى وضع اليد على كل مصادر الرزق المعروفة ، وكانت منهم جماعات إقطاعية تعيش مشغولة بإنماء الثروة دون الاهتمام بشرعية وسائل الحصول عليها .

ويعطى لنا فكرة عن مبلغ ضخامة الممتلكات الخاصة بالحاكمين والإقطاعيين ورجال الكنيسة ما يقال بأن الكنيسة وحدها كانت تملك خمس الأراضى الصالحة للزراعة ، وبأن الأسرة الحاكمة كانت تملك مساحات كبيرة من الأراضى التى صمغ العرب بعد الفتح برد بعضها لأولاد الملك الخلع كمكافأة لهم على التعاون معهم فى كسب النصر إلى جانبهم وبقيت بعد ذلك مساحات أخرى ، كانت كافية لإرضاء عدد كبير منهم ثم إعلان الباقي ملكا عاما للنظام الجديد ، يستغل بواسطة المزارعين كعمال لهم حق فى الأجر وليس لهم حق فى الملكية .

---

(١) انمقد مجمع كاسى فى طلبطة سنة ٦٩٤ م وقرر اتخاذ اجراءات عنيفة ضد يهود أسبانيا .



ومعنى هذا ظهور ضغوط كثيرة متسلطة تحرسها قوة الدولة ، وقوة من كانوا يمثلون العقيدة ، أو من كانوا يملكون الثروة ، وأن هذه القوى المتضامنة نتجت لتحارب الضعفاء الكادحين من عامة الناس .

## ٢ — عند الفتح :

ثم كان فتح أسبانيا بعد عمليات عسكرية نجحت أخيراً في شمالى إفريقيا ، وظهر منها أن الصراع الطويل بين العرب والبربر هناك لم يعط لأحدهما نتيجة نهائية تضعه في مكان القيادة السياسية أو الاجتماعية بالبلاد .

وقيل إن خضوع البربر كان سكوناً عارضاً أو كان قبولاً مؤقتاً للأمر الواقع ، وظهر أنهم بعد ممارسة الحرب سبعين سنة ضد العرب وجدوها عملاً بلا نهاية ، أو جهوداً ضائعة من الأحسن الكف عنها انتظاراً لأمل جديد ، ومساعدتهم طول العشرة والاتصال — ولو عن طريق الخصومة — إلى نوع من التفاهم ، أو مال بهم الإحساس بامتياز العرب إلى الاعتراف بهذا الامتياز ، وكان لتفوق العرب مظاهر كثيرة منها صدق العزيمة والإخلاص للهدف .

ثم وجد البربر مكاناً مناسباً للعمل العسكرى بعد طول المران والتجربة ، وكانوا يعرفون أسبانيا فنقلوا إليها حركة الصراع كتجربة جديدة ترضى الرغبة وتستوعب الحماس والطاقة ، فتقدموا إليها يعملون باسم الدين الجديد ، وباسم الفتوة الناشئة ، وباسم الحاجة معا ، وعملوا تحت زعامة بربرية تبرز في قلوبهم رغبات كثيرة ، أهمها التطلع لحياة أفضل في ظل الدعوة الجديدة والبعث عن الجو القائم الكئيب الذى شاع بعد حوادث الحروب الطويلة ، وكانت بلادهم في أصلها بلاداً صحراوية فقيرة ، فزادتها الحروب خللاً وفقراً ، حتى أصبحت ممارسة للحياة فيها عملاً شاقاً ، فتقدموا لأسبانيا تحت زعامات بربرية مرتين ، وكان

العرب لا يزالون في بلادهم ينتظرون نتائج أعمالهم ، فأظهر البربر شجاعة ورغبة ،  
واندفعوا في الحرب للنهاية ، وكأنهم كانوا في حركة انطلاق بعيدة عن الخضوع  
لأى قيد، ولأول مرة يعمل جيش بربرى باسم الاسلام بزعامة بربرية .

واندفع البربر في الفتح في شبه حركات فدائية ناجحة ، وكأنهم أرادوا  
الانطلاق بعيدا عن الإرادة العربية والنفوذ العربى ، وتصور أن اندفاعاتهم  
كانت أشبه بالحركات الشعبية التي قام بها جنود لا يمثلون الدولة تمثيلا قويا ،  
لأنهم لم يكونوا في ديوان جيشها ، ولم ترتبط بهم عن طريق التعهد بضمان  
رزقهم الثابت .

وتقدم موسى بن نصير بعد ذلك بجيش من العرب ليضفى على المشروع  
كلمة صفة العمل الرسمي الصادر باسم الدولة أولا ، وكأنه كان يخشى فقدان  
السيطرة على البربر ، أو انقلاب موازين القوى لصالحهم وحدهم ، ومعنى هذا  
أن عمليات الفتح الأولى ظهرت فيها زعامات بربرية على جنود من البربر ،  
وزعامات عربية على جنود من العرب .

وبعد اتصال موسى بطارق سار كل قائد بجماعة أغلبها من جنسه وتقدما  
نحو الشمال يقودان جيشين منفصلين ، وليست القضية الآن أن نقول إن هذا  
كان من أسباب الحماس والاندفاع للعمل ، وإظهار البطولات التي تنسب لهؤلاء  
وأولئك ، لأنه يبدو من واقع التاريخ ذاته أن الجميع كانوا يعملون تحت راية  
واحدة وللخدمة قضية واحدة كان قد حدث التفاهم عليها تلقائيا، أو بعد اتفاق مستور،  
واندفعت القلوب نحو الإخلاص لها وقدمت الجهود لصالحها ، ولكننا نقول  
إن هذا الانفصال في القيادة وفي تجمعات الجند ، وفي حركة السير ، وفي الإقامة

بعد ذلك في مناطق منفردة ، كل هذا عمق الانفصال وجعلها — كشعبين —  
يحسان بالبعد فيما بينهما ، ولم تحدث محاولات المزج الإيجابية المقصودة لا في  
زمن العرب ولا في زمن السلم ، وبقيت الجماعتان تعز كل واحدة منهما بجهودها  
العظيمة ، وبثوقيتها وإخلاصها ؛ وتربط على ذلك جزءاً كبيراً من مفاهيم الوطن  
الجديد ، أو على الأقل يريد البربر مساواة مطلقة كما يأمر الدين ، وكما كان  
يتوقع المحاربون منهم .

وشغلت القضية الكبرى كل العرب وأثارتهم السيادة المعترف بها لدولتهم  
العظيمة في الشرق ، وقد يبدو الخلاف الوارد في كتب التاريخ جميعاً بين  
القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد كأنه خوف أو إشفاق من أن تضاف  
عمليات الفتح كلها لحساب جيش واحد أو جماعة بذاتها ، وكأن موسى بن نصير  
كان يتكلم باسم الجماعة التي كان لها حق السيادة ، وكأن طارق بن زياد كان  
يحاول الحرب من الالتزام بالتبعية القوية للعرب ، وكان يود العمل في حرية  
كقائد يمثل شعباً كبيراً له تطلعاته وآماله .

### ٣ — مجتمع المسلمين :

جاء المسلمون للأندلس في شبه موجات متدافعة تقدمت منها عناصر مغامرة  
أو مؤمنة من البربر الباحثين عن العمل والحياة الجديدة والراغبين في المساهمة  
في نصر الدين الجديد الذي خضعوا له ورغبوا في العيش في ظله ، ودخلت جماعات  
بربرية بقيادة بربرية وأسرعت في العمل العام لتعطى لنفسها حق الدعوة  
في احتكار مكاسب النصر ، ثم جاءت جماعات عربية أخرى لفروة النجدة أو  
للإسراع نحو المشاركة في الحرب حتى لا يذهب لغيرها شرف العمل وحدها ، وهذا



بمعنى أن جماعات المؤمنين العاملين تحت ظل الدعوة الإسلامية لم يدخلوا  
كجماعات منسجمة أو راغبة في نسيان الفروق العنصرية أو متطلعة إلى حياة  
الوحدة الشاملة .

دخلت جماعات المسلمين واستمرت تعمل منذ أيام الفتح حتى النهاية مع  
الإحساس بالانفصال العنصري أو ببعد القرابة ، وكأنها كانت جماعات غير مهيأة  
للعمل سوياً بعد حروب استمرت سبعين عاماً ، وكان عمليات الفتح قصدت منها  
العناصر النشيطة عملاً إيجابياً نافلاً حتى لا يضيع الوقت في البحث والخلاف  
حول من له حق القيادة أو حق السيادة في إفريقية .

وازداد عدد العناصر والأجناس للكونة لشعب أسبانيا بوجود عنصريين  
آخرين جاءا بعد أجناس كثيرة كانت موجودة بها ، وبدأ الاختلاط المباشر  
بين الفاتحين والسكان ، وظهر أن اندفاع الفاتحين للاختلاط كان قوياً ، لأنهم  
وجدوا مجالاً طيباً للحياة المناسبة بين جماعات لم يكن وجودها كثيفاً بالمنطقة  
ولم تعارض هذا الوجود ، أو لم يكن لها حق المعارضة فيه ، ولم يكن للحرب معها  
أثر متعب أو خلفية مؤسفة ، لأن عمليات الفتح كانت خفيفة الأثر على الفاتحين  
والسكان معاً ، ولم تعط تجربة الفتح الصورة المعروفة عن العمل العسكري في  
شمال إفريقية أو غيرها .

وخضعت عمليات التفتح لرئاسة قوية فترة قصيرة من حياتها الأولى ثم فقدت هذه الرئاسة الحازمة سريعا بعد ذهاب موسى بن نصير وطارق بن زياد للعيش بين الخاملين ، أو إلى حياة الظل والفموض ، وبقى الناس هناك كجماعات تنصرف في حرية كأنها كانت بعيدة عن الشعور الواجب بالمصلحة المشتركة فكل قبيلة أو جماعة أوجدت لنفسها مكانا ، أو دفعتها إليها الصدف وحدها ، أو حددتها لما الظروف العارضة ، وربما وجد منها نوع من الاختيار تبعا للميل إلى عدم البعد عن خصائص البيئة القديمة ، وتكونت وحدات تدور حياتها حول المصالح المحلية المشتركة ، أو حول الاتجاهات الحزبية أو القبلية أو العنصرية ، وربما كانت هذه هي الصورة الطبيعية المقبولة أو الصورة القريبة من أفهام الناس .

لم تكن هناك إذا حركة تنظيم أساسية في مجال التخطيط والإسكان ، إما لأن الفاتحين كانوا لا يملكون اتجاهات معينة لعمليات التخطيط والإسكان ، أو كانوا يفقدون السيطرة الواحدة النازرة إلى صالح الجماعة ، أو كأن النصر كان مفاجأة سريعة تبعها عمل سريع ، وكان من صالح الجماعات القادمة أن تعرف الطريق إلى الاختلاط المباشر بالآخرين ، لأنها كانت جماعات وافدة أتت لتقيم وسط جماعات أخرى غريبة عليها ، وكان الفاتحون يريدون تميع معالم النظام الطبقي القديم ، ويرغبون في هروب الاقطاعيين والمسيطرين على الأرض ، ليتمكن توزيع ثرواتهم بطريقة أخرى مغايرة على أنفسهم ، وعلى العناصر الأكثر عددا والأكثر خطورة ، وكانوا ينادون بالحرية ليجذبوا العبيد لجانبهم ، وكان يهمهم نشر دينهم لإيجاد الكيان المساعد على بقائهم ، وكانت تهمهم العدالة الاجتماعية والالتزام بالحرية الدينية كوسيلة ناجحة لكسب القلوب نحو الدين إذا ظهر ميل لهذا الدين ، أو نحو الحسكام إذا رفضت فكرة قبوله .

وإشارات التاريخ واضحة في أن جماعات العرب كانت أقل عددا من البربر ، وأنها لجأت إلى الأماكن المنبسطة في الجنوب والشرق والوسط ، لأنها كانت أكثر خصوبة ، وأدفا جوا ، وربما اندفعت للاختيار بالإحساس بحقها في السيادة ، أوحقها في الامتياز على الآخرين

وتقدم البربر أو لجئوا بالضرورة إلى المناطق الشمالية الباردة أو الجنوبية القاحلة ، وكانوا أكثر عددا من العرب وكونوا بعد الاستقرار بالشمال ما يشبه الحاجز البشري أمام قوى الضغط المسيحية القادمة من الشمال والغرب ، أو كانوا عند الفتح في منطقة متوسطة بين الوجود العربي في الجنوب والوجود المسيحي في الشمال ، ولكنهم لم يعيشوا طويلا منزولين في أماكنهم الشمالية لأن حياة الانفصال والبعد المكاني بين العنصرين الأساسيين في عمليات الفتح لم تضعف أسباب الخلاف بينهما :

ولقد وقع في صراع اجتماعي وعسكري أدى في النهاية إلى هزيمة الاكثية البربرية أمام العرب الأقوياء ، وأدى إلى التفكير من جديد في عدم التفرد بالحياة في مناطق بعيدة أو في مناطق قريبة منعزلة <sup>(١)</sup> وهذا كان يعني أن تعيين مكان الإقامة لجماعات تنقسم لجنس بذاته قد يعطيها معنى التماسك والشعور بالمصير المشترك والقوة القريبة المتعاونة ، ولكنه في ذات الوقت كان يعرضها لهجوم الأقوياء عليها ويجعلها غرضا لأعدائها ، ولم تكن الكثرة العددية وحدها من ظواهر

---

(١) أدى الصراع بين الجماعتين إلى حال من الفوضى السياسية وإلى الحروب الاقتصادية بعد إهمال الزراعة واختلال الأمن .



الأمل في النصر في الحروب ، أو عند الخلافات بين الشعوب أو المجتمعات المكونة  
لوحدة سياسية واحدة .

فهاجرت (١) جماعات بربرية كثيرة كانت قد دخلت منذ أيام الفتح وبعده  
من مناطق الشمال بعد الضغوط العسكرية العربية من الجنوب والضغوط المسيحية  
الأجنبية من الشمال ، وتركت مساحات واسعة كانت على مرأى قريب من  
القوى المسيحية الحريصة على اتساع مناطق النفوذ في أسبانيا الإسلامية ، وكان  
العرب أقلية ليست عندهم إمكانيات بشرية تشغل هذا الفراغ المتروك للوافدين  
من الشمال .

وهاجرت بعض هذه الجماعات إلى مناطقها الأولى في قلب إفريقية الشمالية  
الغربية ، وقنعت بممارسة السلوك البربري في وطن الأجداد عن التطلعات المثيرة  
لما هو أحسن في ظل الخصومات الجديدة العنيفة في الوطن الجديد .

وهاجرت جماعات مماثلة كانت أكثر أهمية وأكثر واقعية إلى مناطق أخرى في  
الجنوب وتسالت إلى الاندماج الجزئي في الحياة العامة الشاملة لكل الناس من كل  
الأجناس ، وكان الانفصال السكاني في الإقامة بين عنصرى الفتح الإسلامى  
مما يثير دائماً السؤال التقليدي من له شرف العمل في الفتح والجهاد ، ولم يكن  
هذا التساؤل للتساؤل وحده وإنما لتحديد مراكز القوى ولتوضيح حق الزعامة  
في المجتمع الجديد المتطور ، وبدأ هذا التساؤل طبيعياً بعد النجاح في حركة كبيرة  
كفتح أسبانيا على يد المسلمين من العرب والبربر الذين لم يكونوا قد عاشوا

---

(١) تشير كتب التاريخ الى حدوث جماعات خطيرة بسبب الخلافات والحروب  
الاهلية بين المسلمين في ذلك الوقت .

فترات طويلة أو قصيرة متعددين في مكان يجمعهم ، وعندما حدثت الإقامة المختلطة بدا في المجتمع ما يشبه التكوين الحزبي الشامل لكل العناصر النشطة المتفقة على وجهة نظر واحدة تجاه المصالح اليومية ، ثم وجد فراغ كبير في الجو السياسي ، ووجدت فرص للثروة والسيادة ، مما جعل الفاتحين بدورون في مساحات واسعة ، وفي مجالات عريضة للعمل والاكتساب ، ولأسيا بعد أن فقدوا الزعماء والقادة الفاتحين الذين كانوا يجمعون بوجودهم الناس حولهم ، ثم كانت تثار حولهم الدعاوى والدعايات القوية التي كانت تعطيتهم فرص السيادة والسيطرة ، وتجعلهم دائما في مقدمة الصفوف المتحركة .

وبقى الناس هناك منذ سنوات الفتح الأولى بلا زعامة قوية مؤثرة تفهم المقصود من عمليات الفتح في أساسها ، فأنصرف غير المسلمين إلى نوع من السلبية ، أو إلى الانتظار المريب لنتائج الحركات القائمة بعد هروب الجماعات الإيجابية المعارضة إلى مناطق الشمال للحياة بعيدا عن النفوذ الجديد .

وكونت الجماعات المسيحية المهارية مجتمعا صغيرا يعيش في شقاء من الخوف والفقر ، وإن كانت حياتها مفعمة بالأمل والحماس ، وتركت أشياء كثيرة لجماعات متفرقة بلا قيادة وبلا وحدة ، أو لجماعات تتجمع في وحدات صغيرة حول قيادة بلا كفاءة تكرر نفسها ، وتعيش لتدور حول المصالح العاجلة في محاولة لكسب الزعامات المحلية ، وشاع الشعور العام بعد الفتح بالرغبة في المكاسب العاجلة ، وانجذبت الحركة الشعبية إلى أن الفتح يجب أن تغطي بسببه المصالح الخاصة للجماعات القسوية ، وانقسم العرب إلى جماعتين على أساس أولية العمل وأهمية الجهد ، وانصرفوا إلى صراعات طويلة قاسية ، وإلى حروب في الميادين الأهلية ، وكان الداخلون

أولا ينظرون إلى الجماعات الوافدة عليهم لعلها قوة جديدة تؤمن وجودهم وتحفظ  
كيانهم بالبلاد البعيدة وإنما كانت في نظرهم قوة خطيرة غير مرغوب فيها لأنها  
كانت تشارك في الرزق ، وتزاحم في الصف وربما جاء الإحساس بالكرامية من  
عدم الشعور بالخوف أو من عدم الحاجة إلى الحماية بعد الاطمئنان على  
النجاح السريع .

وظهرت أسماء جديدة لجماعات عربية لا يفصلها اختلاف التاريخ أو الهدف ،  
ولأنها يفصلها أسبقية العمل التي أعطت للسابقين شعورا بالإصرار على التمسك بما  
جاء في أيديهم من منافع الفتح .

واندفعت جماعات بربرية كبيرة من أفريقية للوطن الجديد وكان لها وجود  
واضح في أما كن كثيرة بالأندلس ومع ذلك لم تشر لها كتب التاريخ  
بوضوح<sup>(١)</sup> وكأن دخولها كان حركة عادية لا تثير انتباه المؤرخين ، أو كأنها  
كانت مجرد جماعات لها أهمية ثانوية تنتقل في دار الإسلام ، أو جماعات جاءت  
لتعيش وسط الأرزاق الغامرة لكل المسلمين في دولة المسلمين ، وكان لقرب  
للسكان أثر في حركة التنقل السريعة .

وجاءت جماعات عربية تذكرها كتب التاريخ باهتمام لأن الدولة كانت  
عربية ، وكانت هذه عناصر متميزة تمثل تطورا جديدا وحضارة متقدمة ولم  
تأت لمجرد الحياة بين الأحياء وإنما أرادت السيادة والسلطة والثروة وكان يتم  
بانتقالها وبمجدها حركة التعريب ونشر الدين ، واتخذت كأمثلة لأمة تمثل  
الدين الغالب ، ثم نشطت عمليات الاختلاط لأن العرب دخلوا رجالا بلانساء ،

---

(١) قد يكون في هذا نوع من الميل نحو الجماعات العربية وحدها .



وكان لا يمكن انعزالهم اجتماعيا حتى لو كان ذلك من رغبتهم ، أو من صالحهم ،  
فكونوا أسرات هناك ، وكانوا يريدون المشاركة والمساهمة في إدارة النظام  
وتطور الحياة بالبلاد .

ولقد كان للحكام الجدد وجهات نظر جديدة مغايرة لما عرف عن الحكام السابقين ،  
فاندفعت نحوهم جماعات كبيرة ربما كانت نصف مسيحية تجد راحتها الدينية في  
قبول الدعوة الإسلامية وتجد حياتها وأملها ومستقبلها في الحياة الجديدة ، وبقيت  
جماعات مسيحية كبيرة تتخذ وضعا سلبيا رغم تحسن ظروفها الدينية والمالية  
والاجتماعية ، وكانت تطبق عليها قوانين الإسلام الخاصة بغير المسلمين ، وطلبت  
منها ضريبة مالية اعتبرت رمزا ضروريا للمشاركة في إقامة الدولة التي حماها  
من فتن الاضطهادات الدينية المذهبية ، وكان من صالحها أن يتخذ المسلمون  
جانب الحياد بين المتخاصمين على تفسير الأسس الدينية ، ولكن هذه العناصر  
التي كانت في أمن من الاضطهاد الديني كانت تختلط بعناصر أخرى مسيحية  
تؤمن بسلطة الكنيسة وتعيش في رعايتها وكان يسوؤها تسلط دين آخر على مجال  
العمل في دائرة النفوذ المسيحية بأسبانيا ، وهذه كانت عناصر قوية ونشطة تنظر  
إلى أملاك الكنيسة المسيحية المصادرة لحساب قوات العرب على أنها شيء ضائع  
يثير العواطف ويغضب الشعور ، وكان يمثل هذه العناصر المتحمسة رجال دين  
ممتصبون بقي بعضهم في البلاد تمسكا بالحياة في أرض الوطن ، وهرب الآخرون  
ليشيعوا إرضاء لشعورهم الديني المتطرف أنهم لم يستطيعوا الحياة وسط الأعداء ،  
وقالوا إن أعداءهم كانوا جماعات متعصبة يكيف سلوكها الإحساس الديني وحده ،  
ولا تؤمن بالحلول غير المؤدية إلى انتشار دينها ، واستمر هؤلاء على اتصال  
بأتباعهم ، وشجع على ذلك روح التسامح الطيبة المعروفة عن تاريخ من حملوا  
دعوة الإسلام في كل مكان .

لقد وجد المسلمون الفاتحون إذاً مجالاً مناسباً للسيادة والكسب في مناطق واسعة  
وسط جماعات كبيرة ولم يتفقوا على تقسيم دوائر النفوذ أو لم يتفقوا على توضيح  
جوانب الاختصاص فيما بينهم ، وكأما خلت لهم الدنيا ليصبحوا في حالة من عدم  
الاستقرار أو التنازع ، فلم يجدوا حلاً مرضية ، وحدث بينهم صراع سياسي خطر ،  
زاد من حدته غياب الزعامة القوية ، وظهور قوتين متنافستين لم يتقابلا عند  
نقطة التقاء واحدة ، وجاءت الخلافات عنيفة وحادة وتطورت إلى حروب أهلية ،  
وربما كانت من أساليب العصر في التنازع عند انفلاق معالم المستقبل .

ومثل سكان البلاد دور المتفرجين على الخلافات بين العرب والعرب وبين  
العرب والبربر ، واعتبر هؤلاء جميعاً خلافتهم شيئاً يخصهم وحدهم ، فلم يورطوا  
الآخرين معهم في خصوماتهم الداخلية ، إلا أن أهمهم كانت يمكن رؤيتها  
والإحساس بخطرهما المباشر ، وقامت أنواع من الحروب المحلية الصغيرة التي تورط  
فيها المسلمون فيما بينهم ، وكانهم كانوا يعيشون وحدهم في منطقة لا تسعهم جميعاً ،  
وتروى كتب التاريخ الكثير عن أسباب الخلافات والكثير من صورها .

واستمر الصراع طويلاً خلال فترة معروفة عند المؤرخين بعهد الولاة  
٩٣ - ١٣٨ هـ / ٧١١ - ٧٥٥ م ، ويظهر أن تعليل هذه الظاهرة بالخلافات  
العصبية رغم ورودها في كتب التاريخ ، ورغم سهولة اتهام العرب بها غير مقبول  
على إطلاقه ، لأن الإحساس بأثر القبيلة ما كان مثيراً دائماً ، وما كان يمكن أن  
يأتي النجاح المعروف عنهم مع وجود أسباب الخلاف الحادة ، وصحيح أن فكرة  
البيانية والغزبية أخذت تتضح في صورة حروب جزئية صغيرة في بعض المناطق



إلا أن هذه الحروب كانت غير الحروب الكبيرة التي كانت تدور حول الأسس والاتجاهات الحزبية، والتي قامت بعد الفتح منذ أن بدأ التساؤل حول من له الحق في الرئاسة، وكان ذلك انعكاساً لما كان موجوداً في الدولة نفسها، وهذه لم تكن حروباً بسبب العصبية وإنما كانت حروباً حزبية، بعد تجمع العناصر المنقسمة للأصول العربية المختلفة حول الاتجاه المشترك والرأى الواحد، والانتساب كان للأغلبية أو للعناصر القوية في الحزب، وقام الخلاف حول المصالح المشتركة أولاً، ولم يحدث الانفصال المكنى على أسس من اختلاف النسب عند العرب، وإنما دخل العرب كعرب في مجموعات قوية متماسكة، وكان يملؤها الاعتزاز بالأجداد العسكرية وبالغاريخ والدعوة الدينية والدولة القائمة.

وهذه المجموعات الفاتحة دخلت أسبانيا في آخر القرن الأول الهجري، بعد أن تطورت بها الحياة وبعد أن تحضرت واتصلت بالعالم المحيط بها، وبعد أن صرفت الشعوب في إيران والعراق والشام ومصر وشمال إفريقيا، ولا شك أن هؤلاء كانوا في الصميم غير العرب الذين كانوا في صحراء جزيرة العرب قبل الإسلام.

وقد ساعد على التنافس وعدم الاتفاق دخول عنصرين من عصبية مختلفة أو وجود العصبية البربرية، وكانت عصبية ناشئة قوية تريد لها مكاناً بين العرب، ولكن البربر لم يكونوا على نفس المستوى من الخلاف حتى يمكن اتهامهم بالعمل في دوائر ضيقة، ولم يسجل لهم التاريخ صراعاً داخلياً قوياً بسبب الخلافات القبلية الحادة، لا في أيام بداوتهم ولا في أيام تطورهم، وقد يقال إن الفتح كان زمن الأمويين العروفين باللمب فوق رؤوس العصبية المختلفة، أو بمحاولة السيطرة على العناصر القوية عن طريق إحياء العصبية العربية



الكبيرة ، وإضعاف واحدة بالأخرى ، غير أن بلاد الأندلس كانت مكانا بعيدا  
لا يتأثر سريعا باتجاهات السياسة الأموية في الشرق .

وأهم الصراعات حول الرئاسة قامت بين الشاميين والبلديين أى بين  
القادمين من الشام حيث مركز الحكم والدولة ، — وكانت نفوسهم تمتلئ  
بالإحساس بأنهم من قوة الدولة ذاتها — ، وبين البلديين الفاتحين الذين اندفعوا  
للجهاد في عملية للبحث عن مواطن جديدة وعن مجال جديد للعمل المفيد ، فهم  
أصحاب الجهد وأصحاب الأثر ، وكانوا يحسون بدورهم ويريدون عليه أجرا  
عظيما ، ومعنى ذلك أن الخلاف بينهم كان بعيدا عن أسباب العصبية القبلية ،  
وكان قريبا من الخلافات العززية بين أهل الشام وبين أهل أسبانيا الجديدة ،  
وكانت العناصر المكونة للجماعتين عناصر مختلطة تتمثل في كل منها جملة القبائل  
العربية ، ثم انحصرت السلطة أخيرا بين الأقوياء من جماعتين من العرب (١)  
الذين نقلوا لمجتمع الأندلس البعيد صورة غير طيبة لحياة الصراع العربي القديم  
زمن الفوضى والضياع ، وكان المفهوم أنهم بعدوا عن هذه الحياة بعد تقدم الزمن  
وتطور المفاهيم وزيادة التحضر ، وانشغلوا بمحاولة كسب السيادة السياسية على  
المنطقة بطريقة العنف ، وتركوا أمور التنظيم السياسي والإداري ، وأمور الثقافة  
المعروفة حتى تظهر العصبية القوية القادرة على تقديم الرئيس وتأيينه وحمايته  
ولا يبدو أنهم كانوا بعيدين عن إدراك حقيقة الحياة في داخل الدولة ذاتها ،  
وربما كانت حياتهم صورة من حياة الدولة الإسلامية التي تصارعت فيها

---

(١) هما الشاميون والبلديون ، وكانت عناصر كثيرة من أصول عربية مختلفة  
تجتمع في الجماعتين معا .

القوى حول الرئاسة في ذلك الوقت ، ولم نستطع أن ترى بوضوح حقيقة الكيان الإسلامي بهذه المنظمة البعيدة التي جاء فتحها قبل فترة قصيرة من تعرض الدولة ذاتها لخطر السقوط أمام العدو القادم من مطلع الشمس في الشرق ، ولقد انشغلت الدولة الأموية بأخطار الشرق وتركت التطورات تسير بالمسلمين في الغرب إلى غايتها .

واستقرت جماعات قوية منفصلة في بلاد جديدة ، ولم تجد لها رئيسا تشعر بكفاءته الجذابة ، لأن الدولة أبعدت قواد الفتح خوفا من سيطرتهم ، أو خشية إصرافهم في الجرى نحو العالم المجهول .

وتعرض أول الولاة للقتل<sup>(١)</sup> بعد اتهامه بالخضوع للنفوذ الأجنبي الممثل في زوجته الأسبانية ، وجاء ولاية من شمالي إفريقية يمثلون روح العصر واتجاهاته ، وكان عليهم أن يحكموا هذا الخليط البشري العجيب المكون من جماعات

مسيحية تمس بأثر المفاجأة وتميل للانتظار ، وتتجه بالعواطف الطيبة نحو الشمال حيث جماعات المماريين المبالغين في إشاعة الكذب عن تعصب العرب وقسوتهم ، ومن جماعات يهودية تدعى التماطاف مع الفاتحين والقبول لحكمهم ، وتريد من أجل ذلك نصيبا من مقام التغيير ، ومع هؤلاء وأولئك جماعات عربية قوية تجد مجالا واسعا للحياة الطيبة ، وتؤمن بالحق في السيادة بحكم تمثيلها للدولة ، وبحكم العمل والجهد أيضا ، ولكنها كانت جماعات قليلة متفرقة تلجأ للعنف لإثبات الوجود ولتحقيق الأمل حتى فيما بينها ، وجماعات بربرية تزداد مع الأيام كثرة ، وتشير دائما المطالبة بأحقيتها في المساواة والعدالة المكفولة بحكم الدين ذاته ، ولا تجد سبيلا

---

(١) هو عبد العزيز بن موسى ٩٥-٩٧هـ / ٧١٣-٧١٦م

للقفاق أولا تريده ، وتصادم العرب لتقيم الدليل على جدية المطالبة بالحقوق ،  
وعلى قوة الوجود بالمنطقة .

وأعطي كل هذا للمجتمع الأندلسي منذ ظهوره صورة قلقة لجماعة تشعر  
بالبعد وبالعيش وسط جماعات أجنبية لم تكن قوية أو محاربة ، ولكنها لم  
تكن أيضا ضعيفة أو مستسلمة ، وازداد عدد المسلمين ولم يأت تزايدهم بالشعور  
بالأمن ، أو لم يأت بالانسجام المعروف عن الجماعات المتجهة في عقيدتها الدينية  
نحو وجهة واحدة ، وإنما ساعدت الزيادة على تطور الخلافات وتشعبها ، وإذا  
كان هناك الاشتراك في اللغة والتاريخ والأمل والعقيدة والمصير فإن هذا كله لم  
يعط الانسجام الكافي لهذا المجتمع الغريب الذي ظل منذ لحظات وجوده الأولى  
وكأنما كانت وحداته تشعر بقوة وجودها المنفصل ، وإذا كان هناك رغبة في  
التلاقى ، فلم يكن هناك ميل نحو انعدام الوجود المستقل .

#### ٤ - الانجذاب للشرق :

ولقد كان من الطبيعي أن تتبع المنطقة بعد فتحها دولة الذين فتحوها ،  
أو الدولة التي فتحت باسمها ، وهي الدولة الأموية بالشام ، وهذه كانت  
إمبراطورية عظيمة الأثر في حياة العالم المعاصر لها ، وكان هذا يعني أن تصبح  
المنطقة كلها مجرد مقاطعة من المقاطعات التابعة للدولة الكبيرة ، وهي مقاطعة تقع  
عند آخر نقطة البعد التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية في الغرب ، فلم يكن  
من السهل إذا أن تعرف الدولة عنها شيئا مباشرا أو أكيدا ، حتى تسعى إلى  
تكييف السياسة الصالحة لحياة الاستقرار فيها ، أو حتى تختار الحاكم الواعي  
للعمل المفيد بها .



وجاء أول الأخطار عندما استدعى القواد الفاتحون سريعا قبل تمام الاستقرار وتركث البلاد مع قوات لا تؤمن بولاء قوى الزعامة الجديدة ، لأنها لا تجد لها سابقة جذابة ، أو نوعا من الامتياز المؤثر ، فتدخلت في أعمال الحاكم الشخصية ، وأهتمته بالخضوع للسيطرة الأجنبية عن طريق الطاعة لإرادة زوجته الإسبانية ، قتلته<sup>(١)</sup> واختارت بعده واليا آخر ، وجاء الاختيار تعبيرا عن إرادة جديدة ، وهي إرادة الجماعة الراغبة في إبداء الرأي في القيادة ، وإذا كانت هناك قوة واحدة أو إرادة واحدة لكان من الممكن أن يكون الحاكم الجديد سيدا جاءت به الإرادة الغالبة لجماعة من الناس ، ولكن حق الاختيار الذي اكتسبته الجماعة بالممارسة من جانبها وحدها وجد من يعارضه ومن يحارب ضده ، ووجد من يرفض رغبة الجماعات القوية في تعيين قادة ينتسبون إليها ، ورأى غيرها أن يكون الاختيار من حق الدولة وحدها ، وترددت الدولة في عرض الرأي الحاسم ، لأن بعض المعالم الأساسية عن حياة المجتمع لم تكن قد اتضحت لها بعد ، وكان أسبانيا كانت فقط مجرد منطقة تابعة لحكام شمالي إفريقيا الذين تقدموا لفتحها وساندتهم في النجاح بعض الظروف المحيطة بها ، واختلفت وجهات النظر وإرادة الحكام ، فجاء ولاية من الشرق أو من الجنوب وكانت فترات حكمهم قصيرة<sup>(٢)</sup> لم تساعد على تكوين ما يسمى بتقاليد الإدارة أو بسياسة العمل بالمنطقة ، وكان حاكم الأندلس يختار مرة من طريق شعب الأندلس ، أو عن طريق أقوى عناصره

---

(١) قد تكون هناك أسباب أخرى للتعدي بالقتل على ثاني الحكام للمرب بالأندلس ، ولعل منها إرادة الدولة ضياع نفوذ بنى موسى بن نصير في كل مكان ، ولكن الجريمة ارتكبت في حال من الهياج الشعبي الذي يدل على ظهور السكان الجماعي وتدخله في إدارة التنظيم منذ فترات الوجود الأولى .

(٢) حكم بلاد الأندلس أربعة وعشرون واليا في خمسة وأربعين عاما في الفترة السابقة لإعلان قيام الدولة الأموية بها

وهذه كانت ظاهرة جديدة تعطى انطباعات سريعة عن ميول هذا الشعب منذ تكوينه ، وساعده على ذلك أن البلاد لم يفتحها عنصر واحد بل عناصر أساسيان لم يتقابلا معا في وجهات نظر مشتركة ، وكان عنصر البربر تمثل جماعات كبيرة تنسب لنفسها وحدها شرف العمل هناك ، ثم لم يكن ولاؤها للدولة عميقا ، أو لم تشعر بضرورة اللجوء إليها ، وكانت تود التحلل من الشعور المباشر لسيطرتها ، ولا سيما في المسائل المتصلة بشئون التنظيم للسياسي والإداري التي تخص أهل المنطقة وحدهم ، أو أرادت هذه الجماعات أن تظهر دورها في بناء الحياة الجديدة ، وفي إدارة العمل في المستقبل ، ولم ترد أن تعيش حياة عربية من كل جوانبها ، فكانت ترى أن يكون لها اختيار حاكمها وإن كان يجب أن يكون له جاذبية الانتساب للعرب .

والعرب بدورهم كانوا يشعرون بأن اختيار الحاكم كان أمرا من شئونهم الخاصة ، وإن لم يكونوا على وفاق فيما بينهم بعد أن توزعوا إلى أحزاب رئيسية يريد كل منها حق العمل كجزاء مطلوب على الجهود للبذولة ، ويريد كل منها السيادة عن طريق فرض الإرادة بالقوة ، وكان الجميع يشعرون بنوع من الامتياز أو بنوع من الإحساس بظل الدولة العربية .

ومرة كان الوالى يأتى من الشرق البعيد ليحل إشكالات الصراع بين المتنازعين من العرب أو من غيرهم ، وكان الخليفة القوى يرى ذلك من عمله كنوع من التمسك بحق السيادة ، أو بحق الاختيار في أمور الإدارة ، وربما كان يعتبر ذلك حلا وسطا يرضى به جماعتين مختلفتين ، ومرة كان الوالى يعين باختيار والى إفريقية ويعمل تابعا له ، وتظهر بوجوده رابطة قوية بين العرب في شمالى إفريقية

والعرب في الأندلس ، مما كان يعطى للبربر حججا لدعوى سوء الظن ، أو  
فرصا للعناد ، ورفض الخضوع والإصرار على المقاومة ، ومعنى هذا عدم الاتفاق  
على سياسة مرسومة .

واستمرت هذه الإدارة المضطربة التي كشفت عن عدم الوضوح في سياسة  
الدولة ، وكانت هذه الدولة تعيش تحت عوامل الاضطراب والخطر ، ثم كان  
الولاة غرباء يفسدون على منطقة بعيدة عن مجال رؤيتهم المباشرة ، وكانت قوة  
الاهتزاز فيها تظهر أكثر عنفا عند ما كانت العواطف المربضة تتحكم في الوالى  
الذى كان يميل إلى حماية نفسه بإرضاء من كانوا يمثلون قوة التأييد له ، ولا يعنى  
ذلك عدم ظهور بعض الحكام الأقوياء مثل عبد الرحمن النافق<sup>(١)</sup> أو غيره  
إلا أن هذا الوالى رغم تمثيله لدور الزعيم الواعى للأحداث حوله فإن الأحداث  
نفسها فرضت عليه الفشل بعد أن تورط في حرب في الشمال البعيد بجيش تمثلت فيه كل  
عيوب المجتمع الذى كان يحكمه ، ولم تنجح محاولات بناء علاقات طيبة بين العرب  
والبربر ، واستمر الود المفقود شائعا بين الجماعتين ، لأن الانسجام كان بطيئا لم  
تساعد عليه الإرادة أو العمل ، وظهر في هذه الفترة حكام<sup>(٢)</sup> حاولوا إخضاع  
الخصومات ، والسيطرة على شئون الإدارة بالبلاد كلها ، وحاولوا دفع حركة الفتح  
للشمال كعملية يشغلون بها المجتمع النابض بالحركة ، أو يرضون بها الشعور الدينى  
عند الناس ، وأتى آخرون كأنهم كانوا مجرد زعماء جاءت بهم الرغبات الحزبية  
فكانوا يعملون في هذه الدائرة وحدها ، وكان الدولة الأموية عندما ما كانت

---

(١) ١١٢ - ١١٤ هـ / ٧٣٠ - ٧٣٢ م  
(٢) ومنهم أبو الخطار الكلبي : ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م



مشغولة بواجب الدفاع عن النفس أمام الثورة العباسية في الشرق تركت العمل في الغرب للعناصر اتقوية المتقلبة ، ولهذا عانت الأندلس من فترات عصبية بعد تحكم العصبية والإدارات العاجزة ، وجاء من سوريا أو من شمال إفريقيا ولادة ضعاف غمرتهم الفتن ، أو ساهموا في انتشارها ، وولاء أقوياء كانوا يفرقون قوات المتنازعين في مناطق متباعدة ، ثم يضعفون أخيرا أمام حركات الخصومة القوية وأمام ضغط المجتمعات المضطربة .

#### ٥ - حياة الاستقرار :

ثم قامت الدولة الجديدة ١٣٨ - ٤٢٢ هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٠ م ، وقيامها بشير التساؤلات عن مدى توافق المجتمع مع مؤسسها ، وكيف استطاع شاب هارب يمتلئ قلبه بالحق والكرامية ، ويسئ الظن بكل من حوله أن يتغلب على صعوبات الخلاف الشائع بين الجماعات الرافضة لقبول فكرة الوحدة منذ أيام الفتح ؟ وكيف وجد استجابة تبدو سريعة من عناصر نشيطة في هذا المجتمع القلق ؟ ثم كيف حاول أن يوجد نوعا من الانسجام بين عناصره القوية ؟ وكان المجتمع نفسه كان على هوى مع الفكرة الجديدة ، ويريد أن يستقر حول راية يرفعها زعيم له جاذبية الانتساب لأسرة ملكية ، واستمر القلق طويلا مع محاولة النجاح في إشاعة الانسجام بين أغلب العناصر المتحركة بالمجتمع ، وكان للقلق أسباب ودوافع كثيرة ، فكانت الثورات ترفع الشعارات الجذابة مثل الحرص على وحدة المسلمين بإعلان الولاء لدولة العباسيين في الشرق ، أو بإرجاع الحقوق المقتضية برد الحكم لأصحابه الشيعة المظلومين في كل مكان ، أو بالتساؤل الخطير حول أحقية المسلمين في حكم البلاد أساسا ، وظهرت محاولات الثورة

واستمرت طول حكم المؤسس الأول لهذه الدولة ١٣٨ — ١٧٣ هـ / ٧٥٥ — ٧٨٩ م، بدأت في هذه الفترة أن العناصر الإسلامية كانت تأخذ دورها الرئيسي في الحركة السياسية والاجتماعية، وإذا كان صحيحا أن أول زعيم أموي جاء ليحكم شعبا تتضح فيه الصبغة الإسلامية الغالبة، أو أن أسبانيا عند دخوله كانت تسير نحو قبول دعوة الإسلام وتعميمها، أو أن الإحساس كان واضحا بالمستقبل للإسلام والمسلمين هناك، فإن هذا كان يعني أن العناصر الإسلامية كانت تمثل المجتمع لقلبها، وكان حركتها كانت حركة المجتمع كله، أما بقية العناصر سواء أكانت منجذبة للدين أو الجنس أو منسوبة إليهما معا فإنها رجعت إلى المراكز غير المؤثرة بالدرجة الكافية في حركة المجتمع الذي كان يأخذ دور المجتمعات الإسلامية الشرقية، وإذا كان المراد تأسيس دولة باسم أسرة معروفة فإن أقوى العناصر هناك تصارعت في شبه حركات نشيطة حتى تستقر أوضاع العمل أخيرا عند قوة واحدة وإرادة واحدة، وهذا كان يعني تقديم جهود كبيرة من جانب الدولة لأنصارها لاستقرار الأوضاع فيها، وكأما كان المجتمع كله مشغولا بحرب الفوضى وإقرار النظام، واستمر مدة طويلة يعمل في ميدان النزاع الداخلي، ويدفع الخطر القادم مع جماعات مسيحية كانت عوارض القوة تصيبها في فترات الإحساس بضعف المسلمين.

وأحست الدولة الناشئة بضرورة بحث الحركة العقلية، وعدم الانشغال عنها، فأخذت تشجع الدراسة وتعين على العمل العلمي، فسافر الأفراد الباحثون من المعرفة إلى مناطق الدراسات الإسلامية التي لم تكن تعنى عندهم إلا بيئة

الإسلام الأولى في مكة والمدينة ، وفي هذا إشارة إلى وجود شيء يمكن أن تتلاقى فيه وجهات النظر للتمارضة ، وفيه أيضا إشارة إلى التمسك بروح العناد بين الجماعتين الإسلاميتين المختلفتين ، وقد ظهر مذهب الإمام أبي حنيفة بالعراق واحتوى بالدولة العباسية ، ورأت هذه الدولة الوفاء له كنوع من الإيمان به والمدعاية له ، وبقي مذهب الإمام مالك كأنه كان يقاوم اتجاه الحكم العباسي ولا يؤمن بدعاياته ، وكانت علوم الدين شائعة ومطلوبة ، وغالبا ما كانت تفتح لأصحابها جوانب الأمل وصفحات المستقبل ، فذهب الناس للشرق للتعلم ، ووفدت جماعات من الشرق تفهم طريق العمل لنشر الدين وتوضيحه ، وتريد أن تكسب الحياة والرزق عن طريق عرض المكاسب العقلية على الناس بالأندلس ، وسمعت أصوات التشجيع على الهجرة لأنصار الأمويين في الشرق ، بعد أن فتحت أمامهم مجالات الحياة والأمن والاستقرار في رعاية الرئاسة الأموية بالغرب ، وتقدم أنواج من المهاجرين للأندلس ، واستمرت البلاد تجذب عناصر طيبة من الباحثين عن الجديد أو المفيد ، أو من المتفقيين في الهوى مع حكام الغرب من المسلمين ، أو من الراغبين عن الحياة في بيئة كان العرب يمثلون فيها جانبا واحدا من جوانبها الكثيرة ، أو كان العرب فيها مجرد عنصر يخضع لطغيات عناصر أخرى قوية تحاول تجميع وجوده ودوره ، وظهر الوجود العربي كثيفا في كل مكان بسبب الجماعات العربية الوافدة من كل مكان أو بسبب الجماعات الراغبة في التعنق تحت الاسم العربي والسلوك العربي ، وكان الانتساب للعرب يعطى أمانا وشرقا ومستقبلا معا .

ومنذ لحظات الوجود الأولى بدت هذه الدولة وكأن فيها قوة الحماية لمن



يرى الحياة فيها، وكان اتجاه دولتي المسلمين في الشرق والغرب عدم الانفصال الثقافي بينهما، أو عدم إقامة حواجز قوية تباعد بين البشر، ولهذا يشار إلى فهم متطور يرمي عرض الثقافة على الجميع ويرى ملكيتها لكل الناس، ثم جاء التنافس بين الجماعتين وظهر تفوق الشرقيين وتقدمهم، فرأى الأندلسيون واجبهم في مساعدة العمل ليلحقوا بغيرهم وكأنهم كانوا في سباق مشروع مع مواطني الدولة العباسية في الشرق، وساعد على الانصراف إلى الدراسة وضوح الاستقرار وقوة الدولة وشدة الحاجة إلى العلم، ووجود فرص العمل الممتازة أمام المتعلمين وحدهم، ثم عدم ميل الدولة إلى الحروب الخارجية بعد أن تعينت حدودها، وبعد أن أدركت خطورة التورط في حروب وراء الحدود مع وجود العداء التقليدي مع المسلمين حكام بغداد ومع المسيحيين حكام بلاد الفرنج<sup>(١)</sup> وجاء تكوين الجيش الأموي بالأندلس فرصة مناسبة لتنافس العناصر الإسلامية على احتلال مكان الصدارة في الوجود بالبلاد، ولعبت جماعات الموالي دوراً قوياً في دعم قوة الدولة، وظاهرتها القوات العربية ذات الأهمية في حياة المجتمع ومستقبله وتطوره<sup>(٢)</sup>، وكان هذه وتلك أصبحت جماعات مرغوباً فيها، ووضعت لها الأدوار الأساسية في حركة التمثيل السياسي، وكان الرأي الشائع عن الأمويين أنهم يحتفظون في قلوبهم بالعطف على الجماعات العربية، غير أن هذه الجماعات كانت تشعر في الأندلس بخطورة دورها، وكانت تسرف في إظهار هذا الدور أمام الجماعات البربرية القوية، وحاولت الدولة أن تحفظ التوازن بين العنصرين وأن تحكم بهما المناطق التي كانت تخضع لنفوذها

(١) قنعت الدولة الأموية بالأندلس منذ تأسيسها وإلى نهاية وجودها بما كان موجوداً داخل حدود النفوذ العربي الإسلامي.

(٢) ومن أهمها العناصر اليمنية التي وجدت فرصة طيبة للتفوق والظهور على خصومها المضرين.

— مع الفهم بوجود مناطق أخرى مسلعة لم يكن يشملها النفوذ الأموي، لأن جماعات أخرى من البربر والعرب كانت لا تفهم معنى لتركيز السلطة في يد جماعة أموية تفرض السيطرة في كل مكان، ولذلك استمرت هذه الجماعات تحرص على سلطتها الخاصة داخل المنطقة التي كانت تعيش فيها.

وأراد الحاكمون إيجاد ترابط سياسي واجتماعي حول الدولة وزعامتها بما كان يعني تكوين ما يشبه الحزب الحاكم بالبلاد، غير أنهم تعرضوا لنوع من الوصاية التي حاولت الجماعات العربية القوية أن تفرضها عليهم، وكان بعض العناصر العربية القوية أرادت الأمير حاكماً لا يؤثر دوره في حرية التصرف المضمونة للجماعات كلها، واشتدت محاولات الظهور بين عناصر المجتمع المختلفة، ولجأت الدولة إلى رعاية العصبية البربرية كقوة تتصل بهما عن طريق الولاء أو غيره، وتعرضت الزعامات العربية للاضطهاد، وكانت زعامات قوية مؤثرة تملك الحجب الكافية لبعض الدعاوى السياسية ضد الحكام، وتملك أيضاً التهديد بالاتصال بالقوى العباسية في الشرق، وتعرف مواطن الضعف عند الأمويين، فظهرت كأنها كانت عناصر متمردة ترفض الخضوع لسلطة الدولة، ولا ترضى بغير العمل أمام الصفوف جميعاً؛ وتحاول أن تكسب بسبب جهودها في أيام الفتح مراكز الصدارة كلها.

ويظهر أن العصبية العربية لم تكن كافية لإقامة الدولة الأموية بالأندلس لأنها كانت عصبية واحدة من عصبيات قوية، ثم إنها كانت عصبية مغرورة ومتطرفة وغير متعقدة، فلم يحدث في الأندلس تماسك أو انسجام بين الحاكم العربي وبين الجماعات العربية

كمفصر ممتاز حريص على السيادة، وبدا أن الحاكم العربي كان يخشى العناصر العربية أولاً لأنها كانت تريد إخضاعه، وإذا كان الأمر في حاجة إلى عصبية فيمكن أن تكون عصبية بربرية تتعاون معهم في إقامة دولهم في مقابل السخاء والرعاية، ويمكن تكوين جماعات مستوردة من العبيد المعروضين في الأسواق<sup>(١)</sup>، ومعنى هذا أن الحاكم الأموي لم يجد من السلامة أو من الممكن أن يقول إنه سيد عربي يقيم حكماً للعرب في الأندلس، لأن الفكرة كان قد ضاع وقتها بعد أن ظهر في الشرق نظام جديد شامل يحاول المزج بين كل العناصر الإسلامية، ثم إن الحياة في الأندلس لم تكن تقبل فكرة الحكم على أحاس من العصبية الواحدة لجنس واحد، فحاولت الدولة تكوين عصبية لها من بين مؤيديها، وساعدها نفتت العرب وتنازعهم على المصالح المعارضة، حتى أصبح من الصعب تجميعهم وحكم البلاد بهم وكان ثوارهم يناقشون أحقية الحاكم في الرئاسة ويطالبون بالحق في الامتيازات كجنس ممتاز، أما البربر فكانوا ينادون بالمساواة التي ضمنها الدين الإسلامي للمسلمين، وهو طلب متواضع أو مقبول إذا قورن بمحاجات العرب ورغباتهم المتطرفة، واستمرت بلورة الحياة الاجتماعية والسلوك السياسي وقتاً طويلاً حتى وضعت معالم الطريق أمام الجماعات الأندلسية، فرأت في الحاكم رجلاً قادراً على التصرف وجديراً بالطاعة، وكان وجوده يساعد على الوحدة والتماسك، أو يشير إلى نوع من الشرعية في الحكم، ولكن الجماعات الأندلسية مع ذلك استمرت ترفض الخضوع التام وتأبى سيطرة الفرد، وكأنها كانت جماعات واعية لضرورة الرقابة المباشرة على

---

(١) عرف هؤلاء في تاريخ الأندلس باسم العقاب، وكان هذا اللفظ يطلق على أسرى الحروب الذين كانوا يقعون في أيدي الجرمان ثم يباعون للمسلمين بالأندلس.



أعمال الحكام ، وبسبب هذا تعرض أمراء الأندلس إلى نوع من الصراع الطويل مع العناصر القوية في مجتمعاتهم الحر القلق الذي لا يدين بالولاء إلا لمصالحه وحدها، ولا يريد أن تقتيد تصرفاته أبداً، وكأن الناس ذهبوا إلى هناك في محاولة من محاولات الانطلاق من قيود الضغط المعروضة أو المفروضة على الناس في الشرق ، وقد أوقعهم الانطلاق بلا حدود في النزاع الداخلي العنيف بمد تكوين التجمعات الكبيرة والصغيرة منهم وظهر ما يشبه العصبية الموروثة للأصل القريب أو البعيد والعصبية الغربية للمنطقة أو المدينة، وكانوا يفهمون الحياة كأنها كانت حركة نقد لا تتوقف، ولذلك عاش الأقوياء من حكامهم في صراع داخلي طويل كان أقوى من الصراعات الخارجية وأخطر منها ، وخضع الضعفاء منهم للفوضى وتعرضوا بسببها للضياع .

واستمرت عصبية الدولة تعتبر نفسها مسئولة عن وجودها، وتتمتع لنفسها دورا كبيرا في تطور الأحداث وتفاعها وظهرت جماعات كان منها رجال الإدارة والسياسة والجيش وغيرهم، وتنافست العناصر المختلفة نحو الانقسام للقوة العسكرية، وحاولت أن تظهر تفوقها في العدد أو الكفاءة الشخصية ليكون لها النفوذ والصدارة ، وانتشرت جماعات أخرى أخذت تنمو مع الزمن ، وتنشط في البحث عن مجالات العمل والاستزاق ، ووجدت بالبلاد فرصا هائلة وأرضا طيبة انشغلت بها عن الاهتمام بالدوران حول الرئاسة للسيطرة، وكونت لنفسها وجودا مستقلا في مناطق منعزلة ، لا كرها للنظام والتماسك ، وإنما رغبة في ممارسة الحرية المطلقة التي كان الاحساس بها عميقا في نفوس الجماعات كلها ، واستمر الاجتهاد في إتمام الثروة بإدخال زراعات جديدة ، وصناعات جديدة، ونشطت حركة التجارة وامتلات أوقات الفراغ، وزاد الرخاء الاقتصادي، وازداد وعي الناس بما حولهم، ولم يجدوا

معهم إلا رئاسات محلية صغيرة تأتي بها الأحداث ، أو تقتضيها ضروريات الإقامة بالبلاد المنعزلة، ووجدوا أنفسهم ينتمون إلى عنصرين أساسيين اتخذ كل منهما لنفسه مكانا شبه مستقل في مناطق بعيدة كان وضعها الجغرافي يساعد على تعميق الانفصال ووضوح الخلافات بين الناس، وعدم الشعور بالحاجة إلى الآخرين، وضاع وقت طويل في شبه صراع عميق بين العنصرين القويين بالمنطقة، وإن كانت أسباب الخلاف لا ترجع في أساسها إلى تاريخ قديم بقدر ما كانت ترجع إلى عدم وضوح الرؤية أمام الجميع ، ولا يبدو أن البربر كانوا يريدون حكم الجماعة الأندلسية ، وإنما كانوا يريدون للعرب الحكم والرئاسة على أن يكون لهم دور مؤثر أو جانب قوى في سير العمل كله ، فكانوا لا يريدون خضوع التابع وإنما يريدون مشاركة الزميل ، وكانوا يحسون بإمكانية الدفاع عن وجهة النظر المعروضة ، وتلح عليهم تعاليم الدين بطلب العدالة وبدا ذلك في نظرهم جانبا مشرقا للإسلام كدين ، وربما كانوا أشد حرصا على هذا الجانب وحده من بين تعاليم الدين ، وأما الإشارة في الدين إلى التسامح وإلى الأخوة والاعتصام برباط يجمع كل الناس فكانت أشياء غير مرغوب فيها ، أو لا يميلون إلى محاولة فهمها ، وفي ذات الوقت كانت الجماعات العربية تحس بكبرياء العنصر الممتاز ، ويظل الدولة العربية العظيمة ، فتجدد الصراع وكأنه كان ضغطا من جانب ورفضاً للتبعية من الجانب الآخر ، وانهمزم البربر في أغلب معاركهم مع العرب ، ولا تبدو الهزيمة إلا نوعاً من إخفاد الصوت المؤقت ، ثم انصرفوا بعد هزيمتهم عن المناطق التي تضمهم أمام غرض الهجوم عليهم من جديد وكأنهم كانوا شعباً منفصلاً أو مواطنين من الدرجة الثانية - انصرفوا للحياة في تكتلات صغيرة في داخل المناطق التي كانت تملأها تجمعات السكان من كل الأجناس ، وبعد أن كان المسلمون منذ حركات العمل العسكري الأولى أشبه بأمم تسيران في اتجاهات متعارضة قرب الاختلاط



المباشرين وجهات النظر المختلفة، وأفهمهم إمكانية الحياة معا، وظهر اختلاط العناصر حول تجمعات جديدة، مع الإحساس في داخل النفس بالانتماء لرابطة أساسها الجنس والعصبية، وسار ركب الحياة بكل الأحياء، وجاءت فرص العمل الممتازة للجميع، وظهر المجتمع النامي المتطور العامل على تقدم الحياة في الداخل ودفع الأخطار القادمة عليه من الخارج، وساعد على إقامة الحضارة المشتركة أن الأسرة الأموية الحاكمة قدمت حكاما أقوياء نجحوا في المحافظة على تماسك هذا المجتمع وعلى وحدته، وظهرت الدولة كقوة سليمة قادرة على حماية أبنائها، ثم انكشف دور الحكام الأقوياء كعامل مؤثر في مجتمع كان في حاجة إلى قوتهم الشخصية واستمرت الحاجة إلى جهد الحكام المساعد على التقدم، وجاء التطور الحضاري الذي بلغ أقصى مداه في القرن الرابع الهجري، وفي نفس الوقت ظهر خطر الإرادة المسيحية الهادفة إلى إزالة الوجود العربي كله من أسبانيا، على أن حياة التماسك والانسجام لم تلاحظ لفترات طويلة وكان المجتمع يبدو دائما معرضا لتفتت والانقسام لولا ضوابط القوة غير العادية عند بعض الحكام، لأن مشكلة العلاقة بين العناصر المختلفة لم يتفق على حلها، وكل جماعة كانت تجذبها مصالحها الخاصة وحدها، وكانت تتعاطف مع الميول العنصرية حتى لم تنجح الجهود الهادفة إلى صهر العناصر المتعارضة في وحدة إلا لفترات قصيرة، وساعد على ذلك الإحساس بعدم الأمان<sup>(١)</sup> والتعرض الدائم للخطر، نظرا لعلاقات طويلة من سوء الظن وعدم الثقة بين هذه العناصر، ورغم وحدة المصير والهدف فقد كان هناك إحساس بالانقسام

---

(١) ولا سيما بعد وضوح الفرض من حركة الاسترداد المسيحية بعد تعاطفها في أوائل القرن الخامس ١١/م.



فى المجتمع الذى كان يضطرب بالعناصر المختلفة، ثم كان هناك انقسام فى المواطن  
القوية الدائرة حول العقائد الدينية، وهذه العقائد كانت تلعب أهم الأدوار فى  
تكيف الحياة للناس جميعاً.

## ٦ - حول الدين :

لقد حاولت دولة الأمويين منذ نشأتها أن ترفع عقيدة المسلمين وتحمسها،  
و كانت تجد بعض سلامتها فى حماية هذه العقيدة فتربت الفقهاء الذين وجدوا فرصتهم  
فى إقامة نفوذ مباشر على الأمير ذاته <sup>(١)</sup> وفى ممارسة ضغط مباشر وغير مباشر  
على المسلمين وعلى غير المسلمين معاً، وإذا كان صحيحاً أن روح الإسلام وتعاليمه  
تشير بالتسامح وإفساح المسكان للآخرين ليعيشوا مع الحرية الدينية والاجتماعية  
بنظام مالى مقبول فان تمسك الفقهاء وحياتهم فى مجال واسع سمح لهم فيه بحرية  
العمل كشرافين على حياة الناس الاجتماعية جعلهم يتعدون عن روح التعاليم  
الإسلامية الطيبة، ويحاولون إقامة حكومة دينية مفروضة على كل الناس وقد  
يكون من غير الممكن الإشارة إلى حركة اضطهاد دينية أو اجتماعية مقصودة  
أو غير مقصودة لغير المسلمين بالأندلس ولكن ظهور صوت أى دين فى منطقة  
من المناطق أو إباحة حرية العمل بلا ضوابط لرجال أى دين كانت تعطيمهم  
فرص الانطلاق البعيد عن التعاطف مع الآخرين، وتعطى هؤلاء الآخرين  
شحنات عاطفية مضادة يكون فيها الأسف والمرارة والحقد والكراهية، وقد قام شعور  
معارض لهذا الاتجاه بين غير المؤمنين بالحاجة إلى ظهور رجال الدين كقوة مؤثرة  
مفروضة على الآخرين، وغير المسلمين كانوا يحسون لفترات طويلة وربما إلى  
النهاية بغربة الإسلام فى أسبانيا، وأنه دين وافد على بلاد كانت مسيحية

(١) ظهر ذلك بوضوح فى تسلط الفقهاء على الأمير هشام بن عبد الرحمن ١٧٣ -

١٨٠ هـ / ٧٨٩ - ٧٩٦ م.

وكان يؤسفهم ظهوره وتفوقه كعقيدة، وشجعتهم مراکز الاتصال المسيحية النشطة، وكانت تعيش في جو كثيب من عدم التسامح والحماس غير الواهي للعقيدة الدينية، وكان هذه العقيدة كانت ممرضة لخطر الانهيار، واشتدت مراکز الدعاية الدينية وكثرت في بلاد الأندلس وحواليها، ونجحت في قيادة القلوب والعقول المشقة على دين المسيح، وجاءتها الفرصة عندما اصطدم المسلمون الذين كانوا يقودون الاتجاه الديني القوي بمن كانوا في مراكز السلطة منهم، وحاولوا تهديدهم بعد أن ملسكواعليهم عواطف الناس، وبعد أن جعلوا حياتهم كلها محاطة بالإحساس الديني المتزمت الذي كان يفرض نوعاً من الرقابة على حركة المجتمع كله، وكان لابد أن يسود أحد الجانبين، وأن يكون الحكم لأحدى القوتين، فظهرت خطورة الصراع على النفوذ والتحكم في المصير، وقامت ثورة<sup>(١)</sup> إسلامية شعبية ترفض سيادة الفرد غير الملتزم بتعاليم الدين، وتتهم الأمير بالخروج على الإسلام والكفر به.

وأدى النزاع إلى إعلان الحرب بين قوة السلطة وقوة الداعين إلى العمل تحت الإشراف الديني، وانهزم العاملون باسم الدين، وحرمت جماعات منهم من الحياة في أرض الوطن، فأنصرفت كارهة في عدد يزيد على عشرين ألفاً إلى شمالي إفريقيا، وكانت جماعات لاجئة تحاول أن تجد لها مستقراً على الأرض، ووجد بعضها لنفسه مكاناً في مدينة قاس الشيعية التي ساعد حكامها على إيجاد فرص الإقامة الطيبة للوافدين عليهم، وكانوا عناصر مسلمة متطورة يمكن استغلال خبرتها وجهودها في تقدم الحياة بالمغرب، ويمكن أيضاً أن تفيد بالدعاية للأداسة كحماة للإسلام والمسلمين، وصار بعضها الآخر ليعتد لنفسه عن مكان في

---

(١) عرفت بثورة الربض سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧م وقامت ضد الأمير الحكم بن

هشام ١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢١ م



الاسكندرية، ودخلوها لاجئين كالمهاجرين ثم طردوا منها إلى جزيرة كريت<sup>(١)</sup> بأمر من وإلى السامون أمير المؤمنين، وكان هذا يعنى هزيمة الشعور الدينى المتطرف أمام قوة الدولة الأندلسية، ولقد هزم الشعور الدينى لأنه ظهر بلا قيادة أو لأن المدافعين عنه كانوا لا يملكون وسائل الانتصار الكافية، ومع ذلك استمرت الدولة حريصة على الزعامات الدينية ومنها بعض زعماء الثورة نفسها، لأنها أرادت هزيمة الاتجاه الثورى لا هزيمة الافراد المتدينين، وربما كانت تخشى تهمة اضطهاد الدين وأهله بالأندلس فضربت القاعدة وحدها، وتركت القيادة لتدافع بوجودها عن نفسها عند مواجهة المسلمين الآخرين.

ثم حاولت السلطة أن تشغل المجتمع بحياة اللهو والمجون بدعوة اللاهين إلى الأندلس من بغداد وغيرها، فانشغل الناس بأمور الدنيا بعد انشغالهم بأمور الدين، واعتبرت تصرفات المغنيين والمعاشين نماذج للتطور الحضارى المطلوب، ولم يوافق ذلك شعور المسيحيين المزمتمين، فقاموا بحركات ثورية كنوع من إثبات الوجود فى غياب الروح الدينية الإسلامية، وكان المجتمع كله قد سار بعيدا عن مراعاة الشعور الدينى للمسلمين والمسيحيين معا، وظهر التحلل من الدين والجرأة على تعاليمه، فهو جم المجتمع الكبير فى عقيدته الدينية من جماعات مسيحية قليلة العدد قوية الإيمان، وأخذ أفرادها يسبون دين المسلمين ونبههم علنا أمام الناس وأمام الحاكمين أنفسهم؛ فقرضت الدولة عليهم عقوبة الموت وكانت هذه العقوبة تزيدهم حماسة واندفاعا إلى الإسراف فى السباب والامتناع، ثم لم تأت هذه الحركة المتعصبة بالنتيجة المأمولة لأن الدولة لم تسلك الطريق الممارض لها، ولم تستعمل القوة فى فرض

---

(١) فتح الأندلسيون جزيرة كريت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م وأسسوا بها دولة استمرت حتى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م



الأدب على غير المتأدين من المسيحيين ، واستطاعت صرفهم إلى الطريق العام بعد حالات معدودة من العنف والقسوة، واندفع المجتمع كله بعد ذلك نحو العمل المتطور البعيد عن الضغوط الدينية المباشرة ، واستمر هذا وقتا طويلا مع الاحساس الشامل بأهمية التعاليم الدينية ، ومع التظاهر باحترامها والتمسك بها ، ومع البعد عنها وعدم الخضوع لها في الوقت ذاته<sup>(١)</sup> .

#### ٧ - عناصر جديدة

لقد نشأت الدولة الأموية بالأندلس كاستجابة لوجهات نظر قوية معارضة لسياسة العباسيين في وقت كان هؤلاء مشغولين بتنظيم شئونهم في الشرق ، وعلى أساس قوة متسلطة يرأسها أمير قوى استمر طول حياته يجاهد العناصر المعارضة له ، حتى تغلب عليها وفرض عليها نفوذه ، ولم تكن أمامه إلا فرصة الضغط بالقوة وحدها إذ لا أمل له في قبول كل هذه العناصر لنفوذه، أو في اتفاقها عاياه، وجاء الذين بعده وكانت تميل معهم الدنيا بقدر كفاءتهم الشخصية ، وبقدر استجابة المجتمع لهم وبقدر قوة دولتهم واستعدادها لحماية نفسها من أعدائها ، لأن تقلبات المجتمع كانت قوية وخطيرة ودائمة ، وكانت الأخطار الخارجية قوية ودائمة أيضا ولهذا جعلت الناس يعيشون في قلق ، ويتربعون الخطر في كل الاوقات.

وفي غير عصور الحكم الأقوياء كان مجتمع الأندلس يرجع إلى حالة شاذة من الفوضى السياسية والتفتت الاجتماعى ، وقامت ثورات سياسية في مناطق منعزلة، ثم ظهر عنصر جديد قوى أخذ دوره بعنف على مسرح الأحداث وهو عنصر

---

(١) ثم فاجأت غارات النورمان البحرية هذا المجتمع اللاهى نصرفته إلى الاحساس بضرورة اليقظة العسكرية من جديد .

المولدين، أو الأسباب المسلمين، وكانوا على شعور غامض مختلط فكانوا يوايوا اللون الدولة، لأنهم أدولة المسلمين وهم منهم ويريدون أن يتخذوا لهم طريقا واضحة في إدارتها والمشاركة في شئونها ، وكانوا أيضا يحسون بنوع من التعاطف الغامض مع المستعمرين الأسباب غير المسلمين لوجود الصلة القريبة بينهم جميعا ولقوة الاختلاط بين الجميع وللشعور بالانتماء للماضي الواحد .

ويتحدث التاريخ عن ثورات للمولدين في الفترة ٢٢٨-٣٠٠ هـ / ٨٥٢-٩١٢ م ، بقيادة ابن حفصون وغيره، وكان هذا رجلا متلوفا في الدين والسياسة، وقد اجتمعت في جيشه عناصر قوية من المسلمين والمسيحيين معا ، وكان يرضى المسلمين بدعوى الإسلام ، ويرضى المسيحيين بدعوى المسيحية في الوقت الواحد، ورفع بالحرب صوت العناصر المتمردة ، وكان يقسو على العرب ويظلمهم فكانوا يتجمعون ليردوا بدورهم على العنف بالعنف بعدن زادت الفوضى عند غياب السلطة .

واستمر الحكم في حال من الضياع وكانوا يواجهون الزعامات القوية من البربر والعرب والمولدين ، وكل هؤلاء كانوا يشعرون ويقاثلون بحجة حماية الوجود المستقل، والمصالح المباشرة والمطالبة بامتيازات جديدة، وأمرع الحكم إلى الالتجاء نحو العصبية الناشئة وكان أظهرها عصبية الصقالبة الذين وجدوا فرصتهم في السيطرة على مجال العمل العسكري والإداري معا ، وكان هؤلاء جماعات من الأمري المعروضين في أسواق العبيد بأوروبا، ونشأوا بعد ذلك في وسط جديد وعرضت عليهم حياة جديدة كانت تهدف إلى تكويّنهم كجنود يقومون

بمخدمة الدولة ، فتكونت منهم برعاية السلطة<sup>(١)</sup> قوة قادرة كانت تنافس قوة العرب وقوة البربر جميعاً، وكان عليهم أن يواجهوا كمثلين لسلطة الدولة كل الثورات في كل مكان ، ولم ، تسكن هذه الثورات بسبب مظالم اقتصادية غير مشروعة، أو بسبب اختلاف وجهات النظر السياسية في الدولة الواحدة، وإنما كانت ثورات أنانية انفصالية تصرفها العصبية المتحكمة في المجتمع كله ، واستمرت الفتن وقتاً طويلاً كانت الدولة تعلن فيه عن وجودها الإسمي في دائرة ضيقة داخل العاصمة الأندلسية وحدها ، وأما في خارجها فكانت ثورات البربر المنادين بالمعادلة والمساواة والاشتراك في الامتيازات مشتعلة، وكانت ثورات العرب القائمة باسم حقهم الأول في الصدارة، وباسم الخوف من ضياع النفوذ والقوة في كل مكان، وكانت هناك أيضاً ثورات المولدين الراغبين<sup>(٢)</sup> في المشاركة الإيجابية في أمور السياسة والقيادة .

وربما كانت أسباب ثورة المولدين بعيدة عن معنى عدم المشاركة في العقيدة الدينية ، لأنهم كانوا جميعاً مسلمين ، وبعيدة أيضاً عن معنى عدم الشعور بالمصير الواحد لأنهم كانوا يتعرضون لنفس المصير ويحسون به ، وإنما كان من أسبابها الانفصال العاطفي بينهم وبين غيرهم من الناس ، وتعارض المصالح بين الجماعة التي كانت تتوارث الحكم بالدولة ، وتؤمن بأحققتها فيه ، وبين جماعات كبيرة أخرى أصبح لها وجود ضاغط على كل جوانب الحياة في البلاد ، وكان المولدون يمثلون طوائف كبيرة تمتزج

---

(١) كان عددهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر قريباً من أربعة آلاف جندي ، ثم زادوا بعد ذلك إلى ما يقرب من أربعة عشر ألفاً .

(٢) كان المولدون أكثرية كبيرة في المجتمع الأندلسي في ذلك الوقت .



في هروقهها دماء مختلطة ، و تمتزج في أذهانها ثقافات وحضارات مختلفة ، وتجد نفسها خاضعة لوجهة نظر واحدة تدور في جملتها حول السيادة العربية أو حول أهمية هذا الجنس البشري المتحضر .

\* \* \*

لقد حدثت عمليات اختلاط كبيرة منذ سنوات الفتح الأولى بين الفاتحين والسكان ، وكان الفاتحون لا يترفعون على الجماعات القابلة لنفوذهم ، والراغبة في التعاون معهم ، وظهرت أجيال جديدة بعضها كان ينتسب للعصبيات البربرية وبعضها كان ينتسب للعصبيات العربية ، واختلطت الدماء بين الجميع وازدادت الصلات بين العرب والبربر والاسبان المسلمين وغير المسلمين ، وتكونت أجيال جديدة كانت لها شخصيات جديدة ، اتضحت فيها صورة المواطن الأندلسي المتميزة ، وهذه الصورة الجديدة أضعفت حدة العصبيات مع الزمن ، وبين هؤلاء جميعاً ظهرت جماعات الأندلسيين المسلمين المعروفين بالمولدين وكانوا يؤمنون بدين الإسلام ويختلطون بالمسلمين ويخضعون لمصيرهم غير أنهم لا يلتفتون معهم لتاريخ واحد ، ولا يشعرون معهم بالأصول الواحدة ، وكان لهم مزاجهم وآراؤهم وآمالهم التي تلائمهم ، حتى كونوا ما يشبه القوة المتميزة ذات الميول الخاصة ، ولذلك قاموا بدور ثوري خطير ضد الحكم المسلمين ، وكان لهم تمثيلهم الواضح في كل مكان ، وكانت لهم أغلبية عددية ساعدت على إضعاف الشعور بالأصل القديم ، ولولا وجود الزعامات العربية والبربرية القوية التي كانت تنمي الإحساس بالأصل البعيد لكان من الممكن انصهار جميع العناصر الأندلسية في العناصر الإسلامية الجديدة ، ولظهرت الشخصية الأندلسية في هؤلاء جميعاً ، ولولا أن أوقات الضعف في سلطة الدولة كانت تاجيء جماعات كثيرة إلى الالتفاف حول العقيدة الدينية ، أو حول المبادئ السياسية أو حول الإحساس بالأصل

الواحد لكان من الممكن — لو توالى على مرا كز السلطة حكام أفوياء — أن تنصهر كل العصبية في قوة واحدة هي قوة مواطني الدولة ، ولكن يبدأون الإحساس بالانفصال في الأصل والعواطف ظل موجوداً لفترات طويلة من تاريخ البلاد ، ثم وجد من ينميه من الزعامات المستفيدة ، وساعد عليه عدم الأمن والطمأنينة والشعور بالخوف الدائم ، وكان اختلاف الدين عاملاً خطيراً من عوامل الصراع الطويل بين المسلمين والمسيحيين بالبلاد ، وقد ظلت الجماعات المسيحية على أمل التخلص من المسلمين جميعاً ، وكانت لها اتصالات جانبية مع القوى المسيحية الخارجية وكانت تمثل خطراً مباشراً على السكبان الإسلامى بالأندلس ، ورغم تأثرها بالحضارة العربية ورغم مشاركتها فيها وافتقارها بها إلا أنها كانت تجدد دائماً أمثال ذلك القس<sup>(١)</sup> الذي كان يلومها على الافتتان بحضارة العرب وثقافتهم وينمى فيها روح العداوة لهم والإحساس بفقرتهم .

واستمر مجتمع الأندلس يحتوي العرب المتمسكين بالانتماء الأصول العربية القادمة من الشرق والمنقوبة لها علناً ، والمقاومة بنوع من نقاء الدم ولو من جانب الأب وحده ، وكان يقوى وجود العرب وإحساسهم بقوتهم وفود جماعات جديدة ضاقت بها سبل الحياة في الشرق ، أو طردتها أساليب السياسة هناك ، أو جذبها برىق الدعاية للحياة بالأندلس ، ورغم اختلاط العرب الشديد بالسكان إلا أنهم كانوا يحسون بالانتماء للدولة العربية وبأن السيادة جاءت للأمير في الأندلس عن طريق النسب العربي وعن طريق مجد العرب ، ولهذا ظلت جماعات كبيرة منهم متمسكة بالأصل العربي وتعتز به .

---

(١) تشير شكوى رجل الدين المسيحي الإحسان بأن كل الناس كانوا صائرين إلى وحدة شاملة هي الوحدة الاندلسية التي تجمع الشعب الأندلسي وكان معنى ذلك قرب انصهار كل العناصر الإسلامية والمسيحية في وحدة كبيرة .  
انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

واختلط البربر بدورهم بالعرب بعد حياة العزلة الأولى واتصلوا بالأسبان عن طريق المصاهرة والمصالح اليومية المشتركة، وتمسكوا من جانبهم بالأصل الإفريقي للبربرى كنقطة التقاء تتجمع حولها الجماعات الراغبة فى السلامة عند الخطر، والجماعات الآملة فى الخير عند ظهور فرص الطمع، وظلت الطوائف البربرية ترى فى الأصل الواحد نوعاً من الحماية القوية، وشجعها على ذلك الزعماء المنتفعون بالتكتلات البشرية، وربما كان هذا الشعور من مفاهيم العصر واتجاهاته، وكان هذا الإحساس يظهر بقوة عند البربر عند قيام الدول الإفريقية البربرية فى الشمال الإفريقى وعند دخول هذه القوى إلى الأندلس منجدة للمسلمين أو محتلة لبلادهم.

وأما الأسبان المسلمون أو من ضاعت أمامهم أو فى نفوسهم معالم النسب فكانوا لا يريدون الوقوف عنده، ولا يحسون بالانجذاب إليه، وربما كانوا أعمق فهماً، وأعظم تطوراً من غيرهم، لأنهم أرادوا التبعية للوطن وحده، وقد تسموا بالمولدين أو الأندلسيين الذين يحسون بالولاء لأرض الأندلس وحدها، وهؤلاء كانوا أكثرية طغى وجودها على الكثير من جوانب النشاط الحضارى بالبلاط، وصحيح أن انجذاب العرب للشرق ولتاريخ العرب كان مسألة عاطفية تتجمع حولها العواطف الطيبة أو الإحساس القوى بعظمة التاريخ والأصل العريقين وكذلك كان انجذاب البربر للأصول البربرية فى إفريقية وتأثرهم بنشاطها فى بلادها، وربما كانوا يشاركون بجهودهم فى حركتها بإفريقية الشمالية لقربها من الأندلس — غير أن الحقيقة ظلت قائمة وهى إحساس الكل بالانتماء لأرض الأندلس وحدها وأن كل واحد منهم كان يمثل المواطن الأندلسى الجديد، ونقول بوجود أمة أندلسية أخذت معالمها تتبلور بالزمن وأخذت عناصرها تتكون بالتدريج، إلا أنها لم تتفق



على الانصهار الكامل رغم طول المدة التي عاشتها هناك ، ورغم الاشتراك في  
الأمّل والمصير، وقد يكون صحيحاً أن تقول إن بلاد الأندلس كانت تحوى أمة  
أندلسية واحدة انجذبت عناصرها القوية إلى أصولها البعيدة التي كانت تتجمع حولها  
هذه العناصر عند الصراعات الداخلية ، وكان الانقسام يأتى عند ضعف الرئاسة أو  
عند اختلاف المصالح بين الجماعات الكبيرة القوية التي كانت تعيش في  
تكتلات يساعد اختلاف التضاريس الجغرافية على انفصالها .

وقد ظهر ضعف الرئاسة أيام حكم الأمراء الذين جاءوا خلال الفترة ٢٣٨ —  
٨٣٠٠ / ٨٥٢ — ٩١٢ م فاشتدت الفتن والانقسامات وضاع أثر الدولة بالمنطقة  
واحتدمت المصومة بين العرب والبربر والموادين والمستعربين والصقالبة ، واستمر  
مجتمع الأندلس طول هذا العهد مضطرباً غير مستقر ، وساعد على غليان الشعور فيه  
ما كان من اختلاف عناصره ، وعدم خوفها من السلطة القائمة ، وعدم رعايتها للنظام  
السائد ثم الاحساس بالوحدة في المكان البعيد ، وظهور الأطماع الشخصية أو الحزبية  
والتعرض للخطر الملح ، ولم يكن هناك ثقل لأي موازين معروفة مثل ضغط الدولة  
أو الالتزام بالتقاليد والقيم .

#### ٨ — مجتمع الأقوياء :

ثم جاء الخليفة عبد الرحمن الناصر في بداية القرن الرابع الهجرى ٣٠٠ —  
٨٣٥٠ / ٩١٢ — ٩٦١ م وكان المجتمع الأندلسي نفسه — كما كان عند دخول  
عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ — ١٧٣ / ٨ ٧٥٥ — ٧٨٩ م — في حاجة إلى قوة موحدة  
تجمع المتفرقين بعد الصراع الطويل ، وحاول هذا الأمير القوى خلال خمسين سنة أن  
يعيد وجود الدولة الأموية وأن يفرض نفوذها على الناس بالقوة ، ورأى طريق النجاح

والنصر في تشجيع الخاملين من رعاياه كي يستطيع عن طريقهم فرض إرادته الحازمة، ثم هاجم بهم الزعامات كلها، وأحدث الكثير من التغييرين من يسرون في صفوف القيادة السياسية والاجتماعية، فازدهرت الحياة بالناس وتطورت، وأقبلت عليه السفارات الأجنبية لأنه كان يمثل مركز الجاذبية الدبلوماسية في العالم الإسلامي كله، وبعده جاء المنصور بن أبي عامر ٢٦٦ - ٢٩٣ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م ليحكم مجتمعاً نشيطاً متماسكاً يحاول دفع الأخطار وحراسة الاستقرار، وينتصر الحاكم الجديد، فتلتف حوله العناصر المختلفة في محاولة للتفاهم أو للتسليم معاً نحو الغاية المرجوة، وضرب الناصر والمنصور أعداءهما بقوات المسلمين المتعددة، وقسوا على المعارضين لهما، وحطما زعماء الجماعات المتمردة، وحاولا لفت الأنباه نحو سيادة واحدة هي سيادة رئيس الدولة، فجاءت لهما القوة والأمن، وكسبا النصر عن طريق التفاهم العناصر القوية حولهما، وإن استمرا على حال من دوام المراقبة وتوقع الأخطار.

وظل أعداؤهما في الخارج ينتظرون لهما فرص الضعف المفاجئة لفرض الإرادة عليهما واستكان أعداؤهما في الداخل توقيا للمقوبة القاسية، وخوفاً من الظلم والتعدي وظهرت في عهدهما صورة المجتمع الأندلسي المنتصر، أو المجتمع الإسلامي الغالب، وإن كان مجتمعاً مرهقاً، يضم نشاطه ودخله على طريق الصراع الدائم مع الأعداء، ولم تنته قضية الخلافات بين عناصر المجتمع الكبير فاحتمرت الدولة تبذل جهوداً دائمة لتحتفظ وجودها ضد عوامل الضياع الطاغية، ولتبدو قادرة على العمل ضد الأعداء في كل مكان.

ثم حدث الانفجار السيامي سريعاً وزال سلطان بني عامر ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م لأن مؤسس نفوذهم كان رجلاً قوى الإرادة، يحس بأنه كان فوق مستوى نشأته المتواضعة، ويشعر الناس حوله بأنه كان يعمل في غير مكانه، وقد ظهر

كشخص قوى له أمل الأقوياء وغاياتهم ، حتى استنزف موارد الدولة في حروب طويلة أظهرته كقائد عسكري ناجح يسود مجتمعا يجرى وراء السراب والأمل الكاذب، وكان هذا المجتمع كان يتكون من جماعات منجذبة إلى عوامل القوة عند سيدها ، ولذلك خفت صيحات المعارضة له خشية التعرض لبطشه ، أو اعتراقا بعظمة مواهبه ، واشتغل المجتمع كله بالقتال في عهده ، وخضع للطفيان المصرف ونسي هوايته في مراقبة الحاكم ونقده .

وكانما تكونت في زمنه من المجتمع الأندلسي قوة واحدة لصالح السيد وحده، وكان هذا السيد يعيش بأحلام النصر الدائم وبغرور القوة الغالبة، حتى تفنى الناس في مجتمعه بلا إرادة بانتصارات القائد وبطشه ، ونسوا بذلك مظالمه وعنفه<sup>(١)</sup>، حتى جاء وقت الغضب بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور في التلاعب بمواظف الناس ، وأراد أن يكون خليفتهم وسيدهم فثاروا عليه وقتلوه ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م وألغوا دولة الأمويين نفسها من بلاد الأندلس سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م وكان المنصور وأبناؤه بعده يعملون في خدمة هذه الدولة وباسمها ، فتفتت الوحدة بين المسلمين وكثر عدد الآملين منهم في القيادات الصغيرة الضعيفة ، وزاد انفصال المجتمعات الإسلامية في الأندلس .

#### ٩ - وحدات منفصلة

وبعد ذلك لجأت الجماعات إلى تكوين الدول ذات الحدود السياسية، أو إلى الاستقلال بالمدن البعيدة المنعزلة ، وتوزعت الزعامات بين هذه المدن، ولم تتلاق عند وجهة نظر

---

(١) حارب المنصور المعارضين له بقسوة وحارب أيضاً حرية الفكر وفرض على الناس رأى الفرد الواحد وسلطه ، وأقام من نفسه وصياً على جميع الناس .



واحدة مقبولة ، وعاشت الطوائف الإسلامية داخل حدودها الضيقة مع الإلحاح بالمحاولات المأداة إلى اغتصاب أملاك الجماعات الأخرى ، وتكونت قوات صغيرة تتجه نحو المدوان الدائم على الجيران المسلمين وحدهم ، وأصبحت هناك مجتمعات عسكرية تحارب في الميادين الأهلية ، ويرهقها الحكم بفرض الضرائب لهدف الاستعدادات العسكرية الدائمة ، ولشراء البقاء في مراكز السلطة بدفع الإتاوات المالية للملك المسيحية ، ولصالح حياة الأمراء الخاصة ، وكانت هذه مجتمعات واعية ، يحكمها بعض الأدباء الفاهمين لأثر العلم في التقدم ، فكان أكثر الحكم يتنافسون في رعاية التطور وخدمة العلم والعلماء ، وحضارتهم معروفة تتحدث عنها كتب التاريخ بأهتمام ، وإن كانت هذه الكتب تنقل صوراً زاهية من حياة الأمراء ، وتشير إلى الحياة داخل قصور الحكم وحدهم ، وحول الدائرة الضيقة التي كانت تحيط بهم ، ولقد كان يمكن لشعوب الطوائف — بعد الانتصار في كثير من جوانب التطور البشري<sup>(١)</sup> — أن تكون سعيدة لو عرفت لنفسها طريقاً واضحة ، ولكنها كانت تعيش وحولها الظلمات من كل جانب ، وأحياناً كانت تلجأ للعمل كنوع من الهروب بعيداً عن الإحساس المؤلم بالخطر الملح والنهاية للؤسفة .

ورغم ذلك قدم مجتمع دول الطوائف للحضارة الإنسانية مفكرين كان لهم أثر عظيم في تطور ما كان معروفاً عندهم من العلوم رغم ضياع الأمل ووضوح اللام — الاية والعيش تحت ضغط الظلم المستمر ، والخوف من خطر الإبادة ، ونشطت حركة العمران ، وعاش الحكم و سط النعم

(١) كان زمن الدولة الأموية فترة تحضير تجمعت خلالها مواد وافرة في كل العلوم للمرونة وقد تفرق العلماء بعد سقوط الدولة الأموية في كل مكان ، وتوزعت مجموعات الكتب في أرجاء البلاد وأباحت حرية الفكر حتى في شئون الدين ذاتها .

يشعرون بعظمة الحياة الملكية ، وكثرت المساجد في محاولة للشعور بالأمن مع عدم الالتزام بمتطلبات الدين ، وساء تعامل المسلمين بعضهم مع بعض ، وزادت الخلافات والحروب بينهم مع وجود دواعي الوحدة والتماسك ، وأصبح هناك مجتمع فيه أغلبية مسلمة تعجز عن دفع الخطر المتمثل في أقلية مسيحية معادية تعيش في أمن القوة المحيطة بها ، وتعمل لحساب الأعداء خارج الحدود الأندلسية ، وعاش بعض المسلمين في بلادهم الساقطة كرهاً عند الأعداء ، وكان الغرض أن يشعروا بصرف المسلمين مع رعاياهم المخالفين لهم في العقيدة فيقول المسيحيون بحماية شركائهم في الدين ، ويقومون بطرد المسلمين من مناطق نفوذهم في بلاد الأندلس<sup>(١)</sup> ، ومعنى هذا أن دول المسلمين ومجتمعاتهم بعد تفرقهم كانت تحيا مع الضعف ، وكانت تشعر بقوة الخصم وخطره .

وفي كل الأحوال كان شعب الأندلس يعمل لحساب الأقوياء ويشقى من أجلهم ، حتى ازداد عليه القلق وشك في مصيره ، والنفس العون من الآخرين ، وطالب بدفع الخطر عن نفسه حتى وجد الاستجابة عند أمير المسلمين بالمغرب ، ونجحت محاولة المرابطين في تعطيل حركة التقدم المسيحية ، وفي منح الأمل للمسلمين بالأندلس من جديد .

لقد كان تقسيم الطوائف على أساس من تقل الوجود بالمناطق المختلفة ، وإن كان تقسماً عشوائياً اتخذ كوسيلة مأمولة للحماية من الأخطار المحيطة ، ولم يظهر بسبب هذا التقسيم ترابط قوى مع الاعتراف بوحدة الأصل الحقيقية أو الزعومة ، وظل حلم الاتحاد بعيداً حتى بين العصابات المتشابهة التي كانت الروابط تزول بينها حتى بعد اجتماعها في داخل النظم الجديدة ، وربما قدمت بعض الإمارات القوية<sup>(١)</sup>

(١) ومنها مملكة إشبيلية التي حكمها بنو عباد سنة ٤١٤-٨٤٨٤/١٠٢٣-١٠٩١م



صور امتنازة للتماسك بين أعداد كبيرة من الناس إلا أنها خضعت في النهاية لعوامل  
الاضعف الشائمة، وطلبت المراطين فدخلوا الأندلس (٤٧٩م/١٠٨٦م) كجماعات  
مجاهدة تريد الحياة الآخرة ونصر الدين، وراى هؤلاء بعد النصر عوامل الهزيمة  
عند الأندلسيين، وواجهوا خطر المؤمرات المسيحية بأجراءات عينة كان منها طرد  
أعداد كبيرة من المسيحيين، وربما كان هذا إجراء عسكريا اقتضته حاجات الأمن  
والسلامة للجيوس القريبة في البلاد البعيدة، ولكن تفسير هذا الطرد جاء موافقا  
لروح العصر واتجاهاته واتهم المراطون بالتعصب ضد المسيحيين في كل مكان بالأندلس،  
ولقد عايش المراطون مجتمعا أندلسيا يطلب نجاتهم العسكرية، ويتعالى عليهم بسمو  
الشعور، وتقدم الحضارة فلم يحدث تقارب مؤثر بين الحكام والمحكومين  
في هذه البلاد، وكانهم كانوا قوات أجنبية غير مرغوب فيها، مع أنهم كانوا  
مسلمين ينجذبون للإيمان بقوة وبلتزمون بروح الدين وتعاليمه بين شعب  
كبير يبدو بعيدا عن الولاء لكثير من أوامر الدين، ولذلك اتهم المراطون  
بالتزم وعدم المرونة، وإذا كان البربر في الأندلس يحدون في المراطين  
قوة تؤمن حياتهم وتضمن سلامتهم فقد رأى العرب والمولدون  
فيهم جماعات متخلفة لا تزال في حاجة لأن تعيش طويلا في عالم  
متطور، وخافوا من تأخر الحياة بهم ومعهم، وشكوا في نياتهم ولم  
ينجذبوا إلى مظاهر القوة العسكرية عندهم مع حاجتهم إليها ورغبتهم فيها،  
ورأى فيهم المسيحيون جماعات متعصبة تخضع لنفوذ الفقهاء واستشاراتهم،  
ورأواهم بدورهم في المسيحيين مواطنين غير مخلصين لحكم المسلمين أو متآمرين  
على سلامتهم، فلم يكن هناك إذا مجال لتفاهم أو الثقة بين الحكام والمحكومين،  
وهاجرت جماعات مسيحية كانت تسرف في القول بتعصب المراطين وظلمهم.



وجاءت جماعات بربرية من أفريقية لتعطي جيش المرابطين قوة وتأيداً وازداد  
الحماس الديني بين المسلمين جميعاً بعد انتصار المرابطين ولم يستمر المرابطون أقوياء  
يرفعون راية الإسلام وينصرونه حتى جاء بعدهم الموحدون فأخذوا مكانهم  
على طريق الجهاد الديني وانتصروا في معركة الأرك ٥٥٩١ / ١١٩٥ م وأعادوا  
للمسلمين بانتصارهم دورهم بالأندلس، وهدأوا حركة أنفاسهم المتلاحقة، ولكنهم  
انهزموا سريعاً في موقعة العقاب ٥٦٠٩ / ١٢١٢ م، فتعرض بعدهم مجتمع الأندلس  
لصراع البقاء أمام أعداء يتحالفون على العمل ضد وجود الإسلام والمسلمين  
بالبلاد كلها، وظهرت أصالة هذا المجتمع وقوته فقاتل الناس ودفنوا ضياع بلادهم  
واحدة بعد الأخرى ثمناً لضعفهم، وحملوا مسئولية الدفاع عن الأوطان بشجاعة،  
وحافظوا على الشرف بالقتال حتى النهاية.

#### ١٠ - النهاية .

ولم يبق هناك بعد ذهاب الموحدين إلا وحدات إسلامية ممزقة لآلائك  
وسائل العمل أمام اتحاد المسيحيين المتمسكين ، وتركت هذه الوحدات  
لمصيرها ، وظلت تقاتل وهي محاطة بجماعات يهودية تتخفى بين صفوف  
الأقوياء ، وتحاول النجاة بعرض الجهود الخائنة ، ومحاطة أيضاً بجماعات مسيحية  
تعرف مواطن الضعف وتدل عليها ، حتى تحولت حركة المجتمع الأندلسي كله  
إلى التصادم بين القوى المتعادية ، وتحكمت عواطف البغض والكراهية بين  
الجميع ، وأريد تصفية النزاع بين المسلمين والمسيحيين لحساب المسيحيين وحدهم ،  
وساد الشعور الديني المتعصب ، وتبع الحكام المسيحيون رجال الدين المتزمتين ونادوا  
بالولاء للعقيدة المسيحية أولاً ، وظهرت الخيانات الصريحة بين المسلمين أنفسهم

لتنعجل النهاية الحاسمة ، وظهرت المحاولات العقيمة لتؤخر ساعة الموت ، ولم يبق بالأندلس كالم ما يمثل حياة المسلمين الضائعة إلا مملكة غرناطة وحدها وقد عاشت هذه المملكة طويلا ٦٣٠ - ٨٩٨ هـ / ١٢٣٢ - ١٤٩٢ م وكأنها كانت جزيرة مزدحمة بالسكان المرحتين بالمتاعب وسط طوفان من الأعداء المتوحشين .

وأطال بقاءها جماعات مسلمة باسلة كانت تأبى الخضوع وترفض الهزيمة ، وكانت هذه الدولة الصغيرة مشحونة بعناصر عربية مجاهدة تثيرها ذكريات الماضي الطيبة ، وتأتى بمجدها في حركة التطور ، ثم انكشفت جوانب الخطر ، ووقف المسلمون شجعانا في ميادين الحرب الأخيرة وكان يدفعهم الأمل في البقاء ، وتشيرهم الرغبة في الحياة ، مع الأحياء ، وانصرف بعضهم باليأس إلى البحث عما يزيد على نصيبه من الدنيا ، وكان لابد أن تأتى الهزيمة في النهاية ، وأن تظهر محاولات شاذة لتنصير المسلمين ولم يكن لهذه المحاولات بديل إلا الموت ، وتزداد الناس بين أمرين ليس فيهما خيار : ترددوا بين قبول المسيحية أو قبول الموت ، ثم خضع المسيحيون الأقرباء للشكوك القائلة بسوء الظن المملوك وقرروا طرد المسلمين جميعا من بلادهم ، واندفع المسيحيون وراء حده الفضب المعيبة ، وكانوا لا يملكون وقتا لحساب النفس ومراجعة الضمير ، ولا يعرفون معنى الرحمة ، ولم يكن غريبا أن تسود الرغبة في هلاك المسلمين كلهم بلا شفقة وإنما كان الغريب أن يلتزم المسلمون بالتسامح طول عهدهم في هذه البلاد ، وأن يتركوا كل الناس يعيشون معهم على طريق الحياه العادية .

وطرد المسلمون من الأندلس وكان في طردهم تعطيل لحركة التطور الحضارى بالبلاد ، ولكن القضية لم تكن تطور البلاد أو عدم تطورها ، وإنما كانت خلوها إلا من المتعصبين الذين لم يعملوا إلا تحت ضغط الأحقاد الطاغية وحدها ، ولم يندفعوا إلا بتأثر القوه الغالبية ، ولم يتغنوا إلا بخلاص العقيدة المسيحية وكانت نفوسهم مفعمة

بشحنات الكيان الخاص، وبالرغبة في نصر المسيحية المقدسة بعد أن زادت أسباب الصراع بين الإسلام والنصرانية في كل مكان .

وعادت طوائف اللاجئين إلى شمال إفريقيا من جديد ، وسواء أ كانوا ثلاثة ملايين كما تقول بعض مصادر التاريخ أو كانوا غير ذلك ، فإنهم رجعوا في النهاية إلى مواطن أصولهم البعيدة القادمة إلى الأندلس منذ ثمانية قرون ، وعادوا ليعيشوا بين المسلمين في إفريقيا، وكانوا قد أصبحوا بعد الحياة الطويلة بالأندلس جماعات أندلسية لا تشارك الإفريقيين المسلمين إلا في وحدة العقيدة والثقافة واللغة .



## الفصل الخامس

أ - جوانب الإيمان

١ - البربر والاسلام

٢ - الاسلام في اسبانيا

٣ - الأمويون ومذهب الإمام مالك

٤ - تقوذا الفقهاء

٥ - ثورة مسيحية

٦ - السلام من جديد

٧ - دول صغيرة

٨ - في عهد المرابطين

٩ - وأخيرا غرناطة



يظهر من تاريخ نشر دين المسلمين في شمالي إفريقيا أن العرب كانوا في حل من سوء الظن أو الاحتقار لعقائد البربر ، لأنهم عجزوا عن أن يقدموا للوافدين عليهم نموذجاً مناسباً لعقيدة دينية متطورة ، وظهروا أمامهم كأنهم كانوا مجرد جماعات شبه بدائية تحس في ميلها الديني بالخضوع للوثنية ، أو تدور في غير نظام حول جملة من العقائد غير الواضحة وغير المفهومة ، وكان بعضها مجرد عقائد وثنية تختلط فيها الآراء المبهمة المتصلة بالوجود أو الخالق بغيرها من الأفكار ، وقد فهمها العرب على أنها كانت وثنية صريحة أوفى بعض حالاتها كأنها كانت نوعاً من الوثنية الغامضة التي تثير فيهم حماس المعارضة ، وتدفعهم بقوة إلى مقاومتها .

وإذا كان العرب يرون نقل الهداية الدينية إلى الجماعات البربرية الوثنية واجباً إنسانياً أو مسئولية دينية فرضت عليهم بأمر الدين نفسه فقد وجدوا في معارضة دينهم نوعاً من العناد غير المقبول ، أو نوعاً من الرفض الذي لا يمكن التسامح فيه ، ولهذا تبادلوا القسوة والعنف في الحروب بينهم وبين البربر ، وقدموا تضحيات كبيرة لا يماثلها إلا تضحيات أخرى من جانب أعدائهم كدليل على الرغبة المخلصة في تحويل اتجاه البربر نحو عقيدة المسلمين وحدها ، وقبلوا هذه التضحيات استجابة للواجب الديني ولغيره من دوافع الشرف التي شغلت وقتهم كله ، وأخذت منهم الفتوحات زمناً طويلاً ، واستمروا حريصين على النصر حتى النهاية وكانوا يقدمون كل اليهود من أجله وضحي كثيرين من قوادهم بحياتهم في سبيله وكانت تبدو على هؤلاء القواد دلائل الاخلاص للدين ودعوته ، وكانهم جاءوا رسلاً لدعوة دينية لا قواد الجيش .



وطال أمد الصراع ، وكان من أهدافه تحويل الناس إلى الاسلام بطريق  
لفت الانتباه نحوه ، أو صب الايمان في قلوب المخالفين له عن طريق الدفع  
القوى      ظهر أن من أكبر هموم العرب يا فريقية أن يفتحوا دينهم مجالا واسعا كي  
يعيش على حساب الوثنية وبعدها ، ولهذا ذكرت في التاريخ محاولات كثيرة  
ومريرة لفرض الإرادة العربية على سكان المنطقة .

ولما كان البربر وثنيين أو لما كانت فيهم أغلبية وثنية فلم تضعف رغبة  
العرب في هدايتهم ، ولم يلتمسوا الأعذار لبعدهم عنهم ، وساهم العمل والإرادة  
في البحث عن طريق الاتصال بقلوبهم ، وغلب أسلوب القسوة المتطرفة في التعامل  
مهمهم ، وبدأ المحاربون المسلمون كمجاهدين يهمهم في الدرجة الأولى نشر دعوة  
الإسلام في مناطق لا تتحمل حضارتهم الإنسانية للتطورة بقاءها وثنية لفترة  
طويلة من الزمن ، وكان هذا يعني البعد قليلا أو كثيرا عن سياسة التسامح  
للتقليدية المعروفة عن المجاهدين للعرب .

وانتشر الدعاة المسلمون بمناطق العمل العسكري ، وكان بعضهم من قواد  
الجيش ، فكسبوا قبائل بربرية لدعوتهم الدينية عن طريق التأثير بالإغراء  
والدعاية ، أو عن طريق الإصرار على الهداية ، ولكن الجهود الأولى بدت  
وكأنها كانت محاولات غير ناجحة ، أو لا تؤدي إلى نتائج مرضية ، لأنها  
كانت تختلط دائما بالعنف للتبادل بين الجماعتين القويتين ، وبالعناد والاصرار على  
الرفض من جانب البربر ومعروف أن صيحات المسلمين عند الحرب هناك كانت باسم  
الإسلام وحده ، وباسم دولة المسلمين أيضا ، وأن صيحات البربر لم تكن تشير إلى وحده  
دينية أو إلى إيمان بدعوة واحدة أو إلى تبعية لدولة معروفة ، مما يدل على الاضطراب  
العام أو على عدم الاتفاق حول رأى في العقيدة الدينية أو حول رأى في السياسة ،

وكان الاسلام كدين لم يقاومه في بلاد البربر جماعات تعمل باسم أى عقيدة دينية، وإنما كانت تقابله جماعات مختلطة لا تقبل الدين ولا ترفضه ، ولا تريد البحث فيه أولا تفهمه .

ولا نشير بذلك إلى أن اندفاعات العرب بإفريقية فى أساسها كانت اندفاعات دينية متعصبة وإنما نقول إنهم وجدوا مجالا واسعا لإظهار حماسهم الدينى ، وصحيح أنه ليس من اللؤكد أنهم فى جولة الفتح الثانية — التى نعالج بعض موضوعاتها فى هذا الكتاب — كانوا فى نفس المستوى من الحماس للدعوة الدينية حتى بين الوثنيين مثل ذلك المستوى المعروف عن سبتوهم من الفاتحين المسلمين ، غير أن الوثنية فى ذاتها بدت لهم وكأنها كانت شيئا يجب أن يزول طاعة للدين واستجابة لدوافع التطور .

ولا يظهر أن وجود العرب كان فى خطر أيام تمام همليات الفتح فى شمال إفريقيا ، أو حتى عند بداية العمل الإيجابى هناك ، لأن وضعهم ووجودهم كان قد استقر وثبت بالمنطقة، وأصبح مجال العمل لهم وحدهم، وكان النجاح متوقفا بعد الإصرار عليه منذ زمن طويل ، وظلت هناك بقية للحساب بين القوتين بعد أن استقرت دولة المسلمين ورأت من واجبها الدفع للأمام فى فترات الضعف عند أعدائها . فالحماس الدينى كان موجودا ، ونشر الدين كان غرضا أخذ دوره وسط الأغراض والدوافع الأخرى .

وطالت فترات العرض من جانب العرب ومحاولات الرفض من البربر، وأدرك بعض الفاهمين من الدعاة المسلمين أن محاولة الهداية الدينية وأسلوب العمل من أجلها لا يكون إلا باتباع طريق الدين ذاته، وقد أمر الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، ونصح بالبعد عن العنف فى عرض مسائله على الناس، فاتصلوا بالرائسات البربرية وكسبوا

قلوبها لتحاول التأثير فيمن يسرون في الصف الطويل وراها ، وابتدأ الاتصال المباشر عن طريق الفهم والعلاقات الإنسانية ، أو عن طريق المصالح المباشرة ، ولا سيما بعد أن وضع المستقبل في جانب النائمين وحدهم .

وأرسلت بعد الفتح وفود من الفقهاء إلى إفريقيا في عهد الخليفة المؤمن عمر بن عبد العزيز وفي عهد غيره من خلفاء المسلمين ، ويحفظ التاريخ أسماء عشرة من كبار الدعاة المسلمين الذين أرسلوا بهدف شرح مبادئ الدين وتوضيح نظامه ، ولا شك أن الجهود الخالصة المتحمسة استمرت طول تاريخ الصراع العسكري والسياسي بين الجانبين ، وأن هؤلاء الدعاة جاءوا للشرح والبيان بعد القبول والاعتراف ، وقد كان هؤلاء جماعة شبه رسمية ، أو وفداً حكومياً صرفه إلى هذا العمل الطيب رغبة الخليفة المؤمن في خدمة الدين في كل مكان ، وإن كنا لا ندرى كيف كان تقسيم العمل بين هذه الجماعة ، ولا كيف كانت الدراسة والعمل الذي جاءوا من أجله ، ولعلهم جاءوا كاستجابة لرغبة معروضة من جانب البربر أنفسهم بعد أن قبلوا الدين وأعلنوا الاعتراف بمبادئه الأولى ، وربما كانت هناك جماعات سابقة أخرى قامت بدور الشرح والتوضيح ، وجاءت مع النائمين أو بعد الفتح بدافع الرعة والحماة لنشر العقيدة الدينية ، لأنه يقال إن النهاية كانت حاسمة تماماً ، وإن السكان كلهم تحولوا إلى دين المسلمين المنتصرين ، وإن شمالي إفريقيا أصبح بعد وقت قصير من زمن الفتح منطقة إسلامية فيها مجال مناسب لكل الأفكار والمذاهب الدينية المختلفة ، ونقصد بالسكان عادة جماعات البربر الوثنيين الذين شاركوا في حروب المعارضة للنفوذ العربي أو الذين كانوا على طريق العمل العسكري ضد العرب .

ثم انتشرت عملية التحول الديني بفعل الناس والزمن وشاع الرأي بين كل



القيادات العربية والبربرية بأن حرب الوثنية في الصحراء الإفرقية واجب ديني مرغوب فيه، وعمل عظيم يكسب أصحابه أجر الآخرة ويهيء لهم سيادة الدنيا، وبعد الجهود الأولى قدمت الأعمال كلها باسم الدين، وظهر الحماس الشديد للإسلام كدعوة لا بديل لها، وقامت بعد ذلك دول إفريقية وجماعات سياسية تحمس زعمائها إلى حرب الوثنية في إفريقية، وحاولوا القضاء عليها في الصحراء كلها، وسلكوا طريق القوة في فرض دينهم على القبائل البربرية وللزنجية الوثنية، ومعنى هذا أن جهوداً كبيرة بشمال إفريقيا جعلت من بعض سكان المنطقة قوة إسلامية هائلة وطورت الجماعات البربرية المتأخرة، وأظهرت الدول التي كانت تؤمن بالإسلام، وتعمل الكثير من أجله.

وحق هؤلاء الذين رفضوا سلطان العرب ونفوذهم، وقاموا ضد بثورات كبيرة كان من أهداف ثوراتهم محاولة التخلص من الوجود العربي وحده، ولم تكن من أهدافها الخروج من الإسلام أبداً فظلوا يعملون باسم المسلمين ولم يجدوا للإسلام بديلاً، ولفترات طويلة من التاريخ قام صراع صريح بين الإسلام والوثنية في شمال إفريقيا وغربها ووسطها، وأبدى فيه دعاة الإسلام من العرب والبربر حماساً وصبراً عظيمين، وقدموا تضحيات كبيرة كسبوا عن طريقها النصر في النهاية.

## ٢- الإسلام في أسبانيا :

وكنتيجة سريعة لإسلام البربر كان قيامهم بجهود عظيمة في فتح أسبانيا تحت راية الإسلام والمسلمين، غير أن قصة الدعوة الإسلامية في هذه البلاد كانت تبدو لها بعض الجوانب المخالفة لصورتها المعروفة في شمال إفريقيا، ومن أهم هذه الجوانب إخفاء الرغبة الصريحة في نشر الدين الإسلامي وإشاعة الاهتمام بالمعاشرة السلمية بين الإسلام والمسيحية هناك، وكانت

معاملة المسلمين لغير المسلمين تسير على أساس من المبدأ المعروف من تصرفات العرب كشعب تهمه شئون الدين ويهمه انتشاره ، غير أنه كان يلجأ في ذلك بطريقة متطورة بعيدة عن الضغط والإرهاب .

ومنذ عمليات الفتح الأولى تقدمت جماعات بربرية بقيادة بربرية مرتين قبل دخول العرب ، ومن المؤكد أن البربر بجانب رغبتهم في تحسين أحوالهم الاقتصادية وبجانب بحثهم عن وطن يعيشون فيه حياة مناسبة كانوا يقومون بعمل يرضى عواطفهم الدينية وعقيدتهم الجديدة ، غير أنهم لم يكونوا يمثلون الإسلام كماذج واضحة للمؤمنين به ، ولم يكن عندهم ما يعرضونه للراغبين في معرفة شئ عنه ، لأنهم أنفسهم كانوا في حاجة إلى من يعلمهم أصول الدين الأساسية ، وقد قام بذلك دعاة مؤمنون كانوا يعلمونهم فرائض الدين وإن لم يقصروا خدماتهم على الجيش وحده

لقد دخل البربر أسبانيا لاليزيلوا الوثنية منها لأنهم لم تكن بلادا وثنية ، وإن كانت فيها وثنية فلم تسكن ممثلة بها بصورة واضحة ، لأن الوثنيين كانوا مختلطين اختلاطا كبيرا بجماعات مسيحية كثيرة ، أو بجماعات نصف مسيحية لجأت للمسيحية كدين جديد وكانت عند أولى خطوات الإيمان بها ، وكانت أسبانيا في ظاهرها بلادا مسيحية أو كانت بلادا تغلب عليها العقيدة المسيحية ، وإن كانت المسيحية لم تصل بعد إلى قلوب كثير من سكانها ، لعدم اتصالهم بها أو لاختلاطها واضطراب أمورها ، ولا شك في أن الجماعات المسلمة التي عاشت في شمالي أفريقية قريبا من أسبانيا كانت تعرف شيئا عن مدى الإيمان بالعقيدة المسيحية عند الأسبان ، وربما وجد هؤلاء المسلمون فرصة للتنافس مع المسيحيين

على كسب قلوب البائسين الذين كانوا يمثلون جماعات كبيرة كانت تعيش مهملة في مجتمع إقطاعي متطرف ، وللتنافس على كسب قلوب المترددين الجاهلين بالمسيحية وبالأديان كلها ، غير أن كل إشارات التاريخ لا يفهم منها أن الناس الذين عقد رجال المسيحية أمامهم دين المسيحية كانوا يرجون ديناً جديداً بقدر ما آمنوا أن تتاح لهم فرصة فهم المسيحية ذاتها ، وصحيح أنهم لم يكونوا في حاجة إلى دين جديد ، ولكنهم كانوا في حاجة إلى نوع من العدالة الاجتماعية التي كانت أكثر تناسبا مع رغباتهم للعاجلة .

لقد دخل العرب أسبانيا لأنهم كانوا قوة تحس بوجودها المعنوي والمادي ، وتعرف عن طريق الجوار والاتصال مدى ضعف الحكم وبعدهم عن الصلاحية للعمل بين شعب جعلوه في حيرة من كل أمور دينه ، وكان للدين دور عظيم في قيادة التصرفات البشرية في هذه العصور ، وكانت هناك محاولات غير واضحة للتسابق على كسب القلوب نحو الهداية ، وقدم الاسلام شيئاً جديداً مقبولا غير معقد كان فيه أمل الدنيا وأمل الآخرة معا ، وأسرع المؤمنين به نحو عرضه على من يبحثون عن الإيمان في عصر تكوين العقائد ومحاولة تثبيتها واستقرارها في قلوب البشر .

وكانت تظهر حول العقيدة المسيحية صور مكشوفة من الخلافات الكبيرة والصراع المفرق عند ظهور قوة المسلمين قريبا من أسبانيا في شمالي إفريقيا ، والصورة واضحة ومكررة في كتب التاريخ كلها ، وتشير إلى أن رجال الدين هناك كانوا عند المراحل الأولى في محاولاتهم لإزالة الغموض المحيط بأصول الإيمان المسيحي ، وكانوا يلجئون إلى المناقشات التي كانت تتمخذه صورة التعبير الحر عن الآراء الدينية ، ولما كانت مسائل الدين غير واضحة وغير مفهومة فلم تؤد البحوث



والجدالات إلى نتائج في صالح الهدف بقدر ما أثارت من خلاقات جديدة كانت كلها تدور حول آراء لم تكن موجودة هناك من قبل، وظهرت المذاهب المختلفة وازداد عددها بالزمن واستقرت الدولة أخيراً حول الآراء المؤيدة لوجهة نظر واحدة هي الوجهة الكاثوليكية، وتحمس لها الملوك بغير إيمان بها أو اعتقاد فيها وقد لجئوا إليها بعد تحويل إيمانهم من مذهبهم الآريوسى كمحاولة مكشوفة للحرص على مكان السيادة على الناس، وحاولوا عرض المذهب الدينى بالقوة، ولم تكن القوة من وسائل الاقناع فى مسائل الإيمان، وأمر فوا فى فرض سلطانهم، ولم يأت هذا الإسراف إلا بحدة الصراع بين من كانوا يختلفون حول الآراء الدينية وهذه كانت تملك على أصحابها مجالات واسعة من تصرفاتهم، وتجعلهم يبعدون عن محاولات التلاقى معاً، ولو كانت هذه المحاولات فى صالح العقيدة وفى صالح أصحابها.

واشتد الغموض على الناس ولم تتبلور حقائق الإيمان فى صيغ نهائية متفق عليها، ومعنى هذا عدم شمول العقيدة المسيحية بأسبانيا لعدد كبير من الشعب وعدم رسوخها، وشغلت البحوث الدينية وقت الناس ولا سيما هؤلاء الذين كانوا يرون الحياة الدنيا مجرد فرصة محدودة الزمن للعمل فى خدمة الحياة المقبلة، وانصرف الذين تهتمهم شئون الإيمان إلى البحث فيه، وتأثرت كل جماعة بوجهة نظر شائعة فى الشرق أو الغرب وكأنا كانت الآراء الدينية مجرد محاولات متعصبة لنصرة مبدأ على مبدأ، أو كأن البحث كان فى غير عقيدة واحدة، ووقف الناس حول هؤلاء وأولئك يتفرجون على ما يأتى به التطرف فى رأى والتعصب للمذهب من خلاف وتفتت، ولا يفهمون من ذلك شيئاً لأنهم كانوا بطبيعتهم أميين لا يحسنون المشاركة فى البحث حتى لو عرضت عليهم مسائله، ولأن هذا البحث كان عميقاً يتطلب مستوى معيناً من العقول البشرية التى يمكن أن تدرك الفروق الدقيقة بين وجهات النظر المعروضة.

وجاء الإسلام في وقت لا يبد وفيه أن جماعات كبيرة من الأسبان كانت قد آمنت بالعقيدة المسيحية للانصراف عنها أو لصعوبة فهمها ، فخطب الناس بمبادئه البسيطة الواضحة ، وكانت محاولات المسلمين تنصرف إلى كسب مزيد ممن كانوا يريدون تحسين أحوالهم في الدنيا ، فتكلموا عن المساواة والأخوة والعدالة ، وجميع المعاني الإنسانية الكريمة التي كانتا كان الإسلام وحده يتحدث عنها لأول مرة في تاريخ البشرية كلها أو في تاريخ الأديان جميعا ، لقد تحدثوا عن ذلك قبل أن يتحدثوا عن نعيم الآخرة وعذابها ، وعن مصير الإنسان وحياته بعد الموت ، وأباحوا لغير المسلمين حرية العبادة مع الإلحاح بتوضيح رأى الإسلام في الاتصال المباشر بين الله والناس ، وأن لا واسطة بين الله وعباده ، ويظهر أنهم ألحوا تماما على الجوانب الدنيوية للمتازة في دين المسلمين ، وكان اهتمامهم بتنظيم العلاقات البشرية وحفظ حقوق الإنسان يفوق الإشارة إلى بساطة العقيدة الإسلامية في ذاتها ، فأنحذبت إلى الإسلام جماعات كبيرة وجدت فيه الأمل والمستقبل والراحة والأمان ، واستمع للناس إلى مبادئ الدين الجديد ، وقبل بعضهم المبادئ المعروضة عليهم ، وساعد على قبولها عمليات الاختلاط الكبيرة وروح التسامح الواضحة عند الفاتحين ، وكان هذا شيئا جديداً بالغ الأهمية في حياة الناس هناك وكان يعني إمكانية السماح بممارسة الحياة الطيبة للمخالفين في العقيدة ، ولم يكن ذلك شيئا معروفا في أسبانيا حتى بين أصحاب المذاهب المختلفة المحسوبين على الدين المسيحي الواحد ، ثم كانت مع المسلمين فرص المستقبل وآماله بعد أن وضع للمستقبل في جانبهم وحدهم ، فسارت معهم جماعات تربد الحياة أولا ، لأنها كانت محرومة من الشعور بها ، أو تربد المحافظة على ما كان موجودا في دائرة اختصاصها وملكيته .

فليس من الصواب إذا أن نقول إن جماعات البربر التي اندفعت نحو أسبانيا



في حركة نشيطة وسريعة للفتح والاستقرار كان من الممكن أن يوكل لها أو لبعضها  
تعليم الناس مبادئ الدين الجديد ، لأن أعظم الجهود الهادفة إلى نشر الوعي  
الإسلامي في شمال إفريقيا جاءت من الشرق بعد فتح الأندلس بخمس سنوات ،  
ويشار بسبب ذلك إلى أن قضية الدين لم تكن مثارة بوضوح عند حركات الفتح  
الإسلامي لأسبانيا ، وقضية الفتح ذاتها لم تشر على أنها كانت للتوعية الدينية وحدها ، لأنهم لم  
تكن من الضرورات العاجلة آنذاك ، ولم تكن حركات الاتصال بين المسلمين  
في شمال إفريقيا وبين العناصر المسيحية الداعية لهم والمؤيدة لدخولهم أسبانيا على أساس  
الترحيب بدينهم الجديد ، وإنما كانت بسبب الحاجة للقوة الجديدة التي تصورها  
خطأ كأنها كانت قوات نجدة جاءت لتعيد معالم الحق في مناطق يغتصب فيها الحق علناً ،  
وفهم المسلمون هذه الحاجة الملحة واستغلوها لصالحهم بمهارة فلم يتحدثوا كثيراً عن  
الإسلام كدين يريد أن يزيل معالم الأديان قبله ، ولم يشيروا إلى عوالم الغيب  
ومكافآت الصابرين في الدنيا ، إذ لم يكن هناك مجال للصبر الطويل عند جماعات  
كانت تعاني لفترات طويلة من آثار الظلم وويلاتة ، وإنما تحدثوا عما لم يكن  
معروفاً من المساواة والأخوة والعدالة وعدم قبول الطبقية ، وكان هذا يضمن لهم  
استجابة سريعة تلقائية من جماعات مسيحية مضطهدة ومن جماعات مترددة غير  
قاهرة أو غير راغبة في الفهم الديني بعد أن ارتبطت به الخلافات المؤسسية .

ثم انتصر جنود الدعوة الإسلامية وصحبهم دعاة الدين من زملائهم ، وكانت  
فيهم جماعات عربية تود نشر الإسلام وتؤمن بالوفاء له ، إلا أن جهود الدعوة  
والعاملين في مجال العمل الديني بدأت كأنها كانت مقصورة على حاجة  
الجيش وحده وعلى حاجات قليلة جاءت من بعض الراغبين في الهداية  
السريعة ، واستمر العرب والبربر جميعاً في محاولاتهم الهادفة أساساً إلى  
المعايشة السلمية مع الأسبان ، وكانوا يريدون لأنفسهم مكاناً في



أسبانيا مع ترك المسيحيين على دينهم الذي لم يكن مثيرا للفضب أو الاعتراض ،  
وكانوا يريدون وقتا بعد أن فاجأتهم سهولة الفتح وجعلتهم وجها لوجه أمام  
شعب غريب لم يثر فيهم عوامل البغضاء .

ولم يشر التاريخ إلى أى نوع من الإلحاح على مسائل الدين والتبشير به أو إلى أى نوع  
من الصراع الدينى المبكر بين الإسلام والمسيحية، وقد كان أمر الدين بهم العرب وبهم  
المسلمين معهم، إلا أنهم جميعا كانوا يسلكون له أسلوبا متطورا من العرض البطيء ثم  
أصبح العمل ممكنا أمام المسلمين بعد نصرهم، ونقصد بأمكانيات العمل أنهم وجدوا  
جماعات كثيرة يمكن أن تقبل مبادئ دينهم البسيطة ، ويمكن أن تدرك أهميته  
لحياتها ولوجودها ومستقبلها، فدخلت في الإسلام جماعات كبيرة زادت كثرتها  
بعد اختلاط المسلمين بالأسبانيان وزواجهم من بناتهم وزادت حركات العمل  
الدينية قوة وإن لم يكن إصرار الناس إلى الإيمان بالعقيدة الجديدة تابعا لنشاط  
حركة الدعوة ذاتها ، بقدر ما كان نتيجة لظروف مواتية خلقتها جماعات  
المسلمين الذين ظهروا في فترات حكمهم الأولى كجماعات لا تشغلها أمور الدين  
وحدها ، وإنما يشغلها البحث عن الحياة الجديدة ، أو محاولة الفراغ من مشكلات  
الصراع العسكرى فى أسرع الأوقات (١) .

والقصة طويلة عن صراع المسلمين حول الرئاسة والعمل السيامى، وعن صراعهم  
حول مجالات الاستزاق الواسعة بالأندلس ، وكأنهم أرجسوا شئون الدين  
لوقت الفراغ والاستقرار ، ولم يشر التاريخ بوضوح إلى وجود أعمال منظمة  
لجذب الأنظار نحو الدين الجديد، ولا لجهودات كبيرة قامت بها الدولة أو الأفراد  
كعمليات منظمة هادفة لتوضيح الإسلام وشرح نظرياته . وصحيح أن الإجراءات

---

( ١ ) ولا شك أنهم كانوا نماذج طيبة للشعب الواعى للتسامح .

على الدراسة والبحث المتطور ، وكانت بعيدة عن المدارس الدينية المتقدمة في المشرق العربي ، ولم تكن قد أصبحت بعد مكاناً متميزاً للدراسة فروع المعارف العربية المختلفة ، وجاءت الإشارة إلى أخذ مسائل الدين من عاصمة الإسلام الأولى وهي المدينة فذهب الدارسون إليها في حماس ورغبة ، ويذكر في التاريخ أسماء أعداد من هؤلاء الذين ذهبوا لطلب العلم باسم الدولة أو في رعاية حكامها ، ولا شك أنهم كانوا على هوى معها ، ويريدون كسب مجال العمل فيها.

وطول حكم الأمير عبدالرحمن الأول ١٣٨ - ١٧٣ / ٧٥٥ - ٧٨٩ م لم يظهر نفوذ ديني على تصرفاته ، إما لأنه كان إنساناً غير منجذب إلى الدين بقوة أو لأنه كان محاطاً بمخاطر سياسية وعسكرية تحتاج منه لتصرفات استبدادية أو ظالمة تخالف روح الدين ومبادئه ، وهو لا يريد أن يكون خاضعاً لرقابة مخرجة من داخل نفسه أو من خارجها ، ومع ذلك بدأ في عهده نوع من الصراع غير المرئي بين إرادته في إقامة الدولة على أساس حكم الفرد بعيداً عن أي رقابة خارجية ، وبين محاولات النقباء الذين لمسوا حاجة الدولة الأموية في إشاعة عنايتها بأمر الدين ، ثم استمرت المحاولات وانكشفت بوضوح في عهد ابنه هشام (١٧٣ - ١٨٠ هـ) ٧٨٩ - ٧٩٦ م ، وكان هذا الأمير كان حاكماً سياسياً واحداً من رجال الدين أيضاً ، وظل سلوكه واضح الإشارة إلى أنه عاش حياته في بيئة دينية ، مما يجعلنا نقول بأن ظهور مثل هذا الشعور الديني العميق عنده يدل على إدراك الأمويين منذ لحظات وجودهم بالأنذال لأهمية الدين كعامل لحفظ نظامهم واستقراره .

وظهر نفوذ نخباء المذهب المالكي على هشام بن عبدالرحمن وكان متأثراً بصاحب هذا المذهب وله فيه رأي حسن ، على أن اختيار هذا المذهب الديني لم يكن على



أساس الاقتناع به وحده ، وإنما كلن خدمة القرض السياسي الذي أراحه  
الأمويون ، أو لإظهار التدين باللجوء عند طلاب العلم إلى مكان الوحي ذاته ، وكان  
هذا يرضى عواطف الناس ويسعدهم ، وساعد على ذلك ما كان يوحى به هذا  
المذهب من المعارضة للعباسيين أو عدم الوراق معهم ، وكانت قد أصبحت للمذاهب  
الدينية عند المسلمين دلالات سياسية ، وبحجة أن للكان المشترك بين المسلمين  
جميعاً هو بلاد الدعوة الإسلامية الأولى ، وأن أى مذهب يظهر فى غيرها إنما كان  
يعبر فى بعض اتجاهاته عن وجهات النظر المحلية ، أو عن أثر البيئة البعيدة فيه  
كان على الشاميين الذين كانوا يتبعون <sup>(١)</sup> مذهباً آخر غير مذهب الدولة أن يسيروا  
فى طريقها ، وأن ينضموا إلى الجماعات العجازية التى كان يثيرها الحماس لمذهبها .  
— نفوذ الفقهاء :

وكل هذا أعطى لفقهاء مذهب الإمام مالك فرصة الضفط على الحكام وفرض  
النفوذ على غيرهم من الناس ، حتى أقاموا لأنفسهم ما يشبه الحكومة الدينية داخل  
دولة الأمويين بالأندلس ، وجعلوا من مذهبهم وسيلة مضمونة لكسب الدنيا  
بعد أن أقاموا حوله جواً طيباً من الدعايات المبالغ فيها ، وبعد أن ضمنوا موافقة  
الدولة على حمايته .

وانتشر مذهب الإمام مالك بالأندلس وساعد على تفوقه :

١ — أن أغلب الفاتحين العرب لهذه البلاد كانوا شاميين يوالون الدولة  
الأموية ، ويريدون أن يعيشوا معها ولها ، فاتبعوا رأيها ، وغير بعضهم مذهبهم  
الأوزاعي الشامى إلى المذهب المالكي بعد أن أيدته الدولة ، وكان مذهب  
الإمام مالك معروفاً أيضاً عند البربر المهاجرين إلى الأندلس من شمال

---

(١) هو مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام .



إفريقية ، ولم يكن هذا المذهب غريبا على جماعات كبيرة منهم عند ما وجدوه  
ببلاد الأندلس .

٢ — كان الحجاز عند المسلمين موطن الدين ومنبته، وكانت له جاذبية الأماكن  
المقدسة التي تثار حولها الدعايات الدينية ويقال عنها الكثير من الكلام الطيب،  
وكسب مذهب الحجازيين من شهرة الحجاز وقداسته نوعا من الشهرة والقداسة  
والاهتمام وكانت حول الحجاز حالات مضيئة تتعاطف معها قلوب المؤمنين في  
كل مكان ، ولم يكن الاتصال بأهل الحجاز لطلب العلم وحده وإنما كان لتأدية  
فريضة الحج وفي مناسبات العمرة وغيرها ، ومعنى ذلك أن المسلم الأندلسي كان  
يذهب للحجاز ليعجج ويعتمر ويتعلم وتجذبه إليه هذه الأغراض كلها .

٣ — ثم إن المذاهب الإسلامية كانت تنتشر بين المسلمين عادة بتأييد  
السلطات ورعايتها ، وكانت السلطات الأندلسية تؤيد مذهب الإمام مالك  
وكانما اعتبرته صورة مقابلة لمذهب الأحناف المؤيد من السلطات العباسية في بغداد  
وكما كان للخلافة العباسية مذهب ديني شبه رسمي يحوطه الحكام بالتشجيع  
والاهتمام، فكذلك كان للخارجين على هذه الخلافة بالأندلس مذهب آخر يهتمون  
به ويشجعون أنصاره .

٤ — ولقد تحمس تلاميذ الإمام مالك لمذهبه ، ونقلوه لشمال إفريقيا  
والأندلس ، وخدموا قضيته هناك وعاشوا من أجله وكان من هؤلاء التلاميذ على  
ابن زياد التونسي ويحيى بن أبي يحيى الليثي وأسد بن الفرات وسحنون المغربي  
وغيرهم ممن نقلوا كتب الإمام مالك إلى بلاد المغرب وشهروها هناك .

ومن المعروف أن الناس كانوا ينظرون إلى المذاهب الدينية الإسلامية في بعض عصور التاريخ الإسلامي لا على أنها مذاهب إسلامية شديدة القرابة ، وليس بينها اختلافات كبيرة ، وإنما على أنها كانت ترتبط بمنطقة يحكمها نظام سياسي معين ، ثم هي تتبع إماما يعيش في ظل هذا النظام السياسي الذي يؤيده بعض الناس ويعارضه بعضهم الآخر ، ولذلك أمصر الناس في الحماس لمذاهبهم الدينية رغم تقاربها وتفاهمها فيما بينها ، وكانت العناصر الإيجابية النشيطة التابعة للمذاهب المختلفة تدافع عن آراء إمامها وكأن الحق كان معه وحده ، وأحيانا كان يبدو الحماس للمذهب الديني مجرد الرغبة في المعارضات والمساجلات الكلامية وحدها أو لإظهار التفوق المذهبي على المذاهب الأخرى .

ومن أجل استقرار المذهب ينشئ تلاميذه المخلصون المدارس الدينية التي كانت تعمل باسمه وتخدمته ويكون من الصعب بعد ذلك تغيير آراء صاحب المذهب أو تحويلها بعد إيمان أصحابه بها .

٥ — ولقد ربطت الدولة الأموية بالأندلس بين مذهب الإمام مالك وبين بعض الوظائف الدينية المهمة في الدولة ومعنى هذا أن الناس كانوا يتبعون هذا المذهب أحيانا لقبوله والوفاق معه وأحيانا أخرى للرغبة في خير الدنيا بسببه .

وليس صحيحا أن السبب في انتشار هذا المذهب في المغرب العربي أنه كان يوافق مزاج الناس هناك أو للتوافق بين البيئة الطبيعية في المغرب والبيئة الطبيعية في الحجاز فليس في المذاهب الإسلامية مذهب لأهل الصحراء ومذهب آخر لأهل المدن وكلها كانت مذاهب حضارية نشأت بالمدن الإسلامية وانتشرت بها واستقرت فيها

وإذا كان هناك تشابه كبير بين الأوضاع الجغرافية في جزيرة العرب وفي شمالي إفريقيا فلم يكن هذا التشابه موجودا بين جزيرة العرب والأندلس ومع ذلك ساد مذهب المالكية في الأندلس بعد أن ساد في بلاد المغرب أو ساد فيهما معا مع اختلاف البيئة والمؤثرات الطبيعية .

وربما يكون صحيحا أن نقول إن المذاهب الإسلامية نفسها كانت تكيف سلوك أتباعها وتؤثر في ميولهم ، وتطبعهم بطابعها وحده فإذا كان الأندلسيون والمغاربة يقدسون النصوص الدينية ويلتزمون بها ويقفون عندها ولا يبيحون شيئا للعقل والفهم مع وجودها فإنما كان ذلك لأنهم كانوا يلتزمون بمذهب الإمام مالك وكان هذا رأيه واتجاهه ، ومن المعروف أن محاولات الاختيار الواسعة بين المذاهب الدينية عند المسلمين لم تكن موجودة ولم يكن هناك ما يشجع عليها لأن المذاهب كلها كانت منسجمة ومتفاهمة وغير متعارضة وكان المذهب عادة يأتي للمناطق الإسلامية مع دعائه ثم بعد ذلك يكفي الناس بنفسه عن غيره ، وبصوغهم في مجال التفكير الخاص بإمامه ، أو هكذا كان حال المذاهب الدينية المعروفة عند المسلمين .

وعاش الأمير هشام بن عبد الرحمن صديقا للفقهاء ، وازدادت بالزمن تنازلاته عن بعض مظاهر السلوك الخاصة به كأمر ، وأسرف الفقهاء من جانبهم في التمسك بالامتيازات المكتسبة ، وكونوا ما يشبه مراكز القوى الخطرة ، وأظهروا في ظل الدولة سلطة الدين القوية لأول مرة ، في بلاد تعيش فيها جماعات غير مسلمة كان يرهقها الشعور بسلطان الدين الواحد ، وكان رجال الدين المسلمون جماعات تدور في مجالات ضيقة من الشعور المتزمت ، ويتسلط عليهم إحساس عميق بصحة اتجاهاتهم الدينية وحده ، وهذا كان يدفعهم إلى عدم الاعتبار بالمرهف لمشاعر الآخرين .



وقد بدا هذا من الأسباب الأولى التي دفعت إلى الصدام بينهم وبين الأمير الحكم بن هشام ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م ، فقد رفض هذا الأمير الحياة تحت وصاية تهز وجوده وسلطته كأمر له حق العمل باسم السيادة على الدولة وعلى مواطنيها جميعاً ، فهاجموه واتهموه بالكفر والبعد عن الدين ، وهاجمهم بدوره بقوة الدولة وسلطانها ، وبآلات الحرب القاتلة ، وانتصر عليهم ، وطرد من أتباعهم جماعات كبيرة فرت لاجئة إلى مدينتي فاس والاسكندرية<sup>(١)</sup> ، وتشردت الجماعات المؤمنة بعد أن انقادت في حماس بالغ إلى دعايات رجال الدين المؤثرة ، وكانت تريد أن تعيد حاكمها إلى حال العمل في دوائر الدين وحدها ، أو أرادت أن تقوده وأن تخضعه لرقابة جماعة تعلن وصايتها على الإسلام والمسلمين معاً ، وكان يظهر من تصرفات الشوار ومن حماسهم لوجهات النظر الدينية أنهم كانوا متأثرين بالحماس الديني الذي جعلهم مادة سهلة القيادة لجماعات تحصر نفسها في دوائر ضيقة من التفكير الجامد أو الفهم البطيء .

والعجيب أن المجتمع الأندلسي لم يكن مجتمعاً متديناً بالمعنى المفهوم ، ولم يكن منجذباً بصلات قوية نحو الأمور الدينية ، وقد كان مجتمعاً يمجج بجوانب الشذوذ غير العادية ، وكان يمتلئ بالخالفات الدينية ، وينصرف إلى اللهو ، وكأنه لم يكن يرجو في الدنيا شيئاً إلا الغرام ببعض المظاهر الشكلية مثل الإسراف في ضخامة المساجد وتزيينها والمبالغة في كثرتها ، ومع ذلك تظهر فيه دور الفقهاء قويا ، وقد يبدو الصراع بين الحكم بن هشام وبين الفقهاء صراعاً مكشوفاً بين الدين والدولة ، أو محاولة من رجال الدين للاستيلاء على السلطة في الوقت الذي كان فيه الحرص شديداً على السيادة المطلقة من حاكم يجلس على قمة مجتمع المسلمين بالأندلس .

(١) سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٧ م .

ويظهر أن عقاب الحكم للفقهاء لم يكن إعتاباً صارماً، لأنه في بطشه بالعناصر  
الناثرة ضرب أكثرها ضعفاً وكأنه كان يلتزم بمبدأ الصدام القديم  
بين شجعتان العرب عندما كانوا يحمون أنفسهم من بأس الأقوياء بالعنف مع  
الجبنةاء، حتى لا تتكرر الاستجابة للصيحات المعارضة، وربما كان يسوءه استجابة  
الناس للفقهاء أكثر من موقف الفقهاء أنفسهم، أو كأنه أحس بالحاجة إلى الفقهاء  
بعد أن خسروا المعركة أمامه، وقدوا مقومات العناد معه، ورأى أنه إذا منع عنهم  
الاستجابة الخارجية لدعواتهم فقد منع عنهم سلاح التهديد الذي كانوا يمارسون  
به عمليات الضغط عليه .

ثم استمرت الدنيا تسير بالفقهاء في مثل هذا الاتجاه البعيد عن ممارسة التهييج  
الشعبي ضد الأمير، وظهرت بعد هذه التجربة المرة موجة من الانغماس في الترف،  
واستيراد اللقائن من الشرق بدعوى منافسة بغداد في<sup>(١)</sup> حياتها الناعمة، وكأن  
هذا كان شبه تمح من رجال الدولة للشعور الديني بها، أو كأنه كان محاولة  
لمعرفة مدى رد الفعل من جانب مراكز القوى الدينية، وأمام مثل هذه الأعمال  
اللاهية ظهر ضعف المثاليين لرأى الاسلام بالبلاد، أو شغلهم حب السلامة فانصرفوا  
بعيداً عن العمل الإيجابي الذي كان يمكن به أن تقاوم الرغبةــــــــــــــــات العارضة  
في مجتمع امتلاً بنعيم الدنيا وملذاتها، وظهرت جماعات دينية مسيحية كانت  
حريتها الدينية مضمونة، ولم تفهم من تسامح المسلمين ما كان يعنيه هذا التسامح  
من الاعتراف بحق الغير في ممارسة العبادة الدينية والتعبير عن الآراء في حرية كاملة  
وإنما فهمت منه ضعفاً منهم يبيع لها الجرأة عليهم واستغلال الفرص للتشكيك في

(١) في عهد عبد الرحمن الأوسط ٣٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م

في عقيدتهم ذاتها ، وتصورت ضعف روح المقاومة الإسلامية أو انهيارها وبرزت الجماعات المسيحية المتعصبة على جوانب الحياة الصريحة في محاولات فردية بدت كأنها كانت نوعاً من اضطهاد الأقلية المسيحيين للأكثرية المسلمة في واحدة من أمس العواطف المؤثرة في القلوب البشرية .

وهاج أفراد مسيحيون كانوا متأثرين بشحنات عاطفية طاغية، وتقدموا إلى الشوارع والميادين وإلى سلطات الحكم ذاتها ليسبوا المسلمين ورسولهم علناً، وعوقب بعضهم بالقتل فاندفع الآخرون نحو الموت أملاً في أن يكونوا في قوائم الشهداء، وليس من المؤكد معرفة أعداد الذين طلبوا الموت بلعن دين المسلمين<sup>(١)</sup>، وإنما للمعروف أن حركتهم كانت حركة مجنونة لم تعرف للآن بواعثها الحقيقية إلا إذا كانت روح التعصب الديني التي سادت عالم الناس في مناطق كثيرة في العصور الوسطى، وكان جهود المسلمين لإشاعة التسامح كانت محاولات من جانب واحد، أو كانت جهوداً ضائعة ويقال إن من أسباب نزعات الاندفاع المسيحية، ما كان من تسامح المسلمين أو إهمالهم، أو اندفاعهم نحو حياة الله العابثة — وذلك شيء ما اعتبر خروجاً عن الإسلام والمسيحية معاً أو بعداً عن واجب الناس في الحياة الدنيا .

وإذا لم يكن هذا اتجاهًا مسيحيًا عامًا فإن المحاولة تشير إلى حالة من الإعلان عن الوجود القوي لأصحاب عقيدة مخالفة، ولم يكن هؤلاء جماعات مجنونة، بقدر ما كانوا جماعات مؤمنة تريد الإشارة إلى وجودها في وسط عالم يندفع بعيداً عن تعاليم الإسلام والمسيحية معاً .

---

(١) يقال إنهم كانوا أحد عشر شخصاً أو أربعين شخصاً .



وكيانات متعصبة تعيش في جو كثيب من التفكير المتزمت اتهمت الإسلام بالتسبب في انحرافات المجتمع ، وكانت هذه حركة نشيطة معاندة من جانب واحد ، ولم تقابل من جماعات المسلمين إلا بالنظرة البلهاء أو بالتساهل المعروف عنها أو كأنما كان المسلمون بعيدين عن الرد عليها لانشغالهم بغير أمور الدين كلها ؛ ولم تحدث حركة مقاومة للثورة المسيحية مع أن المسلمين كانوا يملكون عوامل الانتصار فيها ، وحتى الحكام المسلمون أنفسهم — بعد محاولات الدفع الأولى أو بعد مظاهر العنف التي لم تسر شوطاً بعيداً — لزموا جانب السلام وتسامحوا في المعاملة مع مواطنيهم ، وطلبوا من المسيحيين<sup>(١)</sup> الآخرين أن يحلوا المشكلة بطريقة الوفاق والتفاهم .

#### ٦ - السلام من جديد:

وبذلك خبت الروح العدائية بين العقيدتين المتنافسين، لأن الحاكين المسلمين لم يكن عندهم استعداد للسير حتى للنهاية في طريق العناد الديني، ولم يحقق المتعصبون مطالبهم في الظهور أمام الجماعات المسيحية بمظهر الشهداء المظلومين على طريق المسيح ودعوته ، وقد تكون هذه أول محاولة مكشوفة لها صبغة دينية مسيحية واضحة ، وقد تكون نوعاً من الانتفاضات اليائسة أو نوعاً من الاشفاق على دين كان في طريقه نحو الانكماش بعد أن نجحت المحاولات لإضعاف وجوده ، أو ربما كانت نوعاً من محاولات بحث اليقظة بين المسيحيين بعد أن انصرفوا كلهم للسير في الطريق العام مع المسلمين، ولم تتكرر هذه المحاولة مرة أخرى ، وانصرف المجتمع كله عن الدين كله ، وانشغل الناس بعد ظهور طبقات المولدين الكثيرة العدد بمحاولاتهم

---

(١) اجتمع المجمع المسيحي ونصح بعدم الاندفاع نحو الخطر إلا أنه لم يوجه لوماً أو ما يشبه اللوم لضحايا هذا التعصب الديني .

الثورية للمطالبة بالمشاركة في الحكم، وساعدتهم على ذلك شخصيات الحكام الضعفاء ، واستمرت الثورات السياسية في أيام الفتن ( ٢٣٨ - ٨٣٠٠ / ٨٥٢ - ٩١٢ م ) وبعضها كانت السياسة تختلط فيه بالدين أو يختلط فيه الدين بالوطنية ، حتى جاء الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٨٣٥٠ / ٩١٢ - ٩٦١ م ، وكان حاكما وسطا نجح في إعطاء معان براءة للحياة في بلاد الأندلس كلها وعاش زمنا طويلا كبطل محارب يعمل باسم الإسلام وباسم النظام والسلطة معا ، ولم يلتزم بالتورط في التعصب لدين أو مذهب ، وانشغل في حركات الدفاع النشيطة ليحفظ على قومه سيادتهم بعد أن تطاولت عليهم الدول المسيحية في الشمال الأسباني ، وانشغل ابنه بعده بالعلم والثقافة وفتح للناس أبواب الحرية العلمية فنشط البحث العلمي وزاد المتعلمون .

ثم جاء المنصور بن أبي عامر ٣٦٦ - ٨٣٩٣ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م كرجل غريب على السلطة يريد أن يوجد لنفسه خلفية قوية من المؤيدين له ، فمثل دور الإنسان الخالص للدعوة الدينية ، وكان بعيدا عن أن يكون مؤمنا بها ، أو مخلصا اقتضيتها فتملق الفقهاء بحرق كتب الفلاسفة وأظهر احترام الدين ، وقد لا يكون ذلك دليلا كافيا على أثر النفوذ الديني عليه بقدر ما كان إحساسا منه بضرورة المحاولة لجمع الجماعة الإسلامية حول اتفاق يضمن لها الحياة وسط الأخطار .

وكانت الحروب في مهبه بين جماعتين واحدة مسيحية وأخرى مسلمة ، وقد لا يمكن القول بأن الاتجاه الديني كان واضحا في مثل هذه الحروب الدورية ، وإن بدا بعض معالم الاضطهاد للمسيحيين بسبب عواطفهم القوية نحو شركائهم في الدين وبسبب أعمالهم المساندة لمن يجتمعون معهم تحت راية الدعوة المسيحية ولم يكن الاضطهاد يعني إلا شيئا من الرقابة والضغط عليهم لعدم الثقة فيهم ولم يكن الضغط عليهم لأسباب

دينية ، وإنما كان لأسباب السلامة الداخلية للدولة ، والعجيب أن المنصور رغم قدرته على قيادة هذا المجتمع المضطرب ، ورغم تغلبه على كل العناصر المعادية له فيه لم يستطع إلا أن يكون غير صريح في سلوكه الديني وكأنه أراد أن يعيش سيدا بين جماعات إسلامية يضرب بها خصومه ، وينتصر بها في حروبه <sup>(١)</sup> .

#### ٧ - دولة صغيرة :

ثم تمزقت وحدة البلاد الاندلسية بعد وفاة المنصور، وانصرفت الدول الصغيرة بها إلى بناء دور للعبادة، وإلى المبالغة في تزيينها، والاتفاق عليها، مع أنها كانت لا تدل على نفوذ الدين ولا على تسلطه على الناس وإنما كانت مجرد مظاهر شكلية لا تدل على شيء كثير يتصل بالدين والعبادة وكأن الدين قد انحصر فقط في بناء المساجد كرمز للإيمان أو كإعلان عن العقيدة ، وكان في هذا كسب للقلوب الساذجة، أو راحة للنفوس المضطربة ، وكأن الالتزام بالدين كان مقصودا على أداء الواجبات الفردية وحدها وأما تعاليم الدين الخاصة بتماسك المسلمين ووحدةهم ووجوب تضامنهم معا، وبعدم من مودة الأعداء فلم يكن هذا كله عندهم شيئا ملزما أو معمولاً به واستمر الفقهاء والباحثون في الدين يؤدون عملهم وواجبهم وكثر وجودهم بكل مكان ، وانتشروا بعد تمزق الوحدة الجامعة بين المسلمين، وبعد أن تعددت مراكز الرئاسة المتنافسة التي كانت تعرض جوائز مجزية للعاملين في شئون الدراسات الدينية أو غيرها ، وذهب رجال الدين إلى العواصم الجديدة ، وكان لهم وجود ظاهر

---

(١) كان اضطهاد المنصور للمفكرين والفلاسفة وحرق كتبهم مع ميله إليهم دليلا

على عدم صراحته .



فيها، وربما كانت مواعظهم مقصورة على تعليم الصبر وتحمل الآلام وحسن الدعاء بالنجاة من الأخطار التي كانت تحيط بهم ورغم أنهم كانوا الأبطال الشعبيين أو كانوا زعماء هذا المجتمع المضطرب إلا أن دورهم كان ضعيفا في البحث عن محاولات الخروج من مأزق الفوضى، وإيقاف تيار الحروب الأهلية بين الأمراء المسلمين المتخاصمين، وقد تحمس الفقهاء لأمرهم، وساروا في طريق الخصومة يؤيدون المنتصرين ويعيشون على حساب مكاسبهم.

وخضعت أحوال المسيحيين زمن حكم الطوائف لظروف كل منطقة أو إمارة وأصبح هناك مسلمون يخضعون للمسيحيين، ومسيحيون يعيشون بين المسلمين، وكان هناك تبادل للتسامح وتبادل الاضطهاد حسب الظروف العارضة إلا أن التسامح مع المسلمين كان للحاجة المؤقتة لوجودهم، وكان التسامح مع المسيحيين للخوف منهم، ومن القوى التي كانت تحميهم في شمالي أسبانيا، وليل المسلمين أيضا إلى التسامح، وتشير دلالات التاريخ إلى أن جماعات مسيحية كثيرة كانت منتشرة في مناطق كثيرة في دول المسلمين، وكانت تلقى منهم حسن المعاملة بعد أن ظهر أن وجود هذه الدول نفسها كان مرهونا بتغافل المسيحيين عنها، وكان حسن المعاملة مع المسيحيين رغم إدراك عدم ولائهم لدول المسلمين كان نوعا من السياسة أو كان شيئا مقروضا بالاضطرار وحده.

ثم تفاقم الشر بين المسلمين والمسيحيين جميعاً، وسقطت طليطلة ١٠٨٥/٨٤٧٨م وكانت عاصمة سياسية ودينية للقوط قبل حكم المسلمين، وللتاريخ جاذبيته وتأثيره، فأحيت بسقوطها روح التعصب الديني عند المسيحيين، واشتد العداء، وازدادت الريبة والتقاطع بين المسيحيين والمسلمين في كل البلاد، وعلا صوت المسلمين المنادين بوضوح الخصومة وإعلان العداء للمسيحيين في كل مكان، وكانت لهم

محاولات قوية يائسة تهدف إلى عزل الخطر عن كيان المسلمين في بلادهم، غير أن أصواتهم لم تجد المنصتين لها، وكأنها كانت مجرد أحلام غاضبة، أو أمانى بعيدة التحقيق، لأن طوائف المسلمين الحاكمة كانت عاجزة عن تنفيذ ما يسيء للمسيحيين المحروسين بدول الشمال والمفروضين على الوجود كله بالقوة، وربما شعر حكام الطوائف بضرورة الاتحاد أمام الخطر، ولكنهم لم يجدوا وسيلة لهذا الاتحاد، فانتظروا دورهم أمام القوى المسيحية الغالية، كأنهم كانوا أصحاب قضية خاسرة.

وازداد حجم خسارتهم بفقدان بعض بلادهم، وبفرارهم أمام الطوفان البشري المطالب بحق الوجود في أرض الآباء، وازدادت الهزائم وعجز الجميع عن اللقاء في الميادين العسكرية، واضطروا لشراء الأمان والسلامة الموقوتة من أعدائهم بالتعهد بدفع ضرائب مالية ترهق شعبهم، وتزيد من عبء الحياة عليه، حتى وصلوا إلى حال لا يرى العدو فيه الخير في الانتظار، ولا يجد بديلا عن تسليم المسلمين وطردهم، فظهر لرجال الدين المسلمين دور ينحصر في محاولة التعرف على شيء يوقف التيار المتدفق نحوهم بالخطر، فأسرعوا إلى طلب النجدة العسكرية من المرابطين في شمالي إفريقيا، وكان هؤلاء يمثلون الأمل الباقي لجماعات المسلمين الضائعة بالأندلس، وجاءت الاستغاثة بهم محاولة طيبة مبنية على روابط الإيمان الواحد بين المرابطين والأندلسيين، ثم على الرغبة المشتركة في الدفاع عن وجود الإسلام في أسبانيا.

#### ٨ - في عهد المرابطين :

ودخل المرابطون أسبانيا ٤٧٦هـ / ١٠٨٦م مؤيدين بالفتاوى الدينية

المشجعة من كل مكان ، وكانت هذه الفتاوى شيئاً له دوره في إقناعهم ،  
أوشيناً له ضرورته في قبولهم الحرب خارج بلادهم ، وبعد معارك عنيفة  
٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م اتخذت صورة الحروب الصليبية المعروفة انتصر المرابطون  
على المسيحيين ، وكانوا يدافعون عن وجود المسلمين أمام جماعات لا تقبل  
الهزيمة ، أو كانت تراها حالة عارضة يمكن تغييرها بالجهد والتنظيم ، وأثار  
انتصار المرابطين الحماس الديني في الجماعتين معا ، فأحيا في جماعة الأمل وأسعدها  
بالإحساس بالراحة بعد معاناة طويلة من خوف الضياع ، وأحيا في جماعة  
أخرى النشاط للبحث عن وسائل الانتقام السريع ، وأثار فيها روح الأسف  
للهزيمة بعد أن استقر الحال بين الجماعتين إلى ما يشبه الصراع الأخير حول قضية  
الحياة والموت .

ثم أحاط المرابطون أنفسهم بجماعات من الفقهاء الذين وجدوا لأنفسهم  
دوراً كبيراً إلى جوار الحكام الممثلين للرعاية الخاضعة لسلطان الدين وأوامره ،  
وظهر دورهم في تشكيك المرابطين في إخلاص الرعايا المسيحيين للسلطة الإسلامية  
ورجالها ، وزاد عندهم اليقين بعد ظهور نشاط المسيحيين مع القادمين من كل  
مكان للقضاء على آثار الإسلام بأسبانيا كلها ، فطرد المرابطون بعض المسيحيين ،  
وأراحوا المجتمع من وجودهم بعد أن كانوا خطراً كبيراً على جماعات محاربة  
ترجو السلامة في كفاحها بالأرض البعيدة .

وحكم المرابطون الأندلس ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م كجماعات متدينة راغبة في  
خدمة قضية الدين وأهله ، وكانهم كانوا الأمل الباقي لهذا الدين ، ويظهر الهجوم  
المسيحي قوياً على المرابطين الذين اتهموا بأنهم كانوا جماعات متعصبة أو جاهلة



أو بربرية ، ويبدو في الهجوم على المرابطين نوع من التعامل والبعد عن الصدق ، وربما كانوا متطرفين في شعورهم الديني ، وربما كانوا أيضا يعيشون لخدمة هذا الدين في مراحل حياتهم الأولى ، وربما ظهروا كذلك أو رأوا أن يظهروا كذلك أمام المسلمين في شمال إفريقيا والأندلس كمحاولة جيدة من الحكام المسلمين البعيدين عن الترف والانحلال الممثل بوضوح في حكام الأندلس جميعاً ، والتف حولهم الناس - أو المتحمسون منهم - وقضى المرابطون بنفوذهم وقوتهم على سلطة الأمراء الأندلسيين في كل مكان .

لقد جاء حكم المرابطين للأندلس كنتيجة لحروب خطيرة ذهب ضحيتها أعداد هائلة من المسيحيين والمسلمين معاً وكان قد ظهر للمسيحيين أن سقوط البلاد الإسلامية كان مأمولاً بجهد قليل ، وهذا يعني أن التعامل على المرابطين كان تعصباً في ذاته ، لأنهم حرمهم من نتيجة طيبة كانوا على بعد خطوات منها ، ويظهر أن أوربا كلها كانت في الطريق إلى اتخاذ موقف حاسم باسم المسيحية ضد الإسلام ، وأنها لجأت إلى التعصب الديني كوسيلة يمكن بها امتلاك قلوب جماعات كبيرة من عامة المسيحيين والتأثير فيهم ، وحاولت أن تنهم بالتعصب كل المخالفين لعقيدتها لتبرر سلوكها المتطرف في معاملتها أعدائها .

ثم جاء الموحدون لحكم بلاد الأندلس ، وكانوا أصدق إيماناً من المرابطين وأشد حماساً للدين منهم ، وقد جاءوا بعد أن أثارت قضية الدين بقوة بين المسلمين والمسيحيين جميعاً ، وساعد على خطورة هذه القضية ضعف المسلمين عن رد العدوان عليهم ، واندفاع المسيحيين إلى الإسراف في الخصومة أملاً في تخليص المسيحية من سلطة الإسلام والمسلمين ، وتجمع المسيحيون أو الصليبيون من كل

مكان في أوروبا ليدفوا الأندلسيين العاجزين للخلف أو ليضربوا الإسلام الذي يقف  
أنصاره وقفات أخيرة غير مجدية، وانتصر الموحدون ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م على المسيحيين  
وجاءوا بالأمل من جديد لمن فقدوا الأمل في بقاء بلادهم معهم ، وهاش الناس  
على النصر وبه فترة غير طويلة لأن الموحدين انهزموا سريعاً ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م  
وكان بين نصرهم وهزيمتهم زمن لا يكفي لإقامة التجربة على التعصب أو التسامح  
الديني عندهم، وفي الهزيمة السريعة دليل على وضوح الهدف أمام أوروبا كلها ضد  
المسلمين بالأندلس فاندفعت في حرب صليبية مجنونة لتأخذ بلادهم واحدة بعد الأخرى .

#### ٩- وأخيراً غرناطة :

وبقيت مملكة غرناطة وحدها ٦٣٠ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٣ - ١٤٩٢ م كآخر  
شعاع لدين غارب ، أو كآخر محاولة لشعب منهزم ، ووقفت باسم الوطن والدين  
أمام عوامل الموت المتزايدة ، وظهر الشعور بالوطنية أقوى من الشعور بالدين ،  
لأن الوطن كان في خطر ، وهو يمس الوجود ذاته ، وقبل التفكير في شئون العقيدة  
الدينية التي من أهم أهدافها العمل للمستقبل المجهول يجب ضمان الأرض أولاً للحياة  
والأجيال ، ثم إن الهزات التي تعرض لها المسلمون كانت خطيرة ومثيرة فأنسهم  
التداعي باسم العقيدة الدينية فنادوا باسم الحياة والأحياء ، وربما لم يكن التداعي  
باسم الدين من صالحهم كمثليين لدين تنحصر بالتدريج دوائر نفوذه منذ زمن  
بعيد ، وقد يزيد ذكره في عوامل شقاوتهم أمام المتعصبين عليهم ، فظهر من المسلمين  
انصرافهم عن الدين ، أو حاولوا إخفاء الإحساس به .

وبعد حياة طالت مائتين وخمسين عاماً تناوبت على الأندلسيين فيها عوامل  
البؤس والمذاب ، ومظاهر النعيم والحياة ، اضطروا للتسليم في النهاية ولم يطق

المنتصرون عليهم أن يروا مسلما واحدا في أسبانيا كلها، فبالفوا في البحث عن مكان العقيدة في قلوب الناس جميعا، وقاموا بمحاولات لتنصير المسلمين بعد معاهدات وتعهدات بترك الناس مع عقائدهم، وارتفعت حرارة الأحقاد ضد المسلمين من كل الأجناس بفرض أن تصبح أسبانيا كلها بلادا مسيحية لا ترتبط إلا بالخصومة والعداء مع أهلها السابقين، وانتهى الحساب أخيرا بعملية <sup>(١)</sup> طرد نهائية لكل المسلمين في الأندلس، وليس إلى الشك سبيل في أن المطرودين من بلادهم لم تكن في دماهم إلا نسبة قليلة من الدماء العربية قد لا تسكني للاندفاع الغاضب الذي لا يفرق بين الدين والجنس، والذي لا يريد أن يقبل من المسلمين عذرا، ولم يكن ممكنا تحت ضغط هذا التعصب الخطير أن يقف القادرون قليلا حول قضية البلاد كمنطقة كانت في حاجة لجهود المناصر المسلمة النشيطة المتحضرة لأن الحكم كانت تحكمهم عوامل الكراهية، وكانت تشغلهم الحمية للدين وحده، فحاولوا أن يظهروا البطولة في ميدان واحد، هو ميدان العمل تحت راية المسيح وكانت هذه هي روح العصر الغالبة، وكانت أيضا الطريق للحياة طويلا في مكان السيادة على الناس في البلاد المسيحية.

ثم ظهرت عمليات التنصير الإجبارية، وعمليات اضطهاد المسلمين بالجملة، وتحطيم مساجدهم، وتحريم لغتهم وعبادتهم، ومحاولة فرض ديانة غير مقبولة عليهم، وقاوم المسلمون الحرب ضد دينهم، ولكن محاولتهم جاءت عاجزة لارجاء فيها، وكأنها كانت مجرد اهتزازات عصبية تظهر قليلا ثم يسترها عنف الصخب، وخضع بعض

---

(١) يقال إن المطرودين كانوا ثلاثة ملايين مسلم أو ما هو قريب من هذا العدد ويدل ذلك على قسوة العمل، وعلى فداحة الكارثة التي أصابت المسلمين في الأندلس.



المسلمين واستسلموا وعاشوا بين المسيحيين غرباء عنهم ، ولكن أعداءهم رفضوا وجودهم كله، واتهموهم بتعطيل سير الحياة في اسبانيا، ولم يقبلوا دعواهم بتغيير دينهم ، وطلبوا منهم الخضوع للموت أو ترك الوطن كله سنة ١٦٠٩ م ، فمات بعضهم تحت العذاب ، وفر بعضهم الآخر هاربا ليلجأ لنفسه عن وطن من جديد .

ولم يكن من أهداف فتح العرب لاسبانيا قبل ذلك بأكثر من ثمانية قرون أن يضطهدوا المسيحيين في أى مكان بها فقد تركوهم تسير بهم الحياة مع الأحياء في ظل الأمن والحرية والتسامح ، وتركوا اليهود أيضا يعيشون في الأندلس في ظل حضارة العرب ودولتهم ، والإشارات واضحة في التاريخ على بقاء اليهود على دينهم أيام حكم المسلمين يمارسون طقوسه بلا ضغط أو اضطهاد، وكانت منهم عناصر مستفيدة في مجتمع المسلمين طول تاريخهم ، وقد تجاوز الناس جميعا هناك في سلام ولم تستغل قوة الاسلام ضد الأديان الأخرى بل استفاد المسيحيون من روح التسامح السائدة لدى المسلمين في العمل البطيء نحو تكوين القوة التي لم يكن يراد بها الدفاع عن الحق المقتصب أو التلويح بالدفاع عن النفس عند التعدي ، وإنما قصد بها بقاء دين واحد في البلاد كلها ، ورفض المسيحيون بعد نصرهم بقاء الإسلام مع المسيحية حتى بعد نجاح التجربة ثمانية قرون طويلة ، وعرضوا المسلمين لتحطيم أراذلهم ، ولقرض العقيدة عليهم بالقوة . وكانت منهم جماعات أسبانية واجهت العذاب مكرهة لتكفر عن ذنوب الأجداد الذين تركوا المسيحية باختيارهم منذ وقت طويل ، وهدمت جميع المساجد الإسلامية كرد فعل غير مناسب لبقاء الكنائس المسيحية في الأندلس حتى النهاية ، وفي التاريخ قصص مؤسفة عن محاولات الإذلال ومحارلات عرض الموت على غير المسيحيين من المسلمين واليهود ، ولم تحدث عند المسيحيين قناعة بالتحول الديني الذي رغبوا فيه ، وإنما اندفعت بهم شهوات الانتقام إلى الإبادة التامة ، أو الطرد الأخير لكل من كانوا من المسلمين .



ب: التطور الحضارى





يقال في تاريخ شعب الأندلس إنه كان شعبا لا يعرف طريق الانسجام في وحدة شاملة يمكن بها أن تظهر معالم التماسك القوية في صورته العامة ، وإن ذلك كان لأسباب من أهمها أن الناس هناك كانوا يتعاطفون دائما مع أصول بعيدة مختلفة أو كانت تميل بهم الرغبة والشعور الإداري وغير الإداري إلى الإحساس والاعتراف بتاريخ ليست فيه روابط وطنية جامعة : ومعنى هذا أن كل عوامل التماسك المعروفة وكل الدوافع القوية نحو العمل في وحدة كبيرة أو نحو الظهور بمظهر التكامل الاجتماعي مثل المصالح المشتركة والمصاهرة ، والجوار ، والعشرة الطويلة ، والمواطنة وغيرها — كل هذه العوامل ذات الأثر الكبير في حياة الشعوب المادية لم تكن فعالة أو مؤثرة أو لم تكن لها نتائج حاسمة في أرض الأندلس ، وربما كان لها أثرها في الأخذ والعطاء ، وفي نتائج الأعمال العقلية في البلاد كلها إلا أن هذه البلاد ظلت تعاني لفترات طويلة من تاريخها من تنوع عناصر السكان بها ومن اختلافاتهم تبعاً لأصولهم وعقائدهم وثقافتهم ، وبدلاً من أن يكونوا راغبين عن الوفاق والانسجام والامتزاج فيما بينهم ، أو كأنما كانوا حريصين على العمل في تكتلات صغيرة أو في شلال متنافسة أو متعادية كما نقول نحن الآن بلغة العصر الحديث ، أو كأن المنطقة كانت غير مسكونة بشعب واحد ، أو كأنها كانت محكومة بشعب يعيش تحت ظلال القوة وفي صراع دائم مع غيره من جماعات كثيرة تجد غالباً للصراع مجالات مناسبة حول السيادة أو العقيدة أو الامتيازات أو المستقبل أو حول البقاء ذاته .

كانت هناك إذن جماعات كثيرة تحكمها مشاعر متباعدة وعواطف مختلفة

وآمال متعارضة ومنها العرب والبربر والمولدون والمستعمرون والمقاتلة واليهود والقوط والرومان وغيرهم ، وكل هؤلاء كان لهم أثر بعيد في حياة الجماعة وفي حياة الدولة ، ويقال إن هذا الخليط البشري العجيب كانت له آثاره الممتازة في امتزاج الثقافات وتطورها ، ولكن أثره السياسي كان خطيرا ومرهقا لأن عناصره ظلت محتفظة إلى آخر المدى بسكيانها العنصري الانفصالي ، وظلت حريصة على هذا السكيان وكأن فيه وجودها وحياتها ومستقبلها ، ولهذا لم تعمل متحدة لفترات طويلة بل شغلت نفسها وشغلت من حولها معها بالتناحر والخصومة والحروب في الميادين المشروعة وغير المشروعة حتى كانت نقطة ضعف مؤثرة في تاريخ المجتمع الأندلسي كله ، وفي تاريخ النظام ذاته وأصبحت خطرا داهما ساهم أخيرا في نهاية الدولة وقضى عليها وشارك أيضا في شقاء الشعب الأندلسي وهلاكه .

وربما كانت هناك بعض الانبجاعات السائدة أو المعترف بها في حياة الناس العامة والخاصة : وهي أن المسلمين من العرب والبربر والمولدين وغيرهم كانوا يسرون في اتجاه الرغبة والعمل لصالح الدولة وبقائها ، وكانوا يعملون لتطوير الحياة الأندلسية والحضارة الإسلامية لأنهم اعتبروا ذلك حياة لدولتهم وحياة لأنفسهم معها ، وسارت الدولة بهم ومعهم لفترات طويلة مزدهرة من تاريخها ، ولكنها لم تكن دولة أقيمت باسم الإسلام لصالح المسلمين وحدهم ، بمعنى أنها لم تتجاهل وجود الآخرين ، ولم تطلب منهم البحث عن أما كن للاقامة خارج نطاق سلطتها ، بل كانت تنظم علاقاتها بهم وتعترف بوجودهم وتعطيهم حق الحياة في حرية ومساواة وأمن ورعاية .



ثم إن المسلمين أنفسهم لم يهتدوا بدورهم إلى نوع من المصالحة السلمية أو إلى نوع من الوفاق المبني على القبول العام لكل المسلمين بالبلاد وعلى الشعور بالأخوة الشاملة بينهم، ولأسباب العناصر الإسلامية القوية التي دخلت أو دخل آباؤها من الفتح مع الفاتحين أو التي كونت بصورة أو بأخرى قوة الفتح ذاتها، وهذه كانت دائماً تعاني من الإحساس القوي بأهمية الدور الذي لعبته عند بدء الصراع الأول، وربما كانت تعاني أيضاً من غرور المنتصرين وكبريائهم... ومنها العرب ولم يكونوا طرازا واحداً من جماعة واحدة تربطها وحدة الأصل أو الوطن أو للتاريخ أو اللغة أو الهدف وإنما كانوا جماعات متنافسة أو أحزاباً معقدة تبلورت أخيراً في وضعها النهائي إلى ما يشبه القوى الكبيرة المتخصصة حول منصب الزعامة في البلاد كلها، ثم اندفعت في حروب أهلية مزعجة تبالغ بعض كتب التاريخ في وصفها وبيان آثارها.. ومنها البربر وكانوا جماعات كبيرة العدد تسرف في تقدير وجودها وآثارها وتشعر بقوتها وأهميتها وتريد أن تعيش مع العرب المسلمين في مساواة كاملة بدون تسامح أو تفريط، ولقد ساهمت في الحروب الأهلية التي انتشرت بالبلاد وشاركت في الفتن، ولم يظهر منها ميل للتلاحم المفيد مع عناصر المسلمين الأخرى إلا في أوقات غير طويلة.. وبين هؤلاء وهؤلاء كان يعيش المولدون الراغبون في البعد عن مشكلات النزاعات الداخلية والاملون في السلام والأمان في ظل عقيدة المسلمين وحضارتهم، ولقد عاش هؤلاء وقتاً طويلاً مع هذه النية الطيبة، ثم تحولوا بالزمن والرغبات العارضة فأصبحوا عنصراً أساسياً من عناصر الشعب بالبلاد كلها.

وفي الجانب الآخر أو على الطرف المضاد كانت هناك جماعات مسيحية تعرف بالمستعربين النصارى القاطنين في أسبانيا الإسلامية، وهؤلاء كانوا يمثلون

نسبة كبيرة من جملة السكان أيام الفتح وبعده ، ومع أن أصولهم كانت مختلفة تساعد بحكم روح العصر ومقتضيات البيئة على الخلاف أو الشقاق إلا أنهم كانوا يجتمعون حول الشعور الديني الواحد أو حول ما يشبه الشعور القومي المتطرف ، وقد شغلهم هذه الأمور دائماً ، وساعدتهم الدولة بتساعدها على الإحساس بالقوة والأهمية والخطر ، وكانت تضمن لهم حق الحياة وحرية العمل والعقيدة فعرفوا عن طريقها معنى التسامح الديني والخلقى لأول مرة في تاريخهم ، واستغلوا ذلك كله في ممارسة التهديد للباشر لمصالح البلاد وأهلها والتأمر في الداخل والخارج عابها ، وانصرفوا بحكم العواطف القومية والدينية وبأثر الدعايات الخارجية عن المشاركة الإيجابية في العمل لمصالح الحكومة لفترات طويلة ، وبذلك أضفوا على أنفسهم طابعاً انفصالياً عدائياً مشكوكاً فيه وخضمو بسببه لبعض الاضطهادات التي كانت تريد حماساً واندفاعاً إلى الشقاق والنفور والعمل المضاد ، وظهر ذلك بوضوح عند دفعات القوة العربية أو عند تغلب العنصر البربرية أيام المرابطين والموحدين<sup>(١)</sup> الذين بدا حبهم وعطفهم على الإسلام والمسلمين في صور كثيرة كان منها الحماس الشديد في الدفاع عن قضية الإسلام في ميادين القتال ، ومنها تقرب المسلمين وموالاتهم ، ومنها اضطهاد بعض المسيحيين واليهود المشكوك في إخلاصهم وولائهم ، وكان هؤلاء يمثلون تأثير الثقافة العربية في غير المسلمين من السكان ، وكانوا مولعين بالتراث العربي وألوانه حتى انتشرت بينهم لغة العرب وثقافتهم وحضارتهم ونسوا الفتن أو كانوا في الطريق إلى نسيانها ، وترجعت لهم الأناجيل

---

(١) ظهر عصر سلطان البربر في أسبانيا من ٤٨٤ - ٥٦٣٣ / ١٠٩١ - ١٢٣٥ م

وربما لم يكن البربر المسلمون متمسكين بالإسلام إذا قورنت عواطفهم الدينية بعواطف الكاثوليك التابعين لكنيسة روما .

وقانون الكنيسة المقدس إلى اللغة العربية ، وقد كانوا أشد حبا لها وأكثرتعلقا بها<sup>(١)</sup> من بعض أهلها ولم ينقطعوا عن الاتصال بالمسيحيين في الشمال<sup>(٢)</sup> ثم لجئوا إليهم في شبه جماعات باحثة عن مكان يناسب الحياة بالدين بعيداً عن حكم المخالفين له أو لانتظار فرص العمل الديني والقوى في المستقبل . . . وهاجروا إلى الشمال يحملون العداء للعرب ويتأثرون بثقافتهم ومزاجهم وذوقهم فكانوا عوامل أساسية لنقل حضارتهم إلى شمالي أسبانيا المسيحية وإلى أجزاء أخرى من أوروبا بعد ذلك . . . وسار اليهود في نفس الطريق وكانت لهم بالأندلس جاليات كبيرة غنية وسميدة بالأمن والرعاية والعطف والتسامح العربي .

ولكن هل من المقبول أو المعقول أن نقول إن شعب الأندلس كان طول تاريخه جماعات متفرقة ومتنازعة وموزعة الأهواء والآمال والبول ؟ وهل صحيح أن كل جماعة أندلسية كانت منجذبة إلى أصل بعيد تمطيه مواطنها وتصرفاتها ؟ وإلى تاريخ خاص مستقل لا تشمر بسببه بنوع من الترابط في دائرة الدولة الواحدة غير ما هو معروف من روابط المصلحة القائمة أو للمشاركة بين الجميع والتي كانت تميلها ظروف الحياة في مكان واحد ؟

إن النموذج الحضاري العظيم الناتج من أثر اختلاط هذه العقليات في الأندلس يكشف بوضوح عن معاني المشاركة الإيجابية والفعالة بين الجميع لتطور الحياة

---

(١) كان مما يفهم قلب رجال الدين للمسيحيين بالأسى ألا يجدوا من رعاياهم واحداً من الألف يستطيع أن يكتب رسالة باللغة اللاتينية مع أن أكثرهم كانوا يكتبون عبارات عربية بليغة وبأسلوب منمق ويفوقون العرب في الشعر ونظم القوافي .  
(٢) وكانت حرية الانتقال بين البلاد الإسلامية والمسيحية مضمونة ومعروفة طول التاريخ .



العامة في البلاد كلها ، ولا تتصور أن تصارعاً قوياً وخطيراً كان قائماً بصورة شبه دائمة بين السكان في جملتهم أو بين العناصر المتميزة منهم ، وإلا لكان العمل الناجح المعروف عن الشعب الأندلسي مستحيل التحقيق أو بعيد الإدراك ، وإلا لاختلفت الصورة المعروفة والمنقولة عن الأندلسيين في بطون الكتب وفي آثارهم الباقية إلى اليوم ، ولا شك أنها صورة طيبة وممتازة ، وهي في جملتها وتفصيلها صورة شعب عرف طريق العمل في جماعة متفاهمة ولقترات طويلة من تاريخه ، ونحن نقول الآن إن العرب أقاموا في أسبانيا دولة عاشت زمناً طويلاً<sup>(١)</sup> وكانت واحدة من أعظم الدول الإسلامية أو كانت واحدة من الدول التاريخية المهمة أو كانت دولة أوربية لا مثيل لها في أوروبا كلها ، وبذلك على ذلك تاريخها وآثارها وما يعرف عنها وعن شعبها وعن حضارتها ، ولا يمكن أن يوجد هذا الأثر مع الاختلاف والتناحر والصراع بدون نهاية .

ويبدو أن فكرة النزاع الدائم أو الخطير المشاعة عن مواطني الدولة الإسلامية بالأندلس وأن المبالغة في دعوى طول الصراع بين عناصر السكان في هذه البلاد ولا سيما بين المسلمين والمسيحيين أو بين أنصار الإسلام وأنصار المسيحية هناك - يبدو أن هذه الفكرة كانت فكرة مفروضة روجت لها عوامل سياسية مكشوفة وأملها روح التعصب الصليبية عند المسيحيين<sup>(٢)</sup> الذين اندفعوا لهذا القول بعد انتصارهم على المسلمين

---

(١) من ٩٣ هـ / ٧١١ م إلى ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م .

(٢) يعرف من التاريخ أن حرب أوروبا للموحدين المسلمين البربر في أسبانيا سنة ٦٠٩ / ١٢١٢ كانت حرباً صليبية صريحة وأنها لم تكن شيئاً آخر غير ذلك ، وأن الأفكار والميول السكنية كانت مهيمنة على البلاد كلها ، وكانت في درجة من القوة تشبه ما كان عند الصليبيين الذين حاربوا المسلمين بالشرق في ذلك التاريخ .

في حروب الاسترداد المروقة ، وكان ذلك للدعاية وحدها ولموامل المحاس  
المطلوبة عند الحروب وبهدها ، ويعرف عن الكتاب المسيحيين أنهم كانوا  
تساوسة أو أنصاف رجال دين فكانوا يعملون في جو كئيب من التمهيب والكراهية  
وسوء الظن وعدم التقدير ، وكانت عندهم فرصة طيبة بعد ضمف المسلمين  
وهزيمتهم أمام القوات المسيحية فتركوا خيالهم الرخيص على عليهم أحاديث كاذبة  
عن شعب مسلم له عقيدة معادية منهزمة ، ولا سيما بعد انتصار المسيحية النهائي  
على الإسلام سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م .

وحتى القول بانتصار المسيحية على الإسلام يجب ألا نقبله بهدوء وتسليم لأن  
من الواضح أن عوامل الضعف والهزيمة عند المسلمين - وهذه كانت خارجة عن  
تأثير الإسلام كدين - هي التي انتصرت على عوامل القوة والنصر عندهم ، وبذلك  
تهيأت سبل الانتصار السهل أمام أعدائهم ومعنى ذلك أن نهاية الحياة جاءت  
للمسلمين بعد أن ساهموا بدورهم في الإسراع بها .

وفي نفس الوقت يمكن أن نقول إن السكان في الأندلس لم يستطيعوا الامتزاج  
نهائياً أي أنهم لم يكونوا شعباً أندلسياً واحداً تقل الفروق بين جماعاته وتماطفت  
فيه هذه الجماعات بشكل إيجاب يساعد على البقاء للنهية في وحدة قوية وفي  
أرض واحدة يشعر الجميع بالاشتراك في ملكيتها وبالحرص على سلامتها ، وربما  
لم يكن طبيعياً أن يمتزج شعب الأندلس مع وجود العوامل المعطلة التي  
كان منها اختلاف الدين والعنصر والميل ، والتي كان منها الدعايات المحيطة المنادية  
بالقومية والحرية وشرف المسيحية ، وهذه كانت لها مصادرهما القوية في أوروبا  
القريبة من أسبانيا وفي داخل أسبانيا نفسها ، وكانت تزدد حماساً وإلحاحاً

في أوقات الضعف عند المسلمين ، وفي أوقات تنازعهم وانصرافهم إلى الأهمال الصغيرة الهادفة إلى المكاسب المحلية أو الشخصية .

ويظهر بوضوح من تاريخ أوروبا أنها أصبحت في حالة يقظة شاملة<sup>(١)</sup> بعد الضياع والانهيار والتأخر ، وأنها أخذت، تتجمع حول عوامل القوة المتاحة لها ، ولم تجد من وسائل التأثير المحركة لمواطن الجماهير إلا الأمور الدينية لتقابل بها سلطان المسلمين الفارقين في الفتن والمنازعات .

ورغم هذا أو بعد كل ما يقال عن الصراع الطويل الخطير بين العناصر المكونة لشعب الأندلس فقد كان لهذا الشعب دور حضارى هام ، وكانت له قصة حضارية متميزة تتحدث عنها كتب التاريخ باهتمام ، ونحن إذا أردنا الآن أن نعطي صورة فيها شيء من الوضوح عن حضارة العرب في أوروبا ربما تضطرنا ضرورات الوفاء للواجب إلى الإسهاب والتطويل ، لأن هناك شيئاً كثيراً يقال عن معالم الحضارة الأندلسية ومقوماتها ، وعن أثر هذه الحضارة في أسبانيا العربية وفي أوروبا كلها معها ، وعن المقارنة بين حال العرب في الأندلس وحال الأوربيين القريبين منهم أو البعيدين عنهم ، وفي المكتبة العربية وغير العربية كتب قيمة متخصصة في هذه الدراسة المهمة ، ومقصورة على بحث حضارة العرب والمسلمين في الأندلس وحدها ، ومنما ندرك أهمية الدور الحضارى الذى قام به العرب للمسلمون والمساهمون معهم بالنسبة لتاريخ أوروبا وللتاريخ الإنسانى كله ، ونفهم من كتب التاريخ أن المسلمين في أوروبا كانوا أرقى شعوبها جميعاً

---

(١) اكتشف الأوربيون أمريكا في نفس السنة التى زال فيها آخر نفوذ للعرب



وأنهم كانوا أساتذة للأوروبيين كلهم طول العصور الوسطى وبعدها، وفي كتب التاريخ والحضارة العربية وغير العربية ذكر طويل لكثيرين من نوابغ الفكر المسلمين وغير المسلمين الذين شملتهم دولة المسلمين في أسبانيا ورجعت وجودهم ونبوغهم وكانت أسبانيا الإسلامية أهم النافذ المفيدة التي اطلعت منها أوربا على حضارة العرب وتقدمهم، وعندنا نحن المسلمين والعرب كلام كثير عن الأندلس العربية وعن حضارتها المتطورة وكيف علمت أوربا الجاهلة وكيف كانت حالها معها، ونتحدث عن التقدم العربي والتأخر الأوربي، ويبدو المجال واسعا، والقول مكررا، ولكن ملاحظة سريعة ينبغي أن نلتفت إليها باهتمام وعناية إذا كنا نريد خيراً لأنفسنا ولغيرنا وهي أن وقوفنا طويلا للإلحاح على جوانب العظمة في التاريخ العربي والإسلامي لجماعات عربية أو إسلامية كانت تعيش في الشرق أو الغرب ربما لا يفيدنا الآن كثيرا إذا كان هذا الوقوف مجرد الذكرى أو إذا كان فيه شيء من التأمل الجامد أو الحزين ولا شيء بعده، وفي العالم الآن كثيرون يعترفون بأهمية تاريخ العرب والمسلمين في أسبانيا وفي غيرها من الأوطان ولكنهم يفقدون حماسهم بعد المقارنة المبدئية السريعة بحال المسلمين وحال غيرهم من الشعوب الأكثر تطورا منهم، وقد يكون هناك اعتراف عام وصحيح بأعجاز العرب في الأندلس، وقد تكون آثارهم إلى الآن معبرة عن درجة التطور الكبيرة التي قادوها في أوقات التأخر والمعجبة الأوربية<sup>(١)</sup> ولكن العرب والمسلمين يجب أن يكونوا اليوم في مستوى عصرهم وفي مستوى الأعمال الجيدة المحيطة بهم في كل مكان.

---

(١) راجع كتاب: الإسلام والحضارة العربية ١٩٥٠-٢٠٧، ٢١٨-٢٤٤، وغيره من كتب الحضارة المعروفة.

وصحيح أن على المؤرخ أن يكتب عن الماضي كما كان، ولكن يبدو أن الكتابات عن الحضارة العربية وأثرها قد أوقفتنا عند حدود التأمل وحده أو لم تخرج بنا عن مجال الرؤية المحدودة، وكان في هذا التاريخ المجيد شيئاً من الشفاعة المطلوبة، أو كأننا نذكره للاعتذار المناسب عن تأخرنا الحاضر، والسؤال الكبير لا يزال واضحاً ومعرضاً عن أسباب عدم الحركة النشيطة عند العرب والمسلمين منذ وقت طويل، وهناك محاولات للفهم العميق أو غير العميق لهذه الأسباب كلها، ولا تزال أمامنا أسئلة كثيرة معروضة وهي في حاجة إلى أجوبة مقنعة، ولكن ليس المهم الكلام والمناقشات وحدها وإنما معرفة الطريق السليم نحو التقدم السريع اللازم، وكما موضوع درامتي أو كمسألة لها بعض الأهمية عند جماعات ناشئة يرجي منها الخير والعمل المفيد في المستقبل نقول إن الإسلام كان عنصراً ممتازاً من عناصر التقدم في حياة أسبانيا وسكانها جميعاً، وإن الفتح الإسلامي لم يكن مجرد حادث سياسي عارض في تاريخ هذه البلاد الأوروبية البعيدة وإنما كان حدثاً حضارياً استهلت به حقبة طويلة خلقت في الحياة الأسبانية بشي مظاهرها آثاراً عظيمة لم تنقطع بزوال سلطان الإسلام السياسي من أسبانيا، بل ظلت ماثلة هناك وكانت تترامى دائماً في كيان المنطقة وكيان عناصرها المختلفة.

وصحيح أن الأندلس كانت راغبة في الاستقلال السياسي عن الشرق منذ بدء تاريخها العربي والإسلامي وأنها نجحت فعلاً في تحقيق أول حركة انفصالية عن جسم دولة المسلمين في الشرق، ولم يكن غريباً أن تستقل بهذا المكان البعيد إدارة خاصة تشمر بشيء من الحرية أو شيء من إمكانية التصرف المستقل بعيداً عن مجال الضغط والخضوع المباشر لسلطة الدولة المركزية بالشرق، وربما لم يكن الخضوع لهذه الدولة شيئاً ممكناً لفترات طويلة من التاريخ بسبب



بعد للمنطقة الأندلسية وبسبب الاضطراب السائد فيها وتغيير الرئاسة وضعف الإدارة بها وبسبب تجمع كثير من العناصر القوية المعارضة للسلطة فيها أو الرغبة في الانصراف إلى الطريق المستقل وحدها، ولقد قويت الرغبة في الاستقلال بعد ظهور عبد الرحمن بن معاوية ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م، وكان هذا الحاكم شديد الحرص من جانبه على ألا يلتفت المسلمون في الأندلس إلى جهة الشرق إلا للاتصال الثقافي وحده، وكانت هناك فكرة شائعة بين المسلمين ومقبولة عندهم وهي أن عالم المسلمين لجميع المسلمين أو أن بلاد المسلمين يجب أن تكون مفتوحة دائماً أمام كل الدارسين من جميع الأجناس والأديان وأن العلم والمعرفة ليس ملكاً لمنطقة وحدها وليس احتكاراً لطائفة أو جماعة، ولا يجب أن تقف في سبيل التأثيرات الثقافية والتبادلي العلمي عوائق البعد أو الخصومة أو اختلاف وجهات النظر أو تنازع النظم للمعارضة، ولهذا لم تستطع أسبانيا أن تقلت من الخضوع للتأثيرات الشرقية القوية في المجالات الحضارية المختلفة، وربما لم يكن ذلك شيئاً ممكناً أو لم يكن ذلك شيئاً داخلياً في رغبتها أو رغبة حكامها، فكانت مع بعدها عن الشرق ومع خصومتها معه قطعة منه أو جزءاً من كيانه قبل أن تكون قطعة من أوروبا تخضع لبيئتها وظروفها وقدرها، ولم يكن طبعياً أن تكون قطعة من أوروبا إلا من وجهة النظر الجغرافية وحدها، بسبب اختلاف الثقافة والدين والمزاج والهوى وبسبب البعد الحضاري بين المنطقتين .

لقد كان للمسلمون<sup>(١)</sup> في أسبانيا شعباً متطوراً يعمل لزيادة التقدم عن طريق متابعة من كانوا أسرى منه حضارة ومعرفة، وحضارة المصور الوسطى كانت عند المسلمين وحدهم، ولهذا تتحدث كتب التاريخ وغيرها عن علماء أو عن طلاب

---

(١) أنشأ الإسلام بالأندلس حركة حضارية فعالة خلقت دولة قوية تعتبر كياناً حياً في جسم عالم المسلمين بما أحدثته من تراث ثقافي ممتاز .



أندلسيين سافروا للعراق والشام ومصر والحجاز وقارس والهند وخراسان بحثا عن العلم والمتعلمين ، وكانت الرحلات في طلب العلم ولقاء الأساتذة الكبار عرفا حميدا سائدا في عالم المسلمين في كل عصورهم ، وكانت من أقوى الأسباب التي أعانت على خلق البيئة الثقافية الواسعة بين كل الناس ... ثم كان هناك أساتذة من الشرق ذهبوا للأندلس ينشرون العلم ويعرضون الجديد من بحوثهم بها ويبحثون عن الكسب في بلاد الإغراء المالى المثير ، وكانت حركة المنافسة عميقة ومغربة في كل مكان يحكم فيه المسلمون وتظهر فيه آثارهم ، فكان العباسيون في الشرق وكانت بغداد ، وفي الغرب كان الأمويون وكانت قرطبة ، وفي الشرق كان للنصور والرشيد والمأمون وفي الغرب كان الناصر والمستنصر ، وكل هؤلاء كانت لهم شهرة عريضة في الاهتمام بالعلم وبتطور الفكر والحياة ... ومعنى هذا وجود اتصال مباشر بين بلاد الأندلس البعيدة وبين بلاد الشرق المتحضرة ، ومعنى هذا أيضا أن العرب في أوروبا رفضوا الموت بعدم الانقطاع عن التلمذة على نوابع الفكر العربى في كل بلاد المسلمين ، ورغم أن بلاد الأندلس كانت بعيدة عن قلب العالم الاسلامى إلا أن تراث هذا العالم كان يتدفق عليها من كل مكان وفي شتى العصور حتى تأصل فيها هذا التراث ووعته ... والكلام كثير عن مجالات التنافس الثقافى بين قرطبة وبغداد والقاهرة وعن رحلات العلماء المسلمين إلى كل مكان بالشرق والغرب وعن آثان الكتب القيمة والبحث عنها ، وعن مدى الإغراءات المالية والأدبية المعروضة على المتعلمين هناك ، وعن الحياة الناعمة التي كانت مهيئة للثقات في بلاد المسلمين ، ولذلك تقدمت بهم الحياة وتقدموا هم بالحياة ، وظهر منهم علماء كثيرون ممتازون في جميع جوانب الفكر :

١ - فى الأدب كان بالأندلس :

ابن عبد ربه ت ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م .

- ابن هانيء ت ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م .
- ابن شهيد ت ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م .
- ابن زيدون ت ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م .
- ابن عمار ت ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .
- ابن صراح ت ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .
- ابن الأفطس ت ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .
- ابن عباد ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م .
- ابن عبدون ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م .
- ابن حمد يس ت ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م .
- الفتح بن خاقان ت ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م .
- ابن خفاجة ت ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م .
- ابن بسام ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م .
- ابن قزمان ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م .
- ابن الصابوني ت ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م .
- ابن سهل ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م .
- ابن اب ت ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م .
- ابن زمرك ت ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م .

## ٢ - وفي التاريخ :

- عبد الملك بن حبيب ت ١٣٨ هـ / ٨٥٤ م.
- محمد بن موسى الرزى ت ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م.
- أحمد بن محمد الرزى ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م.
- ابن القوطية ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م.
- عريب بن سعد ت ٣٦٩ هـ / ٩٨٩ م.
- ابن الفرضى ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م.
- ابن صاعد ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م.
- ابن حيان ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م.
- أبو عبد الله الحميدى ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م.
- ابن خير ت ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م.
- ابن بشكوال ت ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م.
- أحمد بن يحيى الضبي ت ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م.
- ابن الأبار ت ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م.
- ابن سعيد المغربي ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م.
- لسان الدين بن الخطيب ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م.
- ابن خلدون ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م (١).

---

(١) ولد عبد الرحمن بن خلدون في تونس من أسرة عربية أندلسية سنة ٨٧٣٢ هـ — ١٣٣٢ م / ٨٠٩ هـ — ١٤٠٦ م ، وفي سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م كان في خدمة سلطان غرناطة ، وكان له دور مهم في سياسة شمال إفريقيا والأندلس ، ثم عاد لبلاد المغرب سنة ٧٨٠ هـ / ١٢٧٨ م ، وذهب إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، وزار سوريا سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م .



### ٣ - وفي الجغرافيا:

- أبو عبيد البكري ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م.
- الإدريسي ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م.
- أبو حامد المازني ت ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م.
- ابن جبير ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م.
- ابن سعيد ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م.

### ٤ - وفي علوم الدين :

- بقي بن مخلد ت ٢٧٢ هـ / ٨٨٦ م.
- أبو عمرو الداني ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ م.
- ابن عبد البر ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م.
- أبو الوليد الباجي ت ٤٧٣ هـ / ١٠٨١ م.
- الشاطبي ت ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م.

### ٥ - وفي الطب:

- أبو القاسم الزهراوي ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م.
- ابن وافد ت ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م.
- خلف بن عباس ت ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م.
- ابن زهر ت ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م.
- ابن البيطار ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م.

٦ - وفي الفلسفة :

- ابن مسرة ت ٣١٨ هـ / ٩٣١ م .
- ابن جبرول ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .
- ابن حزم ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م .
- أبو الوليد سليمان بن خلف ت ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م .
- أبو بكر الطرطوشي ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م .
- ابن باجة ت ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م .
- ابن العريف ت ٥٢٥ هـ / ١١٤١ م .
- ابن طفيل ت ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م .
- ابن رشد ت ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م .
- موسى بن ميمون ت ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م .
- ابن عربي ت ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م .
- ابن سبعين ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م .

٧ - وفي علوم اللغة :

- أبو علي القالي ت ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م .
- الزبيدي ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م .
- ابن سيده ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م .
- ابن خروف ت ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م .
- الشلوين ت ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م .

ابن عصفور ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م.

ابن مالك ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م.

ابن الصائغ ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م.

ابن إدريس الفرائي ت ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م.

أبو حيان ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م.

وغير هؤلاء كثيرون منهم الأدباء والشعراء والفلاسفة والفقهاء والفقهاء والفقهاء والأطباء والكيميائيون والمهندسون والمؤرخون وخبراء الزراعة والنبات والحيوان وغيرهم.

وانشرت المعارف ببلاد الأندلس حتى قال المتحمسون بأن كل السكان بهذه البلاد كانوا يعرفون القراءة والكتابة<sup>(١)</sup> وانشرت العلوم من بلاد الأندلس من أربع جامعات شهيرة في قرطبة<sup>(٢)</sup> وإشبيلية ومالقة وغرناطة وكانت الأندلس منارة العلم وحدها في أوروبا كلها، وجاءتها وفود الطلبة من كل مكان لأن الحياة هناك لم تقم على الانفصال الجغرافي أو العنصري بين المسلمين وغيرهم،

---

(١) ربما كانت النسبة للشوية لمن يعرفون القراءة والكتابة في بلاد الأندلس الإسلامية عالية إلى درجة لم تكن معروفة في أوروبا في المصور الوسطى ولم تكن معروفة أيضا في بلاد المسلمين في غير الأندلس: فقل إن كل سكان هذه البلاد كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

(٢) يقال إن قرطبة وحدها - وكانت عاصمة الدولة الإسلامية منذ انتقال المسلمين إليها بعد إشبيلية سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م إلى سقوط دولة الأمويين سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٥ م - كان بها سبع عشرة مدرسة يتعلم فيها أبناء الفقراء مجاناً.



وكانت هناك عناصر نشيطة من غير المسلمين نقلت حضارة العرب والمسلمين لبلاد الشمال أو للبلاد التي كانت غير خاضعة لسلطان المسلمين بالأندلس ومن هذه العناصر المستعربون المسيحيون الذين كانوا يهاجرون من الأندلس للأراضي المسيحية أو الذين بقوا في أماكنهم بعد زوال سلطات العرب السياسى والعسكرى من أوروبا ، ومنها المدجنون المسلمون الذين اضطروا للعيش تحت راية المسيحيين حتى سنة ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م ، وجماعات أخرى شاركت في حركة التفاعل الحضارى ويسرت الاتصال بين الحياة الإسلامية والحياة للمسيحية ، وأعانت على بقاء حضارة المسلمين في أسبانيا زمنا طويلا ، وقد تجلت مظاهر تأثير هذه الحضارة في الحياة العامة والخاصة وفي التقاليد واللغة والآداب والفنون والصناعات والزراعة والتجارة والتربية والموسيقى وغيرها ، ولقد كتب<sup>(١)</sup> المؤلفون عن هذه المظاهر وأشاروا إلى الآثار العظيمة التي لا تزال باقية في أرض أسبانيا وتقاليدها ولغتها وآدابها وفنونها إلى اليوم .

وإذا كان صحيحا أن حركة مطاردة العرب ودين العرب وثقافة العرب في أسبانيا كانت قوية قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م فقد كان صحيحا أيضا أن أثر العرب كان واضحا هناك وأن تأثيرهم ظل قويا لفترات طويلة بعد سقوط دولتهم وبعد ضياع نفوذهم ، وهذا - ولا شك - من أسرار عظمتهم وتفوقهم ؛ والكلام كثير عن أثر العرب في أوروبا بعد سقوط الأندلس العربية وبعد سقوط صقلية العربية حتى في قصور الملوك والأباطرة ، بما يفيد بأن حركة المطاردة العنيفة المندفعة ضد المسلمين بقوة التعصب الدينى المسيحى كان فيها إحساس بتفوق العرب الحضارى وبقوتهم المعنوية ، وقد كان المطلوب اجتثاث الوجود

---

(١) انظر الكتب التالية : أ - الإسلام في أسبانيا ب - الإسلام والحضارة

العربية ج - تاريخ العسكر الأندلسى .

العربي المادى وتحطيم السمعة العربية وأن يهتز الوجود العربي الدينى والعماسى كله ،  
وأما الوجود الحضارى فقد كان قويا ثابتا يفوق طاقة المضطهدين للمسلمين  
وجهدهم ، وكان هناك من يدرك أهميته ، ومن يدعو إلى رعايته .

وليس هذا كلام تملية أطياف ذكرى الفردوس المفقود ، بل هو  
حقائق تاريخية ثابتة فى مؤلفات المسلمين وغير المسلمين ، وربما كان غير  
المسلمين أكثر اندفاعا من المسلمين فى التعبيرات المثيرة عند الحديث عن حضارة  
العرب فى الأندلس ، وهؤلاء كانوا يدركون أهمية هذه الحضارة المتنازلة  
ويحاولون الاستفادة منها ، وقد عملوا فى الوقت المناسب ومنذ القرن الحادى عشر م  
على أن يتدفق مجرى التيار الثقافى العربى على أوروبا ، وظهرت عندهم حركة  
واضحة قصد بها تزويد أوروبا بعلوم العرب عن طريق الترجمة ، حتى نقلت ذخائر  
التراث العربى إلى الغرب بواسطة مدارس الترجمة النظامية التى ازدهر فيها عدد  
كبير من المترجمين مثل جيرار<sup>(١)</sup> الكريمنى ت ١١٨٧ م وإبراهيم بن عزرا  
ت ١١٦٧ م ويوحنا الأشبيللى ١١٥٣ م وغيرهم ، وشم فى آخر القرن الثالث عشر م  
قل الكثير من العلوم العربية إلى خارج أسبانيا ، وهذا جعل المناطق التى  
دخلت فيها هذه العلوم مراكز ثقافية مفيدة كان لها دور حضارى هام فى تاريخ  
أوروبا وتطورها .

---

(١) يقال أن هذا للترجم وحده نقل واحدا وسبعين كتابا عربيا إلى اللغة  
اللاتينية وغيرها .





## الفصل السادس

### ١ - بين المغرب والاندلس

يكشف المؤرخون بوضوح عن العلاقات التي كانت تربط بين شمالي إفريقيا وأسبانيا في محاولة لتعليل ظاهرة الفتح العربي المباشر لشبه الجزيرة الأسبانية بعد الفراغ من فتح شمالي إفريقيا ، أو قبل الفراغ من هذا الفتح ، وكأن من اللازم أن نوجد نوعاً من التبرير للقبول لأعمال المسلمين العسكرية في أسبانيا بعد فتح بلاد المغرب غير ما هو معروف من أهداف الفتوحات الإسلامية الأساسية ، أو كأن من الضروري أن توجد الروابط القوية بين المنطقتين حتى يقوم التعليل المناسب الانتقال العرب السريع من إفريقيا إلى أوربا ، ولا شك في أن محاولة التعريف بالروابط الأكيدة بين أسبانيا والمغرب إنما تكون أساساً لتوضيح الواقع المعروف ، وليس من اللازم أن تكون هذه الروابط القوية من الأسباب المباشرة للتعريض على الحرب ، أو للتشجيع على فتح أسبانيا بعد النجاح في فتح بلاد المغرب ، لأن أسباباً كثيرة كانت متوفرة أمام الفاتحين المسلمين للتقدم في محاولتهم التالية بعد فتح إفريقيا الشمالية ، وصحيح أن من بعض هذه الأسباب ما كان من القرب والاتصال وتبادل التأثير بين المنطقتين ، ويضاف إلى ذلك أسباب أخرى معروفة من تاريخ المسلمين ومن تاريخ فتوحاتهم الشهيرة .

والظاهرة المثيرة هنا هي أن المجاهدين المسلمين اندفعوا في حماس صارم لفتح أسبانيا وللمعمل في هذا الميدان الجديد قبل أن يحصلوا على النجاح الأخير في البلاد الإفريقية ، ولم يكن ذلك فقط لوجود الترابط القوي بين أسبانيا والمغرب ، لأن الترابط كان أقوى بين بلاد المغرب ذاتها ، وبعض هذه البلاد كان قد خضع للمسلمين وبعضها الآخر لم يكن حتى ذلك الوقت قد سار في طريق السلام معهم ، وبدأ أن المسلمين كانوا ينتهزون مناسبات الضعف الظاهر عند خصومهم فيسرعون

إلى استغلالها ليضمنوا لأنفسهم النجاح السريع الخامس ، فعندما أدركوا أن الحرب في أسبانيا كانت أكثر سهولة أو كانت أقل تضحية من الحرب في إفريقيا، أو في أجزاء أخرى من أرض إفريقيا البعيدة — بعد أن ضمنوا تحقيق الأمل في تحويل البلاد الإفريقية إلى الإسلام في المستقبل — تركوا المسرح الإفريقي للزمن وحده ، ورجعوا عن تكرار العمل فيه بعد أن طال زمن الصراع هناك ، وانتقلوا لبيئة جديدة مخالفة للبيئة الإفريقية ، وكانوا قد تأكدوا بعد اختبارها أو بعد تجربة العمل فيها من النجاح في الغارة عليها ، ثم كانت مع العرب جماعات بربرية مسلمة تتحسس للحرب في سبيل الدعوة الجديدة ، وكان يمكن إغراؤها بالعمل العسكري في البيئة الأسبانية بعيداً عن الدوران في بيئتها الإفريقية وحدها ، وبعيداً عن أن يضطر البربر المسلمون إلى مواجهة أمثالهم من البربر غير المسلمين وكان الأوفى بعد تحطيم المعارضات القوية في إفريقيا أن تترك العصاة والمعارضين فيها فرصاً أخرى للتفكير ومراجعة النفس من جديد ، وأن يترك من كانوا يعيشون بعيداً عن مسرح الأحداث المباشرة للزمن ما دام خطرهم ليس قوياً أو مثيراً .

لقد تقدم المسلمون لفتح أسبانيا قبل أن يفرغوا نهائياً من العمل في بلاد المغرب ، وكانت لا تزال أمامهم مناطق واسعة بإفريقية نفسها كانت في حاجة أكيدة لجهود عسكرية نشيطة تلفت نظر سكانها إلى وجود عقيدة جديدة ووافدين جدد ، ولكن العرب تركوا الحرب في إفريقيا لمن يأتي بعدهم من المسلمين وتركوا المحاولات الأخيرة فيها للزمن ولغيرهم من القادمين منظمين للعمل باسم الإسلام والمسلمين ، وأسرعوا للجهاد في أسبانيا ، وأرادوا بذلك أن يشغلوا البربر الداخليين في الإسلام حديثاً بالأعمال العسكرية المفيدة بعيداً عن التعقيدات



الموجودة ببلادهم ، أو أرادوا أن يشغلهم عن التفكير إلا في مستقبل الإسلام وحده .

وتقدم المسلمون لفتح أسبانيا سريعا بعد أن وضعت أمامهم ظواهر النجاح في بلاد المغرب ، وكانوا قد ضمنوا انهيار المقاومة البربرية العنيدة ، وكسبوا جماعات كبيرة من البربر إلى صفوفهم ، وتركوا المترددين منهم أو الراضين لديهم ليهتدوا بجهود الأجيال القادمة على الطريق ، وإذا كان العرب لم ينجحوا تماما حتى ذلك الوقت في تحويل البربر جميعا إلى الإسلام فإن ذلك لم يكن عملا ممكنا في هذا الزمن المبكر من تاريخ دعوتهم في هذه البلاد ، وقد نجحوا في كسب جماعات كبيرة منهم إلى صفوفهم ، وأصبحت هذه الجماعات من أقوى المسلمين عقيدة ورغبة في خدمة الدين الجديد .

وكانت هناك مناطق إفريقية أخرى واسعة فيها مجالات جديدة للجهاد في سبيل العقيدة الدينية والقطور البشرى ، وبقيت جماعات إفريقية كبيرة تعيش في بلاد البربر أو حولها وهي في حاجة لمزيد من الجهود الدينية الموقفة من جديد، لأنها كانت لا تزال ضالة أو تائهة ، وربما كان من اللازم أن يظل أمر هدايتها معلقا حتى يأتي وقته المناسب ، وجاء هذا الوقت بعد أيام الفتح الإسلامية الأولى وكان العمل لخدمة الإسلام من أهم أهداف الدول التي نشأت في هذه البلاد بعد أيام الفتح بزمن طويل ، ونعرف أن الرستميين الخوارج أسسوا لهم دولة بالمغرب الأوسط سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م ، وأن الأدارسة الشيعة أعلنوا دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وأن الأغالبة السنيين منحهم العباسيون السلطة في المغرب الأدنى سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وكل هؤلاء المسلمين وجدوا أمامهم مجالات واسعة للعمل المفيد لصالح العقيدة الدينية في الأرض الإفريقية ذاتها .

وبين جماعات من مواطنيهم - البربر وغير البربر - الذين كانوا مترددين في دخول الإسلام أو الذين كانوا شبه معارضين لدعوته ، ومعنى هذا أن قضية إسلام البربر وإسلام جماعات كبيرة من سكان إفريقيا الغربية والوسطى ظلت معلقة حتى وقت متأخر عن فتح بلاد الأندلس .

وقدم الأدارسة الشيعية أعظم الخدمات الدينية لسكان بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، وشاركهم في ذلك الرستميون الخوارج ، وكانت النظم السياسية والدينية المختلفة في بلاد المغرب تدعو للإسلام الواحد بوجهات نظرها المختلفة ، فكان الشيعة يدعون للإسلام على رأى الشيعة ، وكان الخوارج يدعون له باسم الخوارج ، وكان الأغلبية يدهون له باسم أهل السنة ، ولكنهم جميعاً كانوا يخدمون قضية الإسلام في جميع الأحوال .

واستمرت البلاد الإفريقية في حاجة لقيادات إسلامية جديدة تؤدي دورها لخدمة الرسالة التي جاء الفاتحون العرب من أجلها ، حتى قام المسلمون البربر بقيادات بربرية خالصة أيام المرابطين والموحدين في القرنين الخامس والسادس هـ - والحادي عشر والثاني عشر م بأعظم الجهود لخدمة الإسلام في البلاد الإفريقية ، وجاهد هؤلاء المسلمون طويلاً لنشر الإسلام في غرب ووسط إفريقيا ، حتى لبسوا أن الدعوة للإسلام في هذه البلاد البعيدة ظلت شبه معلقة حتى جاء هؤلاء المسلمون الأتقياء المتحمسون ، فأدوا دورهم بحماس ورغبة ، ووجد المرابطون والموحدون أمامهم فرصاً طيبة لخدمة الإسلام والمسلمين في إفريقيا ، وكان نشر الإسلام في بلاد البربر البعيدة - وبين من كانوا يعيشون حولها - قام به البربر أنفسهم لأول مرة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، ويعرف التاريخ الكثير



عن محاولات المرابطين والموحدين لخدمة الدين وإنشغالهم بنشر الإسلام بين جماعات ترك العرب أمر هدايتهم للزمن والأجيال، وربما كانت بعض المناطق التي مارس فيها البربر المسلمون أعمالهم لصالح الدعوة الإسلامية معروفة للعرب الفاتحين قبلهم، ولكن جهود العرب فيها لم تكن ناجعة أو موفقة، وبعضها كانت مناطق جديدة لم يعرفها العرب أيام حروبهم الأولى لفتح الشمال الإفريقي.



لقد اندفعت حركة الفتح الإسلامي زمن الأمويين إلى غايتها الكبيرة دون أن تعطلها عقبات، أو دون أن تقف عاجزة أمام الصعوبات، وكان قرب أسبانيا من بلاد المغرب عاملاً مشجعاً على استئناف الحرب والجهاد، وإن لم يكن عاملاً أساسياً لانتقال الحركة العسكرية العربية من إفريقية إلى أوروبا، ومعنى هذا أن محاولة نشر الإسلام في مواقع جديدة كانت عملاً أساسياً عند المسلمين، وأن حركة التقدم الحضارية العربية كانت تنتقل من مكان إلى آخر بغير حاجة إلى وجود ترابط قوى يجمع بين السكان في كل الأوقات، ولقد كانت المسلمين غاية صريحة تمثل في الوصول بعتيدتهم وحضارتهم إلى الأماكن المعروفة لهم في الدنيا القديمة، ومحاولة الفتح لتحقيق أهدافهم السياسية والاقتصادية والعسكرية، وبهذا الفهم لم يكن القصد فقط ما يسمى عادة في تاريخ المسلمين بتأمين حدود البلاد التي فتحوها، لأن المسلمين في عهد الأمويين كانوا قد أصبحوا قوة غالبية تستطيع أن تحمي نفسها وممتلكاتها في أي مكان يظهر فيه الخطر، أو تبدو منه مظاهر التهديد، ولم يكن ضرورياً لهم أن يتقدموا لفتح لأسبانيا ليؤمنوا حدود بلاد المغرب، لأنهم كانوا آمنين في إفريقية بعد انتصارهم فيها، وكان يمكن القول بأنهم كونوا لأنفسهم هناك حدوداً آمنة، أو حدوداً طبيعية توضعها مياه البحر في الشمال والغرب.



وبشير تاريخ المسلمين عادة إلى أن فتح بعض البلاد الجديدة كان عملاً ضرورياً للاستقرار في الأماكن المفتوحة قبلاً ، وأن الرغبة في تأمين البلاد المكتسبة كان يستدعي الدخول في أعمال عسكرية أخرى تكون لها نتائجها وتطوراتها البعيدة ، وبعد الاندفاع في الحرب بالمناطق الجديدة وبعد النصر فيها يحتاج الفاتحون إلى تأمين حدودها من جديد فيلجئون للفتح مرة أخرى ، ويدخلون في سلسلة طويلة من المحاولات العسكرية التي كان تخضعهم لمفاجأتها ، وتضعهم في ظروفها المتغيرة .

وهكذا سارت حركات الفتح الإسلامية الأولى ، ولم يوقف تقدم العرب فيها إلا ما كان من وصولهم إلى آخر المدى في أعمالهم ، أو إلا ما كان من انتصارهم على أعدائهم في النهاية ، أو إلا ما كان من اختلافاتهم المعروفة وتورطهم في حروب أهلية كانت تشغلهم وتضعف جهودهم وتلون سياستهم ، وإلا ما كان من نجاح أعدائهم في مقاومتهم وتعطيل تقدمهم .

ولقد حدثت نفس الظاهرة في مرحلة الفتح العربية أيام الأمويين ، فلم يتوقف المسلمون عن التقدم لأماكن أبعد من الأماكن التي وصلوا إليها إلا بعد أن انهزموا في موقعة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م فقد عطلتهم الهزيمة غير المتوقعة في هذه المعركة عن الوصول إلى بعض أهدافهم ، وربما كان منها الوصول إلى مسافات أبعد في داخل أوروبا نفسها .

وقد يمكن أن نهتدى إلى نوع من التعليلات المقبولة لحركة الفتوحات العربية الأولى زمن الخلفاء الراشدين غير مجرد الرغبة العارمة في نشر العقيدة الإسلامية بين جميع الناس ، وإشاعة الحضارة العربية في كل مكان تؤدي إليه

جهود العرب أيام قوتهم ، فقد كانت حركات الفتح الإسلامية في هذا العهد تنتقل من مكان إلى مكان آخر بالضرورة ، أو بفعل الظروف ولللازمات الطارئة أو الملحة ، وكانت قوات المسلمين قليلة لا تقاس في العدد والقوة المادية بقوة أعدائهم الفرس والروم أو غيرهم ، ولذلك كان الخلفاء حريصين على سلامتها ، ومشفقين على وجودها ، وكانوا يتمنون أن يكون بينهم وبين أعدائهم حواجز قوية توقف الخطر بين الجماعات المتعادية ، وتساعد على ألا يخلص أعداء العرب إليهم ، أو تساهم في أن تقف كل جماعة في مكانها ليفرغ المسلمون لأهدافهم الأساسية وهي نشر الدين وإشاعة حركة التطور العامة ، ولم تكن هذه الرغبة عن ضعف أو استكانة وإنما كانت من أجل الأمل في السلام والاستقرار ، ولكن أعداء المسلمين في هذا العهد الحاسم من تاريخهم لم يتركوهم يعيشون في المناطق التي فتحوها في أمن وراحة ، ولذلك اندفعت حركات الفتح الإسلامية حتى غايتها ، وفي نهاية هذه المرحلة الأولى توقفت الفتوحات أخيراً ليقوم التنظيم الشامل في دولة المأميين ، ليفرغ الشعب الإسلامي كله للعمل الحضاري المطلوب منه ، وظهرت حدود الدولة الإسلامية عند المناطق المصرية في الغرب وعند حدود بلاد فارس الشرقية.

وفي موجة الفتوحات الإسلامية الثانية زمن الأمويين كان هؤلاء الحكماء بدورهم حريصين على كسب القضية في النهاية لصالح الإسلام والمسلمين في كل مكان ولو كان ذلك بنوع من العنف والقسوة أو على حساب بعض تعاليم الدين الصريحة ، وبدأ في عهدهم أن الغرض السيامي من عمليات الفتح الإسلامية كان أشد وضوحاً من كل الأغراض الأخرى المعروفة عند المسلمين ، ونعني بذلك أن الحكماء المسلمين في هذه الفترة العظيمة من تاريخهم كانوا مشغولين في الدرجة الأولى بتثبيت مكانتهم في نفوس الناس كسادة يجلسون على قمة المجتمع الإسلامي كله ، ولا شك

أن بعضهم كان من الأنقياء الأبرار الذين تهتمهم أمور الدين قبل أمور الدولة والسيادة عليها ، ولكن أكثرهم كان يهدف أساساً إلى خدمة قضية الأمرة بالوسائل المؤدية إلى الإعلان عنها أمام أعدائها .

لقد كان الأمويون يحكون دولة واسعة الأرجاء تحتاج للمال من أجل بقائها وسلامتها ، فاهتموا بجمع الثروة وتورطوا في ارتكاب أخطاء مالية لا تتفق مع قواعد الإسلام في العدالة والمساواة بين الناس ، وكانوا يعيشون بين رعاياهم وفي أيديهم وسائل التأديب اللازمة ، وأرادوا أن يعيشوا مع غير المسلمين في بلادهم البعيدة بنفس المستوى من اليقظة المؤيدة بوسائل القوة وأدوات العمل الحاسم ، وكانت لهم قوات غالبية ، وجيش لا يخافون عليه الهزيمة ، وإمبراطورية تستطيع الحرب في كل مكان وتقدر على الانتصار فيها ، فدفعوا بجيوشهم الكبيرة إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الغرب ، وجربوا الحرب في الشمال وفي البحر ، وفي كل مكان كان يبدو لهم فيه الأمل في النصر ، وتغيرت في عهدهم بعض أهداف الحروب الإسلامية ، وظهر أن من أغراضها الأولى الأمل الكبير في الربح والكسب المادي قبل الرغبة في خدمة الدين لذاته ، أو نقول في وضوح إن الحرب في عهدهم كانت لخدمة شئون الاقتصاد والسياسة قبل أن تكون لخدمة الدين كعقيدة تهم كل المؤمنين بها ، ولذلك أسرع جيوشهم إلى كل مكان ، وكانت تسرع قبل أن تثبت وجودها الأخير في الأماكن المكتسبة ، فكان موسى بن نصير في الغرب قائداً عربياً نشيطاً يريد أن يثبت للخلفاء أصحاب الرأي والسيادة بالدولة الأموية أنه يستطيع أن يكسب لدولتهم مناطق جديدة كانت السيطرة عليها حلاًماً بعيداً براودهم أو حلاًماً مثيراً يعرض لهم ، وأنه يستطيع أن يمدحهم بأعداد كبيرة من الأسرى الأجانب ، وأن يأتي لهم بالثروات والغنائم الهائلة ،



وهذا يعني أن هذا القائد الشجاع لم يكن ليقف طويلاً لدراسة العلاقات القائمة بين بلاد المغرب وأسبانيا قبل أن ينقل الحرب إلى هذا البلد الأخير - إلا إذا كانت هذه الدراسة تخدم أغراضه العسكرية ورغبته في التفوق والنصر السريع - ولا شك أن جيوش القوط لم تكن تزعج هذا القائد المنتصرة، بلاد المغرب وكانت تترامى له جيوشاً ضعيفة يمكن الانتصار عليها بأقل التضحيات، وقد اختبرها، وتأكد من ضعف استعدادها، وعدم كفاءتها، ووجد فيها الفرصة المناسبة للنصر الحاسم قبل أن يتورط في حروب بلا نهاية فيما بين أمامه من البلاد الأفريقية المنتشرة في الصحراء الواسعة.

ولا نشك في أن انتصار العرب بالمغرب لم يكن عملاً مقبولاً لحكام أسبانيا القوط، ولم يكن هذا الانتصار يرضيهم في أي من صورته، ولكن العرب استمروا يحاربون في شمال إفريقيا زمناً طويلاً قد يكون سبعين أو خمسين عاماً، ومع ذلك لم يذكر التاريخ أن هؤلاء القوط تقدموا لنجدة جيش بيزنطة المنهار أمام جيش العرب بالمغرب، أو لنجدة البربر الذين قاوموا للعرب وشفطوهم بالحرب فترة طويلة من حياتهم، ولم يطلب هؤلاء أو غيرهم من القوط نجدة ضد العرب المهاجمين رغم قرب بلادهم وارتباطها بإفريقية ببعض الروابط المعروفة، وهذا يعني أن القوط وقفوا بعيداً عن المتحاربين في شمال إفريقيا، وكانت حاجزاً كبيراً كان يصرفهم عن الاهتمام بشئون الشمال الإفريقي كله.

والمعروف أن المسلمين بدأوا الهجوم على أسبانيا بعد أن تأكدوا سلامة العمل بها، وبعد أن أملاهم في النجاح العسكري ضد جيش القوط الحاكمين فيها، ولقد فاجأ طارق بن زياد الأرض الأسبانية بجيشه، وكان ملك القوط في

ذلك الوقت مشغولا مع قواته في حروب أهلية أو في محاولة لإخماد ثورة أشمل  
فيرانها ضده أعداؤه الخارجون عليه في شمالي بلاده .

وسار بعد ذلك تاريخ الفتح العربي لأسبانيا كما يعرف من قصة الفتح  
الشهيرة، ونزل المسلمون في الأرض الأسبانية، وواجه القوط أعداءهم وحدهم ،  
وخانتهم جماعات كبيرة من جيشهم كانت تتعاطف مع المسلمين وتؤيد قضيتهم .  
وكان أبناء الملك الذي سلب الثوار عرشه قد لجأوا للعرب في إفريقية ،  
وربما دل هذا اللجوء على نوع من الإحساس بالتفاعل القوي بين أسبانيا  
والمغرب ، وكان المستنصرون بالعرب في إفريقية على يقين من أن المستقبل  
في المنطقة كلها كان للمسلمين وحدهم فأرادوا أن يكسبوا على حسابهم أو  
بتأييدهم والعمل معهم ما يمكن كسبه في أيام الفتن ، أو ربما كان هذا هو  
الطريق الوحيد الذي يستطيعون به أن ينتقموا من أعدائهم وغاصبي ملكهم ،  
وتقصد بذلك أن تقول إن اللجوء للمسلمين في إفريقية لم يكن فقط لجرد  
الإحساس بوحدة المنطقة وتفاعلها وإنما كان فوق ذلك السبيل السريع الممكن  
الذي يستطيع به هؤلاء الأمراء المظلومون أن يأخذوا بعض حقوقهم  
من ظالمهم .

ومهما يكن من شيء فيبدو أن الوقوف طويلا لإظهار العلاقات القوية  
وغير القوية التي كانت تربط بين بلاد المغرب وأسبانيا أيام الفتح الإسلامي  
بعد الآن عملا ثانويا إذا قلنا إن حركة الفتح العربي كانت حركة حضارية تسعى  
لتطوير العالم حولها ، وكانت ترى أن تعمل باسم الإسلام والمسلمين في كل  
مكان، وإذا قلنا إن اندفاع المسلمين للعرب في أسبانيا لم يكن لجرد قيام الترابط المعروف  
بين المنطقتين المذكورتين ولا شك أن نوعا من الترابط الجغرافي والتاريخي

والحضاري كان موجوداً بين بلاد المغرب والأندلس ، ولكن ذلك لم يكن يعني استحالة قيام نظامين مختلفين بالجنوب والشمال ، ولا يعني أن التأثير بين المنطقتين كان مباشراً إلى درجة التلاحم القوي بينهما ، ولقد كان يمكن أن يقوم نظامان مختلفان في السكان المنعصلين بالبحر كما كانا قائمين قبل دخول العرب ، وكما كانا قائمين في عهد المسلمين أنفسهم بعد استقلال بلاد الأندلس وانفصالها بشؤونها عن بلاد المغرب ، ولقد سقطت دولة المسلمين بالأندلس منذ زمن بعيد وصوف يستمر حكم المسلمين بالمغرب إلى آخر الأجيال .

وليس صحيحاً أن يقال إن المسلمين كانوا يطاردون في أسبانيا جيشاً جربوا الحرب معه في مسكان آخر ، أو أساء إليهم في مناطق أخرى ، ومن المعروف أن هذا الكلام يتردد دائماً في تاريخ المسلمين عند الحديث عن فتح الشام بعد أن حارب المسلمون جيش الروم وانهزموا أمامه — في حياة الرسول عليه السلام في غزوة مؤتة سنة ٥٨ / ٦٢٩ م — ويتردد عند الحديث عن فتح مصر بعد فتح الشام لأن البيزنطيين الروم كانوا يزعمون الوجود الغربي في الشام من أرض مصر وغيرها ، وكانوا يغيرون على السواحل الشامية بالأساطيل الآتية من مصر أو من القسطنطينية ، ويتردد عند الحديث عن فتح بلاد المغرب بعد فتح مصر ، وكان البيزنطيون يحكمون شمالي إفريقية ويحاربون العرب هناك ، وكانوا كذلك يشاركون في حرب العرب ويمدون أعداءهم البربر بوسائل القتال المطلوبة عن طريق البحر أو غيره ، وكانوا أيضاً يلحون بالدعايات الكاذبة ضد العرب في كل مكان ، وظهرت الصورة بوضوح وكأن جيش العرب كان يطارد جيش الروم منذ اشتبك معه في معارك الشام الأولى ، ثم انتهى الصراع بين القوتين بهزيمة جيش الروم في غير بلاده أو في البلاد



التي كان يحتلها خارج حدود المناطق البيزنطية ، وبقيت للروم بعد ذلك المناطق الأوربية وحدها .

وفي أسبانيا قابل المسلمون جيشا جديدا لم يجربوا الحرب معه قبل معركة وادي لسكة الشهيرة في ٢٨ رمضان سنة ٨٩٢ / ١٩ يوليو سنة ٧١١ م وكان يقودهم فيها طارق بن زياد ومعه جيشه البربري المكون من جماعات قليلة من القذائيين الشجعان ، ولم يكن جيش القوط يرتبط بشيء مع جيش الامبراطورية البيزنطية المنهزم في شمالي إفريقيا وغيرها لأن العلاقات بين الدولتين المذكورتين كانت غير صريحة أو غير واضحة ، ولم تكن تسمح بأن يتحالف الجيشان ضد المسلمين أو غير المسلمين أو أن يجتمعا مع العرب في أرض أسبانيا ، أو في أي مكان آخر .

وكان القوط حكام أسبانيا جماعات جرمانية أغارت على أملاك الدولة الرومانية الغربية ، وساهمت مع غيرها في تحطيمها وسقوطها سنة ٤٧٦ م ، وكان البيزنطيون يمثلون وجهها آخر للدولة الرومانية الساقطة ، وحاولوا في حلاس أن تكون دولتهم بشرق أوروبا هي الدولة الورثة للدولة الرومانية الشهيرة ونجحت محاولاتهم لإقامة دولتهم في شرق أوروبا ، كما نجح القوط في تأسيس دولتهم بأسبانيا سنة ٤١٢ م .

ولهذا يبدو أن حركة الدفع الحضاري العربي كانت تسير في طريقها لتحقيق غايتها من إشاعة نفوذها النهائي على أكبر مساحات ممكنة من الأرض المعروفة للفتاحين ، سواء أ كانت القوات التي اشتبك معها العرب من أسباب

متاعبهم وإزعاجهم أم كان مأمولا أن تأتي منها المتاعب والإزعاج في المستقبل،  
وسواء أكانت هذه القوات ترتبط بخصومهم التقليديين برباط قوى أو ضعيف<sup>(١)</sup>  
فإن الحرب معها كانت آتية لا شك فيها ، أو لا أمل في تفاديها .

\* \* \*

ليس هناك إذا حاجة للقول بوجود أسباب خاصة دفعت المسلمين لعبور  
البحر الأبيض المتوسط للحرب في أوروبا ، لأن أسباب فتح أسبانيا كانت في جملتها  
نفس الأسباب الكبرى التي دفعت العرب أولا للخروج من بلادهم بعد ظهور  
الإسلام فيهم ، وليس هناك معنى للقول بأن أسبانيا وشمال إفريقيا كانتا  
منطقتين تتأثران دائما بالأحداث السائدة فيهما ، وأن كلا منهما كانت  
تؤثر في الأخرى وتتأثر بها إذا أريد أن ذلك كان السبب الأول أو المباشر في  
انتقال العرب من المغرب إلى أسبانيا ، وليس هناك بالمثل معنى للقول بأن  
المنطقة الأسبانية كانت جزءا متما للمنطقة الإفريقية ، وبأن أسبانيا كانت  
أقرب لإفريقية منها لأوروبا أو أن حدود أوروبا الطبيعية كانت تظهر في الجبال  
الحاجزة بين أسبانيا وبين بقية البلاد الأوربية، ولا شك مع ذلك في أن المنطقتين  
كانتا متقاربتين - وهما متقاربتان الآن وسوف تظلان كذلك - وكانت  
الأحوال السائدة بهما تؤثر فيهما معا، أو كانتا تنفعلان بأحداثهما كلها، ولكن  
كل هذه الروابط القوية لم تكن ضرورية دائما لمتقدم المسلمون لفتح أسبانيا

---

(١) لا يعني ذلك أن المسلمين اعتبروا كل العالم عدوا لهم ، وإنما يعني أنهم  
كانوا يرون أن الدنيا كلها كانت في حاجة لدينهم ورسالتهم وحضارتهم ، فتقدمهم  
في النشاط العسكري لم يكن للانتقام وحب الحروب لذاتها ، وإنما كان لعرض الأحسن  
على غيرهم من الناس .

بعد فتح المغرب ، لأن هؤلاء من جانبهم كانوا يدفعون بالحماس والرغبة للعمل العسكري حتى نهايته ، وكانوا جماعات متطورة تبني حضارتها على الدين الذي أثارها وكانت ترى وجوب إشاعته في كل مكان يمكن أن يساعدها جهدها على الوصول إليه .

ولم يقف المسلمون بعد فتح أسبانيا عند حدود أسبانيا وحدها بل تقدموا بعد الجبال الشمالية التي تكون الحواجز الطبيعية بينها وبين غيرها من البلاد الأوربية ، وحاربوا هناك في فرنسا بعيداً عن حدود أسبانيا الطبيعية والسياسية ، ولو كانت كلمة « لو » ترد في أساليب البحث التاريخي قلنا : لو جاءت الفرصة المطلوبة لموسى بن نصير قائد المسلمين في فتح أسبانيا ، ولو لم يرجع سريعاً إلى الشام قبل إتمام الفتح والاستقرار في البلاد الجديدة لحاول جاداً فتح أوروبا كلها ، لأنه لم يكن يفهم - كما نظن - أنه جاء ليفتح جزءاً من الأرض كان مكلاً لوحدة جغرافية أولها في إفريقية وآخرها في أسبانيا .

ولقد ذكرنا أن العرب كانوا يطاردون بالمغرب جيشاً يزن نطياً أجنبياً حاربوه في معارك طويلة ، وطال زمن الخصومة بينهم وبينه لأن صراعهم معه ابتداء منذ أيام الرسول عليه السلام في السنة الثامنة من الهجرة / ٦٢٩ م ، واستمر حتى أيام نصرهم عليه في شمالي إفريقية ، ولكنهم بعد أن فرغوا من الحرب في المغرب - أو بعد أن بدا لهم أن المستقبل في المغرب كان لصالحهم - لم يكن هناك ما يهدد وجودهم من خطر جيش قوطي أو يزنطي ، فكان يمكن أن تنتهي عمليات الفتح الإسلامية عند سواحل إفريقية الشمالية الغربية ، ولم يكن تأمين الحدود وارداً أبداً في هذه المنطقة الإسلامية الجديدة ، إذ لم يتعرض العرب للخطر وهم بشمالي إفريقية بسبب تهديدات القوط أو بتعريضهم ، وإذا كان خطرهم



محتملا فإن المسلمين كانوا يملكون القوة اللازمة للدفاع عن أنفسهم ، وكان أمامهم الزمن الكافي للرد على هذا الخطر قبل وقوعه .

لقد كان الشعب البربري يخضع لدولة بعيدة في الشرق البعيد ، وكان خضوعه لهذه الدولة خضوعاً شكائياً لم يؤثر تأثيراً مباشراً على حياته ، حتى ترك أخيراً لمصيره ، وترك ليعمل وحده أمام العرب بعد انهزام البيزنطيين في بلاده ، ولم يكن البربر مخضعون للقوط حتى يمكن القول بأن هؤلاء كانوا سيحاولون الهجوم على العرب في إفريقية ليستردوا بعض ما فقدوه فيها .

ويقال في التاريخ إن المسلمين حاولوا الضغط على يوليان الرومي حاكم سبتة الإفريقية ليستولوا على مقاطعته بالقوة ، ولكن طارق بن زياد حاكم طنجة القريبة من سبتة لم ينجح في التغلب عليه وفضل أن يداريه ، وكان يوليان يقاوم وحده ضغط المسلمين عليه ، ولم يستنجد بالجيش البيزنطي الذي كان قد انهزم أمام العرب منذ وقت طويل حتى ضاع أثره وخطره ، ولم يستنجد بالجيش القوطي مع أنه كان قريباً منهم أو كان حليفاً لهم ، وقد كان يرتبط بهم بعلاقات طيبة قبل أن يقتل حليفه الملك غيطشة سنة ٧٠٨ م ، وقبل أن تسوء علاقته بالحاكم الجديد ، ولقد كانت تهديدات العرب له قبل هذا التاريخ ، ثم بعد ذلك ارتبط مع العرب بنوع من التفاهم - بعد أن تغيرت رئاسة القوط في بلادهم - وفضل أن يحرضهم على الحرب في أسبانيا وسام من أجابهم في العمل لصالح قضيتهم ، وقدم لهم سفنه لينقلوا عليها جيوشهم إلى أسبانيا القريبة من بلاده ، وقام بأعمال الجاسوسية لحسابهم ، واستدعى لهم أبناء الملك القليل ليتحالفوا معهم على الحرب ضد الحكام في بلادهم ، ولم يحاول أبداً أن يوقف تقدم العرب في إفريقية بالتفاهم مع حكام أسبانيا ، وكان العرب يعملون في إفريقية منذ سنوات طويلة قبل حركة الانقلاب القوطية

التي غيرت رأيه في الحكم الجدد، وكان إفريقية كانت تتحالف في هذه الحرب ضد أسبانيا وحكامها، أو أن بوليان البيزنطي كان يشعر بنوع من المصالح المشتركة بينه وبين المسلمين فرأى أن يعمل ضد حكام أسبانيا في الشمال.

\*\*\*

ولكن هل كان إسراع المسلمين لفتح جزء من أوروبا يعني أنها كانت تشغل تفكيرهم دائماً؟ وأنهم بعد أن عجزوا عن فتحها من الشرق عن طريق القسطنطينية أسرعوا إليها من الغرب وتركوا وراءهم أعمالاً أخرى مهمة في إفريقية التي عرفوها وعاشوا فيها قبل ذلك أعواماً طويلة، وكان يمكن أن تكون من أولى أعمالهم قبل فتح أسبانيا؟ أو هل كان فتح جزء من أوروبا مجرد نتيجة للحاس سريع عرض للفاتحين العرب عند ما قربوا من حدودها الغربية، ولا شك أنهم كانوا يعرفون أن فتح أسبانيا سيكون عملاً عظيماً يضاف إلى قائمة أعمالهم الجليلة عبر التاريخ؟

لقد تحمس المسلمون للعرب في أسبانيا، فاندفعوا لفتحها بجرأة وشجاعة بعد أن عرض عليهم أمر هذا الفتح، أو ربما فكروا في الحرب فيها قبل أن يعرض عليهم بعض أهلها أن يساهموا معهم في فتحها، وبعد أن اختبروها بالفارات السريعة هاجموا وانتصروا فيها، وبعد النصر رغب قائدهم موسى بن نصير في فتح أوروبا كلها حتى قبل أن يستقر في المكان الذي كسبه بالجهد والتضحية، ولو لا اضطراب السياسة في مركز الخلافة البعيد بالشام، ولو لا استدعاؤه لعاصمة الدولة الإسلامية قبل أن يتم عمليات الفتح في أسبانيا ذاتها لاستطاع أن يكتب للمنطقة تاريخاً آخر غير هذا التاريخ الذي نحاول التعريف به.

ثم نجح من جاءوا بعد موسى بن نصير في إتمام عمليات الفتح شبه الشاملة لكل البلاد الأسبانية كما عرفوها ، أو كما أوصلتهم إلى ذلك اجتهداتهم وحاسهم ، وبعد هذا النجاح استقروا في أسبانيا سنوات قليلة لم تبلغ عشرين عاما نظموا فيها شئونهم الداخلية ، ثم استأنفوا بعدها العمل العسكري من جديد ، وكان العمل العسكري من أهم الأعمال المرغوب فيها عند أكثر الحكام المسلمين في هذه الفترة ، ولم يكن الحكام وحدهم يتحمسون لإظهار بطولتهم وإخلاصهم لقضية دولتهم ، وإنما كان شعبهم معهم في نفس الدرجة من الحماس والرغبة في التضحية ، وقد بدا هذا الشعب أحيانا وكأنه كان لا يرجو من حاكمه إلا أن يكون قائدا عسكريا يدفع عن بلاد الاسلام كل الأخطار المتوقعة أو يساهم في زيادة رقعة هذه البلاد إذا أمكنته القوة .

ويقول التاريخ إن المسلمين بعد أن نجحوا في فتح الأندلس لم يتقدموا فقط للغارة على أوروبا من الغرب في أيام السبع بن مالك سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، وعنبسة ابن سحيم سنة ١١٢ هـ / ٧٣١ م ، وعبد الرحمن النافقي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، وإنما جاءت منهم قبل ذلك محاولة قوية لفتحها من الشرق أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك في الفترة من ٢ محرم سنة ٩٩ هـ / ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م إلى ١٢ محرم سنة ١٠٠ هـ / ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ، وقاد جيش الخليفة أخوه مسلمة بن عبد الملك ليفتح أوروبا من الشرق ، وإن كان قد فشل في هذه المحاولة رغم اهتمامه وحماسته وإصراره على النجاح فيها ، كما فشلت محاولة الأندلسيين في الغارة على جنوبي فرنسا بقيادة عبد الرحمن النافقي بعد ذلك ، وصحيح أن محاولة عبد الرحمن النافقي كانت غارة تقليدية خرج إليها المسلمون بقوات ضخمة لم تكن معهودة في نشاطهم العسكري بهذه البلاد ، وجاءت ضخامة قوات المسلمين في جيشه من كثرة أعدادهم أو من



كثرة الراغبين منهم في الكسب المادى وحده ، ولم تأت نتيجة لتنظيم مقصود من جانب الدولة أو من جانب القائمين بشئونها في بلاد الأندلس ، ومعنى هذا أن القائد المسلم الشجاع كان يقصد الفارة وحدها ، ولم يكن يقصد الفتح وضم مساحات جديدة لبلاد المسلمين في أوروبا ، ويبدو من تاريخ عبد الرحمن الفافقى أنه كان قائدا مؤمنا يرغب في أن يعيش حياة المجاهدين الشجعان ، وكان الجهاد يعنى إضعاف قوات الأعداء ، والتفتية على وجود قوات إسلامية متفوقة بالمنطقة الإسلامية أو الإعلان عن اليقظة العسكرية ، ولقد زادت أعداد الجيش بالحماس بعد النجاح في العمل في ميادين القتال الأخرى ، ونظن أن جيش عبد الرحمن الفافقى يمكن أن يقال عن أفرادهم إنهم كانوا يسرون في مظاهرة عسكرية غير جادة وكان يشغلهم المال أولا وهم في طريقهم للعرب ، وبعد أن كسبوا من البلاد التي مروا بها جاها وثروة ألهمتهم هذه الأعراض عن أعمال البطولة المعهودة عن المسلمين في حروبهم كلها ، فانهزموا أمام أعداء لم يكونوا أشد منهم قوة ولا أصدق منهم عقيدة ، ولكننا نفهم مع ذلك أن النصر لو كان حليف المسلمين في هذه الفارة الفاشلة لتغير مجرى التاريخ كله.



لم تكن الأسباب الرئيسية إذا لفتح المسلمين لأسبانيا وجودها قريبا من بلاد المغرب التي انتصر المسلمون فيها ، أو ظهورها مع بلاد المغرب كمنطقة واحدة ذات كيان متميز ، أو تفاعل المنطقتين معا وتأثرهما بالأحداث السائدة فيهما ولا شك أن هذه كلها كانت من العوامل التي ساعدت على النصر والنجاح أو كانت من العوامل المشجعة على الإقدام والتضحية ، ولقد عرف العرب وهم ببلاد المغرب أحوال أسبانيا وظروفها ، ووجدوا من بعض أهلها أنصارا أقوياء يعملون معهم .

ولم يكن السبب لحرب المسلمين في أسبانيا ضعفها وانهارها - وقد كانت ولا شك ضعيفة ومنهارة ، وقد ساعد ضعفها وانهارها على النصر فيها - ولكن المسلمين لم يتسلطوا طول تاريخهم على الضعفاء أو غيرهم ، ولم يقصروا حروبهم على الشعوب العاجزة وحدها ، وقد حاربوا الفرس وانتصروا عليهم ، وكانوا أشد منهم قوة وأعظم تاريخا وحضارة ، وحاربوا البيزنطيين الأقوياء في مقاطعاتهم الشرقية وانتصروا عليهم فيها ، وحاربوهم في عاصمتهم القسطنطينية نفسها وحاولوا إسقاطها رغم حصانيتها وحصونها ، وبقصد بذلك أن نقول في وضوح إن الأسباب الأخرى المعروفة لحركات الفتح الإسلامية كانت ذات الأهمية الأساسية في فتح العرب لأسبانيا ، وإن الأسباب الرئيسية المتفق عليها بين المسلمين لأعمالهم العسكرية أيام فتوحاتهم الكبرى ترجع أساسا إلى فلسفة الفتوحات الإسلامية منذ ظهرت هذه الفتوحات في التاريخ العربي .

ومع ذلك يبدو الحديث مفيدا لو أشرنا - بدون إغراق في التفاصيل - إلى الروابط التي كانت قائمة بين بلاد المغرب والأندلس قبل ظهور المسلمين وبعد انتصارهم هناك ، لنوضح بذلك بعض جوانب التاريخ المغربي والأندلسي قبل الفتح العربي وبعده :

ويشير التاريخ المعروف لهذه البلاد إلى أن ترابطا قويا كان واضحا ومعروفا بين المنطقتين اللتين يدور الحديث حولها ، وإلى أن صلات حضارية كانت قائمة بين شمالي إفريقية وجنوبي أوروبا طول التاريخ ، وكان التأثير واضحا وقويا في الجانبين معا : فقد أسس الفينيقيون في القرن العاشر ق م مستعمرات على سواحل أسبانيا وكان لهم وجود ظاهر في شمالي إفريقية أيضا ، وذاع كذلك نفوذ اليونان بالمنطقتين في القرن الخامس ق م وكانت لهم هناك مراكز استعمارية تحمل معالم حضارتهم



الراقية المعروفة، وخفضت شبه الجزيرة الأسبانية لقرطاجنيين فترة من الزمن بعد القرن الخامس ق م وازدهرت مدنيتهما وحضارتهم في شمال إفريقيا وأشبانيا معاً ، وظلت المنطقتان المشار إليهما متلتقيان منذ القرن الرابع حتى القرن الأول ق م تأثيرات هامة قادمة من أوروبا الخاضعة لحضارة اليونان المتطورة وقادمة من إفريقيا الشمالية المتأثرة بحضارة قرطاجنة ثم تحول هذا التأثير المزدوج إلى تأثير روماني عقب الغزو الروماني للبلاد سنة ٢٠٥ ق م ، وبهذا الغزو أصبحت أسبانيا إقليماً رومانياً سادت فيه الحضارة الرومانية، وأعطته صبغة خاصة، وكان الشمال الإفريقي مثلاً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية أو ولاية تابعة لهذه الإمبراطورية الشهيرة، واستمرت المنطقتان كذلك حتى أوائل القرن الخامس الميلادي ثم تعرضتا كاتعرضت أجزاء أخرى من ولايات هذه الإمبراطورية لإغارة القبائل القادمة من الشمال عليها، وكانت القبائل الجرمانية غير المتحضرة أهم القوى المؤثرة في الأحداث بهذه المناطق كلها .

ثم ضعفت الدولة الرومانية الغربية واجتاحها قبائل الجرمان في موجات متتالية حتى استقر القوط الغربيون بشبه الجزيرة الأسبانية في أوائل القرن الخامس الميلادي ، وظهرت للقوط هناك رئاسة بعد سنة ٣٩٥ م ، وظلت البلاد تعاني بعدهذا التاريخ من تدفق الغزاة الأوربيين عليها ، وكان منهم الألان والسويف والوندال وغيرهم ، وتقسمت البلاد بين القوى الغالبة فيها ، واشتد الصراع هناك بين القوط والوندال لأنهم كانوا أعظم العناصر وأقواها ، وتغلب القوط في جولات الحروب الأخيرة وانتصروا على منافسيهم وأعلنوا وجودهم الصريح بالبلاد الأسبانية كلها سنة ٤١٢ م ، فاضطر الوندال لعبور البحر الأبيض المتوسط إلى الشمال الإفريقي سنة ٤٢٩ م ، وعاشوا هناك زمناً طويلاً بعده الروم البيزنطيون سنة ٥٣٤ م .

وأصبح من المعالم الشهيرة لتاريخ المنطقة التي نحاول التعريف ببعض أحداثها أن



قبائل الوندال الجرمانية المتجولة غزتها من أسبانيا وعاشت فيها ثم تركتها للدولة البيزنطية التي ظل الشمال الإفريقي كله تابعا لها حتى انتصر جيش المسلمين هناك في حوادث الفتح الإسلامية المعروفة ، وهذا يشير إلى أن شمال إفريقيا كان يتعرض لضغوط القوة الآتية من وراء البحر كما كانت أسبانيا بدورها تتعرض لنفس الضغوط في فترات طويلة من تاريخها .

وإذا كان القوط قد حكموا أسبانيا ، وأقاموا بها دولة ظلت قائمة بها حتى سقطت أمام المسلمين سنة ٨٩٦م / ٧١٤م ، وإذا استمر الشمال الإفريقي بعيداً عن الخضوع للتأثير السياسي القوطي ، وإذا ظل تابعا للدولة البيزنطية البعيدة لفترات طويلة من تاريخه فإن ذلك كله لا يعني عدم تأثيره بالمنطقة الأسبانية القريبة منه أو عدم تأثيره فيها ، والمعروف أن حاكم سبته البيزنطي — رغم تبعيته لبيزنطة — كانت له علاقات قوية بحكام أسبانيا ، وكان علاقته بهم من القوة حتى كان مصيره كان مرتبطا بمصيرهم للنهابة وكان له دور كبير في سياستهم أو كان يمثل عضوا سياسياً نشيطاً في بعض أحزابهم ، وعندما سقط الحزب الذي كان يؤيده ، وعندما قتل الملك الذي كان يؤيد هذا الحزب أو الملك الذي كان مؤيداً من هذا الحزب حاول حاكم سبته البيزنطي أن يؤدي دور السياسي الأسف لتطور الأحداث وتفاقمها وأراد أن يرد على عنف المعتدين على الملك بعنف مثله ، وصحيح أنه فشل في عمل شيء يعطل نجاح المنتصرين في أسبانيا ولكنه رجع إلى بلاده الأفريقية ليجت من جديد عن وسائل أخرى للانتقام الحاسم من خصومه ، ولا شك أنه كان يشير بتصرفاته السريعة وباهتمامه البالغ بأحداث أسبانيا إلى ارتباطه بهذه الأحداث ، وإلى أنه كان مشدوداً إليها بقوة حتى ظنه بعض المؤرخين حاكماً قوطياً أو حاكماً بربرياً يعمل باسم القوط الجرمان في إفريقيا الشمالية ، وتثار حول هذا الحاكم

الرومي بعض التساؤلات عن أثره في تاريخ المنطقتين الإفريقية والأسبانية كليهما ويقال إنه كان يلعب دوراً ذا أهمية في الحياة السياسية بالشمال الإفريقي ، وكان دوره هذا متأثراً بسياسة القوط في أسبانيا القريبة منه لأنه كان يرتبط بهم بنوع من الصلات السياسية والاجتماعية ، ولما اختلف القوط وثار بعضهم الخوصومات والفتن ولما قتل الملك غيطشة واغتصب الملك لذريق عرشه غضب يوليان وتحركت في نفسه عوامل الانتقام ، ولعب دوراً معروفاً في إغراء العرب على فتح أسبانيا وربما كان يظن مخطئاً أن دور المسلمين المنتصرين في شمال إفريقيا سيقصر على تأديب الخارجين على السلطة القانونية في البلاد ، والحصول على المال بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى الشمال الإفريقي من جديد ، وكان يشيع مثل هذا الفهم غير الصحيح بين صفوف الجيش القوطي كله ، وساعده أن الملك القليل كان له في هذا الجيش مؤيدون أقوياء يميلون للانتقام من ظالميه ، ومعنى هذا أن يوليان الرومي كان يرى أن إفريقيا القوية يمكن أن تقوم بدور كبير في إستقرار الأوضاع المضطربة في أسبانيا التي كان يرتبط بها .

وظل لهذا الحاكم البيزنطي دوره الواضح في تكييف الأحداث بالمنطقة كلها ، ولم يكن يفهم — كما نظن — أنه كان مسئولاً فقط عن منطقة إفريقية صغيرة ويجب أن يمحصر جهوده فيها بل كان يتأثر بالأحداث حوله ويشارك فيها ولقد غضب لتطورها في غير صالحه وغير صالح لحلفائه فحاول العمل من أجلهم ، وأراد التأثير بالقوة في مسيرة الأحداث المتتابعة ، ولما فشل في جهده المدفوع بالغضب المسرف أثار حماس العرب ورغبتهم ليعملوا ضد حكام أسبانيا البعداء ، ويقال إن العرب اختبروا نيته في صراحة ، وأرادوا الكشف عن حقيقة ولائه لقضيتهم فطلبوا منه أن يهاجم أسبانيا بجيشه الصغير ليفتح الطريق أمام طلائع جيوشهم المتحفزة .

وتقدم العرب لفتح أسبانيا بعد محاولات أشرنا إليها في مكانها المناسب من هذه الدراسة وكان تقدمهم يعنى أن الشمال الإفريقى بعد أن كان خاضعا للتأثيرات القوية القادمة من أوروبا وبعد أن كان معرضا دائما لتحكم الأوربيين وغاراتهم - وكان ذلك طول خمسة قرون سبقت وجود المسلمين في إفريقيا - انتقل لأول مرة بعد هذا الوقت الطويل من التبعية والخضوع لأوروبا وحاول أن يكسب اليد العليا في أسبانيا الأوربية فانتقلت قوات مغربية بربرية وعربية مشتركة لتأخذ دورها في السيطرة على مناطق أوربية خالصة أو جاء الدور على إفريقية المستضعفة لتأخذ مكانها في السيادة على جزء من أوروبا الغربية ، وصحيح أن ذلك العمل لم يكن لأول مرة في التاريخ لأن الفينيقيين المشاركة لعبوا مثل هذا الدور في التاريخ القديم ، فقد حكموا أجزاء كبيرة من إفريقية وأسبانيا معاً وكان لهم بالمنطقة كلها بعض الآثار التي تشير إلى وجودهم بها ، وبنوا هناك حضارة فينيقية تتحدث عنها كتب التاريخ في وضوح ، ولكن دور المسلمين بهذه البلاد كان عظيماً ومؤثراً لفترات طويلة من تاريخها ولا تزال معالم حضارتهم باقية للآن في أسبانيا الحديثة .

ونجح المسلمون المتحضرون في نقل السلطة على جزء كبير من أوروبا الغربية إلى يد الشرقيين بعد زمن طويل من خضوع الشمال الإفريقى كله لدول أوروبا وبعض القبائل المهاجرة منها .

وربما كانت هناك قبل الظهور الواضح للعرب في شمالي إفريقية اتصالات يهودية غير صريحة بين يهود أسبانيا الذين تعرضوا للاضطهاد القاسى على يد القوط للمسيحيين وبين اليهود في شمالي إفريقية ، لأن إشارات غامضة في التاريخ تشير إلى أن يهود أسبانيا كانوا يتصلون سرّاً باليهود في إفريقية الشمالية ويتآمرون



معهم على سلامة الدولة القوطية بها ، وكانت بشمالى إفريقيا جماعات يهودية قوية يمكن أن تساهم فى القيام بحركة تخدم مصالح اليهود المضطهدين فى أسبانيا .

ثم تعرض اليهود الأسبان بعد اكتشاف تأمرهم على الدولة لمزيد من العنف والقسوة ، وهذا يعنى وجود نوع من الشعور عند اليهود بقرب المنطقة الجغرافى ، أو وجود نوع من الإحساس بوجوب التعارن بين المتعدين فى العقيدة إذا لم يكن اتصالهم يكلفهم جهودا إضافية .

ولا شك أن اتصال اليهود فى أسبانيا بأمثالهم من اليهود فى شمالى إفريقيا كان يشير زيادة على الشعور بالقرابة المكانية إلى نوع من الإحساس بوحدة المنطقة وتأثير الأحداث فيها .



لقد زاد حماس المسلمين بعد انتصارهم فى إفريقيا الشمالية فنقلوا نشاطهم العسكرى سريعا إلى أسبانيا القريبة منهم ، وعملت الجماعات البربرية المسلمة أولا لأنها كانت تعرف شيئا عن أحوال المنطقة وظروفها ، واتخذ العرب أما كنهم خلف الصفوف المتقدمة لفتح أسبانيا فى مراحل الكفاح الأولى ، وليس يكفى الآن أن نقول إن البربر الذين هاجموا السلطة القوطية فى أسبانيا كان يدفعهم إلى ذلك الحماس الدينى وحده ، أو كانت الرغبة العارمة فى العمل العسكرى تتسلط عليهم ليكشفوا بها عن صدق نياتهم نحو قضية الإسلام ، فأرادوا أن يبرهنوا بالجهد والتضحية عن مبلغ إيمانهم المخلص بالدين الجديد ، وإنما يظهر أن تأخر العرب عن للمشاركة بكل ثقلهم فى العمليات العسكرية الأولى كان من بعض أسبابه معرفة القيادة البربرية والجماعات البربرية لشئون البلاد الأسبانية القريبة من بلادهم ، وكان هذا يعطيهم الفرصة الطيبة للتعامل مع أعدائهم بوعى ونجاح .

واندفعت موجات البربر الكثيفة لفتح أسبانيا كعملية كانت مكملة لأعمال المسلمين العرب والبربر في إفريقية الشمالية ، وحاول المسلمون بعد انتصارهم أن يقيموا نظاما سياسيا واحدا بالمنطقة كلها ، ورأوا أن يخضعوها لسلطة واحدة هي سلطتهم القوية ، وجاءت وفود المسلمين تترى على أسبانيا بعد فتحها من إفريقية أولا ثم من غيرها من أوطان المسلمين بعد ذلك ، وظهر وجودهم هناك قويا غالبا ، وضعفت الحواجز بين المنطقتين بقيام حكم المسلمين بهما ، ونشأ بالبلاد كلها منذ سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م حكم واحد له غايات واحدة ، وكان ذلك لأول مرة منذ انفصال أسبانيا عن حكم الدولة الرومانية الغربية سنة ٤١٢ م ، وبعد أن خضع الشمال الإفريقي لحكم الدولة البيزنطية بعد خروجها على دولة الرومان الغربية ، وكانت كلتا المنطقتين قد اتخذتا لنفسيهما طريقتين مختلفتين منذ زمن بعيد .

وجاء المسلمون المنتصرون فجمعوا المنطقتين من جديد تحت سيادة واحدة هي السيادة العربية الإسلامية وظلت أسبانيا منذ فتحها حتى استقلالها سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م تابعة لولاية إفريقية الناشئة بالقيروان وما حولها ، وحكمها موسى ابن نصير وكان قائدا عسكريا وحاكما مدنيا على ولاية إفريقية والأندلس معا ، وبعده استمرت بلاد<sup>(١)</sup> الأندلس مرتبطة بشمال إفريقية ارتباطا قويا ، وكان يحكمها وال أو نائب الحاكم إفريقية الشمالية ، وربما أصبحت خلال هذه الفترة شبه ولاية مستقلة يرسل لها رئيس الدولة الإسلامية أو خليفتها في الشام واليا خاصا بها ، وظهر ذلك بوضوح في زمن الخليفة الشهير عمر بن عبد العزيز ، وفي بعض العهود من بعده ، ولكنها مع ذلك كانت تتأثر في علاقاتها وتطورها بأحوال إفريقية

---

(١) بعد رجوع موسى بن نصير للشام ترك أبناءه الثلاثة حكاما بشمال إفريقية والأندلس .

الشمالية وظروفها وسياسة حكمها ، ولم تظهر لبلاد الأندلس طول هذا العهد شخصية سياسية مستقلة عن إفريقية الشمالية ، وظلت المنطقتان مرتبطتين معاً ارتباطاً قوياً لا ينفصم لخضوعهما لشعب واحد له سياسة واحدة وهدف واحد ، وكان العنصران الأساسيان بالمنطقتين يكونان قوة إسلامية واحدة وإن كانت إحداهما عربية والأخرى بربرية ، وحرص العرب على أن يكون لهم هناك حق القيادة وحدهم ، وحرص البربر بدورهم على ألا يعيشوا على هامش الحياة في أى مكان من إفريقية أو الأندلس .

وظل الارتباط قوياً بين الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس لأن العناصر الأساسية بالمنطقتين كان لها تمثيل واضح بالمكانيين معاً ، فعندما قامت الثورة التي قادها ميسرة المدغرى في إقليم طنجة بشمال إفريقية سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م — وكان يريد بثورته هذه الاحتجاج على ظلم الولاة وتمسكهم — كان لهذه الثورة أثرها الكبير في بلاد الأندلس بدورها فنار البربر بها على العرب ، كما ثار عليهم بربر إفريقية وتخرج مركزهم في الشمال والجنوب كليهما ، وبعدما اقتصر جيش الثوار في إفريقية على جيش الدولة الأموية سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م حاول بربر الأندلس أن يقوموا بنفس الدور في بلاد الأندلس وحاصروا قوات العرب هناك وهددوا وجودها ولما لم يستطع حاكم الأندلس عبد الملك بن قطن أن يدافع عن كيان العرب بالأندلس استنصر بجزء من جيش الدولة الأموية الذي انهزم في إفريقية أمام ثوارها البربر ، وأسرع بلج بن بشر القشيري مع عشرة آلاف من رجال العرب الأشداء إلى بلاد الأندلس ليشارك وإياها المذكور في الانتصار على الثوار البربر .



وكانت ثورة البربر في كل من المغرب والأندلس تشير إلى تشابك الأحداث وتفاعلاها بين المنطقتين معاقدا خرج البربر للثورة على العرب في المكنين جميعا ، ولم يجد عرب الأندلس وسيلة للدفاع عن النفس إلا بالاستنجد بعرب إفريقيا ، وتعاونت القوتان العريقتان في ضرب الثوار بالأندلس ، وكانت الأحداث في الشمال والجنوب كانت تثار في منطقة واحدة وفي بلد واحد .

وبعد أن استطاع حنظلة بن صفوان قائد جيش الدولة الأموية أن ينتصر في إفريقيا على ثوارها وأن ينتقم لهزيمة جيش كلثوم بن عياض القشيري الذي بعثه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى إفريقيا سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بعد هذا الانتصار أصبح حنظلة بن صفوان سيدا بأمر الدولة الأموية على إفريقيا والأندلس جميعا وأرسل لبلاد الأندلس نائبا عنه اسمه أبو الخطار الكلبي ، ومعنى هذا أن والى إفريقيا ظل حتى ذلك الوقت صاحب الحق في إدارة الشؤون الأندلسية .

وحاول أبو الخطار المشار إليه أن يحرم السلام بين المتنازعين على السلطة في مكانه الجديد ، وفر منه عبد الرحمن الفهري إلى إفريقيا وكان أحد القواد الشاميين الذين اشتركوا في الحصومات الحزبية بالأندلس ، ورجع عبد الرحمن إلى إفريقيا مرة أخرى بعد أن كان فيها جنديا في جيش الأمويين الذي أرسلوه إلى إفريقيا ليقاوم ثورة البربر بها سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، وحاول عبد الرحمن الفهري بعد رجوعه إلى إفريقيا ، أن يوجد لنفسه مكانا بين حكام المسلمين بها ، ونجح في حكم القيروان وما حولها سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م ، واستقل بجزء من البلاد الإفريقية مدة عشر سنوات كان يعلن فيها نوعا من الولاء المزيف للأمويين ثم للعباسيين من بعدهم .

وخضعت الأندلس بدورها سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م لقريبه يوسف الفهري  
وكان قد لعب دورا أساسيا في أحداثها المضطربة ، وهذا يعنى شدة التأثير  
السياسى المتبادل بين المغرب والأندلس ، ويقال إن أهل الأندلس طلبوا من  
حاكم إفريقية الموافقة على اختيارهم لقريبه سيدا على بلادم .

\* \* \*

ثم جاء عبد الرحمن الداخل بعد ذلك للأندلس من إفريقية بعد أن عاش  
فيها خمس سنوات ورأى بعد الحياة فيها أن بلاد الأندلس كانت أمله  
ورغبته فانتقل إليها واستقل بها عن إفريقية الشمالية وعن غيرها من بلاد المسلمين ،  
وأبعدته السياسة عن الشمال الإفريقى بعد أن مال فى ولائه للعباسيين خلفاء  
المسلمين فى العراق .

ولكن إفريقية التى تظاهرت بالولاء لدولة المسلمين فى الشرق لم تترك  
عبد الرحمن الأموى يعيش آمنا فى مكانه الجديد ، فهاجمه العلاء بن مغيث من  
إفريقية الشمالية سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م وهاجمه كذلك عبد الرحمن الصقلبي سنة  
١٦١ هـ / ٧٧٧ م ونزل بساحل مرسية فى شرقى الأندلس ، وكلاهما كان يدعو  
لخلفاء المسلمين فى بغداد ، ولكن عبد الرحمن الداخل انتصر على كل المحاولات  
الإفريقية المعاملة لحساب أعدائه من بنى العباس .

وظهر العداء والخصومة لأول مرة فى تاريخ المسلمين بالمغرب بين الحكام الإفريقيين  
والأندلسيين عند تأسيس الدولة الأموية هناك لأن مؤسسى هذه الدولة كانوا  
يحاولون أن يبعدوا بها عن الاتصال المباشر بمواطنى خصومهم أو عن الاتصال القريب  
بأحكام دولة الخلفاء العباسيين فى إفريقية ، وكانوا يشعرون بالحرج والخوف عند  
اتهمهم بالخروج على وحدة المسلمين المرغوب فيها عند كل الناس .

وحرص الأمويون الحاكمون بالأندلس على تثبيت سلطتهم في داخل بلاد الأندلس ودمها، وتركوا الاهتمام بالشئون الإفريقية لسكان إفريقية أنفسهم ومع ذلك لم يتركهم الإفريقيون إلا بعد أن انهزموا أمامهم في الحروب الهادة إلى تحديد نوع الولاء بالمنطقة.

وبعد ذلك لم تكن محاولات العباسيين للسيطرة على إفريقية نفسها محاولات جيدة، إذ لم يكن لهم بها أنصار يستطيعون مقاومة أعدائهم فيها، فبعد عهد يزيد ابن جاتم الذي فاز بحكم القيروان وما حولها باسم العباسيين بعد حروب طويلة في السنوات ١٥٥ — ١٧٠ هـ / ٧٧٢ — ٧٨٨ م انهار نفوذ الخلفاء العباسيين هناك واضطربت الأحوال بالبلاد كلها، ولم يتمكن العباسيون بعد ذلك من الاحتفاظ لأنفسهم بنوع من السيادة على إفريقية إلا بعد أن أعلنوا حكم الأغالبة على إفريقية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م، وكان نفوذ العباسيين قد ضاع قبل ذلك التاريخ في المغربين الأوسط والأقصى، وحاولت الدول الإفريقية الثلاث الممثلة لوجهات النظر الإسلامية<sup>(١)</sup> التنافس أن تتفق فيما بينها على نوع من سيادة السلام وحسن الجوار، وانهمكت كلها في بناء صرح الحضارة الإسلامية المتطورة في إفريقية الشمالية، وأعرضت من جانبها عن الاتصال ببلاد الأندلس. وكانت الحصومات السياسية تزيد أحيانا في نفور رؤساء هذه الدول وتباعد بينهم وظهر في الغرب:

١ — الأمويون بالأندلس. ب — والعلويون بالمغرب الأقصى

ج — الرستميون بالمغرب الأوسط.

د — الأغالبة بإفريقية أو المغرب الأدنى.

---

(١) كانب هذه الدول الثلاث تمثل وجهات نظر المسلمين من الحوارج والشيعة



ولم يكن ذلك يعني في وقت من الأوقات انقطاع الصلات الثقافية والحضارية بين هذه الدول الإسلامية الناشئة بإفريقية والأندلس لأن هذه الصلات المفيدة ظلت قائمة ومعروفة طول تاريخها كله .

ثم قابل الأمويون بعض الفتن الدينية بالأندلس ، وقامت ضدهم هناك ثورة كبيرة معروفة سنة ٨٢٠٢ / ٨١٧ م وبعد انتصارهم على أصحابها ألجئوهم بالعنف ووسائل القاديب القاسية إلى الهجرة إلى إفريقية فذهبوا إلى مدينة فاس المغربية واستقبلهم فيها حاكمها إدريس بن إدريس وكان يراهم إحدى وسائله بتحقيق أمله في مواجهة رعاياه البربر ، ولا شك أن الجماعات الأندلسية الكبيرة الهاربة إلى إفريقية من قسوة العقاب في بلاد الأندلس لم يكن أمامها غير الشمال الإفريقي وحده ، وربما كان لجوء جماعة منها إلى الإسكندرية في مصر البعيدة نوعاً من اليأس أو المغامرة لأن بلاد المغرب ظلت في كل الأحوال المكان المقصود لأهل الأندلس عند الخطر .

ونسير مع التاريخ ، ويحيى الفاطميون لحكم الشمال الإفريقي سنة ٨٢٩٧ / ٩٠٩ م فكانوا يهددون بقوتهم حكم الخليفة الناصر بالأندلس ، وكان هذا حريصاً على دفع كل الأخطار عن بلاده ، ومع أن الفاطميين لم يوجهوا قوتهم ابتداءً للحرب ضد الأمويين بالأندلس ورغم أن بلاد الأندلس لم تكن من أهدافهم العسكرية الأساسية فإن الناصر أرسل لهم أسطولاً كبيراً استولى على مدينة سبتة في إفريقية سنة ٨٣١٩ / ٩٣١ م وكانت مع البربر حلفاء الفاطميين ، ثم امتد نفوذ الأندلسيين إلى مدينة فاس في المغرب الأقصى ، وكان الأدارسة هناك يترددون في ولائهم بين الفاطميين والإفريقيين وبين الأمويين الأندلسيين ، أو كانت القوتان تتجاذبهم بعنف وقوة وتريد منهم إعلان رأيهم في صراحة ووضوح وبعد ذلك التاريخ ظهر الشر

واضحاً بين القوتين المتعاديتين بإفريقية والأندلس ، وهدد الفاطميون الشواطئ الأندلسية سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م فأغار عليهم الأمويون من الشواطئ التونسية واعترفت أجزاء كبيرة من إفريقية الشمالية بساطة الأمويينحكام الأندلس وتقسمت القبائل الإفريقية إلى قوات تعمل لحساب الأمويين وتعرض بسبب ولائها لهم لغارات الفاطميين ومفاجئاتهم ، وإلى قوات تعمل مع الفاطميين وتتحدى الأمويين وتتحمل غاراتهم وانتقامهم .

وفي سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م لجأ أمير الأدراسة المنهزمين إلى الفاطميين في مصر<sup>(١)</sup> بعد أن خضع جزء كبير من بلاد المغرب لحكام الأندلس الأفوياء فأرسل العزيز بالله الفاطمي جيشاً من مصر لإفريقية سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩م فاستولى هذا الجيش على مدينة فاس الشهيرة وأعلن الوجود الشيعي بالمنطقة المغربية ، وكان هذا يعني تعرض هملاء الأندلسيين بالمغرب للأخطار المباشرة ، ولذلك طلبوا بحدة المنصور بن أبي عامر - وكان في أيام مجده وسطوته - ، فأرسل لهم جيشاً أندلسياً سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م وانتصر هذا الجيش في حروبه ضد الفاطميين بإفريقية ، وأصبحت مناطق المغرب القريبة من بلاد الأندلس مقاطعات أندلسية يحكمها أحد أصحاب المنصور ، وزاد نفو هذا الحاكم الأندلسي بإفريقية الشمالية وكأنها كانت ولاية أندلسية ، وتفرق كثير من زعمائها وهاجروا للأندلس فوجدوا لهم هناك مكاناً في صفوف جيش الدولة العاصرية .

\* \* \*

وأثناء سقوط دولة الأمويين بالأندلس سنة ٤٢٢هـ - ١٠٣١م كان البربر طرفاً

---

(١) فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م .

في النزاع على السلطة المباحة بها ، فأخذوا نصيبهم من مقام الدولة الضائعة ، وحكموا الولايات الجنوبية القريبة من إفريقية الشمالية ، وحدث التلاحم القوي بين الزعماء المغاربة وبين الأندلسيين البربر الذين كانوا يلتقون بأبصارهم دائماً نحو الشمال الإفريقي ومن فيه ، وكان من بين المغاربة رجلاً من الأدارسة هما علي والقاسم ابنا حمود ، وهذان الأخوان كانا ينتسبان إلى إدريس بن إدريس مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى ولكنهما لم يكونا يعرفان شيئاً واضحاً عن لغة العرب ، ولم يكن يظهر فيهما وجه العروبة وخصائصها وربما كانا أقرب للبربر في السلوك والأمل والرغبة من العرب بأثر البيئة والنشأة والمزاج واللغة .

وساد علي بن حمود في مدينة سبتة الإفريقية الواقعة على الجانب الآخر من منطقة الجزيرة الأندلسية وهذه كان يحكمها أخوه القاسم بن حمود ، ولم يكن يفصل بين الأخوين الحاكمين في إفريقية والأندلس إلا مضيق جبل طارق المشهور ، ولم يعطل هذا الفاصل المائي أسباب التفاهم القوي بينهما ، فذاغت شهرة بني حمود الشيعة في مناطق واسعة بالمغرب والأندلس ، وكان الفترة الطويلة التي حكم فيها الأمويون بهذه البلاد لم تكن كافية لإضعاف التفاعل الملحوظ بين المنطقتين الإسلاميتين ، وكان يمكن أن يجد المغامرون والراغبون في السلطة في كل الأوقات بعض الأنصار في السكان معاً .

ثم دخل علي بن حمود بلاد الأندلس بأشباعه البربر سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م وأعلن نفسه خليفة على المسلمين بالمنطقة التي كانت تعاني من الفراغ في السلطة ، وبويع بعده أخوه القاسم بن حمود واستمرت السيادة العليا بهذه المنطقة الأندلسية في أسرة بني حمود الشيعية حتى مات القاسم سنة ٤٣١ هـ - ١٠٣٩ م ، وكان زعماء هذه الدولة إفريقيين هربوا إلى بلاد الأندلس بعد هزيمة جيشهم في



بلادهم الإفريقية ، ولم ينسوا بلادهم هذه بعد حياتهم في الأندلس عندما جاءتهم فرص النجاح مع الأيام .

وازداد الضعف في بلاد الأندلس كلها وكانت تتعرض للأخطار الممثلة في هجوم القوات المسيحية المتعصبة عليها من الشمال ، وتقدمت هذه القوات المتحفزة في حماس وإصرار لتحقيق أمالها في طرد المسلمين من بلاد الأندلس كلها ، ولم يكن للمسلمين في ذلك الوقت قوة تستطيع التعامل مع هذا الخطر أو دفعه ، بل كانوا موزعين إلى دويلات صغيرة متهاككة ، وبما كانت عشرين دولة أو أكثر منها ، وكانت عوامل التغيير سريعة الأثر في حياة البلاد والعباد في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين ، واشتد خطر الأعداء على الأندلسيين الموزعين إلى وحدات سياسية وعسكرية مستضعفة فطلبوا ببدء الاتفاق والتفاهم بحجة المرابطين بحكام إفريقية الشمالية الغربية ، وجاء المرابطون إلى بلاد الأندلس في السنوات ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م ، ٤٨١ هـ - ١٠٨٨ م ، ٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م ليقوموا بمحاولات مخلصية لدفع الأخطار عن المسلمين المرشحين لقوة الأحقاد والاضرامات من الدول المسيحية الناشئة في شمالي أسبانيا ووسطها ، وتحولت بلاد الأندلس بعد قصة صراع طويلة إلى مقاطعة مغربية ، وكانت طوائف البربر القادمين مع جيش المرابطين للحرب في الأندلس تعيد وجه التاريخ القديم ، أو كانت تعيد دور البربر الشجعان الذين قدموا مع طارق بن زياد لفتح هذه البلاد منذ وقت طويل .

وأصبحت الأندلس ولاية مغربية يحكمها المرابطون من مراكش البعيدة ، وعاش أبطال الإسلام الجدد مدة غير طويلة سادة على بلاد المغرب والأندلس جميعاً ، وكان وجودهم كقوة ظاهرة ببلاد المغرب أمراً ضرورياً لبقاء الأندلسيين سالمين في بلادهم التي تهددها الأخطار ، ولتأجيل أيام الضياع النهائية لنفوذهم بهذه البلاد .

وجاء بعد المرابطين وحل طريقتهم الصريحة الواضحة قوات بربرية أخرى كانت أشد منهم إيماناً بقضية الإسلام ومجده ، وكانت أعظم منهم فهماً للحضارة العربية وأهميتها في حياة الناس والأوطان ، وهؤلاء هم الموحدون الذين كانوا يمثلون القوة الإسلامية التي جاءت إلى بلاد الأندلس لتأخذ دورها في حكمها وفي نصر المسلمين بها ، وجاءوا بعد المرابطين بعد أن ضعفت كفاءاتهم العسكرية أو انهارت ، وبعد أن أصبحوا جماعات مرفهة فقدت بالزمن والنعيم صلاحياتها القديمة .

وانتعر الموحدون بالأندلس فأعادوا بنصرهم أمجاد المسلمين المستهينين بالأخطار في سبيل العقيدة والمبدأ ؛ ولكنهم كانوا سيئى الحظ إذ واجهوا التعصب الأوربي في أسوأ حالاته ، فانهزموا أمام جيش مسيحي كبير جمعه الأوربيون لحربهم من كل مكان ، وشاركت فيه أشد البلاد الأوربية تعصباً للمسيحية وتأثراً بها .

وكانت هزيمة الموحدين تعنى الخطر الداهم على مصير الإسلام والمسلمين في أوروبا ، وكانت تشير إلى أن الجهود الإفريقية لإنقاذ بلاد الأندلس قد عجزت عن الوفاء بمتطلبات النصر بهذه الأوطان .

وبعد ذلك سقطت بلاد الأندلس واحدة بعد الأخرى في يد أعدائها ، ولم يبق هنالك للمسلمين إلا مملكة غرناطة المتواضعة ، ولم يكن ممكناً أن تعيش هذه المملكة الصغيرة التي كانت تمثل آخر الأضواء الإسلامية في أوروبا إلى النهاية - لم يكن ممكناً أن تعيش وحدها وحولها الأعداء في كل مكان ، ولذلك بحثت سريعاً لنفسها عن حلفاء إفريقيين يحملون معها مسئولية الدفاع عن قضية المسلمين المعرضة للأخطار الداهمة .

ووجد بنو الأحمر سادة غرناطة في بنى مرين حكام أفريقية الشمالية حلفاء  
تقليديين لهم يرغبون في نصرة المسلمين بالأندلس ، وعرض بنو مرين أن  
يكون جيشهم قوات احتياطية مستعدة للعمل في كل وقت ببلاد الأندلس ،  
وقام بين الجانبين نوع من التفاهم السليم لخدمة الأغراض الإسلامية في هذه  
البلاد المعرضة للنهاية المؤسفة .

ويبدو غريبا أن التقاء القوتين الإسلاميتين في إفريقية والأندلس لم يدم  
زمنًا طويلاً أو لم يكن عند المستوى المطلوب في وقت الخطر ، ويفهم من روايات  
التاريخ الصريحة أن بنى مرين كانوا مخلصين في أداء دورهم لخدمة الوجود  
الإسلامي بغرناطة وما حولها ولكن بنى الأحمر كانوا يذكرون دائماً دور المرابطين  
في تحطيم القيادات الإسلامية ببلاد الأندلس ، فكانوا يعيشون دائماً في شك  
وحذر أو كانت تلعب بهم الريب من كل أعمال بنى مرين وتصرفاتهم .

ثم ساد الاضطراب في غرناطة وتنازع حكامها جميعاً ، ولم يتفقوا على  
سلوك واضح في المعاملة المطلوبة لحلفائهم الأفريقيين ، واختلفوا في تحديد نوع  
العلاقات التي كانت تربطهم بهؤلاء الحلفاء ، وكانوا يتفقون أحياناً مع أعدائهم  
الأسبان ضد إخوانهم في العقيدة وشركائهم في الصف والأمل ، ولم يكن السبب  
في ذلك مجرد الرغبة في إضعاف سلطة المسلمين في إفريقية وشل نشاطهم العسكري  
في سواحلها الشمالية وإنما كان ذلك بسبب تحكم الخوف القاتل من تكرار التجربة  
المروقة عن المرابطين مع ملوك الطوائف ، وبدأ أحياناً أن الحكام في غرناطة كان  
يهمهم سلامة سلطتهم بمناطقهم الفعنة قبل نجاح القضية الإسلامية وسلامتها في بلاد  
الأندلس ، وربما كان الشعب الأندلسي سعيداً بانتصارات القوات الإفريقية في



بلاده ولكن حكام هذه الشعب وأمرائه كانوا يتوقعون الشر من هذه القوات الأجنبية ، وكانوا يريدونها أن تحقق أغراضهم في حراسة سلطتهم بمناطقهم المنعزلة ، وأن تكون دائما في موقف الدفاع عنهم عند مفاجآت الأعداء .

ثم انشغل بنومرين في فترات من حياتهم الأخيرة بالفتن المتراكمة حول عرشهم المنهار بإفريقية ، وساءت بسبب ذلك أحوال بني الأحمر في غرناطة ، وكانت مواقفهم غير صريحة في التعامل مع الحكام الإفريقيين رغم أن هؤلاء كانوا يساعدونهم بمجهودهم وطاقاتهم ، ورغم أنهم كانوا يساهمون في خدمتهم أثناء تمرضهم للأحداث الجسام ، ومع كل المحاولات الناجحة وغير الناجحة التي شارك فيها الأفريقيون الأندلسيين والتي انفرد فيها أحدا الجانبين بالعمل وحده فلم يكن من المأمول أن تنجو مملكة بني الأحمر من نهايتها المعروفة أو من الضياع أمام الأسباب المنتصرين ، وإنما كانت هذه المحاولات تقدم بدوافع الشرف والواجب ، ولم يقصد منها إلا مقاومة الشر الفامر لتأخير الساعات الأخيرة المؤكدة .

ولاشك أن مشاركة الإفريقيين في الحرب بالأندلس كانت تدل على قوة الترابط بين الجهتين الإسلاميتين ، وكانت تعني أن أمر الأندلس كان يهم الإفريقيين في كل الأوقات ، ولم يكن ذلك — كما يبدو — لمجرد التعاطف الديني وحده أو للأغراض الإنسانية وحدها ، وإنما كان أيضا لأن بلاد الأندلس كانت تمثل خط الدفاع المتقدم عن إفريقية الشمالية ، وكأن الإفريقيين كانوا راغبين في سلامة بلاد الأندلس لتسلم لهم بلادهم ذاتها ، ولم يكن من مصلحتهم أن يقوم في أسبانيا نظام قوى يعاديه ، ومن المعروف أن النظم القوية التي

كانت تظهر في إحدى المنطقتين كانت تحاول فرض نوع من النفوذ والسيطرة على الجانب الآخر .

وهذا يعنى أن الأفارقة في محاولاتهم القوية للدفاع عن وجود الإسلام والمسلمين بالأندلس كانوا يدافعون في نفس الوقت عن أنفسهم في صراحة غير مكشوفة ، وكان يهمهم في الدرجة الأولى أن يبقى بالأندلس نظام إسلامى يمكن التفاهم معه ، أو يمكن الالتقاء مع أصحابه عند شئ مشترك ، وكان الدين في ذلك الوقت من بعض وسائل الاتصال القوية بين الشعوب في كل مكان ، أو كان من أهم الوسائل المؤثرة التي كانت تقرب بين الناس في هذه العصور .

ولاشك أن حماس الأوربيين للحرب ضد المسلمين كان تعصباً قومياً دينياً ، فقد كان جانب الدين ملحوظاً في شعورهم بالحقد البالغ على المسلمين بالأندلس وغيرها ، ومعنى هذا أن دين الإفرقيين كان لا بد أن يعرضهم - بعد انتصار المسيحيين على المسلمين في أسبانيا - إلى الأخطار القادمة عليهم من الشمال الأوربي وكأن القضية كانت تبدو قضية واحدة تؤثر في مصير الأندلسيين والإفرقيين جميعاً ، وقد أدرك ذلك حكام إفريقية وحكام الأندلس معاً ، ولما ضعف جهد الأندلسيين أمام ضغط أعدائهم الأقوياء شاركهم الحكام الإفرقيون - مهما اختلفت أسماء دولهم ونظمهم - في الدفاع عن بلادهم وحملوا معهم مسئولية العمل العسكري لحراسة بلاد بدا مصيرها واحداً في جميع الأوقات .

وجاء بنو وطاس بعد بنى مرين لحكم مساحات واسعة من البلاد الإفريقية واستولوا على مدينة فاس التاريخية سنة ٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م ، وقامت لهم بالمغرب

دولة إسلامية ولكنها كانت عاجزة عن مواجهة المصائب التي كانت تلح على  
كيان المسلمين بالدولة الصغيرة الباقية لهم في أوروبا ، وانكشفت الأخطار القائلة أمام  
بنى الأحمر في الأندلس فدفعوا الإتاوات الكبيرة للقشتاليين ليشتروا رضاهم ،  
وخضعوا مع ذلك لظلمهم وتعسفهم ، ثم وصلت نزعات التمهصب الدينية إلى  
أقصى درجات التطرف عند أعداء الأندلسيين إذ خشي الأسبان - بعد  
انتصار الأتراك في معركة القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م - أن يصبح ما بقي  
للمسلمين في الأندلس مركزا لعمليات حربية جديدة وأن يكون نقطة ارتكاز  
لنجادات إسلامية تأتي لبنى الأحمر من بعيد .

وبعد اتحاد أسبانيا المسيحية سنة ١٤٧٩ م زادت قوتها واستقرت أحوالها  
ونمت مواردها ، فتقدمت لتحقيق أهم أغراضها الدينية والقومية وقضت على  
الملكة الإسلامية الضائعة التي كانت قد تركت لمصيرها وقدرها ، ولم يجد  
المسلمون المطرودون أمامهم بعد الأندلس إلا إفريقية الشمالية وحدها ، وإذا  
لم يجدوا عندها قوة كافية تحفظ عليهم وجودهم ببلادهم الغالية فقد وجدوا فيها  
متسعا ثلاثة ملايين منهم هاجروا إليها تحت ضغط الأحقاد والمتاعب .

ولم يبق للمسلمين في الغرب بعد سقوط الأندلس إلا الشمال الأفريقي وحده ،  
وكان عليهم أن يتوقعوا مزيدا من الأخطار القادمة من أسبانيا المنتصرة ، لأنها  
لم تقنع بطردهم من بلادهم بالجملة بل أخذت تمارس ضدهم أعمالا عسكرية  
انتقامية لم يكن من أهدافها الثأر لبعض الاساءات السابقة ، وإنما كان غرضها  
إبقاء المسلمين في إفريقية الشمالية تحت ضغط الخوف الدائم ، وكانت تود مع  
ذلك أن تأخذ طريقها للسيطرة على البلاد الإفريقية بالحروب الصليبية الصريحة .





ب - قصة الإسترداد





يعرف من تاريخ المسلمين فاتحى الأندلس أنهم تركوا لسبب أو لآخر إتمام عمليات الفتح النهائية لكل الأراضى الأسبانية ، وقد يكون ذلك نوعاً من الإهمال أدى إليه استدعاء القواد الفاتحين إلى بلاد الشام قبل النصر الأخير ، وقبل الاستقرار الآمن فى البلاد الجديدة ، وهذا يعنى أن استدعاء القواد ذوى الأثر العظيم فى الفتح ، وذوى الفهم السليم لما يحتاج إليه هذا الفتح من أعمال أخرى كان السبب الواضح لعدم الانتباه المطلوب إلى ضرورة الخلاص نهائياً من كل جيوب المقاومة التى كانت تزعج العرب والمسلمين فى البلاد الجديدة .

أو نقول إن الإهمال جاء عن طريق الذين خلفوا هؤلاء الفاتحين ، وكان منهم قواد تمسوا بعمليات الفتح ، ونجحوا فيما بقى منها ولكنهم مع ذلك تركوا الأماكن الشمالية الغربية من أسبانيا لأعدائهم ولم يهتموا بإتمام العمل العسكرى فيها .

وسواء أكان هذا الفرض صحيحاً أو ذاك فإن الحقيقة ظلت ثابتة ومؤكدة وهى أن جزءاً من شبه الجزيرة الأسبانية استمر بعيداً عن الخضوع المباشر لسلطة المسلمين بالأندلس ، وهو الجزء الشمالى الغربى المعروف باسم « جليقية » ، وربما كان هذا الجزء بسيطاً لم يثر شيئاً من اهتمام الحكام الجدد ، أو كان لا يشير فى وضوح إلى نوع من الخطر عليهم ، أو إلى وجود ما يهدد انتصاراتهم ومستقبلهم ، لأنه كان إقليماً قاحلاً مقفراً بارداً تحجزه الجبال والمسافات البعيدة عن مسرح الأحداث المهمة بالمنطقة الأسبانية الواسعة .

وكان كل ما فيه يصرف الرغبة عنه ، وقد لجأت إليه جماعات قليلة لا يمكن

أن يكون وجودها خطراً على الكيان السياسى أو العسكرية للمسلمين هناك ،  
وكان هؤلاء أيام الفتح يملكون القوة الكافية لدفع الأخطار عن أنفسهم ، أو  
كانوا يمثلون القوة القادرة على الانتصار فى جميع الأحوال .

ولكن هذا الجزء البعيد البارد الذى لجأت إليه جماعات غاضبة لم تكن  
تمثل قوة كبيرة أو صغيرة ولم تكن تأمل فى هزيمة الفاتحين واسترداد الأرض  
منهم- هذا الجزء أصبح بالعمل والزمن نواة أساسية لكيان سياسى وعسكرى  
مؤثر ، وربما بدا أحياناً كأنه كان يعارض استقرار المسلمين ويهدد أمنهم ، وكان  
أصحابه ومؤيدوه يثيرون حول أنفسهم دعايات غامضة تدور كلها حول الوطنية  
والحرية وتخليص الدين من الأعداء، لينخدموا بذلك أغراضهم وليجذبوا إليهم  
الأعوان والمؤيدين من كل مكان، ومع ذلك لم يهتم المسلمون به ولم يوجهوا انتباههم  
نحوه ، فنشأ فيه بعد ذلك من كانوا يمثلون الرغبة القوية فى رفض الهزيمة أمام  
الفاثحين ، ومن كانوا يحملون ————— بتحقيق الأمل الكبير فى استرجاع  
الأرض منهم .

وقد يكون صحيحاً أن نقول إن انصراف المسلمين عند الفتح عن الذهاب  
إلى هذا المكان البعيد كان يمثل نوعاً من التسامح المعروف عنهم ، فكان يكفئهم  
أن ينهار أمامهم جيش الدولة الحاكمة بأسبانيا ليكفوا عن الحرب والقتال ويلجئوا  
للسلام والأمن ، ويمارسوا الحياة العادية الآمنة مع غيرهم من الناس ، وكان يكفئهم  
أن تقض أمامهم معالم المستقبل لصالحهم بغير غموض أو شك لى يلقوا السلاح  
ويسمحوا للآخرين بالحياة معهم فى سلام ، ولا سيما إذا كان هؤلاء الآخرون  
لا يمثلون بوجودهم شيئاً من الأخطار المؤكدة أو الشرور المحتملة التى تهدد  
كيانهم ومصالحهم .

ولا نغنى بذلك أن نقول إن المسلمين تركوا مناطق مهمة بأسبانيا بدون فتح إلى النهاية ، أو أنهم فرحوا بالنصر السريع على جيوش أعدائهم بأوربا فانصرفوا عن إتمام العمل العسكرى اللازم لسلامتهم وبقائهم آمنين بالمنطقة التي تحملوا مسئولية العمل فيها ، لأن المعروف أن القواد المسلمين الذين جاءوا لحكم الأندلس بعد موسى بن نصير وطارق بن زياد حاولوا إتمام فتح البلاد كلها .

وكانت لا تزال هناك أجزاء باقية في الجنوب الشرقي من أسبانيا لم يذهب لها الرواد الأول ، وتركوها لمن يأتي بعدهم على طريق الجهاد في المستقبل ، مثل منطقة مرسية وغيرها من مناطق أخرى في الشمالين الشرقي والغربي وهذه كانت في حاجة لإعلان الوجود الإسلامي فيها بقوة ووضوح .

والإشارات في التاريخ الأندلسي صريحة إلى أن المسلمين الذين فتحوا أسبانيا تركوا المناطق النائية الواقعة في أقصى الشمال الغربي بحليقية لأنها كانت لا تفرى على الحرب فيها ، ولا تشجع على التضحية في سبيلها ، وكانت تبدو لهم كأنها لم تكن تساوى شيئاً من الاهتمام بها والسعى من أجلها ، فتركوها لعدم أهميتها ، أو لعدم خطورتها ، وانشغلوا عنها بالأحداث الكبيرة التي كانت تلح عليهم يكثرتها ، وتفاجئهم بتتابعها .

ومع ذلك فلم يكن انصراف المسلمين عن هذه المناطق البعيدة تاماً أو نهائياً ، ولم يكن هملاً مقصوداً لجثوا إليه بعوامل الإهمال والغفلة وحدها لأنهم كانوا يرسلون إليها قوات عسكرية كانت تتعامل مع القوات القليلة الخارجة بها على سلطتهم بعد انتصارهم <sup>(١)</sup> .

---

(١) كان ذلك بعد الفتح وفي السنوات ١١٦ - ١٢٣ هـ / ٧٣٤ - ٧٤١ م



ويقال إن القوات اللاجئة للمناطق الشمالية كانت تتألف من عدد قريب من  
ثلثمائة مقاتل يرغبون عن الخضوع للمسلمين ويرفضون الحياة معهم في سلام ،  
وكانوا يشتبكون مع قوات المسلمين بعد المعارك الكبيرة أيام الفتح، واستطاعوا  
بعد الفترة التي مرت منذ أيام الفتح حتى زمن العمل الحاسم ضدهم أن يثبتوا  
وجودهم ، وأن يعلنوا عن أنفسهم في حماس ، وكانوا يعرفون المكان الذي  
يعيشون فيه ويتعاملون قسوته ويحسنون استغلاله ، ولهذا وغيره كانوا يفرضون  
على المسلمين الذين يحاربونهم تضحيات كبيرة ، وبدوا أمامهم جماعات يائسة تعرف  
بلاؤها وتستطيع الدفاع عن نفسها ، ومع ذلك يقال إن جيش المسلمين كان يلح  
على هذه الجماعات بالحرب حتى قضى على بعضها ، وألجأ بعضها الآخر إلى التفرار  
من جديد في العودة إلى أسبانيا لمشاركة المسلمين حياتهم ودينهم ، أو إلى العيش  
مع المسيحيين تحت حكم المسلمين المنتصرين ، وهاجر بعضهم إلى أماكن أخرى  
بالبلاذ الأوربية القريبة أو البعيدة من الأطراف الأسبانية الشمالية ، ومن المعروف أن  
عدد هذه الجماعة وصل في أقصى حالات ضعفها وانهيائها إلى ثلاثين رجلاً وعشرين نساء ،  
وربما كان هذا أقل عدد وصلت إليه هذه الجماعة في حياتها كلها ، ومعنى هذا أنه  
لم يكن مأمولاً من جيش المسلمين أن يلح بالحرب على هذا العدد القليل من الناس ،  
ولا أن يشغل نفسه بالتورط في حروب طويلة في هذه الأماكن البعيدة من أجل  
هذا العدد القليل البائس الذي لم يكن وجوده يدل على نوع من الخطر على السلطة  
الجديدة ، ولا على نوع من المعارضة المهددة لوجودها .

وسواء أكان هذا العدد صحيحاً أو غير صحيح فإنه يبدو أن المقصود من  
ذكره إما التماس العذر للمسلمين في إهمال القضاء عليه ، أو الإعلان عن الثناء الطيب  
على هذه الجماعة القليلة التي رفضت قبول المهزلة أمام المسلمين حتى النهاية ، ظلت  
تكافح أعداءها بعد أن تمخضت حالات الضعف والانهيار .

ومهما يكن من شيء فقد كان لهذه الجماعة المستبصلة دور عظيم في لفت الأنظار إلى وجود نوع من المعارضة الإيجابية لحكم المسلمين في الأرض الأسبانية ذاتها ، وإلى أن هزيمة القوط أمام المسلمين لم تكن كاملة أو نهائية ، ولكن ذلك لا يعني أن هذه الجماعة الصغيرة الضعيفة كانت تستطيع أكثر من ذلك أو كان يمكنها أن تفعل شيئاً ضد المسلمين الأقوياء في تاريخهم المبكر ، ولكنها إذا كانت عاجزة عن العمل المؤثر ضد المسلمين فإنها استطاعت أن تكون رمزاً كبيراً لحركة المقاومة القادمة على الطريق مع الزمن والأجيال .

وإذا كان الإهمال في القضاء على هذه المعارضة الباهتة لحكم المسلمين لا يمثل عيباً كبيراً في خطة الفتح الإسلامية ، وقد يمكن تعليقه بشيء مقبول عند المسلمين الفاتحين مثل القول بتسامحهم وعدم لجوئهم للقسوة مع أعدائهم بعد وضوح المستقبل في جانبهم فإن ترك هذه الجماعة تأخذ طريقها للظهور والنمو والقوة ، وتركها تهاجم المسلمين وتنتهز الفرص فيهم وتنتصر عليهم أحياناً يعتبر عيباً كبيراً وخطأ واضحاً من حكام المسلمين الذين كانت لديهم القوة الكافية للعمل الحاسم ضد هؤلاء الشرودين .

وتزعم هذه الجماعة المقاومة مغامر جريء اسمه بلاي أو بلاجيوس فر من أسر المسلمين سنة ٧٩٩ م / ٧١٧ م ، وربما كان واحداً من ضباط القوط المنهزمين أمام العرب ، أو كان واحداً من صميم سلاطنتهم ، وفي كل الأحوال كان رجلاً جاداً يستطيع أن يشير الاهتمام والإعجاب بكفائته وذكائه ، فكان مقاتلاً له عزيمة للغامرين ، وكان مواطناً له حماس المواطنين وإخلاصهم ، وعاش مع جماعته القليلة زمناً طويلاً يعاني معهم قسوة البرد والجوع والخوف وعدم الاستقرار ، ثم الحرص على البقاء للنهابة أمام الأقوياء ، وظل دائماً قوى الإرادة صادق العزم ، لا يخضع لأعدائه ولا

يسألهم ، فكان يفاجئهم بالفارات من مكانه البعيد المنزل ، ويهاجمهم بعنف ويتحداهم ، يأخذ ما لهم ويزعج وجودهم .

وظهر نشاطه قويا في السنوات ١٠٣ - ١٠٧ هـ / ٧٢١ - ٧٢٥ م ، وانشغل عنه المسلمون بخلافاتهم التي أبعدهم عن الإدراك السليم لحقيقة العلاقة بينهم وبين أعدائهم ، وأدت هذه الخلافات إلى ترك مناطق واسعة كان المسلمون البربر يكونون فيها حازماً بشرياً يحفظ سلطة المسلمين في الجنوب من أخطار المهاجرين من الشمال ، وكان زعيم المسلمين على النواحي القاصية في الشمال واحداً من قواد البربر<sup>(١)</sup> ، ويعرف عنه أنه كان نداءً خطيراً للثأر القوطي المتمرد ، فكان يهاجمه ويلح عليه بالحرب حتى يابسته للحياة وراء الصخور الشمالية القاسية ، ثم جاءت الفرصة المناسبة لزعيم القوط عندما اختلف زعيم البربر المسلمين مع زعيم العرب عبد الرحمن الغافقي فأرسل له عبد الرحمن قائداً بربرياً آخر قتله سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م ، وكان هذا يعني زوال الخطر المباشر أو زوال بعض الخطر من أمام الثوار الخارجين على النظام والدولة .

وقد كان وجود مونسو زعيم البربر كمثل للنفوذ الإسلامي البربري بالمنطقة الشمالية ضرورياً لحجز نفوذ المغاصرين المسيحيين في مناطقهم البعيدة وحدها ، وحصر نشاطهم وراء الصخور القاسية هناك ، ولكنه مات بسبب الخصومات والفتن وكان القضاء عليه بيد المسلمين فرجا كبيرا لبلاي وأصحابه .

ولم تتمثل أهم الفوائد التي حصل عليها ثوار الشمال من خلافات المسلمين في انشغالهم عنهم بأنفسهم ، وتركهم يشبثون أقدامهم في مواقعهم ، ويجمعون

---

(١) اسمه مونسو



حولهم الأنصار والمؤيدين وآلات الحرب كلها ، وإنما تمثلت في أن هذه الخلاقات جعلت أصحابها يتركون مساحات كبيرة من الأرض للرغوب فيها عند خصومهم الشماليين ، ويقال إنها كانت ربع المساحات التي كسبها المسلمون بجهدهم أيام الفتوحات الأولى .

لقد عادت أعداد كبيرة من البربر بعد النزاع بينهم وبين العرب إلى إفريقية أو إلى بلاد الأندلس الجنوبية وخلفوا وراءهم مساحات واسعة من الأرض لأعدائهم المتمردين فاحتلها هؤلاء الأعداء بدون قتال أو تضحية ، وعاشوا فيها بلا خوف أو حرج ، وكثرت بالزمن أعدادهم بها وعرفوا فيها الرخاء بعد الحرمان والجوع ، والراحة بعد المتاعب والأهوال .

وانتهت خلاقات العرب مع البربر في هذه المرحلة سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م بهذه النتيجة الخطيرة لتنشأ الخلاقات من جديد حول السلطة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ، وكان معنى ازدياد الخصومات بين عناصر الفتح الإسلامية في سنوات الاستقرار الأولى ضعف هذه العناصر أمام خصومها الآملين في هذا الضعف لأن فيه حياتهم واستمرار بقائهم ، ولهذا يقال في التاريخ العربي إن الخطر لم يأت المسلمين بالأندلس من وجود هذه الجماعات القليلة التي كانت ترفض الخضوع لهم والسلام معهم ، وإنما كان يأتي من خلافهم مع أنفسهم ، ومن حروبهم الأهلية التي شغلت وقتهم وأضاعت الكثير من جهودهم .

وإن كان ذلك لا يعني أن أعداء المسلمين في هذه المرحلة المبكرة من حياتهم بأسبانيا كانوا يستطيعون الانتصار عليهم أو الإضرار بهم ، فقد كان هؤلاء

الأعداء يريدون أن يثبتوا وجودهم كعارضين أقوياء لسلطان المسلمين منذ فجر تاريخهم بالأندلس ، فحصرُوا جهودهم لتحقيق هذا الغرض وحده ، وهيباً لهم المسلمون أنفسهم أسباب هذا الوجود القوي المؤثر .

واستمر الثوار يعملون في صمت وصدق وإصرار ، واجتهدوا في استغلال الظروف والزمن لصالح قضيتهم ، وجاءهم المؤيدون من أرض الأندلس ممن كانوا يعيشون وسط المسلمين ويعرفون أحوالهم ، وجاءهم المؤيدون أيضاً من البلاد الأوربية المجاورة لأسبانيا ، وكانت هناك جماعات كبيرة تحس بخطورة وجود المسلمين في هذه البلاد الأوربية

وإذا كان المعارضون لسيادة المسلمين على أسبانيا منذ نجاحهم في فتحها يتغنون بأنقام الحرية والوطنية فيما بينهم وبين أنفسهم فإنهم كانوا يظهرون أحياناً أمام المسلمين وكأنهم كانوا لا يريدون من نشاطهم شيئاً إلا أن يسمح لهم بالحياة في مناطقهم البعيدة ليمارسوا فيها أساليب حياتهم الخاصة ، ولم يجد المسلمون أيام خصوماتهم وقتاً كافياً يلتفتون فيه إلى القضاء على هذا الخطر قبل استفحاله ، وربما كانوا يحدون رغبات أعدائهم أمورا مقبولة أو حاجات غير متعنتة بعد أن جربوا معهم الحرب ، وعرفوا صدق نيتهم في الدفاع عن أنفسهم ، وكان الثوار يحاولون فرض وجودهم بالأمر الواقع وبالمحاولات الكافية لإقناع خصومهم بقبولهم كوحدة سياسية محروسة بالقوة اللازمة لحفظ بقائها .

ثم أحسن بلاى وأصحابه بالقوة المناسبة فهاجموا المسلمين وانتصروا عليهم سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م واضطروهم للرجوع للخلف مسافات كبيرة ، وإذا كان صحيحاً أن هذا النصر كان نوعاً من تصرفات الحظوظ المفاجئة فإنه كان نصراً

على كل حال ، ثم كان نصرا على الأقوياء ، وكان حاجة ضرورية مطلوبة لمن كانوا مستضعفين حتى ذلك التاريخ .

ودفع بلاى قوات المسلمين للخلف بالقوة لأول مرة فى تاريخهم ، وبلغت دولته ضعف حجمها عند نشأتها الأولى ، وكان نصره - رغم ضعفه - دليلا على أثر الإرادة والعزيمة فى النجاح فى الحروب أمام القوة الغالبة ، وبالغ الثوار المنتصرون فى استغلال نصرهم بالدعاية لأنفسهم والدعاية لأهدافهم ، وأشاعوا الروايات الخيالية من تأييد السماء لحركة المسيحيين المكافحين .

وصواء قلنا إن المسلمين تسامحوا مع هذه الجماعة عند ظهورها فتركوها تعيش فى مكانها ولم يلحوا عليها بالضبط والقتال ، أو قلنا إنهم عجزوا فعلا عن القضاء عليها بعد أن اتبعت معهم أساليب مرنة غلبتهم بها - كما تشير إلى ذلك بعض روايات التاريخ - فإنهم - ولا شك - عجزوا عن القضاء على هذه القوة بعد أن انتصرت عليهم ، والتمسوا لوحودها عند أنفسهم الأعذار المقبولة وغير المقبولة وظلوا يرونها قوة صغيرة لا تمثل خطرا كبيرا على كياناتهم النامية ، ولم يحدوها حتى بعد نصرها عليهم قوة تهدد وجودهم بالأرض الجديدة .

ولم تكن هزيمة العرب ، المفاجئة مع قائدهم علقمة اللخمي سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠ - ٧٥١ م أمام بلاى وأصحابه أول هزيمة عرفوها بهذه البلاد بعد انتصارهم على حكامها المستبدين فى عمليات الفتح الشهيرة ، لأنهم كانوا قد انهزموا قبل ذلك أمام الفرنج سنة ١١٤هـ / ٧٣٣ م خارج المناطق الأسبانية ، وربما لم يشترك أحد من كانوا يساهمون فى نجاح حركة المقاومة المسيحية للمسلمين فى شمالى أسبانيا



مع الفوننج في معركة بلاط الشهداء التي يشار إليها عادة كواحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ ، وربما كان الفرنج المنتصرون على العرب في فرنسا لا يعرفون أن هناك حركة مقاومة وطنية ناشئة في الأرض الأسبانية ذاتها ، ولا شك أنه لم يكن هناك شيء من الارتباط بين الفرنج الأجانب عن البيئة الأسبانية وبين الأسبان القارين أمام المسلمين إلى مناطق خفية مجهولة بالشمال الغربي الأسباني ، ولكن هزيمة المسلمين أمام الفرنج في التاريخ المشار إليه كشفت لحركة المقاومة المسيحية بأشبانيا وهي في فترات تكويدها الأولى أن هناك أعداء آخرين للمسلمين في أوروبا ، وأن هؤلاء الأعداء من القوة بحيث يستطيعون هزيمة جيش المسلمين والانتصار عليهم في الحروب ، ومثل هذه المعركة كان لا بد أن تثار حول نتائجها وأحداثها الدعايات الشريفة في كل مكان ، وكان لا بد أن يبالغ أصحابها المنتصرون فيها في الدعاية لأنفسهم في داخل بلادهم وفي خارجها معاً ، وكان انتصار أعداء المسلمين عليهم يعطى أملاً كبيراً للجبهات المسيحية المتعصبة التي كانت تنتظر فرصة الضعف عند المسلمين لتهاجمهم وتلحق عليهم بالحرب والقسوة ولذلك كثرت غارات المصائب المتعاقبة على المسلمين بعد هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء ونجرات عليهم في أماكن كثيرة.

ولكن انتصار بلاي وأصحابه على المسلمين في معركة « كوفادونجا » سنة ١٣٣٣ م / ٧٥٠ هـ كان عملاً من داخل أسبانيا نفسها ، وكان انتصاره على قوات المسلمين لأول مرة عملاً خطراً زاد من الإحساس بوجود علاقات عدائية بين المسلمين وبين زعماء القوط الذين تجددت عندهم الآمال في استرداد الأرض الأسبانية من المنتصرين فيها ، وكانت قوات القوط المنهزمة حتى ذلك التاريخ تحاول التخفي والبعد عن الاشتباك العريع مع جيوش المسلمين حتى لا تثير انتباههم

نحوها ، ولكنها الآن قد هزمتهم وأعلنت عداها الصريح لهم ، وكان إضعاف قوات المسلمين يعنى خدمة الأغراض الأساسية لهذه الجماعات الناشئة .

ومع ذلك فليس هناك ما يدعو للقول فى وضوح بأن العرب وجدوا منذ وجودهم الأول بأسبانيا معارضة قوية من أهلها الذين عاشوا معهم ، أو من أهلها الذين خرجوا عليهم ، لأن الخارجين عليهم فى الشمال كانوا جماعات قليلة - كما قلنا - ثم زادوا مع الأيام عددا وقوة وكان يهمهم فى مراحل حياتهم الأولى أن يفسى المسلمون وجودهم بأما كنهم البعيدة ، وأن يختفوا تماما عن الرقابة الإسلامية حتى يأتى الزمن الذى يستطيعون فيه مقابلة العنف بالعنف واستمروا كذلك وقتا طويلا ، وكان العرب يبدأونهم بالحرب كلما أحسوا بوجودهم ، ولكنهم كانوا أحيانا يتعاضون الحرب معهم لقوتهم وتفوقهم ، ويحاولون دائما أن يظهرُوا أمامهم أنهم يريدون الحياة فى سلام وأمن ، وعندما كانوا يضطرون للحرب كانوا يدافعون عن أنفسهم بقوة وشجاعة ، وربما انهارت مقاومتهم أمام جيش المسلمين ولكن انهيارهم كان شقيقا مقبولا أمام المسلمين المتسامحين فكانه أتركواهم أوتركون من بقى منهم يعيش بين الأحياء فى سلام .

وبعد الجهد والإصرار على البقاء انتصرت القوة الصغيرة المعارضة لنفوذ المسلمين على جيشهم ، وملاها الانتصار بالحماس مع ضعفها وهوان أمرها ، وجلب لها الأنصار والتأيدين من كل مكان من أسبانيا وغيرها ، ولقت لها أنظار المتعاطفين معها قبل أن تلتفت أنظار المسلمين إلى خطورة وجودها ، ولقد كان عيبا كبيرا بذكره التاريخ لغير صالح المسلمين أن يتركوا هذه القوات تعيش فى أماكنها بعد انتصارها عليهم ، فقد أثارها الانتصار وزاد من حماسها ، وكسبت به مكانة ممتازة بين غير المسلمين فى المناطق القريبة من بلادها ، وفى غيرها من

المناطق الأخرى ، ولم يكن المسلمون في ذلك الوقت مشغولين بالاهتمام بالأخطار المحيطة بهم بسبب أعدائهم بقدر ما كانوا مشغولين بالنزاعات الداخلية في صفوفهم ذاتها ، وكانت صراعاتهم الداخلية خطيرة النتائج وبمعية المسمى ، فجعلتهم لا يترقبون الأخطار إلا من زملائهم ولا يتوقعونها إلا من داخل بيئتهم وحدها وكان في ذلك فرصة الحيلة للقوات المعارضة لهم في الشمال البعيد من الأرض الأسبانية .

نقد قضت المنازعات الداخلية بين المسلمين في عصر الولاة - ٩٣ -  
١٣٨ هـ / ٧١١ - ٧٥٥ م - على أعداد كبيرة منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة حدود شبه الجزيرة الأسبانية البعيدة ، وشغلهم عن اليقظة اللازمة لحراسة نظامهم الجديد ومجتمعهم الناشئ .

ويقال عن حركة الاسترداد الأسبانية إنها كانت سلسلة طويلة من الكفاح المباشر وغير المباشر ضد نفوذ المسلمين بالأندلس وإن لها حلقات رئيسية معروفة ، وإنها استمرت طوال فترات الحكم الإسلامي لهذه البلاد ، وتمثلت في أول ظهورها في هذه الجماعات الصغيرة التي رفضت الاعتراف بسلطة المسلمين منذ البداية ، ولكن يبدو الآن أن من المبالغة أن يقال إن حركة المقاومة لسلطان المسلمين في أسبانيا نشأت منذ وجودهم فيها ، لأن هذه الحركة لم تكن واضحة الصورة أو الهدف عند تكوينها ، ولهذا لا نجد حولها إشارات صريحة في كتب المؤرخين العرب ، وربما كان هؤلاء يرونها مجرد انتفاضة عصبية أو حركة تشنجية لجماعة قليلة يائسة ، ولم تكن تدل في رأيهم على قيام معارضة قوية أو صريحة لنفوذ المسلمين بالأندلس ، ولم يكن عندهم حتى مجرد الظن في انتصارها على العرب في أي وقت من حياتهم .



وصحيح أن حركة المعارضة هذه لم تنتصر على العرب انصارا حاسما ، ولم يظهر وجودها طول تاريخهم بالأندلس ، وقد عجزت عن أن تستمر للنهية قوة واحدة متماسكة أو منسجمة ، فتغيرت وتطورت ، وجاءت بعدها حركات قومية ودينية كثيرة كان لها أبطال جدد توزعت جهودهم واختلفوا وتنازعوا واقتتلوا فيما بينهم ، وربما كانوا يتفقون معاً على عداوة المسلمين وحربهم ، ورغم ذلك لا نقول بأن تاريخ المسلمين بالأندلس كان كله سلسلة طويلة لحركة صراع مؤسفة لم تنته بينهم وبين أعدائهم إلا بهزيمتهم في النهاية لأن أوقانا طويلة من هذا التاريخ كانت تبدو وكأن الفراغ في إسبانيا كان مشغولا دائماً بالمسلمين وحدهم وبدولة المسلمين وحدها .

وقد يبدو صحيحاً أن نقول إن هذه الحركة المبكرة نجحت فقط في انتزاع جزء مناسب من الأرض الأسبانية لتقيم عليها وجودها السياسي والعسكري هناك ، ثم نجحت أيضاً في أن جعلت المسلمين الأقوياء يعترفون بوجودها وكيانها كقوة منعزلة عن نظامهم وكيانهم ، ثم سارت الحياة بكل الناس في الأرض البعيدة عن مراكز الثقل الإسلامية بالشرق الإسلامي ، وحدث ما يشبه التفاهم الواضح بين القوتين الإسلامية والمسيحية ، أو حدث ما يشبه الاتفاق على السلام الظاهري بينهما .

ونجح المسلمون بعد ذلك في إقامة الدولة العظيمة المشار إليها في كتب التاريخ كلها ، ونجحوا كذلك في جذب أنظار كل من كان حولهم إلى رقي الحياة في مجتمعهم ، وإلى تطور الحضارة في بلادهم ، وعاشوا وقتاً طويلاً آمنين من الأخطار ، وقادرين على دفعها ، ولم يجد أعداؤهم لهم أملاً في التغلب عليهم أو

أذا هم أيام قوتهم ، فتركهم حياتهم الثرية الهائلة ، وحاولوا الاستفادة من تقدمهم وثقافتهم .

وإذا كانت وجهات النظر تختلف حول تقدير الأهمية الحقيقية لحركة المقاومة المسيحية التي بدأها جماعة قليلة من القوط الهاربين أمام المسلمين الفاتحين فإن التاريخ القومى لأسبانيا المسيحية يعتبر جهود هذه الجماعة الصغيرة حلقة مهمة من تاريخ حركة الكفاح الوطنى ضد المسلمين فى الأندلس ؛ ويعطى لها وانوارها أهمية بالغة ؛ ويسرف فى تقدير دورها وآثارها ، ومن المعروف أن أكثر الكتاب الذين تناولوا تاريخ هذه الحركة الثورية كانوا من رجال الدين المسيحيين الذين يمثلون روح عصرهم ، ويحفظون فى قلوبهم بأحقاده وخصوماته ، وهذا يعنى أنهم كانوا لا يميلون للكتابة عن الحقيقة لذاتها ، وإنما كانوا يكتبون وهم يحسون بهول الخصومات الدينية ودوافعها . ولهذا ظل بلاى فى نظرهم فى الطبيعة من شخصيات التاريخ الوطنى الأسباني واقترن اسمه دائماً بصراعه مع العرب والبربر ، وأسرف كل من كتبوا عنه فى الإشادة بأبجاده العسكرية وحدها .

وجاءت بعده جماعة من الحكام الأسبان كان منهم ألفونسو الأول المتوفى سنة ١٤٠ هـ - ٧٥٧ م وكان يحكم فى وقت لا يبدو فيه من المسلمين خطر على بلاده أو على دولته التى كونها فى منطقة جليقية عند الشمال الغربى من أسبانيا ؛ وكانت ملكته هذه التى سماها « اشترىش » تمتد من بلاد البشكنس فى الشرق إلى شاطئ المحيط الأطلسى غرباً ، ومن أقصى الشمال عند خليج بسكونية إلى نهر دويرة فى الجنوب ؛ وكانت الجبال تحجبها عن بلزاد المسلمين الواقعة فى الجنوب من شبه الجزيرة الأسبانية .

وانشغل المسلمون عن هذه الإمارة الناشئة بشئونهم ومتاعبهم، فأصبحت لها حدود آمنة؛ ومعالم واضحة، وقوة تساعد على الاستمرار والتقدم.

وقد يكون من الممكن التسليم بنوع من الأهمية لحركة القوط المبكرة ومعارضتها لسلطة المسلمين في الأندلس، ولكن من غير الصواب أن يقال إنها كانت ترتبط ارتباط عضويًا بحركة الاسترداد المسيحية التي وضعت صورتها الجدية بعد زوال خلافة المسلمين من قرطبة في أول القرن الخامس الهجري، وفي النصف الأول من القرن العاشر الميلادي.

وقد مضت فترة طويلة منذ نشأت حركة القوط الأولى في أول القرن الثاني الهجري، وأول القرن الثامن الميلادي وإلى أن ظهرت حركة الاسترداد المعروفة بعد أيام المنصور بن أبي عامر المتوفى سنة ٨٣٩٣ - ١٠٠٢ م، وخلال هذه الفترة الطويلة لا نعرف شيئاً كثيراً عن نشاط المسلمين ضد الرافضين لسلطتهم والخارجين على نفوذهم بالشمال الأيباني، وهذا يدعو للقول - ونؤكده ذلك مرة أخرى - بأن حركة الاسترداد المسيحية لم تسكن أبداً معركة طويلة دامت ثمانية قرون كانت هي المدة التي قضاها المسلمون ببلاد الأندلس، لأن ذلك يعني أن الفتح الإسلامي لأيبانيا كان مجرد حادث طارئ طال زمنه وانتهى أمره، فلقد شغل تاريخ المسلمين بأيبانيا فترة طويلة من حياتها، وشغل فترة مجيده من هذه الحياة، ولم تكن مقاومة المسلمين بعد الفتح وفي أيام مجدهم إلا حركة يائسة لم تؤثر كثيراً في تقدم حياتهم وتطورها، ولم يجد نظام المسلمين معارضة قوية ونشطة في فترات طويلة من وجوده، وبهذا تشير حقائق التاريخ.

ويبدو واضحاً من تاريخ المسلمين في الفترة التي سبقت قيام الدولة الأموية بالأندلس سنة ٨١٣٨ / ٧٤٥ م أن بعض الولاة كانوا مجاهدين مخلصين يعتبرون الحرب



ضد الأعداء هملا عظميا من أعمالهم الأساسية ، فكانوا يحاربون وراء حدود  
أسبانيا الشمالية ، ومات بعضهم شهيدا وراء هذه الحدود ، ويعرف  
من هؤلاء :

( أ ) السمع بن مالك : ١٠٠ - ١٠٢ هـ / ٧١٩ - ٧٢١ م .

( ب ) وعنبسة بن صميم الكلبي : ١٠٣ - ١٠٧ هـ / ٧٢١ -

٧٢٦ م .

( ج ) ، وعبد الرحمن الفياقي : ١١٢ - ١١٤ هـ / ٧٣٠ -

٧٣٢ م .

( د ) وعقبة بن الحجاج . ١١٦ هـ / ٧٣٤ م

فقد نقل هؤلاء الحرب إلى بلاد أعدائهم ، واجتازوا حدود أسبانيا  
الشمالية الشرقية إلى البلاد الأوروبية المجاورة ، وكانت قوتهم تعني أن أية  
معارضة لنفوذ المسلمين في أسبانيا كان عليها أن تلتزم بالصمت حتى تنجو  
من الهلاك بسببها .

وعندما ضعفت سلطة الدولة الإسلامية في الشرق على بلاد الأندلس أخذ  
الزعماء المغامرون فيها يكسبون السلطة بها عن طريق الأحزاب المتنافسة فيما  
بينها على كل شيء حولها ، وتمكنت الخصومات الحزبية والقبلية والعصبية في السياسة  
والناس والولاة ، وانشغل هؤلاء بتثبيت مراكزهم والحفاظ عليها ، وانصرفوا  
إلى حرب خصومهم المسلمين ، ولم يدركوا أهمية الأخطار الكامنة في وجود  
قوات معادية لنظام الإسلامي بالأندلس ، وكان من هؤلاء الولاة :

( أ ) عبد الملك بن قطن : ١٢٣ هـ / ٧٤١ م .

( ب ) ويلج بن بشر القشيري : ١٢٣ - ١٢٤ هـ / ٧٤١ - ٧٤٢ م .

(ج) ويوصف الفهرى مع الصمحل بن حاتم : ١٢٩ — ١٣٨ هـ / ٧٤٦

— ٧٥٦ م .

وفي عهد هؤلاء الولاة الذين كسبوا السلطة عن طريق القوة وحدها لم يكن  
أمام المعارضين لنفوذ المسلمين بالأندلس فرصة فقط للحياة في سلام ، وإنما  
كانت أمامهم الظروف الطيبة لتوسيع حدود بلادهم على حساب المسلمين  
رمصالحهم .



لقد فقد المسلمون — كما قلنا — بسبب خلافاتهم وهزيمتهم أمام أعدائهم  
قبل مجيء عبد الرحمن الداخل إلى بلاد الأندلس سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ربيع  
المناطق الواسعة التي كسبوها بالحرب والجهد والعمل الناجح ، وجاء عبد الرحمن  
الداخل وكان الأمل قويا عند أعداء المسلمين في أن يكسبوا المزيد من الأراضى  
الأندلسية على حسابهم ، ولكن الوافد الجديد أبعد الخطر عن كيان المسلمين  
بالأندلس ، وأوجد لهم هناك دولة تعمل وحدها ، وتعيش داخل حدودها ،  
وصحيح أنه لم يسترد شيئا مما فقدته المسلمون قبله بالإهمال والمجز والخسومات  
والفتن ، ولم يحاول أن يرجع بعض المناطق التي ضاعت من المسلمين قبل قدومه ،  
وقد انصرف إلى الحفاظ بالجهد والوعى والقوة على ما وجدته مع المسلمين  
بعد أن أصبح سيدا عليهم ، وأوقف حركة التفتقر الإسلامية للجنوب ، وشغل  
نفسه وجيشه وحزبه بإعلان الدولة المستقلة عن دولة المسلمين بالشرق لأول مرة  
في التاريخ ، وربما كان عاجزا عن أن يدفع حدود هذه الدولة مسافات أبعد  
إلى الشمال على حساب أعدائه ، أو ربما كان لا يرجو أن يعرض نفسه  
للخصومة المكشوفة مع المسيحيين حكام الشمال ، وهو يعلم أن له أعداء من

للمسلمين أنفسهم في داخل بلاده ذاتها ، وأن له أعداء أقوياء من العباسيين في العراق البعيد ومن مؤيديهم في إفريقية القريبة من بلاده ، وكان يهيم أن يثبت وجوده أولاً في أرض الأندلس وحدها ، وكان يدري أن هذا سوف يشغله وقتاً طويلاً ، وقد شغله كما ظن طول حياته ، فعاش بالأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً قضاها كلها في بناء الدولة التي لم تزد حدودها أبداً عما أخذت من حكم المسلمين قبله .

ويلتمس المؤرخون له عذراً كبيراً في هذا السلوك العاجز لأنه كان يعمل في ظروف صعبة إذ كان يمثل دولة الأمويين للنهارة في الشرق ، وكان يتحدى باستقلاله في الأندلس سلطان المباسيين خلفاء المسلمين ، وكانت الأخطار تحيط به في بلاد الأندلس ذاتها لأنها كانت مشحونة بالمتخاصمين من حوله ، ثم كانت حوله في إفريقية أخطار قريبة مباشرة ، وفي شمالى بلاده كان له أعداء أقوياء زادت مساحة بلادهم ، وزاد سكان دولتهم ، وأصبح من غير الممكن أن ينجح أحد في القضاء عليهم ، وكان الأمر الواقع قد فرض تقسيم أسبانيا في عهده أو قبل عهده إلى وحدتين سياسيتين ودينتين مختلفتين ، واحدة منهما مسلمة تكونت فيها لأول مرة دولة لها رئيس مشغول بشئونها ومسئول عنها ، والأخرى مسيحية أصبحت تمثل إحدى القوى المؤثرة في مصير البلاد ومستقبلها .

وشغل عبد الرحمن نفسه بمداغة الأخطار الداخلية في بلاده ، وترك ما بعدها أو انصرف قليلاً عنها ، وقد تمثلت هذه الأخطار في الثورات التي أشرنا إلى أهمها عند الحديث عن قيام الدولة الأموية بالأندلس ، ولم يأتها الخطر من حركة المقاومة المسيحية بدولة أشتريش الناشئة في جليقية وما حولها ، لأنه تركها تعمل لتعيش لنفسها ومستقبلها وتركته بدورها يعمل في فورة حماسه الصارم داخل



بلاده ليقم لنفسه دولة مستقلة، وإذا كان قد تعرض لإغارة الفرنج عليه سنة ١٦١ هـ  
٧٧٨ م بعد أن تأمر بعض زعماء العرب المعارضين له في أرض الأندلس نفسها  
مع شارلمان فإن غارة شارلمان وجيشه على بلاد المسلمين لم تكن فيها شبهة التواطؤ  
مع حركة المقاومة الأسبانية في الشمال، وربما لم تكن هذه الحركة قوية أو راغبة  
في ذلك الوقت في الإعلان عن نفسها وتعاونها مع قوات الفرنج المغيرة من  
خارج أسبانيا على المسلمين فيها، ولذلك تركت شارلمان يعمل في بلاد الأندلس  
وحده ضد عبد الرحمن الداخل، ولم يبد منها ما يشبه التأييد أو الموافقة على  
ما كان يريده بالمسلمين هناك، وربما اعتبرته وافداً أجنبياً تضر تصرفاته قضيتها وهي  
في مراحل وجودها الأولى، فلم ترحب به ولم تشاركه في العمل ضد المسلمين بل عارضته  
وتسببت في متاعبه، وكان دور عناصر البشكنس المسيحيين أو شبه المسيحيين أبعد  
أثراً وأشد خطراً على جيش شارلمان مما قام به جيش المسلمين نفسه، ويشير التاريخ  
إلى أن قوات الفرنج عانت في رجوعها من أسبانيا شبه منهزمة من قسوة الفارات التي  
شدتها عليها قبائل البشكنس عند ممرات جبال البرقات، ولا يعني هجوم البشكنس  
على جيش الفرنج عند رجوعه خائباً من أسبانيا أنهم كانوا يتعاونون مع المسلمين  
في مدافعة جيش الفرنج وإبعاد خطرهم، ولا يعني أيضاً أن هذه الجماعات كانت  
تنضم إلى قوات المعارضة المسيحية أو كانت تمثل من يرفضون قبول النفوذ  
الفرنجي بأسبانيا، لأن هناك شكاً في خضوعها لسطوة النفوذ السامى للمسيحيين  
المتمردين في جليقية الشمالية الغربية، وربما كانوا جماعات مسيحية أو نصف مسيحية لم  
تتخذ بعد لنفسها موقفاً محددًا من القوتين الظاهرتين في أسبانيا، ولكن هجوم هذه  
الجماعات على جيش الفرنج القادمين من قلب أوروبا يدل في وضوح على عدم التعاطف  
الظاهر بين المسيحيين في أسبانيا والمسيحيين في خارجها، وكان كل جماعة منهم

كانت تعمل وحدها مهتدية بمصالحها وظروفها أولا وليس هناك دليل كاف على أن الدولة المسيحية الناشئة في أقصى الشمال الأسباني اتخذت موقفا صريحا من الفرنج عند غارتهم على المسلمين سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م .

واستمرت الخصومة حية بين المسلمين بالأندلس وبين الفرنج في أوروبا، وكانت طرق الاتصال بين القوتين بعيدة عن مجالات النفوذ المباشر للدولة المسيحية الأسبانية، أو ربما لم تكن هذه الحدود بعيدة كل البعد عن سبل الاتصال العدائي بين القوتين ولكن المعارضين للمسلمين في أسبانيا خافوا من الاتهام بالتواطؤ الصريح مع أعداء المسلمين خارج البلاد الأسبانية حتى لا يعرضوا أنفسهم لفضب المسلمين وانتقامهم أيام قوتهم، ولا شك أنهم كانوا يعرفون عن المسلمين أكثر مما كان يعرف الفرنج القادمون من وراء الحدود الأسبانية، وكانت قوة المسلمين غالبية طول أيام حكمهم الأقوياء الذين أسسوا دولتهم بالأندلس والذين رعوا حياة هذه الدولة بوعى واهتمام .

وظلت الدول المسيحية بالشمال — وكانت الدولة الواحدة قد توزعت بسبب الخصومات والفتن بين أصحابها إلى دول متعددة — ظلت هذه الدول طول العهود التي كان للمسلمين فيها قوة غالبية أشبه بالحميات المستضفة للدولة المسلمين بالأندلس، وكان عليها أن تلتزم بالعصمت أو بالوسائل المؤدية للحياة في سلام وقد سمح لها المسلمون التسامحون بطبيعتهم بالحياة في حدود ارتباطها معهم بنوع من الولاء أو بنوع من التفاهم غير المعروف لنا الآن، وإذا لم يكن ممكنا لكل سكان شبه الجزيرة الأسبانية أن يعيشوا معا في رعاية نظام واحد، وفي ظل دولة واحدة — وهذه كان لا بد أن تكون دولة المسلمين وحدهم — فإنهم جميعا قبلوا أن يتقابلوا عند الرأي القائل بالسماح للنظاميين بإقامة الكيان الذي يتفق مع آمالها



وفلسفتهما في الحياة ، وقبل الجميع المشاركة في الحياة بأسبانيا مع التسامح الطيب ،  
ولاشك أن التسامح كان واضحاً في جانب المسلمين وحدهم لأنهم حتى القرن الحادي  
عشر الميلادي كانوا يملكون القوة السكافية الاضرار بأعدائهم ، ولكنهم لم  
يلجئوا لاستغلال هذه القوة ضد هؤلاء الأعداء رغم ضعفهم وهوان شأنهم .

وبمقارنة مربعة بين سلوك المسلمين أيام قوتهم مع خصومهم الذين ظهروا  
ضغاء حتى القرن الخامس الهجري ، والقرن الحادي عشر الميلادي وبين سلوك  
المسيحيين بعد أن ملكوا القوة بعد هذا التاريخ ، - وبعد أن انقلب ميزان  
القوى لصالحهم - نجد أن سلوك المسيحيين كان مغايراً جداً لسلوك المسلمين معهم ،  
فقد ظلموهم وبغوا عليهم ولم يسمحو لهم بالحياة معهم في سلام ، واستمروا  
يلحون عليهم باستعمال وسائل الموت حتى قضوا عليهم وطردوهم من بلادهم كلها  
وكانوا لا يذكرون إلا أنهم كانوا غرباء عنها حتى بعد أن قضوا بها هذا  
الوقت الطويل .

ونقول أيضاً إن قوة المسلمين ربما كانت كافية أيام مجدهم للقضاء على  
خصومهم بالأندلس ولكن ذلك لم يكن في نيتهم أو من أخلاقهم ودينهم ، وبعد  
ذلك لم تصبح المحاولة - إذا أرادوها - سهلة بعد أن استقرت الأوضاع السياسية  
والجغرافية ، وبعد أن قاربت أن تستقر بينهم وبين أعدائهم ، وبعد أن ازدحمت المناطق  
الشمالية بجماعات مسيحية كانت تحاول الدفاع عن نفسها بشجاعة وترغب في الصمود أمام  
أعدائها حتى النهاية ، وبعد أن وضعت الصورة في شكلها النهائي أو بعد أن اتخذت  
لها شكلاً ثابتاً بين الجماعتين ، وساعد الأمر الواقع على أن ينحصر نشاط المسلمين  
فقط في المنطقة التي سلمت لهم أخيراً ، وعلى أن يلجأ المسيحيون إلى الحياة في  
المناطق التي انتزعوها من المسلمين أمام خصوماتهم ومنازعاتهم الطويلة .



لقد انجبه الأمويون منذ تأسيس دولتهم إلى عدم التورط في معارك كبيرة خارج حدود البلاد الإسلامية ، وكان من أسباب ذلك أن شعب الأندلس استمر قلقاً ناعداً لا يستقر حاله ولا تهدأ ثوراته ، وكان الحكام الأمويون فوق ذلك راغبين في حراسة الازدهار الذي أتاحوه لبلادهم ، وفي محاولة صهر العناصر الكثيرة التي كان يتكون منها شعبهم في وحدة شاملة لتنشأ من هذه العناصر أمة واحدة تشعر بالهدف الواحد والمصير الواحد ، وساعدتهم قوتهم على تحقيق الاستقرار المطلوب لبلادهم ، وعلى خوف أعدائهم منهم ، وقد تسامحوا مع هؤلاء الأعداء ، أو أدركوا أن وجودهم بأسبانيا أصبح أمراً يجب قبوله ، وكان يشجع للأمويين أمام أنفسهم وأمام شعبهم أن هؤلاء الأعداء لم يأخذوا من دولة الأمويين شيئاً ، وأن كل ما أخذوه من بلاد المسلمين كان قبل قيام هذه الدولة ، ولم يروا أنفسهم مسئولين عن أخطاء من سبقوهم ، أو هكذا كان رأيهم لأن التاريخ لا يشير في صراحة إلى وجود محاولات قوية قام بها الأمويون ليردوا للمسلمين شيئاً مما خسروه قبل إعلان دولتهم ، وكأنهم كانوا لا يشعرون بهذه المسئولية في يوم واحد من تاريخهم كله.

وأصبحت أسبانيا قبل قدوم عبد الرحمن الداخل مقسمة إلى جزأين كبيرين ، أحدهما كان يخضع لسلطة المسلمين في الجنوب ، والآخر كان يخضع لسلطة المسيحيين في الشمال ، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن حقيقة العلاقات التي كانت تربط بين من كانوا يمثلون نظامين مختلفين في منطقة واحدة ، ولا نظن أن التعصب القومي أو الديني كان واضحاً أو مؤثراً عند كلا الجانبين طول حكم الدولة الأموية إلا عند فترات الحروب غير الحاسمة التي كانت تقوم بينهما ، ولم تكن الحروب بينهما حروباً دينية بالمعنى المفهوم للحروب الدينية في التاريخ ، وإنما

كانت تبدو في كثير من مظاهرها حروبا صغيرة ، أو غارات تقليدية لانفيد  
شيئا إلا في تثبيت الحكم من الجماعتين في أماكنهم الممتازة، وكأنها كانت  
أقرب للحروب السياسية منها للحروب الدينية.

وانصرفت القوتان لشئونهما ، وكانت في مراحل تكوينهما الأولى ،  
انصرف الأمويون لتأسيس دولتهم في القرن الأول من وجودهم بإلداد الأندلس  
١٣٨ - ٢٣٨ هـ / ٦٥٥ - ٨٥٢ م وتركوا شئون الشمال الأسباني لأهل الشمال  
وحدهم ، وكان هؤلاء لا يتوقعون الكثير من المفاجآت العسكرية الآتية عن  
طريق المسلمين حكم الدولة الجديدة ، ولا يعني انصراف القوتين لشئونهما  
أنهما لم يتورطا في حروب تثير انتباه كل منهما للآخر ، وإنما يعني عدم حدوث  
حروب حاسمة تغير شيئا مما كان مستقرا من الأوضاع عند الجانبين معا ، ولم يكن  
ممكنا أن تزول الخصومات أو أن تضيع أسبابها بين قوتين لم يكن مأمولا أن  
يلتقيا حول شيء واحد يجمعهما ، وإذا كان حكم المسلمين الجدد قد قنعوا بما  
وجدوه في أيدي المسلمين بعد خلافتهم العقيمة أيام حكم الولاة أو أيام فترة  
التكوين إقام الدولة الأموية ، فإن أعداءهم سادة الممالك الشمالية ما كان يفتشون  
خواطرهم أنهم ملتزمون بتحقيق هدف ديني وقومي صريح ، وهناك كان ألفونسو  
الثاني - الذي عاصر الأمير هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم - يتناوب الحروب  
مع المسلمين في السنوات ١٧٩ هـ ٧٩٥ م ، ١٩٣ هـ ٨١٠ م ، ٢٠٨ هـ ٨٢٣ م ،  
وكانت هذه الحروب تدل على بقاء الخصومة بين قوتين متعادبتين في أسبانيا .

\* \* \*

وفي فترة انهيار حكم المسلمين بالأندلس ٢٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ - ٩١٢ م  
ازداد الضغط عليهم بالثورات والفتن الداخلية ، وإذا لم يضطروا في هذه الفترة

غير المشرفة من تاريخهم لأن يواجهوا حروباً صريحة تهدد وجودهم في بلادهم فإنهم واجهوا فتن المولدين وغير المولدين الذين أرادوا تحطيم السلطة الإسلامية الواحدة ببلاد الأندلس ، وقام زعماء الفتن الداخلية في بلاد المسلمين بأخطر الأدوار التي هزت كيان الدولة وعرضتها للضياع الأخير ، وكانت قوات الدول المسيحية الأسبانية تقف وراء الفتن المتراكمة في بلاد المسلمين لتحقيق بها أكثر مما كانت ترجوه من النصر في الحروب المكشوفة ، وكان أى هجوم مسيحي يستطيع أن يؤثر بالضرر على دولة المسلمين في هذا التاريخ ولكنه في الوقت نفسه قد يأتى ببعض النتائج العكسية مثل أن يساعد على تقارب قوات المسلمين وتآلفها أمام الأخطار الخارجية ، وقد جاءت الفرصة المناسبة لأعداء المسلمين في هذه الفترة لتفتيت وحدتهم وتمزيق صفوفهم ، وهذا كان بشكل أعظم الأخطار على الكيان السياسى لدولتهم المتحدة بالأندلس ، وربما كان المسيحيون يترددون من جانبهم في القيام بعمل حاسم ضد المسلمين في هذه الفترة من حياتهم لأن المسئولية في لادهم نفسها كانت مضطربة ، أو لم تكن واضحة في جانب واحد أو عند دولة واحدة من دولهم ، وقد كانوا بدورهم يعيشون فترة من فترات التبلور في نظامهم السياسى أو كانوا يمرون في دور من أدوار التشكيل المؤثر في مستقبلهم ، فكانوا يتصارعون فيما بينهم في محاولة يائسة للاندماج في شبه وحدة سياسية تكون مسئولة عن تحقيق الأهداف الدينية والقومية المتفق عليها بينهم جميعاً .

\* \* \*

وجاء القرن الرابع الهجرى ٣٠٠ - ٩١٢/٨٢٩٩ - ١٠٠٨ م وكان فيه المسلمون أقوياء بوحدهم تحت زعامة خليفتهم الشهير عبد الرحمن الناصر ، وتحت



زعامة ابنه المستنصر ثم الحاجب المنصور من بعده ، ولم تمن قوتهم المتفوقة في هذا العصر الذهبي من تاريخهم إلا أنهم كانوا يستطيعون الرد بكفاءة على الإساءات العسكرية التي يمكن أن يفاجئهم بها أعداؤهم ، وإلا أنهم كانوا يستطيعون القول بأنهم أصبحوا من جديد قوة عسكرية هائلة ووحدة سياسية مفسجمة .

وكان المسلمون خلال هذا القرن يملكون قوة كبيرة معروفة بالمنطقة كلها حتى أصبحت الممالك المسيحية معها محميات حقيقية لدولة المسلمين بالأندلس ، فكان عليها أن تلتزم بالتعهد بدفع ضرائب مالية للحكام المسلمين الأقوياء ، ومن المعروف في التاريخ أن المسلمين في عهدى الناصر والمنصور كانوا يتدخلون في تعيين بعض الحكام للدول المسيحية الأسبانية ، وكانت تأتيمهم الوفود من كل مكان بأوروبا وازدهرت بلادهم بتقدمها الحضارى وتفوقها في كل شيء وأعلنت وصايتها على الإمارات للمسيحية المتأخرة في شمالى أسبانيا ، ولم يشر التاريخ مع ذلك إلى أنهم حاولوا بقوتهم المتفوقة أن يزيلوا الوجود السياسى والعسكرى لدول المسيحية الأسبانية في الشمال ، لأن ذلك لم يكن من مخطوطهم السياسى أو من أهدافهم القومية ، وربما بدت لهم محاولة ذلك مخالفة صريحة لسلوكهم كشعب كريم متسامح أو وهما عقبا لا فائدة فيه ، وبدا واضحا أن المسلمين كانوا قد قبلوا وجود الدول المسيحية حيث هى بالشمال الأسباني ، وأدركوا عدم الجدوى من الصراع معها بفرض القضاء عليها .

ومع هذا الشعور الإنسانى المتطور استمر الصراع العسكرى قائما بين الجانبين ، وظهر تفوق المسلمين في الحروب التقليدية التي أثاروها ضد أعدائهم أو التي أثارها ضدهم خصومهم سكان الشمال في السنوات ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م ، ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م (١) ،

---

( ١ ) هناك حروب كثيرة أخرى تشير إليها كتب التاريخ بالتفصيل ، وليس لها أهمية خاصة في حركة الصراع بين المسلمين وبين أعدائهم خلال هذه الفترة للمتنازة من تاريخهم بالأندلس

وانتصر الخليفة عبد الرحمن الناصر على أعدائه انتصاراً كبيراً لم يكن الهدف منه إزالة الوجود السياسي أو العسكري لبعض دول أسبانيا المسيحية ، ولم يستغل الخليفة المسلم انتصاره لتحقيق شيء إلا لإضعاف هذا الوجود والإلحاح عليه بالخطر .

ومع ذلك فلم يكن الانتصار دائماً حليفاً للمسلمين وحدهم في عهدهم الذهبي ببلاد الأندلس ، فقد كانوا معرضين بدورهم للهزيمة أمام أعدائهم ، وقد انهزم الخليفة الناصر نفسه أمام خصومه سنة ٤٣٢٧ / ٩٣٩ م ، وسواء أكانت هزيمته هذه بسبب خيانة بعض من كانوا في صفوف جيشه ، أو بسبب قوة أعدائه وحدها ، أو بالأمرين جميعاً فإنها كانت هزيمة مؤسفة لم يفكر بعدها في قيادة جيش المسلمين مرة أخرى .

وكان انتصار القوات المسيحية على جيش عبد الرحمن الناصر يعني أنها أصبحت قوة كبيرة لا تملك فقط وسائل المقاومة الكفيلة برد غارات جيشه الكبير بل وتملك معها كذلك وسائل الهجوم عليه وهزيمته .

واستمرت الأسر الحاكمة بأسبانيا المسيحية لا تختلف على ضرورة حرب المسلمين ودفع خطرهم ، وكان لأعداء المسلمين بشمال أسبانيا في ذلك التاريخ ثلاث دول هي :

( أ ) قشتالة .

( ب ) ليون .

( ج ) نافار .

وكانت تحكمها أسر ملكية تختلف وتتنازع وتتقاتل فيما بينها ، ولكنها كانت

تتفق أحيانا على إشاعة السلام بينها لفترات طويلة لأن روابط القرابة والمصاهرة كانت تجمعها كلها، وعندما كانت فترات السلام تسود بينها كانت تقاتل المسلمين في شبه وحدة متماسكة وكانت تتعاون عند قتالهم حتى في أوقات خصوماتها المشتعلة، وإذا بدت هذه الدول متخصصة في فترات من حياتها فإنها في كل أوقاتها كانت تتنافس على حرب الأندلسيين وإضعافهم، وقد كان هذا غرضا قوميا وهدفا دينيا التزمت به كل هذه الدول أمام شعوبها وكنيستها، وبدأ في حالات كثيرة أن ميدان العمل الحربي والمغامرات العسكرية كان مفتوحا دائما أمامها في بلاد المسلمين وحدهم، وإذا كانت هذه الدول تقاتل وتتصارع فيما بينها فإن حروبها لم تكن غالبا إلا لفرض الوحدة على من كان يرفضها منهم، وإلا لفرض التماسك لتحقيق الهدف الأكبر وهو النصر على المسلمين في النهاية.

وفي عهد النصور ٣٦٦ - ٣٩٢ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م تبلوت الأوضاع السياسية والعسكرية في الممالك المسيحية الإسبانية إلى أن أصبحت قشتالة أقوى الدول المسيحية في الشمال، وألح عليها النصور بالحرب إلا أن إلحاحه هذا كان يعني أنها كانت تتعمل وحدها أمام قريناتها عبء الدفاع عن مستقبل الدول المسيحية في أسبانيا كلها، وأضفى ذلك عليها أهمية كبرى بين غيرها من الإمارات المسيحية الأخرى، ومن المعروف أن النصور كان يحقق لنفسه ولشعبه انتصارات باهرة على الأعداء في كل مكان، وأن جيشه القوي كان يمثل الخطر الدائم على وجود الإمارات المسيحية في أسبانيا، ويقال في التاريخ إنه قاد ضد الإمارات المعادية له خمسين حملة عسكرية انتصر فيها كلها، وإن أعداءه لم يكونوا يهتمون شيئا أعظم من هلاكه، حتى إذا مات قالوا: إنه دفن في الجحيم، ومع ذلك فلم يحاول



للمنصور بجيشه الغالب وبمخاضه البالغ أن يزيل الوجود السياسي أو العسكري  
للإمارات المسيحية المستقرة في الشمال والغرب من أسبانيا .

وهذا يعني أن المنصور — وهو واحد من أعظم القواد العسكريين الذين  
عرفهم تاريخ الأندلس كله — لم يحاول توحيد الأرض الأسبانية كلها تحت  
زعامة واحدة ، وهناك شك في أن يكون عاجزاً عن تحقيق ذلك ، ومن الحق  
أن هذه الأرض لم تتحد أبداً منذ فتحها المسلمون ، وأنها ظلت منذ أيام الفتح  
تمثل وجهتي نظر مختلفتين ، ولم يكن ممكناً لأحد الجانبين أن يقضى على الآخر  
بوسائله المتاحة وبلت الانتباه دائماً أن المسلمين طول حياتهم كانوا يقرون — في  
ضراحة أو في غير ضراحة — بوجود قوتهم في أسبانيا ، وكانوا يعطون  
لأعدائهم حق الحياة معهم في بلد واحد ، وإن جاءتهم القدرة الكافية في بعض  
مراحل تاريخهم للقضاء عليهم ، وأما أعداؤهم فكانوا يرون أن وجود المسلمين لم يكن  
إلا مرحلة مؤقتة من مراحل تاريخ بلادهم ، فكانوا يقرون بهذا الوجود تحت  
ضغط القوة وحدها ، وهذا يعني بوضوح أن الضرورة كانت تلزم المسلمين بحمل  
السلاح دائماً ليحافظوا على وجودهم وبقائهم طول تاريخهم بالأندلس .

وربما لم يجد المنصور إزالة الوجود السياسي والعسكري للإمارات المسيحية  
في الشمال شيئاً ممكناً رغم قوته وتفوقه ، وكان هذا الوجود قد استقر وقتاً طويلاً ،  
وعاشت القوات المعادية لسلطان المسلمين بالأندلس فترات طويلة منذ تكوينها على  
هامش الحياة بالمنطقة أو لم يكن لها تأثير واضح في حياة الأندلسيين الأقوياء ، ولكنها  
خلال هذه الفترات الطويلة كانت تبني لنفسها كياناً ثابتاً ووجوداً قوياً في أماكنها  
البعيدة حتى استطاعت أخيراً لأن تثير فقط الفتن والمقاعب في بلاد المسلمين وترهاها  
بل وأن تقاومهم بإصرار عند الخصومة وهم في أقصى حالات قوتهم ومجدهم .

وبعد ذلك لم يصبح التفكير في إزالة هذا الكيان المعارض للمسلمين وارداً أبداً عندهم، وربما لم يرد على فكرهم في كل أوقاتهم ، ولقد حاءتهم الفرص الذهبية في عهد المنصور وانتصروا في كل حروبهم ، ولكن هذه الحروب كانت أشبه بغارات الصوائف والشوائب المعروفة عند المسلمين في الشرق ، ولم يكن الغرض منها القيام بعمل حاسم لإنهاء قضية الصراع الطويل بين الجانبين المتعادين بقدر ما كان الغرض منها إبقاء هذا الصراع حياً بين جماعتين مختلفتين في العقيدة الدينية وفي كل شيء غيرها ، أو كان الغرض منها الإعلان عن الوجود القوي بالمنطقة الأسبانية ، وتأديب المعتدين على حرمة السلطات الحاكمة ، أو على بعض طوائف الشعب المحروسة بالقوة .

وكانت حروب المنصور تثير حماس المسلمين وترضيهم ، وتخدم بعض أغراضهم وتؤمن وجودهم ، وكانت مع ذلك تخدم أغراض حاكمهم القوي في الإعلان عن نفسه ، وهذه كانت من بعض الأغراض الأساسية التي شغلت المنصور طول حياته ووجهت جهوده وكيفتها ، لأنه كان وافداً غريباً على السلطة في النظام الإسلامي ، ولم يكن يشفع له في استمرار سيادته على الناس إلا أن يثبت لهم كفاءته في حكمهم وحمايتهم ، ولذلك أجهد نفسه وشعبه في حروب طويلة متصلة ضد أعدائه وأعداء دولته ، وإذا كان قد اقتصر في حروبه كلها - كما يشير إلى ذلك التاريخ بوضوح - فإن انتصاره لم يكن حاسماً ، ولم يكن يعني هزيمة أعدائه في النهاية ، إذ لم يكن الانتصار في معاركه يعني شيئاً غير إسكات صوت المنهزم حتى يستعد لمركة أخرى في المستقبل ، وهكذا ظل أعداؤه يتلقون ضرباته ويقاومونه وكأنما كانوا يتبعون معه خطة عسكرية

تسميها نحن الآن « حرب الاستنزاف » فقد دأرت الحروب طول عهد المنصور  
بين قوات المسلمين بالأندلس وبين القوات المسيحية في شمال أسبانيا ، وظهر فيها  
تفوق المسلمين وكفاءتهم ولكنها استنزفت جهودهم وقضت على اقتصاداتهم ،  
وجعلت بلادهم تتعرض بعد موت المنصور لثورات خطيرة قامت بها عناصر  
نشطة من صميم الشعب الأندلسي نفسه .



ثم سقطت دولة العامين سنة ٨٣٩٩ / ١٠٠٨ م وسقطت بسقوطها دولة  
الأمويين سنة ٤٢٢ هـ - ١٠٣١ م ، وتفتت وحدة المسلمين ، وتوزعت الإدارات  
في بلادهم بين مجموعاتهم العنصرية الرئيسية : العرب والبربر والصقالبة واللواتين ،  
وحكت كل جماعة من هذه الجماعات في منطقة منعزلة من بلاد الأندلس ، ولم تتحد  
حتى بعض هذه العناصر فيما بينها ، وأصبح للعرب هناك دول أو ما يشبه الدول ،  
وأصبح للبربر مثل هذه الدول أو أكثر منها ، وللب صقالبة دورهم في السيادة  
على بعض المناطق الإسلامية ، ونشط المولكون من جانبهم في البحث عن أماكن  
أخرى يمارسون فيها حق السيادة والزعامة على الناس ، وكانوا قد شاركوا في  
بناء مجد بلاد الأندلس ، وأصبحوا عنصراً هاماً من عناصرها .

وبهذا ضعفت قوة المسلمين ببلاد الأندلس أو تلاشت ، ومال ميزان القوى  
لغير صالحهم ، وكان لأعدائهم في الشمال ثلاث دول كبيرة هي :

( أ ) نادر .



(ب) فشتالة .

(ج) ليون .

وحاول سانشو الكبير ملك نافار أن يمارس بالقوة نوعاً من السلطة على أسبانيا المسيحية كلها لتبدو موحدة أمام أعدائها، وبذلك وجدت القوات المعادية للمسلمين الفرصة المواتية للقضاء على دولهم الصغيرة المتفرعة عن دولة الأمويين بالأندلس بعد زوالها ، ولكن هذا الملك توفي سنة ١٠٣٥ م فتوزعت مملكته بين أولاده الأربعة ، واقتتل هؤلاء الأبناء فيما بينهم على السلطة والسيادة ببلادهم ، وبذلك نجح المسلمون من خطر الضياع السريع ، وإن لم تسفر حروب أعدائهم إلا عن نوع من التماسك والوحدة من جديد رغم تعدد دولهم .

وبعد الصراع الناشب عند وفاة الملك المشار إليه لم تزد الوحدات المسيحية على خمس إمارات غير منسجمة كانت تختلف في درجة القوة والثروة ، وبعضها كان يفرض نفوذه على الآخر ، وكلها كانت تتفق على السياسة الصريحة المهادنة إلى التخلص من المسلمين في كل البلاد الأندلسية .

وأما دول المسلمين فقد بلغت عشرين دولة تجتمع كل واحدة منها حول القواعد الأندلسية الشهيرة مثل قرطبة ، وإشبيلية ، وغرناطة ، ومالقة ، وبطلوس ، وطليطلة ، وسرقسطة وغيرها ، وكان يبدو في هذا الوقت المبكر من ظهور الدول الإسلامية الكثيرة بالأندلس نوع من توازن القوى بينها وبين أعدائها ، وربما كانت القوتان متداعيتين في ذلك الوقت : قوة الأندلسيين في الجنوب ، وقوة الأسبان في الشمال ، ولكن هؤلاء كانوا يدركون بوعي أن التشتت ليس في صالحهم ، وكانوا يرون ضرورة العمل السريع من أجل الوحدة بينهم ، فتعاضدوا

لتحقيق هذه الوحدة، وكانوا يقصدون نها دائماً وحدة الهدف أو وحدة العمل ضد المسلمين في الأندلس، وأما المسلمون فرغم أن هم يمتهم كانت غرضاً أساسياً تنبى عليه سياسة خصومهم هنا، فلم يكن عندهم الإدراك الكافى بأهمية الوحدة فيما بينهم، فكانوا يتحاربون، وتزيدهم الحروب ضعفاً وتخاذلاً، وكانوا يستعملون أساليب العنف والقسوة فى التعامل مع أنفسهم، ولم يتأخر الضعيف منهم عن أن يتحالف مع أعدائه حكام الولايات المسيحية ضد زملائه إخوة المصير الواحد، فتعرضوا لهجوم أعدائهم المتحالفين ضدهم، ولم يستطيعوا أن يكونوا من أنفسهم قوة دفاع واحدة تحميهم من الأخطار المؤكدة.

وإذا كان الأسبان ينظرون للأندلسيين على أنهم أعداؤهم التقليدون، ويبحثون عن الوسائل الكافية لهزيمتهم، فإن الأندلسيين عجزوا عن إدراك خطورة هذا الشعور المؤسف، وكان إحساس الأسبان بالعداء الشديد لهم يجمعهم على الرغبة فى ظلمهم والاعتداء عليهم.

ومعنى هذا أن الأندلسيين كانوا فى ذلك الوقت غرضاً سهلاً لأعدائهم، وكان هذا يفرى أعداءهم بالحرب ضدهم والقسوة عليهم، وتغافل الكثيرون من المعرضين للأخطار عن إدراك حقيقة الشعور العدائى ضدهم، أو عجزوا عن عمل شيء بعد أن ضلوا طريق التضامن والاتحاد والقوة، ولم تظهر منهم اتجاهات صريحة للاتحاد بفرض البقاء فى الأرض التى كانوا يعيشون عليها منذ زمن طويل، وكان أمل أعدائهم فى التغلب الأخير عليهم لم يقابله وعى كاف أو اهتمام جاد من جانبهم لتفادى تحقيق هذا الأمل، وبدأ أن تسامحهم مع أعدائهم كان نوعاً من المعجز المريب أو نوعاً من الغفلة المهلكة، وقد أشرنا إلى أن الأندلسيين حتى فى أيام قوتهم لم يخططوا

للقضاء على النفوذ المسيحي بالمناطق الشمالية بل تركوا الدول المعادية لهم تعيش معهم في الأرض الأسبانية نفسها ، ولم يظهر من حروبهم مع هذه الدول أنهم كانوا يحاولون القضاء عليها ، وعندما ضعف شأنهم اختلف سلوك أعدائهم عن سلوكهم ، فحرصوا على القضاء عليهم ، وكان على الأندلسيين أن يبحثوا عن العمل للنافع لفنادى الأخطار التي بدا وقوعها محققاً في المستقبل .

واختلفت الدول الإسلامية الكثيرة بالأندلس وزادت خلافاتها ، ولم يكن أعداء المسلمين يرجون لهم شيئاً أعظم من أن يحتنفوا وتنشبت جهودهم ، فأخذوا يفرون بعضهم بالتأييد والمساندة ضد بعضهم الآخر ، ويهددونهم بوسائل الضغط السياسي والعسكري والاقتصادي معاً ، فتسابق ملوك المدن المسلمون إلى طاعة الأمراء المسيحيين والاحتواء بهم ، ودفعوا لهم الضرائب للآلية المرمقة ، وكان الشعب الأندلسي في عصر الطوائف كان يعمل ليكسب رزقه ، وليرضى تطلعات ملوكه ، وليدفع ضريبة البقاء لأعدائه معاً .

وتطورت الأحوال بالأندلسيين المستضعفين حتى أصبحت دولهم محميات مسيحية متخاذة ، وكانت هذه الحميات الكثيرة تلجأ في حروبها مع جيرانها الأندلسيين لطلب النجدة من عدوها المشترك ، وكانت تستأجر جنود الأعداء لتضرب بهم شركاءها في كل القومات القومية المعروفة .

وظهر التفوق المسيحي على المسلمين منذ أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، وقاد أعداء المسلمين ضدهم سلسلة طويلة من الغارات العنيفة التي تبلورت على أثرها سياسة الاسترداد المسيحية ، وأصبحت هذه السياسة ظاهرة قوية ،



وعاملا حاسما في ميدان الصراع بين القوتين المتنازعتين بالمنطقة ، ولم يتردد أعداء الأندلسيين في الضغط عليهم وابتزاز ثرواتهم ، وكانوا في كل الأوقات يخططون لطردهم في صراحة ، ويعلنون ضرورة بقاء المسيحيين وخدمهم في أسبانيا كلها .

وكان من مظاهر التمدى التي تعرض لها المسلمون أن هاجم فرناندو الأول — ملك قشتالة وليون — مملكة بطليوس سنة ١٠٥٢ م فقدم له حاكمها ابن الألفونس كل ما طلبه من المال ، ثم هاجم طليطلة سنة ١٠٦٢ م فاعترف له ابن ذى النون بالولاء والطاعة ، وهاجم بعد ذلك إشبيلية سنة ١٠٦٣ م فقدم له المعتضد بن عباد الهدايا والضرائب المطلوبة ، وكان هذا يعنى خضوع الثلاثة الذين كانوا يحكمون أكبر الممالك الإسلامية لسلطة هذا الملك المسيحي الطاغية الذي كان يتفوق على المسلمين في حروبه ، وقد أعطاه الفوز عليهم فرصة القول بسيادته على الممالك الأسبانية التي لم تكن خاضعة لنفوذه ومنها مملكتا نافار وأراجون وكان يوسع بلاده في قشتالة إلى الجنوب وإلى كل جهة على حساب المسلمين وغير المسلمين ، ثم وزع بلاده على أولاده سنة ١٠٦٤ م وجعل لكل منهم حقا ماليا مفروضا على الإمارات الإسلامية التي تعرضت لطفياته وظلمه .

وتصارع الأخوة الثلاثة أبناء فرناندو الأول بعد وفاته في السنوات ١٠٦٧ م ، ١٠٦٨ م ، ١٠٧١ م ، وفراثنان منهما إلى بلاد المسلمين للحماية من طغيان أخيهما المنتصر ، وعاش ألفونسو الهارب تسعة أشهر عند المأمون بن ذى النون حاكم طليطلة ، ووجد أخوه الآخر لنفسه مكانا آمنا في إشبيلية بين الأندلسيين .

ثم سقط الأخ المنتصر ضحية لعوامل الخيانة من داخل بلاده ذاتها وأصبح

ألفونسو السادس ملكا على قشتالة وليون وجليقية سنة ١٠٧٢ م ، ورغم أنه احتسب بالمسلمين من قسوة أخيه فترة من حياته المضطربة إلا أن سياسة الإذلال الحقيقية جاءتهم على يديه ، فتدخل في شئونهم ، وصرف جهده للتغلب عليهم واحدا بعد الآخر وقد كان من أهم أهدافه أن يقضى على من هموا ضعفه ورعوا ضيافته ، فمقد مع المعتمد بن عباد ملك إشبيلية حلفا يتعهد فيه سيد إشبيلية بتركه يهاجم طليطلة لتسقط أمامه ، ويضيفها لبلاده سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وكان الأندلسيون أيام الصراع بين حكام طليطلة وملك قشتالة يتفرجون على مصرع واحدة من أعظم إماراتهم وأهمها شأنًا ، وكان ذلك كان حكم القدر الأخير الذي ليس لأحد معه حيلة ، ولزموا الصمت أمام الخطر ، وكان بعضهم من حلفاء الملك المعتدى وأتباعه وإذا كانوا لم يساعدوه في التعدي على وطن المسلمين وظلمهم إلا أن سكوتهم كان كافيا لانتصاره عليهم ، إذ لم يكن يحارب وحده بل كانت تجتمع حوله جماعات متعصبة من غير بلاده ، وقد جاءت من بلادها البعيدة لتساند جهوده ولتعاونته في إسقاط طليطلة التي كانت عاصمة القوط القديمة ومركز الكنيسة المسيحية في أسبانيا كلها .

وكان الاستيلاء على مدينة طليطلة من أعظم أهمال هذا الملك ، وأخطر هزيمة واجهها الأندلسيون حتى ذلك التاريخ ، وبهذا الاستيلاء زادت سياسة الاسترداد المسيحية وضوحا وانكشافا .

ثم استيقظ المسلمون على نذر الضياع والخطر ، ولم يفهم ألفونسو المنتصر من طلب المال والتهديد بالحرب في كل مناسبة ، وكان قد بقي أمامه حليفه ابن عباد حاكم إشبيلية فطالبه بالإناوات المفروضة عليه وألح عليه بالتخويف بالعقاب ، ولم يجد

ملوك المدن المسلمون قوتهم كافية لدفع أخطار أعدائهم بعد تطورها وازديادها ، فاستعانوا بالمرابطين حكام إفريقية ، وجاءت جيوش إفريقية الباسلة لتقوم بدور النجدة السريعة لمصير المسلمين بالأندلس ، وتدفقت جماعات المرابطين من إفريقية مع أميرها يوسف بن تاشفين لتقابل قوات المسيحيين في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦م ولتجد أمامها حشودا ضخمة من المتطوعين النورمان والفرنسيين وكل جيوش أسبانيا المسيحية ، وانتصر المرابطون في الموقعة المذكورة انتصاراً عظيماً يختلف المؤرخون على درجة الحسم فيه ، لأنهم نجحوا في إفناء أعداد هائلة من جنود أعدائهم ، ولكن هؤلاء الأعداء لم يتغير وجودهم في البلاد الأسبانية بعد هذه الهزيمة ، بل استمر خطرهم على بلاد المسلمين ماثلاً حتى النهاية ، وكأن المرابطين كسبوا معركة عسكرية ولم يكسبوا الحرب بسببها كما نقول نحن الآن بأسلوب العصر الحديث لأنهم لم يستردوا ماضع من المسلمين قبل قدومهم ، ولم يتبعوا أعداءهم في بلادهم ، وكأن هذه الحرب لم تكن إلا لدفع موجة من موجات الخطر الملح على المسلمين بالأندلس أو لم يكن من أغراضها إلا الاحتفاظ للمسلمين بما بقي في أيديهم ، وترك المرابطون طليعة الساقطة في يد الأعداء قبل ذلك بعام واحد ، واكتفوا بإعلان نصرهم في هذه المعركة الشهيرة .

لقد جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إذا ليحارب في الأندلس معركة واحدة وبعد ذلك يرجع إلى وطنه في إفريقية ويترك بلاد الأندلس تحت رحمة الأعداء من جديد وكان الذين استنصروه قد اشترطوا عليه الرجوع لبلادهم بعد الحرب ليأرسلوا في بلادهم نفس السلوك الذي اعتادوه رغم أنهم كانوا يحسون بالخطر ورغم أن المستقبل لم يكن واضحاً أمامهم ، ومعنى ذلك أن الحرب في الزلاقة لم تكن إلا لدفع خطر عارض وبعد زواله استمر الخطر الدائم يلح بنفس القوة على المسلمين في الأندلس بل كان



يزداد بالزمن وللعناد ، ولما لم تتألف من الأندلسيين قوة واحدة لتتعامل مع أعدائهم بعد ذهاب المرابطين إلى إفريقيا أسرع أعداؤهم بالضغط عليهم في كل مكان من بلادهم .

ثم رجع المرابطون للأندلس مرة أخرى سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٩م ليجدوا من أعداء المسلمين مقاومة عنيدة عجزوا بسببها عن التغلب على حصن واحد كان قد أقامه هؤلاء الأعداء في قلب البلاد الأندلسية ذاتها فرجعوا لبلادهم ليعودوا للأندلس مرة ثالثة سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، وفي هذه المرة قضا على حكام الأندلس جميعاً وأخضعوا البلاد كلها لنفوذهم وأصبحوا سادتها الجدد ، وكانوا جماعات مجاهدة مستبسة غير أن بسالتها لم تكن كافية لحكم إمبراطورية واسعة كانت بلاد الأندلس الباقية في أيدي المسلمين إحدى مقاطعاتها البعيدة ، ثم كان المرابطون جماعات مسلمة متحمسة ولذلك اتهمها أعداؤها بالتعصب<sup>(١)</sup> الديني والعمل باسم المسلمين وحدهم ولا شك أن هذه لم تكن غير إحدى التهم الكاذبة المقصودة ليقابلها من جانب الأوروبيين تعصب أعني لقضية المسيحية في أسبانيا .

ويظهر أن الدعاية ضد المرابطين في الأندلس نجحت بين صفوف المسيحيين واليهود الخاضعين لسلطتهم ، فقد ترك هؤلاء بلاد الأندلس ليمثلوا الدنيا بالكذب على المرابطين وبالقول بإسرافهم في ظلم غير المسلمين ، ولذلك اتسعت دائرة الخصومة الدينية بين السكان ، وأصبحت أكثر انكشافاً في عهدهم ، وغدت المواجهة المبرحة

---

(١) وجد المرابطون في بعض المسيحيين واليهود عناصر خطيرة على سلامة جيشهم ووجودهم ببلاد الأندلس ، فطردوهم منها ، وكان في هذا الطرد حجة عليهم أمام أعدائهم ، فاتهمهم بضيق الأفق والجهل والتعصب الديني .

متوقعة بين جنود الإسلام في البلاد البعيدة عن بلاد المسلمين ، وبين أعدائهم في البلاد القريبة من أما كن النجيدات المسيحية .

وفي كل الأوقات كان للرابطون يخضعون لعوامل الإغراء المؤثرة في بلاد النعيم حتى لم يطل بهم العهد هناك أقوياء ، ولم يعيشوا بالأندلس أكثر من ستين عاما كانوا يحاولون فيها أن يكونوا وحدة دفاع رئيسية ضد الأخطار المؤكدة التي كان يتعرض لها المسفون بهذه البلاد ، وإذا كان الخطر عليهم كبيراً في أرض الأندلس فإنه كان أشد عنفاً عليهم في إفريقيا نفسها ، فقد هاجمهم الموحدون هناك وغلبوهم وجاءوا بعدم ليؤدوا واجب الدفاع عن قضية الإسلام في بلاد الأندلس ، واتصروا على الجيوش المسيحية القادمة من أسبانيا ومن كل أوروبا في موقعة الأرك المعروفة سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٥ م وحفظوا بذلك حق المسلمين في الحياة ببلاد الأندلس الباقية ، ولكن انتصارهم لم يبعد خطر أعدائهم عنهم بل زادهم حماساً ورغبة في الإتيان من جديد .

واجتمع ملوك قشتالة وأراجون ونافاروليون والبرتغال ضد الموحدين وانضم إليهم جنود من النورمان والفرنسيين والإيطاليين والألمان والبريطانيين وغيرهم وحاربوا المسلمين في موقعة العقاب فهزمهم سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وكانت هزيمة الموحدين في هذه الموقعة خطراً داهياً على كيانهم ووجودهم ببلاد الأندلس ، وجاءت هذه الحرب الصليبية الصريحة في وقت كانت تشتعل فيه الحروب الصليبية المعروفة في الشرق العربي .

وصحيح أن الموحدين حكموا الأندلس من إفريقيا البعيدة حتى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، ولكنهم بعد هزيمتهم السريعة أمام الأوربيين والأسبان

عاشوا في خوف مزعج وترقبوا الأخطار في كل الأوقات، وظلوا هناك أشبه  
بقوة حراسة تقاوم في يأس لتؤجل ساعات الخطر الأخيرة، ويظهر أن أوروبا  
كلها في ذلك الوقت كانت ترى قضية الحرب ضد المسلمين في الشرق والغرب  
قضية حياة أو موت فكانت تعمل تحت تأثير الاحتماد المؤسفة ، أو تحت  
تأثير التعصب الهعجبي ضد المسلمين في كل مكان .

ولم يسكن وجود المرابطين والموحدين بعدم بالأندلس يعني أنهم كانوا  
قادرين في كل أوقاتهم على الدفاع عن حقوق المسلمين بهذه البلاد ، أو أن  
الخط الجغرافي الفاصل بين الحدود السياسية لبلاد المسلمين وغير بلاد المسلمين  
كان ثابتا طول فترة نفوذهم هناك لأن الإلحاح بالضغط على الأندلسيين ظل قائما  
وخطيرا، فسقطت بلادهم واحدة بعد الأخرى في يد أعدائهم وكان منها : مرسطة  
سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، وبطليوس سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، وقرطبة سنة ٦٣٣ هـ /  
١٢٣٦ م ، وبلنسية سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ومرسية سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م ،  
وإشبيلية سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، وفي نصف القرن السابع الهجري سقطت  
كل البلاد الأندلسية الشرقية والوسطى ، ولم يبق للمسلمين بالأندلس إلا مملكة  
غرناطة في الجنوب الشرقي ، وقد عاشت هذه المملكة العربية الباسلة وسط  
الأعاصير والأخطار خمسين ومائتي سنة ، وإذا كان بقاؤها يعتبر دليلا واضحا  
على قوة الوجود الإسلامي واستقراره بالأندلس ، وعلى أصالة هذا الوجود وتفوقه  
وعظمته فقد كان من أسباب ذلك تجمع عناصر المقاومة العربية الممتازة بها ،  
وحرص سكانها على الصمود ومقاومة الأعداء حتى النهاية ، ثم تأييد الدولة  
المربنية الإفريقية لها في أوقاتها الحرجة .



وفي القرن المشار إليه سنة (١٢٣٠٠م) اتحدت مملكتا قشتالة وليون ، وأصبحت الأولى أعظم الممالك المسيحية الإسبانية وأوسعها وأغناها ، وخضع الأسبان لثلاث ممالك قوية هي :

( أ ) قشتالة . ( ب ) وأراجون . ( ج ) والبرتغال .

وكانت كلها تعمل لتحقيق غاياتها الدينية والقومية ، وقد تبلورت أهدافها بوضوح وصراحة في طرد المسلمين من البلاد كلها وكان هذا أهم الآمال التي شغلت كل سكان أسبانيا المسيحيين منذ قرون طويلة .

وشعرت قشتالة القوية أن أمامها الفرصة الأخيرة لتضرب أعداءها حتى الموت وبدا ملكها فرديناند الثالث في ذروة القوة والسلطان ، وكان بلاد المسلمين الباقية أصبحت كلها تحت حمايته ، وبعد موته سنة ١٢٥٢ م اجتمعت جيوش الممالك المسيحية لتقابل جنود الدولة المرينية المؤيدة لغرناطة وتهمزهم منه ١٣٤٠ / ٥٧٤١ م .

وكانت مملكة أراجون تنافس قشتالة في حرب المسلمين وطردهم من بلادهم فكانوا يهاجرون إلى إفريقيا الشمالية أو إلى غرناطة في الجنوب أو كانوا يتحولون بالقسوة والعنف إلى مدجنين يعيشون مع أعدائهم في ضياع وذل .

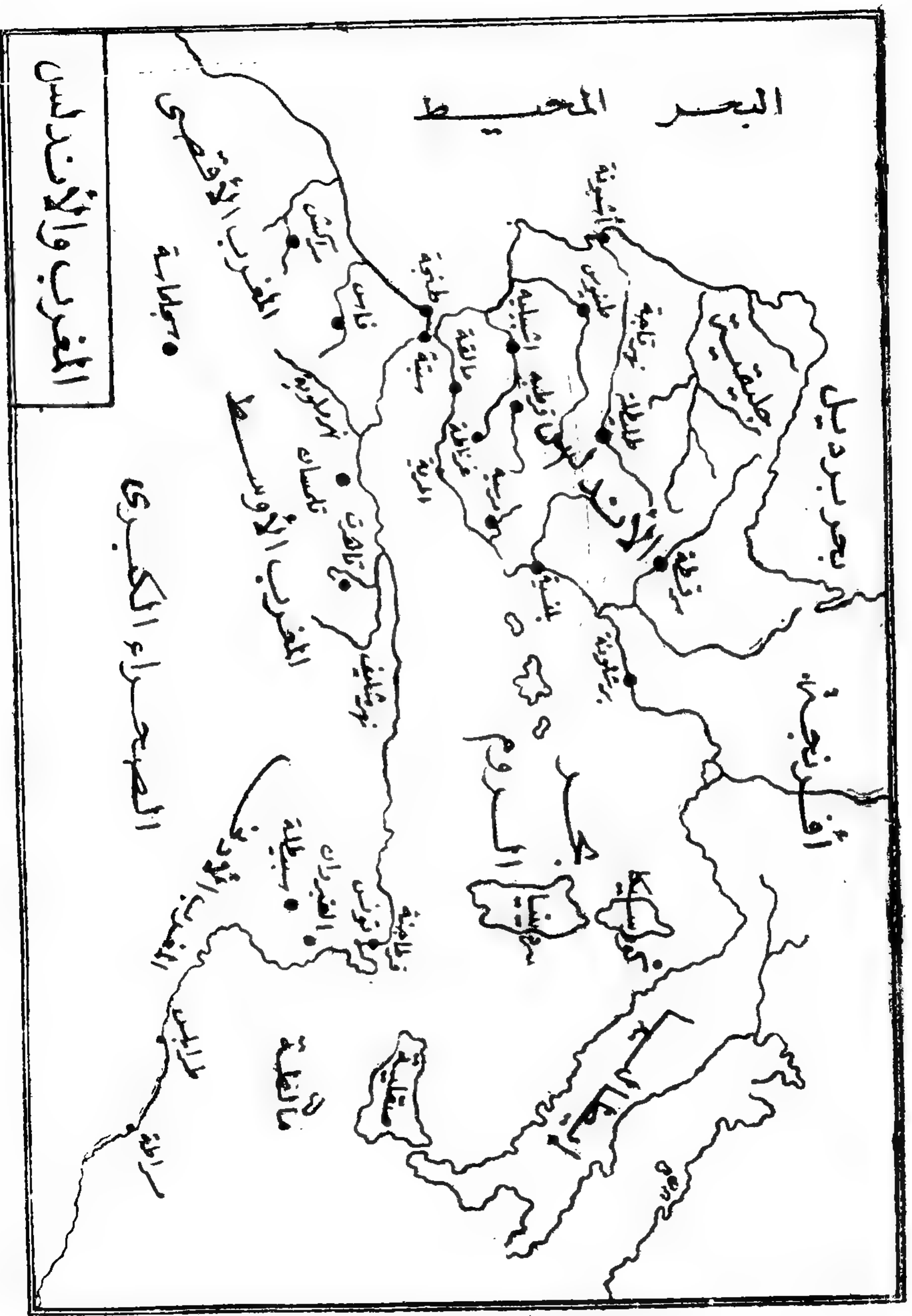
ثم اتحدت أسبانيا في القرن الخامس عشر سنة ١٤٦٩ / ٥٤١٨ م بعد أن أصبح فرديناند الخامس ملك أراجون زوجاً لإيزابيلا ملكة قشتالة ، وابتدأ أعداء المسلمين يحاربونهم تحت رئاسة واحدة وقوة واحدة متفوقة ، وكان المكان المشار اليهما يخضعان لتأثير الاتحاد القومي والديني ، ويظهر أن كأنهما كان

من رجال الدين المتعصبين ، فأعلننا الهجوم على ما بقي من أرض المسلمين في  
غرناطة سنة ٨٨٧ / ١٤٨٢ م ، ولم تكن شجاعة المقاتلين بها كافية أمام قوة  
أعدائهم المتفوقة ، ثم أسر القشتاليون أبا عبد الله محمد بن أبي الحسن ملك غرناطة  
سنة ٨٨٨ / ١٤٨٣ م ، وحكم بعده همه فظل يقاوم أعداءه ببطولة الشجعان  
ولكن البلاد كانت قد تقسمت في أشد أوقات الخطر إلى حزبين كبيرين يؤيد  
أحدهما الملك الأسير ويسمى لدى أعدائه ليفسكوا أمره ولو كان ثمن ذلك بأن  
يحمل الملك لحسابهم في بلاده .

ثم ألح القشتاليون بالحرب على سكان غرناطة فدافعوا عن أنفسهم حتى  
النهاية وأخيرا رجع الملك الأسير إلى بلاده ليحارب بها عمه وليعمل باسم أعدائه  
فيها وانتشرت الحروب الأهلية بين المتخاصمين على عرش المملكة البائسة  
وزادت الفتن ، ولم تنفع شجاعة الشجعان في الدفاع عنها فسقطت البلاد كلها  
سنة ٨٩٨ / ١٤٩٢ م وكان في هذا السقوط نهاية المراحل الحاسمة في حركة  
الاسترداد الطويلة .

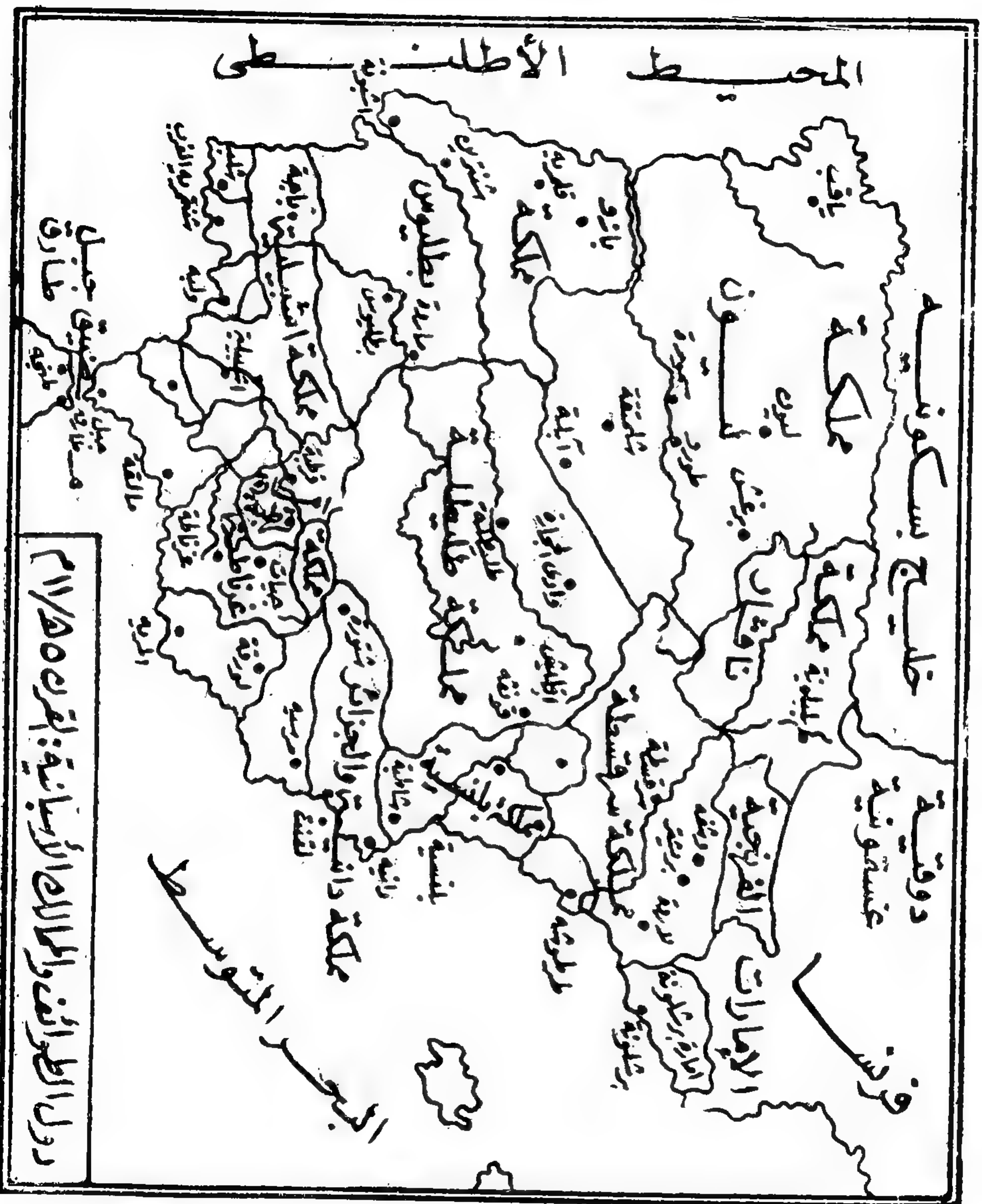


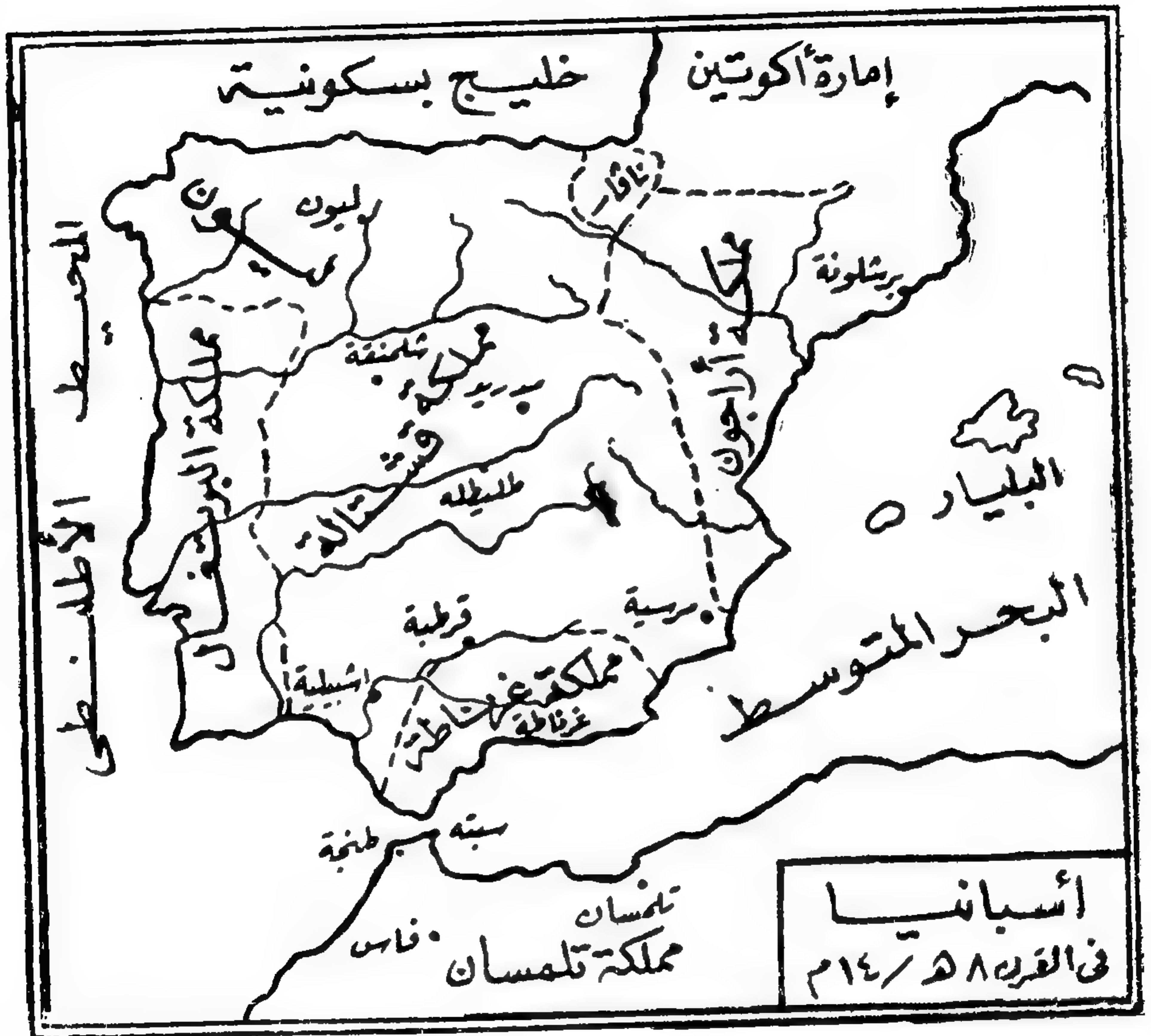




المغرب والأندلس

الصحرى وراء الكبرى









## مراجع الكتاب

(أ) العربية

(ب) الأجنبية





## (١) المراجع العربية

١ - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاة) :

التسكلة لكتاب الصلاة  
ملريد ١٨٨٩ م

٢ - ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد الشيباني) :

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة القاهرة ١٢٨٠ هـ /

١٨٦٣ م

(ب) الكامل في التاريخ د ١٣٠٣ هـ /

١٨٨٥ م

٣ - د. أحمد لطفي عبد البديع:

الإسلام في أسبانيا

القاهرة ١٩٥٨ م

٤ - أرنوا. (سيرت. و. م.):

الدعوة إلى الإسلام: ترجمة د. حسن إبراهيم

القاهرة ١٩٤٧ م

٥ - د. السيد عبد العزيز سالم:

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس بيروت ١٩٦٢ م

(ب) المغرب الكبير (العصر الإسلامي)

الاسكندرية ١٩٦٦ م

٦ — بالنبيا (أنخل جوثالث) :

تاريخ الفكر الأندلسي : ترجمة د. مؤنس القاهرة ١٩٥٥ م

٧ — بروفنسال (ل. ل.) :

الإسلام في المغرب والأندلس : ترجمة د. سالم القاهرة ١٩٥٨ م

٨ — ابن بسام (أبو الحسن على الشتربيني) :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القاهرة ١٩٣٩ —

١٩٤٥ م .

٩ — ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) :

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس القاهرة ١٩٥٥ م

١٠ — البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي) :

المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب القاهرة ١٩١١ م

١١ — البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى) :

فتوح البلدان القاهرة ١٩٥٦ م

١٢ — ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد القرطبي) :

جمهرة أنساب العرب القاهرة ١٣٦٨ هـ /

١٩٤٨ م .

١٣ — د. حسن أحمد محمود :

قيام دولة المرابطين القاهرة ١٩٥٧ م

١٤ — د. حسين مؤنس :

(١) فتح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧ م

- (ب) فجر الأندلس  
القاهرة ١٩٥٩ م
- ١٥ — الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) :  
جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس القاهرة ١٣٧١ هـ
- ١٦ — الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد النعم) :  
الروض المطار في خبر الأقطار القاهرة ١٩٤٨ م
- ١٧ — ابن حيان (حيان بن خلف) :  
للمقتبس في تاريخ رجال الأندلس باريس ١٩٣٧ م
- ١٨ — ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد) :  
فلأند العتيان ..... القاهرة ١٣٢٠
- ١٩ — الخشنى (الحارث بن أسد) :  
تاريخ قضاة قرطبة مدريد ١٩١٤ م
- ٢٠ — ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله) :  
(١) أعمال الأعلام ..... بيروت ١٩٥٦ م
- (ب) الإحاطة في تاريخ غرناطة القاهرة ١٩٥٦ م
- ٢١ — ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن ولى الدين) :  
كتاب العبر ..... القاهرة ١٢٨٤
- ١٨٦٧ م



٢٢ - ابن خلكان (القاضي أبو العباس شمس الدين) :

القاهرة ١٩٤٨ م

وفيات الأعيان . . . . .

٢٣ - دوزي (رينهارت) :

تاريخ مسلمي أسبانيا ج ١ ترجمة د. حشيش

القاهرة ١٣٨٢ هـ

١٩٦٣ م /

٢٤ - ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم القيرواني) .

تونس ١٢٨٦ هـ

كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس

١٨٦٩ م /

٢٥ - د. سعد زغلول عبد الحميد :

القاهرة ١٩٦٥ م

تاريخ المغرب العربي

٢٦ - ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) :

القاهرة ١٩٥٣

المغرب في حلي المغرب

١٩٥٥ م -

٢٧ - البلاوي (أحمد بن خالد الناصري) :

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى

القاهرة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م

٢٨ - شكيب أرسلان :

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية القاهرة ١٩٣٦ م

٢٩ - صاعد ( أبو القاسم بن أحمد الطليطلي ) :

طبقات الأمم

بيروت ١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م

٣٠ - الضبي ( أبو جعفر أحمد بن يحيى ) :

بنية المتنس في تاريخ رجال الأندلس

القاهرة ١٩٥٥ م

٣١ - الطبري ( أبو جعفر محمد بن جرير ) :

تاريخ الرسل والملوك

القاهرة ١٩٣٩ م

٣٢ - ابن عبد الحكم ( أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المصري ) :

فتوح مصر والمغرب والأندلس

ليدن ١٩٢٠ م

٣٣ - المدوي ( د . إبراهيم أحمد ) :

موسى بن نصير . . .

القاهرة ١٩٦٧ م

٣٤ - ابن عذاري ( أبو عبد الله محمد المراكشي ) :

البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب

ليدن ١٨٤٨ - ١٨٤٩ م

٣٥ - عنان ( محمد عبد الله ) :

! - الآثار الأندلسية

القاهرة ١٩٥٦ م

ب - دول الطوائف

١٩٦٠ / ١٣٨٠ هـ م

ج - نهاية الأندلس

١٩٤٩ / ١٣٦٨ هـ م

٣٦ - ابن الفرضى (عبد الله بن محمد) :

مطريد ١٨٩٠ - ١٨٩١ م

تاريخ علماء الأندلس

٣٧ - فلهوزن (جوليوس) :

تاريخ الدولة العربية . . .

ترجمة د. أبوريبة القاهرة ١٩٥٨ م

٣٨ - ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)

مطريد ١٨٦٨ م

تاريخ افتتاح الأندلس

٣٩ - الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) :

بيروت ١٩٠٨ م

كتاب الولاية والقضاة

٤٠ - المالكي (أبو عبد الله بن أبي عبد الله) :

القاهرة ١٩٥١

رياض النفوس

٤١ - مجهول :

أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس (نشرة لافوينتى

مطريد ١٨٦٧ م

إلى الكنترا)

٤٢ - أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) :

القاهرة ١٩٢٨ م

النجوم الزاهرة

٤٣ - المراكشى (عبد الواحد بن علي) :

القاهرة ١٩٤٨ م

المعجب في تلخيص أخبار المغرب




- ٤٤ - المقدسى (شمس الدين بن أحمد) :  
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ليدن ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م
- ٤٥ - المقرئ (أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) :  
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب القاهرة ١٩٤٩ م
- ٤٦ - الناصرى (أحمد بن خالد) :  
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى المغرب ١٩٥٤ م
- ٤٧ - النباهى (أبو الحسن بن عبدالله) :  
تاريخ قضاة الأندلس القاهرة ١٩٤٨ م
- ٤٨ - هيكل (د. أحمد عبدالمقصود) :  
الأدب الأندلسى القاهرة ١٩٧٠ م
- ٤٩ - ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى) :  
معجم البلدان القاهرة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م
- ٥٠ - يوسف أشباخ :  
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة : عبدالله هنان القاهرة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م
- ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م



( ب ) المراجع الأجنبية

- (1) Altamera :  
Spain (1031—1248), Cambridge Medieval History, vol. vl, Chapter, XII.
- (2) Gayangos, p. :  
The History of Muhammedan Dynasties in Spain, London, 1840—43.
- (3) Gibbon, E. :  
The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1911.
- (4) Haskins, G. Homer :  
Studies in the History of Mediaeval Science, 2nd edition, 1927.
- (5) Hitti, Ph. k. :  
History of the Arabs, London, 1940.
- (6) Irving, Washington :  
Legends of the Conquest of Spain,
- (7) Lea, H. ch. :  
History of the Moriscos of Spain, London, 1901.
- (8) Lewis, B. :  
The Arabs in History, Chapter, VII, London, 1958.
- (9) Murphy :  
Mohammedan Empire in Spain.
- (10) Nicholson, R. A. :  
A Literary History of the Arabs, London, 1907.



- 
- (11) Pidal, M. :  
The Cid and his Spain, London, 1934.
- (12) Scott, s.p. :  
History of the Moorish Empire in Europe,  
London, 1904.
- (13) Stevenson, W.B. :  
The First Crusade : Cambridge Medieval His-  
tory, vol. v, Chapter VII.
- (14) Wells, H.G. :  
A Short History of the World, (Thinkers's  
Library, 1948.)